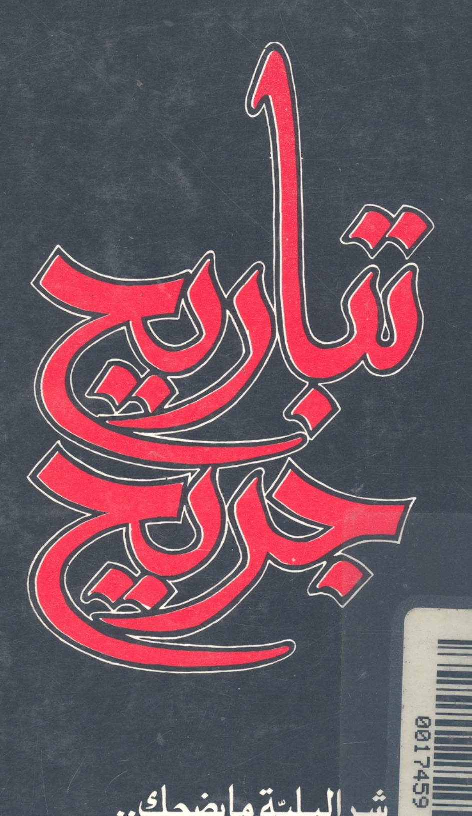
صلاح عيسى



شر البليّة ما يضحك..
أوجع الضحكات ما ينتهي بالدموع!


تاریخ جدید

□ صلاح عيسى : تباريح جريح
□ الطبعة الأولى : ١٩٨٨ .
□ الغلاف والخطوط الداخلية : الفنان « حامد العويضي » .
□ الناشر : مكتبة مدبولي ـ القاهرة .

صـــلاح عـيـسى



شر البلية ما يضحك..
وأوجع الضحكات ما ينتهي بالدموع!

مكتبة مدبولى
٦ - ميدان طلعت حرب - القاهرة

بيان من الحناظلة العرب

مع أن كل الأنباء فى كوكبنا هذا ، وفى زماننا هذا ، وفى أمتنا هذه ، أصبحت قابلة للتصديق ، فقد كنت متيقناً فى البداية أن الخبر مجرد كابوس جثم على أنفاسى . .هززت رأسى بقوة ، لكى أطرده عنى ، لكنه ظل مقيماً لا يريم . شبكت ذراعىّ خلف ظهرى . رفعت كتفىّ ـ كما يفعل « حنظلة » دائماً ـ ووقفت مثله أقرأ ـ ما بدا لى ساعتها أنه صحيفة ـ عنوان الخبر : إطلاق الرصاص على رأس « ناجى العلى » فى لندن !

تحسست رأسى . لم أجد دماً . قلت : صحف كاذبة تصدر فى زمن كاذب : من ذا الذى يستطيع أن يطلق النار على أشعة الشمس ؟ من ذا الذى يجسر على اغتيال نسمات الصبح ؟. ومن أين تأتى لأحد القدرة على اقتناص أَلَقْ الفرحة فى العيون ، واصطياد حبات الندى وهى تعبر المسافة بين السحابة وخفقة القلب : دافئة كدمعة المحزون ، حارة كضحكة المتخم بالهموم .

لا بد أن الذى حدث رسم من رسوم « ناجى العلى » . . ولا بد أن

« حنظلة » يقرأ ـ باستهانة وسخرية ـ خبر محاولة اغتياله مخطوطاً على جدران الأمة الآيلة للسقوط ، كما قرأ يوماً ذلك الإعلان الذى تتوسط صورته ، وتحتها : مطلوب حياً أو ميتاً . . لكننا ـ نحن الحناظلة العرب ـ كنا نقف معه لحظتها ، نقرأ الإعلان ونضحك ، لأننا ـ كالرمل كثيرون ، وكأشعة الشمس نولد كل فجر ، وكضوء القمر نطلع فى الظلام ، وكأجنحة الفراشات ، وسطح البحر ، وبحر الرملْ ، نمتد بلا انتهاء . . فمن ذا يجسر على أن يدركنا أحياء ، ومن ذا يتخيل أنه يستطيع أن يدركنا أمواتاً وهو حى !

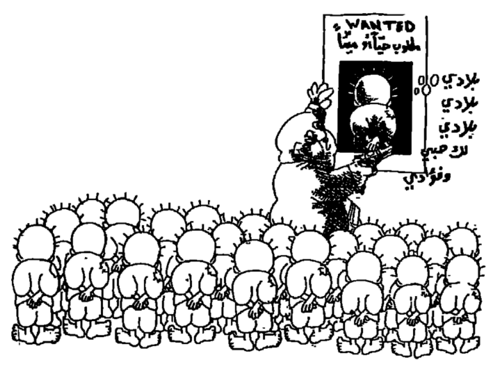
حين تيقنت أن الخبر جدٌّ لا كابوس ، وحقيقة وليس وهماً من أوهام سنوات المرارة والكمد ، أحسست بلزوجة الدم على جبهتى ، وحرارة الدمع على وجنتى ، ضمدتها تلك الضمادات الكثيرة التى تنتشر على وجه أبطال رسومه : رمز لعالم القسوة والإغتصاب والعدوان والاستضعاف . أما والخبر صحيح فمعنى ذلك أن المؤامرة قد تمت فصولاً ، فلم يبق إلاَّ « الضمير » ، لذلك حاولوا اغتيال « حنظلة » : براءتنا التى تقاوم التلوث ، وطُهرْنا الذى يرفض الدَّنس ، وأملنا الذى لا يتنازل عن المستحيل ، لأن هذا المستحيل هو ـ ببساطة الفطرة ـ حقنا ، تشهد بذلك أقدامه الحافية ، وملابسه المرقعة ، وجوعه الذى لا يشبع للحرية والعدل ، وأحضانه المشوقة إلى دفء الأمومة ، وبصيرته النافذة إلى حجب الغيب تتعلق بأول أشعة الشمس القادم من الظلام . .

وذات يوم كتب « طلال سلمان » أن ناجى العلى هو الاسم الحركى لفلسطين، وقبل ذلك ـ وبعده ـ كانت فلسطين هى الإسم الحركى لكل الجراح التى تأبى أن تنام أو تندمل ، وتستعصى على الموت . لذلك

أصبح ـ كما يقول محمود درويش ـ « كل الفقراء والمظلومين والمسحوقين والمحاصرين ، والمستقبل ، والثورة ، كلهم فلسطينيون » . .

وحول رايتها التف كل الحناظلة العرب فى أربعة أركان الأمة ، وأربعة أنحاء المعمورة ، يهتفون : بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى . فصَوَّروهم ، وعلقوا صورتهم على جدار منهار ، وكتبوا فوقها : مطلوب حياً أو ميتاً . ومن عجب أن أصواتهم ـ رغم الجوع لم تفقد حماسها ، وأنهم وقفوا ينظرون إلى الإعلان ، ويقرأونه ، كأن المطلوب ليسوا هم .

ولم يكن قد مضى على رحيل « ناجى العلى » من قريته فى الجليل الشمالى إلى مخيم « عين الحلوة » ـ فى جنوب لبنان ـ سوى أقل من خمس سنوات ، حين قرأت تلك القصة من قصص النكبة ، وما أكثر القصص التى تزدحم بها ملفاتها : ترك لنا الأجداد « ألف ليلة وليلة » فأضفنا إليها « ألف نكبة ونكبة » و « ألف نكسة ونكسة » ، فاضحك يا « حنظلة » رغم أوامر الأطباء ، قلبي يتوقك ضاحكاً ضحكتك



المريرة ، واعطني الرصاصة التي عبرت رأسك ، لأنه لا بد وأن يبقى ، وإلاّ كان معنى ذلك أنهم اغتالوا فى وضح النهار ضميرنا . .

أما تلك القصة من كتاب « ألف نكبة ونكبة » فبطلتها امرأة من « يافا » خرجت ذات يوم من أيام الهول تبحث عن مفر . . كان الغزاة قد طبقوا على المدينة تكتيك حصار حدوة الحصان ، فاحاطوا بها من ثلاث جهات . . يطلقون النار على كل شيء حيّ ، فلا يبقى إلاّ الفرار . . وخطفت تلك المرأة من يافا ما استطاعته من متاع خفيف ، وكومت طفلتها النائمة على الفراش فى أغطيتها ، واندفعت تجرى أمام الهول ، وهو يعدو فى إثرها : طلقات رصاص طائش تصيب الذين يحاولون الخروج عن النص المرسوم ، أو عن طريق الخروج من فلسطين ، لا العودة إليها ، وتصيب الذين يتباطأون فى العَدْو ، فيتعثر فيهم الذين اتخذوا أماكن خلفهم فى الطابور . . والكل يجرى . . وحين عبرت المرأة ، « جسر ألنبى » ، وأتيح لها لأول مرّة ، أن تتوقف عن العدو ، وأن تتنبه إلى ما هى فيه ، اكتشفت أن ما بين احضانها ليس طفلتها الرضيعة ، لكنها الوسادة . .

وكان طريق العودة إلى يافا قد أصبح مسدوداً . .

عشت أحلم أن يوماً سيأتي ، أزور فيه يافا . . أبحث عن قبر الشيخ عز الدين القسام ، أسأله عن تلك الطفلة التى أصبحت اليوم فى الأربعين ـ عمر النكبة ـ وكلما رأيت « حنظلة » ، الذى طردوه من قرية « الشجرة » إلى « عين الحلوة » ، أدركت أن حلمى ليس مستحيلاً . .

لذلك شددت الرحال وراء حنظلة ، فى كل الصحف ، التى تنقل بينها « ناجى العلى » ، فإذا اختفى ـ أو اختفت ـ رأيته دائماً : فى الأنهار

والأشجار ، وفى العصافير والفراشات ، فى قلب الليل المُدْلهِمّ وفى زغرودة الفرح الحزين ، فى فرح اللقيا ، وحرارة دمعة الوداع . .

ويوم حددت موعداً نهائياً أضرب فيه عن الطعام حتى الموت أو أعود إلى عملى الصحفى فى جريدة « الجمهورية » ـ وكنت قد فصلت منه عشر سنوات كاملة ، بسبب آرائى السياسية ـ فوجئت بـ« حنظلة » يتضامن معى على البعد ، ودون أن نلتقى ـ وهو ما لم يحدث ولم يعد ممكناً أن يحدث ـ ولم أستطع أن أقرأ مشاعرى بصوت عال . . لكن صديقاً لى ، قال :

ـ لقد اسعدنى تضامن ناجى العلى معك . . شعرت بالدفء ، وبأننا لسنا وحدنا !

لحظتها أدركت لماذا تعلقت عيونى به بين زحام البشر ، وفهمت من جديد ، مقولة « محمود درويش » ، أنه ـ ناجى ـ « لم يحمل العذاب من حادثة ، ولم يحمل الجرح من واقعه ، مفتوح على الساعات القادمة ، وعلى دبيب النمل ، وعلى أنين الأرض ، يجلس فى سر الحرب . . وفى علاقات الخبز » !

وكنت قد ولدت مع « ناجي » في العام نفسه ، وربما في تاريخ مقارب للتاريخ الذي بدأ يرسم فيه ، بدأت اكتب هذه التباريح ، وانثرها هنا وهناك : أنسجها من خيوط متعددة الأطوال والألوان ، تتداخل أزمانها فتجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتخلط شيء من السياسة ببعض من الفكر ، بنماذج من البشر ، بشظايا من الذكريات ، بِنَتفٍ من القهقهات ، وسحابات من الدموع والأوجاع ، تصب ـ كأنابيب الألوان ـ على الصفحات ، فإذا الحصاد : مرارة مُرَّة ، وكثير من الغضب ، واحتجاج



بمساحة العمر . . وحزن بعمق الجراح الطرية التي ما زالت تستعصي على الأندمال . . كنت ـ وما زلت ـ اعلق فأسها جميعاً في رقبة الذين طاروا بأشواق جيلنا الى ذرى الجبال ، ثم ألقوا بها بقسوة جلفة إلى جُبِّ الهزيمة والانكسار .

وكان الرصاص قد أطلق على رأس ناجى العلى فى الوقت نفسه الذى كان مخطوط هذا الكتاب جاهزاً للطبع ، فاستردته ، وقرأته ، فإذا بي اكتشف لحظتها فقط ، أنه أحد بيانات « الحناظلة العرب » ، وأن ناجي العلى ـ وَجَعُنا الذي لن يطيب . . وضحكتنا التي لن تغيض ـ هو أحق الناس بأن أهديه إليه . .

وها أنذا أفعل !

صلاح عيسى

القاهرة ـ مدينة الصحفيين ـ ٥ أغسطس ١٩٨٧

ثلاثية الأيام

الثقافة الحقيقية تعيش فى كل العصور ، وتصلح لكل الأزمان ، والكتب التى تبلور تجربة انسانية صالحة للقراءة فى خنادق الجنود ، وبجوار أعمدة المساجد وفى هياكل الكنائس ، وأيضاً فى الحدائق والمنتزهات .

وثلاثية « الأيام » التى كتبها « طه حسين » من هذه الكتب ، فهى ليست فقط نصاً أدبياً بالغ الشفافية والشاعرية ، وليست أول وأصدق سيرة ذاتية فى أدبنا العربى كله فحسب ، إنها فوق هذا كله وثيقة اجتماعية بالغة الثراء ، عميقة الفهم . فلا مبالغة إذن فى القول بأننا لا نستطيع أن نفهم الربع الأول من هذا القرن فهماً متكاملاً ـ في ظواهره السياسية والاجتماعية وحياته الفكرية والأدبية ـ إذا لم نقرأ « الأيام » .

وكثيرون من خصوم « طه حسين » ـ وحتى بعض أصدقائه ـ يحاولون أن يفهموا شخصيته بالتأكيد على تفرده . . فهو عند الخصوم مفكر مشاغب ـ وهو مصطلح يصف به المحافظون الثوار ـ ينطلق من عجز

فسيولوجى قادته محاولته لتعويضه إلى مخالفة المألوف ، والتصدى للمتعارف عليه من الأفكار والتقاليد والقيم . وهو عند الأصدقاء عبقرية فردية صنعت نفسها بنفسها ، لا علاقة للزمان ولا للمكان بتشكيلها ، فما فعلته كان نوعاً من ـ التسامى ـ والصعود فوق العجز .

وفى هذا وذاك خطأ كبير وبعض صدق ولكن الأكثر صحة أن هذا العجز لم يكن هو العامل الحاسم فى تحديد حجم الدور الذى أداه ، وإنما كان الرجل ابناً لعصره المصرى ومحصلة لتناقضاته ، إنه ليس نبتة برية وليس مشكلة نفسية فوق الماضى والمستقبل . . وحجم الدور الذى أداه كان عظيماً لأنه وظف مواهبه العقلية ـ التى لا ينكرها أحد ـ فى خدمة التيار الصاعد فى حركة المجتمع ، تيار المستقبل .

وحتى من حيث التقسيم الموضوعي فإن ثلاثية الأيام تتكامل حلقاتها لتصف حقباً متكاملة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعي . فجزؤها الأول ـ وقد كتبه في أوائل الثلاثينات ـ يتناول العقد الأخير من القرن الماضي ، فيصف مصر المحتلة التى اجهضت أحلامها فى الاستقلال والديمقراطية ، تعيش فى أسار الفقر والتخلف والجوع والخرافات ـ ويصف الجزء الثانى ـ وقد كتب عام ١٩٣٩ ـ السنوات العشر الأولى من القرن ؛ هذه سنوات اليقظة والفهم والشغب : محمد عبده ومصطفى كامل ولطفي السيد وعبد العزيز جاويش ، نقد الماضى شديد ، الجرأة في مواجهة الموروث من الأفكار والمعتقدات عنيفة ـ في الجزء الثالث والأخير ـ كتب عام ١٩٥٥ ـ نرى مصر فى سنوات الحرب الأولى بكل ما اثقلتها به هذه السنوات من اعباء وحركت فيها من تناقضات تفجرت فى يقظة عارمة عام ١٩١٩ ، تستقيم بها خطوات مصر فى طريق التحرر

والديمقراطية ، تلك مرحلة يستوى فيها « طه حسين » ناضجاً ، فيبدأ في ممارسة دوره العام محتشداً له بكل تأثيرات المراحل السابقة من عمره .

كان إجهاض الثورة العرابية اجهاضاً ليقظة عارمة فى الفكر والسياسة والاجتماع فخفتت إلى حين أحلام وزارة « البارودى » فى نشر التعليم وتخليص اقتصاد مصر من التبعية للسوق الامبريالية ، ودعوات النديم وفتحى زغلول إلى تصنيع البلاد ، ومزق دستور ١٨٨٢ ، وتغير البناء الاقتصادى لمصر ، فطوع لتكون مستعمرة ، عليها أن تزرع لا أن تصنع ، وأن تتلقن لا أن تفكر ، وأن تسمع لا أن تتكلم .

وفي قرى الريف ، واصلت الخرافات انتشارها وسيطرتها كجزء من ايديولوجية المستعمرين وحلفائهم ، وفى ظلها عاش طفولته ، يستمع إلى قصص العفاريت والجان ، وأساطير أبو زيد الهلالى واخبار عنترة والظاهر بيبرس ويتجول فى حلقات الذكر ويتابع أهل الطريق حتى حفظ وهو فى التاسعة « كثيراً من الأغانى وكثيراً من التعديد وكثيراً من جد القصص وهزله » ، وبعكس ما هو حادث فى أى بلد متقدم حيث تؤدى هذه القصص وأمثالها إلى توسيع خيال الأطفال ، فإنها كانت فى مصر عملية تعويض نفسى عن العجز المصرى ككل ، واستنامة فعلية للقهر الاستعمارى ، ذلك أن الأطفال لم يكونوا وحدهم الذين يصدقونها ولكن الكبار أيضاً !

وكان ينتمى إلى واحدة من الأسر التى نسميها « مستورة » ويسميها علماء الاجتماع « برجوازية صغيرة » : قوم يأكلون لا إلى حد التخمة ، ولكن قبل الشبع ببرهة وجيزة فيتيح لهم هذا أن يخرجوا من ذواتهم ليفكروا فى أمر العالم حولهم ، كان أبوه موظفاً صغيراً فى معمل السكر

عمره أكثر من ضعف مرتبه ، كثير العيال لكنه بالدأب والاصرار والتضحية نجح فى أن يحرم نفسه ليعلم أولاده .

عاش طه حسين مراحل حياته الباكرة ، كما يعيش معظم ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، يعطيه أبوه مصروفاً بين الحين والآخر - وليس كل يوم - ويأكل يومياً ، ولكنه « ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلاّ لوناً واحداً يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء » أما مظهره فإن « العين تقتحمه اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم وفى نعليه الباليتين المرقعتين » وبسبب فقده لواحدة من حواسه - أى أداة من أدوات المعرفة - فإن العالم يقتحم وجدانه فى صورة خاصة ، تزيد خوفه وذعره ، وتجعل حياته حادة وتعطيه طابعاً خاصاً ، وتتيح له أن يغوص إلى أعماقه ، فهو يقضى الليل ينتظر عفريتاً من العفاريت الكثيرة التى كانت تعفر اقطار البيت ويخاف أشد الخوف « أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدته سداً ، وأخذت تأتى بحركات مختلفة أشبه بحركات المتصوفة فى حلقات الذكر » . ولأنه خائف جداً وعاجز أيضاً ، فهو يستغرق فى أحلام تعويض للعجز ، يستعين فيها بالقوى الخارقة ، يحلم بخاتم الملك . ذلك الذى سيأتيه يوماً فيعبر به قناة صغيرة أمام بيته ، ويدخل فى تجربة مضنية بحثاً عن عصا « حسن المصرى » . التى قال كتاب « ألف ليلة وليلة » أن فى خدمتها تسعاً من الجن الأقوياء ، ويمضى ليالى طويلة .يبخر ويردد « يا لطيف . . يا لطيف » لعل الخدم يظهرون ، ذلك شىء يشجعه عليه أبوه أيضاً فهو الآخر عاجز وخائف ، يضنيه الأمل فى درجة أو علاوة ، تعينه فى أمر العيال ، وتعدل الموازنة بين عمر الانسان ومرتبه ، ويبركه العجز - عجزه وعجز ابنه الضرير - قد تأتى عدية ياسين بالأمل المرتجى !

كانت القوى الخارقة هى حلم مصر كلها أيامها ، فهذه القوى وحدها القادرة على أن تتجاوز بمصر ما هى فيه : يأكل الناس ويلبسون ، ويذهب المستعمرون ، ويحلو وجه الحياة القبيح ، ويعيش أهل الطرق الصوفية فى وجد ، بأن يتعلموا دون جهد لا يعتبرون إلاّ العلم الصحيح ، وهو عندهم « العلم الدينى الذى يهبط على قلبك من عند الله دون أن يحتاج إلى كتاب بل دون أن تقرأ أو تكتب » .

وتجىء صداماته الأولى مع الجهل وليدة رغبته فى استكشاف العالم حوله ، فقد كان من « أول أمره كثير التطلع لا يحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلم وهو يعبر القناة الصغيرة أمام بيته بلا حاجة إلى خاتم الملك يحمله أحد أخوته ، ثم يكتشف أن عرضها لا يزيد عن ساقية من الانفراج فيقفزها .

وكما يكتشف الواقع المادى حوله فهو يكتشف أيضاً الواقع الاجتماعى من خلال حركته الفعلية ، ويضع يده على التناقض بين الأقوال والأفعال ، وعندما يصنف علماء قريته يضع يده على حقيقة مرة . فهذا شيخ من الشيوخ « كان الناس مجتمعين على أنه أكل أموال اليتامى وأثرى على حساب الضعفاء» ومع ذلك فقد « كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ هؤلاء بعض حملة كتاب الله ـ أى فقهاء القرى ـ يفسرون القرآن جهلاً وغباءً وإساءةً ، يسأل أحدهم يوماً عن معنى الآية الكريمة : ﴿ **وخلقناكم أطواراً** ﴾ فيجيب مطمئناً أي خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئاً . ويقسم شيخ الكتاب أمام أبيه كاذباً ، ويحلف بالطلاق ، وحتى الأب والأم يكذبان . ويشعر أن الحياة مملوءة بالظلم

والكذب » وأى فرق بين الأب الشيخ يقسم ويحنث وبين سيدنا يرسل الطلاق والإيمان إرسالاً وهو يعلم أنه كاذب ؟» .

وبسرعة يكتشف الرابطة بين كل هذا : أن عقلية أهل الريف التى يكونها أهل الطريق - ومعظمهم جهلة بالإسلام جهلاً مزرياً - هى عقلية تؤمن بالخرافة وليس بالدين ولا بالعلم - من هذا يستقر فى وجدانه أنه لا فرق بين المتصوف والساحر « أليس الصوفى يزعم لنفسه أنه يتعدى حدود القوانين الطبيعية ويأتى بضروب الخوارق والكرامات ، والساحر أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار - بالغيب وتجاوز حدود القوانين الطبيعية أيضاً » .

ويضع يده على موطن الداء « هناك فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها اثماً » . . بهذه الفلسفة الآثمة يفسر فقده للبصر ، « أصابهُ الرمد فأهمل أياماً ثم دعا الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيه . . وعلى هذا النحو فقدت أخت له الحياة » !

وفى الصراع ضد هذه الفلسفة الآثمة قضى « طه حسين » عمره ، وخاض معركته الباسلة ، معلياً شأن العلم والعقل ، واثقاً أن التغلب على العجز لا يكون بالتغرب إلى عالم لا يتصل بالواقع ، وإنما بالتعامل مع هذا الواقع وشحذ قواه للتغلب على الخوف والعجز والقهر .

وهو يصوغ فهمه هذا بوضوح فاستقلال الجماعات لا يهبط عليهم من السماء ولا يطلع عليهم من الأرض ، وإنما يكتسب اكتساباً ، وتبتغي إليه الوسائل ، وتسلك إليه السبل التى تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوى بهم حيناً آخر .

وفى الأزهر ، يعيش حياة شبيهة بما كان يعيشه فى قريته : يأكل

الفول النابت ليل نهار ، ويطارده الصبية القاهريون يسخرون من زيه هاتفين « يا مجَاور عِمَّتك دابت من الطرشي والفول النابت » ويساكن زملاءه في غرفات مكتظة يعيش في بعضها أكثر من عشرين طالباً من فقراء الفلاحين جاءوا يدرسون ويتعلمون ، يعيشون على خبز الجراية . مع أخلاط من العمال وصعاليك المدن .

لكن مغامرته الفكرية العظيمة تجيء من أنه أدرك الأزهر فى عصر كان التعليم فيه قد تخلف وتدهور بشكل جعله يراه شبيهاً بما كان يرى فى قريته ، وكانت المحاولة العُرابية الرائدة لتحويل الأزهر إلى مؤسسة جامعية ـ كما كان فى الأصل ـ يُنتخب شيخها الأكبر ومعاونوه ، قد فشلت ، وكان الشيخ « محمد عبده » الثائر العُرابي القديم قد عاد يقاتل بضراوة من أجل انقاذ هذه المؤسسة العظيمة من براثن الجهل والخرافة والرطانة الفارغة من أى محتوى ، ويضيق « طه حسين » ـ كما كان يضيق « محمد عبده » ـ بالكتب الأزهرية المليئة بالحواشي والتقارير و « العنعنات » ، ويذهله أن شيخاً من شيوخه يفخر بأن الله قد من عليه أنه يستطيع أن يتكلم ساعتين فلا يفهم أحد منه شيئاً ولا يفهم هو عن نفسه شيئاً . .

لكنه وسط كل هذا يكتشف طريقة ويتتلمذ على شيخ من بقايا ثوار العرابيين فى الأزهر . . هو الشيخ « سيد المرصفى » : هذا رجل كَلِفٌ بالحرية . شارك فى ثورة مصر الديمقراطية ودفع بعض الثمن ، واكتفى شأن الثوار الذين تنفذ طاقتهم بأن يورِّث الثورة للأجيال الجديدة ومنه يتعلم « طه حسين » الأدب ويكتب : « وما أعرف شيئاً يدفع النفوس الناشئة إلى الحرية والاسراف فيها احياناً كالأدب ، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفى يدرسه لتلاميذه . فقد حرر الشاعر أولاً . . والراوى ثانياً والشراح بعد ذلك » .

وتكثر مشاغبات « طه حسين » فى الأزهر : ينتقد الشيوخ ، ويكشف جهلهم ويتطاول على مقامهم ، ويصرح بآراء جريئة ويستدعيه شيخ الأزهر . فيوبخه ويقول له : ولكنكم تدرسون على « الشيخ المرصفى » كتاب الكامل للمبرد . وهو من المعتزلة ودرس كتابة إثم .

وإذن فهذا مربط الفرس إن شيوخ الأزهر يرفضون كل المد... العقلانية فى الفكر الإسلامى فلينف المعتزلة من الأزهر هؤلاء الذين ... أن الله لا يصدر عنه إلا ما هو فى مصلحة عباده ، والعقل هو المص...

ولقد كان ممكناً أن يستمر « طه حسين » فى الأزهر . غير أن ... كانت تتفرخ فى حناياه . فبعد هذه الحادثة لفت شيخ الأزهر ... المرصفى بألّا يدرس «المبرِّد». وذهب طلبته إليه يسخرون ... الذين يجهلون الإسلام ويسيئون إليه . فإذا بالشيخ ية

ـ لا . . لا . . . عاوزين ناكل عيش .

ويحزن طه حسين كما لم يحزن طول عمره منذ كان يبعثه الأزهر فى النفس من أحزان » إن الثوار يريدون ... . وإذن فعلى الدنيا العفاء . .

ولعل هذه الكلمة هى التى قادته بعد ذلك إلى الجامعة . لا ليأكل عيشاً ولكن ليتحرر من القهر والعجز والخوف أكثر ، وكان يدرك أن الجامعة هى قلعة لحرية العلم وحرية البحث كذلك كان الأزهر عندما كان جامعة . ويوماً يسألونه عن رأيه فى رسالة الدكتور « منصور فهمى » وكان قد اتهم فى دينه بسببها فقال فى غضب ساخر :

ـ كنت أظن أننى فى الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم فإذا أنا أرانى فى الأزهر لا أسأل عن رأى نفسى . وإنما أستفتى فى رأى غيرى من الناس .

فى الجامعة يتماسك ويتبلور فكره أكثر لكنه يدرك ـ على يد اساتذته المصريين الذين تعلموا فى أوروبا ـ أن ذلك لا يعنى فناءه فى العلم الأوروبى . وأن ثقافته الشرقية تضم عناصر أصيلة ينبغى أن يحافظ عليها وأن « يأتلف مزاجه ائتلافاً معتدلاً من علم الشرق . وعلم الغرب جميعاً » .

ويرحل إلى باريس يدرس كثيراً ويأكل قليلاً . ويتأثر إلى درجة كبيرة بالبروفسور (دور كيم) ويأخذ عنه التأثر بفكر السان سيمونيين الذى يعتمد سيطرة العلماء على مقدرات الشعوب لأنهم القادرون على المواءمة بين حاجات الناس وطاقاتهم ، وتسيطر عليه هذه الفكرة زمناً ـ فتقربه إلى « الأحرار الدستوريين » وتبعد به عن « الوفد » بحشده الجماهيرى لكنه سرعان ما يستقيم ويتكامل موقفاً وفكراً .

وتقوم الثورة وهو فى باريس ويجىء سعد زغلول إليها من منفاه حاملاً آمال مصر فى الحرية والتقدم ويلتقيان : اثنان من أرض مصر من قرية واحدة رغم تباين الأسماء . جاورا زمناً فى الأزهر وعملا فى الصحافة ردحاً من الزمن وعاشا بالقرب من زمن التنوير المصرى على تعقد خريطته .

بين الاثنين يدور حوار غريب . كان سعد حزيناً . خفتت أحلام الاستقلال وأوصد مؤتمر الصلح أبوابه أمام الوفد المصرى ، الذى سافر يحمل آماله فى ضمير العالم ويطلب تنفيذ مبادىء « ولسن » ، كشف ضمير العالم عن خدعة كبرى ويعرف « سعد زغلول » أن « طه حسين » يدرس التاريخ فيسأله :

ـ أو مؤمن أنت بصدق التاريخ من لهجة السؤال يرد « طه حسين »

بعلامة استفهام أخرى :

ـ لماذا اليأس والشعب قد استيقظ .

ويقول سعد زغلول بأسى بالغ :

ـ وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يثور على أصحاب القُوَّة واليأس .

ويؤكد « طه حسين » أن الشعب إذا كان اليوم أعزل فسيجد السلاح غداً . . فيسأله الزعيم :

ـ وأين يجده ؟! من يأتيه به وهم يحرسون الحدود .

وبسخرية مريرة يقول طه حسين :

ـ إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا الأسلحة . . ويغرق سعد فى الضحك . ويقول وهو ينهض :

ـ ألا تعلم أن الذين يسمحون بتهريب الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة .

ويفترق الرجلان العظيمان . وقد وضعا القضية فى وضعها الصحيح .

هذان رجلان كَلِفا بعلامات الاستفهام . وعذاب الانسان الباحث عن عالم النشوات العليا يبدأ بعلامة استفهام . ويتركان درسهما الكبير : فكروا . . ناقشوا . . استبدلوا الحشيش بالوعى . اهجروا علامات التنصيص . . واعشقوا علامات الاستفهام وعلامات التعجب ساعتها تمتلىء بالسلاح أيديكم .

(*) « الجمهورية » القاهرية فى ديسمبر ١٩٧٣ .

غضب الجيل الآتى ليس وهما

تونس العاصمة ، مدينة جميلة ، تجمع بين بياض القلوب والمبانى ، واخضرار العيون والروابى ، ولا يختلف ضباط الجوازات فى مطارها عن أمثالهم فى كل مطار عربى ، فهم يبتسمون لكل أوروبى . ويكشرون فى وجه كل عربى ، ويتشككون فى أى صحفى يستقبلونه ، ليس لأن الصحفيين لا يقولون الحقيقة ، بل لأنهم - أحياناً - يقولونها :

أما المناسبة التى انتزعتنى من مشاغلى ، فالقت بى إلى قلب تونس وعيونها . فكانت مؤتمراً عنوانه : « الغزو الثقافى الامبريالى الصهيونى للأمة العربية » . ولأننى كنت واثقاً أن المؤتمر سيكون مَكْلمة عربية من طراز فريد ، فقد اتخذت كافة الاحتياطات الضرورية لحماية رأسى من صداع المكلمات العربية ، فأعضاء المؤتمر ليسوا عرباً فقط ، ولكنهم مثقفون أيضاً ، صناعتهم التى يأكلون منها خبزاً - وأحياناً جاتوه - هى الكلام ، وهو ما يؤكد أننى مقبل على مكلمة من النوع الثقيل ، تتطلب قوة هرقل . . وصبر أيوب ونصف كيلو من الأسبرين !

بعد يوم واحد من وصولى إلى تونس ، كنت قد انغمست فى المكلمة بكل أذنى ، وبجزء من لسانى ، وتنازلت مختاراً عن خطة وقائية بديلة وضعتها ، لتذويب عناء الفصل والتحفظ فى روابي قرطاج ومياه المتوسط . ولم أتنبه - إلا وأنا أحزم حقائبى عائداً إلى القاهر - إلى أننى كنت معتقلاً ، لا أغادر الفندق إلاّ إلى قاعة المؤتمر ، ولا أتركها إلاّ لتناول الطعام ، وسواء كنت هنا أو هناك فأنا وغيرى نتكلم ، أو نستمع لمن يتكلم ، نتكلم فى جلسات المؤتمر ، وفى مدخل قاعة « ابن رشيق » التى تعقد فيها الجلسات ، حيث احتشد حولها مئات من طلاب الجامعة التونسية ، يقيمون - على قارعة الطريق - حلقات نقاش مع « الدكاترة » الذين دعوا إلى المؤتمر ، لا تترك صغيرة أو كبيرة إلاّ وطرحتها أرضاً بعلامات الاستفهام ، وعلامات التعجب ، جاءوا .. يتحاورون مع « عقل الأمة » القادم عبر نقاط الحدود المزدحمة بالمخافر وضباط الجوازات ، والمشتعلة بنيران الخلاف ومشاكل الأنظمة !

ولا شيء يمكن أن يغريك بالاندماج فى « مكلمه » إلاّ إذا اكتشفت - مثلى - أنك تتكلم مع عقل الأمة العربية بكل خلاياه وتروسه ومخزوناته ، بأجياله المتتابعة من « حسين مروة » اللبنانى الذى ولد قبل الحرب العالمية الأولى إلى « فاطمة محمود » الليبية التى ولدت بعد حرب ١٩٥٦ ، وبتياراته الفكرية المنفصلة المتشابكة والمتصارعة والمتشاكسة .

.. زحام من الأفكار والعقائد والآراء : قوميون عرب وقوميون اسلاميون ، ماركسيون بكل درجات الطيف .. لا منتمون .. ويائسون .. وعدميون .. وأنصار غرب مبهورون .. ولم يقتصر الأمر

على هؤلاء ، فقد احتل مئات من المثقفين التونسيين الشبان ، مقاعد القاعة وممراتها لا يملون من الوقوف ، ولا يكفون عن التدخل فى المناقشات . ولأنهم نموذج للجيل الآتى وارث مجد الأمة من « وعد بلفور » إلى « وعود كامب ديفيد » . فهم متحمسون ـ وهم قد ملوا دور المستمع ، لذلك تدافعوا يثبتون أن لهم ألسنة كما أن لهم آذاناً ، لحظتها ـ كما يقول ابن اياس ـ خلعت البراقع . . وفشى الكلام فى المواقع .

أما الكلام الذى فشا فى المواقع ، فهو كلام شباب ، لذلك فهو كلام عنيف ، اختار أقرب الضحايا إليه وهم أعضاء المؤتمر أنفسهم ، دكاترة « المكلمة » ، المتخشبين المتكلسين ، دود الورق ، ندامى الأنظمة : جيل النكسات والهزائم ومعاهدات الصلح ، مثقفوا التواطؤ على الهزيمة ، والتحالف مع صناعها . واخرجوا محافظكم يا أيها الدكاترة المؤتمرون ، وسوف نجدها محشوة بنقد الأنظمة الصعب ، وبمقالات المدح لمن يدفعون ، أو مقالات الصمت على ما يفعلون . يا جيل القوادة الفكرية والدياثة السياسية والخنا الايديولوجي . . وكم ذا من جرائم ارتكبتها باسمك ـ يا كامب ديفيد ـ الأنظمة التى تعارضك ، ابشع حتى من جرائم من صنعوك ومن أيدوك ، أما الجريمة الكبرى التى ارتكبها مثقفوا الجيل المنتكس المهزوم المشتوم ، فهى الصمت على كل ما تفعله أنظمة العرب ، بعرب الأنظمة ، فقد أنار الله بصيرة حكام العرب ، فانجزوا مهمة تنمية المشانق والمحارق ومضاعفة مصانع السياط الالكترونية والسكاكين التكنولوجية قاطعة أيدى الكتاب والمثقفين والمفكرين وألسنة الرعايا الذين ليسوا مواطنين أما قطع يد السارقين فهى مهمة مؤجلة ليوم الحشر العظيم !

بأحزان الماضى وضباب الحاضر وبمطارق المستقبل ، انقض الجيل

الآتى على « عقل الأمة » يستجوبه ولا يستفتيه ، ويحاكمه بلا دفاع . فالتهمة ثابتة أو هي شائعة فى الجو والهواء ، وفى كل تضاريس خريطة الوطن ، من المحيط المزدحم بالبوارج الأمريكية إلى الخليج المشتعل بحرب المنتصر فيها ، مهزوم .

وهى واردة فى تلك المطبوعات الفخمة الضخمة المرصعة بصور الحكام مبتسمين سعداء كأن الأمة بلا هموم ، ولم لا ؟ ألا يحصل كل منهم على ٩٩٪ من أصوات الناخبين فى كل انتخابات ديمقراطية سليمة نزيهة ونظيفة بنسبة ١٠٠٪ .

كان المؤتمر ـ قبل أن ينقض عليه الجيل الآتى ـ واقفاً على رأسه فاعتدل ليقف على قدميه ، أى أنه أصبح قادراً على التجول فى الواقع ومعرفته ، وهذا كاف إلى أن يأذن الله بشىء آخر . وهكذا تتالت الكلمات والمناقشات تحفر رافداً ثالثاً لتلك الغزوة الامبريالية الصهيونية التى تهدد الأمة ، فإذا بالغزوة أيضاً عربية ، وهى ـ ككل الغزوات ـ ذات ايقاع حماسى لكنه راقص ، تنطلق كالفيضان من قنوات الاذاعة المرئية ومحطات الاذاعة المسموعة ، تتغزل فى حكمة حكامنا وشجاعتهم وبرهم بشعوبهم ، وتوحد ـ من فرط حماسها ـ العرب المستعربة بالعرب العرباء فى كيان واحد هو العرب البلهاء . الذين لا هم لهم إلاّ مدح حكامهم والتغنى بأفضالهم ومآثرهم ، فإذا سأل مستنكر : وأين هى تلك المآثر ؟ . افأمامه خريطة الوطن الكبير تُسبِّح بحمد الحاكمين ، ترفرف عليها اعلام الوحدة والتحرر ـ والعدل الاجتماعى ، ليس فيها قاعدة أجنبية ولا تسهيلات لفرق محمولة جواً أو عائمة بحراً ، لا يوجد على أى خط من خطوط « عرضها » تابع أو متواطىء أو متساهل أو مستسلم ، وحاشا لله أن

يكون بين ربوعها الفيحاء جائع أو محروم أو سائل أو مهضوم على رأى الشيخ المنفلوطى ، أسكنه الله فسيح جنانه !

ونحن المثقفين ـ أو بعضنا ـ أصحاب فضل باهر فيما حققه الوطن من انجازات رائعة تنطق بها خريطته الملونة باحمرار ـ الدم وسواد النفط وأثر السياط على الجلود . فكم من حاكم سمَّينا تجبره تواضعاً ، وفسقه طهارة ، واقتحامه خجلاً ، وتألهه خشوعاً ، وحمقه حكمة وفلسفة : فنحن الآباء الشرعيون لهذا السخف الإعلامى القاتل والممل ، لأننا كهنة المعابد ، حراق البخور ، مزخرفو القبح ، صناع العروسة من البوصة ، والشربات من الفسيخ ، ونحن نقود شعوبنا فى « موالد الأنظمة » لكى تردد أهازيج المدح لمن يحكمون واغنيات الخضوع لم يتسلطون ، ومن لا تهزه أناشيد الكهنة ، ترعشه سياط الجلادين ، ومن لم يرض بذهب المعز ، فسيفه ـ والحمد لله ـ مسلول ومسموم !

وهذه الأمة المشغولة بالتغنى بأفضال حكامها والرقص فى موالدهم ، تواجه هموماً لا أول لها ولا آخر : هموم الفقر الزائد والغنى الزائد ، وأطماع الحيتان فى بحر السياسة الدولية . ومن بين هذه الهموم ـ أو على رأسها ـ ذلك الغزو الثقافى الصهيونى الامبريالى الذى انعقد المؤتمر لبحثه والكلام فيه ، فالحدود الثقافية بيننا وبين العدو خلت من كل حماية : صمتت المدافع على جبهات القتال مع الامبريالية والصهيونية ، وتبادل الجالسون على القمة ـ سراً أو جهراً ـ قبلات الحب والصفاء ، وحوّل العدو داناته إلى جبهة الثقافة والوعى ، تنطلق على كل فكر مستنير ، وتصيب كل موهبة حقيقية تنتمى لتراب الوطن المشبع بدم سفكة الغزاة والطغاة ، وتنفجر فى كل خلية ثقافية حية أو عصية على الموت ، فى

مناهج التعليم ومراكز البحث ومؤسسات الإعلام والاتصال ودور النشر والطباعة ، وكل وسائل التنشئة الاجتماعية ، وتتناثر شظاياها أقماراً صناعية وعلماء جواسيس ، ومحطات استشعار عن بعد ، واتفاقات تعاون أكاديمى ، تمسح تقاليدنا وأنماط سلوكنا وتاريخنا السياسى والاجتماعى ، ومزاجنا النفسى والجنسى ، ونزوات حكامنا لترسم الخطط التى تمكنها من تحقيق هدفها الواضح الصريح : أن نفقد كل شعور بالانتماء لأمتنا ووطننا وأن يضيق الانتماء من « الطبقة ـ الأمة » إلى « القطر ـ الطائفة » ثم إلى « النظام ـ العائلة » آنذاك تتضاعف الاعلام المرفوعة على صوارى الجامعة العربية الموزعة بين تونس والقاهرة وتنضم إليها رايات مارونية وشيعية وسنية ودرزية وقبطية وزيدية ، فتأمن الدولة الصهيونية إلى الأبد ، ويبارك البابا ريجان والحاخام بيجين هذه الكيانات الطائفية !

أما وقد أصبح المثقفون العرب ـ بالترغيب والترهيب ـ طبولاً فى مواكب السلاطين ، وأبواقاً فى بلاطهم ، فقد افتقد الوطن حراس الحدود الثقافية ، وهو أشد ما يكون احتياجاً إليهم ، وربما لهذا السبب كان احتشاد الشباب التونسى حول قاعة « ابن رشيق » . احتشد الغد المسؤول المهموم بأمته ، الغاضب لها وعليها ، القلق على مسيرها ومصيرها ، احتل القاعة والمقاعد وغزا الميكرفونات والسماعات . وأربك جدول الأعمال ، وأقام محكمة بلا دفاع فهو نفسه نموذج على ما صنعت الغزوة الامبريالية الصهيونية بعقلنا ووجداننا : تتلكأ المفردات العربية على لسانه وتزاحمها المصطلحات الفرنسية ، الكتب العربية فى مكتباته مجرد هوامش محدودة على المتن الفرنسى الذى يحتل رفوف المكتبات ، وأروقة المتاجر ، ولافتات الشوارع .

والمشكلة أمام هذا الجيل الذى سيرث الأمة قبل أن تغيب شمس القرن معقدة : إذ كيف يوحد الأمة الموزعة بين « الفرانكو - آراب » و « الانجلو - آراب » و « الامريكو - آراب » ، وأخيراً وليس آخراً « الاسرائيليون - الآراب » !

فى مواجهة هذا التحدى فرض الشباب الغاضب وصية الغد على جدول أعمال المؤتمر ، ونصها : أن يكف المثقفون العرب عن ذلك التحلق فى كواليس الأنظمة ، وأن يضربوا عن أكل خبز السلاطين ، فإذا كانت الأنظمة جادة فى مواجهة هذا الغزو الثقافى الامبريالى الصهيونى فلتكف عصا قوانينها غير الديمقراطية ، وأعرافها الغليظة غير المتحضرة عن عقل الأمة المحاصر والمضغوط والذى يغسل مخه كل صباح بالكذب والزيف والادعاء ، ولتطلق حريات العقيدة والبحث العلمى والتنظيم ، ولتقم من المستشفيات بقدر ما تنشىء من السجون .

سعيداً قلت لنفسى : غضب الجيل الآتى ليس وهماً ، وان شابه - ككل غضب - بعض ظلم ، وآية ذلك أن الجيل الملعون المشتوم المتهم بالتفريط ، جاء إلى المؤتمر حاملاً على جسده آثار ما ناله من سياط ، وما افترش من صخر الزنازين . تذكرت ذلك وأنا أمنع دمعة طرقت أبواب العين ، حين رأيت - بعد عشر سنوات من النفى - « محمود أمين العالم » و « أديب ديمترى » و « غالى شكرى ».

بعض حراس الحدود فى المنفى ، وبقيتهم فى زنازين الحدود . . لو كنت - والعياذ بالله - حاكماً عربياً لتقلصت الابتسامة فى صورتى الرسمية ،حين أدرك أن غضب الجيل الآتى ليس وهماً ، تلك الحقيقة التى لا تخدعها ابتسامة . . ولا تلغيها . .

(*) الأهالى - العدد ٣٣ فى ٢٦ مايو ١٩٨٢

ضحكات من زمن الموت غما

انفتحت فى أذنى ثغرة صنعتها كل إذاعات العالم . تسللت أصواتها ترش غرفتى بالدم . على الأرض سالت خيوطه . طال رذاذه الأوراق وسن القلم . فى التليفون قال رئيس التحرير :

ـ يلاحظون أن يوميات « الأهالى » كلها شجن . . فتفاءل الله يخليك !

قلبى حزين يا أبا جاسر فمن أين آتى بالكلام الفرح ؟ .

دونك الأمة من المحيط إلى « الخليج » فدلنى على شىء يدعو للفرح . أما الدم فترشه أصوات المذيعين ليطول أوراقى . وسنّ القلم فمن أين آتى بالكلام الفرح ؟ .

على مكتبى بطون مبقورة وأذرع مبتورة وعيون ماتت دون أن تجد من يسبلها ويتلو عنها الشهادتين ، حين حم القضاء .

جميلة هى عيون اللبنانيات والفلسطينيات ، فمتى يأتى الزمن الذى نفرغ فيه للغزل ، نمرح فى نوار العيون ، نشم فيها أريج القدس وعطر

يافا ، وماذا أفعل بنظرات الرعب التى تملأ غرفتى ، تزحم الأفق من المحيط إلى الخليج ، فمن أين آتى ـ أبا جاسر ـ بالكلام الفرح .

إليك نشرة أنباء من زمن الكدر الذى نعيشه : دفعت اسرائيل للمعركة بدبابات وطيارات ودانات ومجنزرات ، وهرول الزعماء العرب إلى الحلبة وفى يدهم « مختار الصحاح » و « المصباح المنير » و « لسان زعماء العرب » ـ بارك الله فيه ـ طويل ، لكن أيديهم قصيرة ، ولو أنها ليست كذلك على أبدان الرعية المحكومة بالحديد والنار والسيف البتار ، الذى لم نره أبداً مشهراً إلاّ عند فض مظاهرات الجياع . . أما اسرائيل ، فليس لها عندهم إلاّ قرارات الادانة وبيانات الشجب ، وبرقيات الشحاذة .

المسرحية من النوع العبثى لذلك اقتحم « نابليون » غرفتى ، وقف على خشبة المسرح أطل على مشارف القاهرة بعد أن هزم جيش « مراد بك » ، وسأل عن المقاومة المحتملة فى المدينة ، قالوا له : لم يعد هناك سوى بعض شيوخ الأزهر يقرأون « البخارى » . فاهتم « نابليون » بالأمر وأخذ يسأل عن مدفع « البخارى » هذا ، ما هو مداه ، وما عيار داناته ، وهل لدى المصريين مخزون من ذخيرته !. وفى الصبح أعلنوا القاهرة مدينة مفتوحة .

عبرت « جولدا مائير » أمام مكتبى ، قالت إنها منزعجة لأن الأطفال الفلسطينيين يولدون كل صباح ، وحين التقى بها « السادات » فى العام ١٩٧٧ ، قال مبتسماً : كيف حالك يا جولدا ؟ قالت إنها ما تزال منزعجة لأن الأطفال الفلسطينيين يولدون كل صباح . ابتسمت للسادات ، اضافت : كنت انتظر هذا اللقاء منذ زمن طويل .

ويوم أعلنت دولة اسرائيل رسمياً غضب الأرهابى « بيجين » لأنها لم

تقم على كامل الأرض التى وعد بها الرب آل اسرائيل فصرخ حانقاً :

ـ لقد قسم الوطن . . وطن اليهود .

ومع ذلك وجد بعد ذلك التاريخ بثلاثين عاماً كاملة ، عرباً عقلاء ، حكماء ، وفلاسفة ، متحضرون ، وقعوا معه معاهدة سلام عليكم وكان بيجين نفسه ، أما هم فلم يكونوا أنفسهم ، فحدثوه عن السلام ، وعن العقد النفسية ، أما هو ، فقد هز رأسه ، لأنه لم يغير كلمة واحدة مما قاله ، لذلك أصر على أن يوقعها وعلى رأسه طاقية الحاخامية دليل على تمسكه بوعود الرب !

وإليك هذا المشهد الذى يتحدى عبث الدنيا : أرييل شارون جنرال لبنان السفاح ، كان هنا فى القاهرة قبل عام يتفاوض مع وزارة الزراعة لكى « يعمر » مثلث الفيوم ـ بنى سويف ـ الوادى الجديد ، وحين طالت المفاوضات ذهب ليعمر لبنان بآلياته ومجنزراته فاستعدوا يا أهالى الفيوم لاستقبال المعمر الصديق ، بعد أن ينهى مهمته فى لبنان ، ألا تسألون عن الرخاء الذي وعدكم به « المرحوم » منذ وقع اتفاقية السلام ؟ قادم هو فى الطريق فاقطعوا الوقت فى التزاحم أمام أبواب الجمعيات الاستهلاكية حتى يدرككم « شارون » برحمته .

قضى الجنرال الصديق ليلة فى أحد فنادق بيروت ، فاحجزوا له واحدة فى فندق بحيرة قارون ، وتأكدوا من وجود غرف فارغة فى « شيراتون الجزائر » ، و « هيلتون الكويت » . . و « انترناسيونال تونس »!

سيخطب فيكم شارون ، يقول ، لافض فوه :

ـ استديروا يا عرب . . اصطفوا جميعاً ، ٨٠ مليون بل ١٥٠ ، خذوا هذا الكف الساخن على قفاكم العريض الممتد من الخليج إلى

المحيط ، ولن يجسر أكبر من فيكم إلاّ على إصـدار بيان شجب وإدانة ، دعـوا لنـا لبنـان والجـولان ويهـودا والسـامـرة ، وكلوا أنتم فـراخ تـوفيق عبد الحى بالهناء والشفاء .

أما مشهد الختام فسيمثله كالعادة اعلام فاجر ، سيخرج كهنته غداً أو بعد غد ليقـولوا : نحن انتصـرنا فى الحـرب الخامسـة مع العـدو . قتل الا ائيليون وجرحوا ١٥ ألف فلسطينى ولبنانى أما نحن ، فدونكم أوراقنا مسـودة بكل ميـاه البحار من المحيط إلى الخليج . . قصـائـد ومقـالات وبيانات شجب وإدانة ، نحن شتمنا اسرائيل فـوا نصراه ، وأصـدرنا ٣٠ بيان إدانة ، فـوا فرحتـاه وطبقاً لحسبـة برمـا ، تـكـون خسـائرهم ضعف خسـائرنـا . . ثم لا تنسوا أننـا انتصرنـا على جبهـة الـرأى العـام العالمى ، فاثبتنا له للمرة العاشرة بعد المليون ، أن اسرائيل دولة عدوانية لا تريد السلام ، والرأى العام العالمى ، يؤمن بـالعلم ولذلـك لا يمكن اقناعه بأن اسرائيل عدوانية إلاّ إذا متنا وقتلنا ، أما الجرحى فلا يعتبـرهم أدلة اثبات كافية على عدوانية اسرائيل . أما أهم الانتصارات . فهـو أننا حصلنـا على قـرارين جـديـدين من مجلس الأمن رقمهمـا ٥٠٨ و ٥٠٩ ومعنى ذلك أننا ما نزال فى مقـدمة دول العـالم من حيث الحصول على شـرف حمل قـرارات من المنظمـة الدوليـة الممثلة للضميـر العـالمى . فسجلوا فى قائمة شرف الأنظمة : وعد بلفور والكتاب الأبيض وتقرير بيل وتقرير برنادوت وقرار التقسيم وقرار التعويض وقرار الاغاثة وقـرار الادانة والقرار ٢٤٢ والقرار ٣٨٠ والقرارين ٥٠٨ و ٥٠٩ ، ولا تنسوا من فضلكم كامب ديفيد ، ومعـاهدة ١٩٧٩ ، واللحم الـذى أكلته الجـوارح ، والدم الذى شربته الصحراء ، والأحلام التى اغتلتموها والأطفال الـذين قتلتهم بيـاناتكم ولم تقتلهم دانـات الاسرائيليين و ٢٠ قـراراً لوقف اطـلاق النار

صدرت على المسؤولية التاريخية لمن اصدروها . . . فمتى يحاسبهم التاريخ على هذه المسؤولية الملقاة ظلماً على عاتقه وأضف - أيضاً - إلى قائمة الشرف : وبرقيات الشحاذة التى انهارت على السيد ريجان !

. . . .

المسرحية يا سادة - باتت مملة ، نحن من زمن لا نرى سواكم ، تقتحمون بيوتنا عبر شاشات التليفزيون وأمواج الأثير ، وتحتكرون حرو المطابع وألقاب التفخيم ومظاهر العظمة ، تبشرون بعدل ما شهدناه يوماً فتعالوا تحسسوا امعاءنا الفارغة ، وشفاهنا الظامئة ، وجربوا عذاب أن تعيشوا كما نعيش ، أنتم وعدتمونا بديمقراطية لم نعرف سوى سجونها ، وإليكم ظهورنا التى وشمتها سياطكم ، تكتب اسماءكم الموقرة على جلودنا ، تصوغ عليها هتافاتنا الكاذبة بأن يطيل الله أعماركم ، وشكرنا المزيف لما قدمتموه لنا . فقدموها للأمم المتحدة لعلها تنقذ ماء وجوهكم المراق على موائد الدنيا .

أنتم وعدتمونا بسياسة وطنية دليلها الواضح هذا المعدل الهائل من قرارات مجلس الأمن ، وطابوركم اللاهث وراء العم ريجان شجيع العصر الذى تحبونه من طرف واحد كالمراهقين ، تفخرون بصداقته وتباهون بالوقوف معه أمام الكاميرا ، وتحفظون خطاباته فى دفاتركم الرسمية ، وحين جد الجد ، ترك صديقه بيجين يقتل الأطفال ويبقر بطون الحوامل ، ولم يقرأ كلمة مما أرسلتموه .

أنتم اقتحمتم غرف نومنا وحوائط مكاتبنا ، واغتصبتم بصوركم ، التى تملأ كل شارع وحائط ، عيوننا ، أنتم ثقبتم آذاننا ببياناتكم وخطبكم ، بأصواتكم الهادرة ، وبأصوات المنافقين من « أهل المغنى »

يشكرون السماء إذ منحتنا إياكم . وفى نهاية الإرسال قتلنا الاسـرائيليون فأصدرتم بيان شجب وإدانة !

أنتم لم تعيدوا الوطن السليب ولم تصونوا الوطن الذى لم يكن قد سلب بعد . وفي الحالين كنا سبايا لكم : إذا فرحتم أجبرتمونا على الفرح ، وإذا تنكدتم نكدتم علينا . نحن رقصنا فى موالدكم ، وحُشِرنا فى مواكبكم وافترشنا صخر زنـازينكم وهتفنا لكم من وراء قلوبنا ، وفى صلاة الجمعة دعونا الله عزَّ وجلَّ أن يولى علينا خيارنا ، ولا يولى شرارنا فاللهم استجب .

نحن ـ يا سادتى ـ نشاهد مسرحيتكم المملة هذه ، بالقهر وقلة الحيلة ، وكسر الجناح بقوانين أمن الدولة ، ومباحث أمن الدولة ، ونيابة أمن الدولة وقضاء أمن الدولة ، ودولة أمن الدولة ، بالمكتب الثانى والمكتب الخامس ، ومكاتب المعلومات والاستخبارات والاستعلامات ، برفاهية خدمات الأمن ، حتى أصبح لكل عشرة مواطنين عرب مخبر . . ولكل عشرة آلاف مواطن طبيب ! .

أنتم ما وحدتم الوطن إلاّ فى ألفاظ بيانات الإدانة وفى قوانين أمن الدولة ، ولم تتفقوا إلاّ على شىء واحد ، هو اسلاك بوابات الحدود التى عززتموها حتى تمنع « الوباء الفلسطينى » من الدخول إليكم ، وتحول بين رعاياكم وبين نجدته ، لأن فى الادانة كفاية . . وفيها افادة !

يولد الأطفال الفلسطينيون كل صباح يا جولدا فاسدلوا الستار من فضلكم ، نريد أن ننفض من سامركم الممل ، نريد أن نصلى الجمعة فلا نكذب على الله كما تكذبون علينا ، ولا ندعوه أن يطيل أعماركم لتمرغوا كرامتنا فى الوحل ، أكثر مما فعلتم ، ولتصدروا مزيداً من بيانات الشجب

وترسلوا مزيداً من برقيات الشحاذة . افتحوا الطريق يا سادة نحن نريد أن نـذهب إلى الأقصى ، نشم عبير القـدس ، نصلى الجمعة هنـاك نـدعـو كلنا !

ـ اللهم وَلِّ علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا . .

اللهم استجب !!

(*) الأهالى ـ العدد ٣٧ فى ٢٣ يونيو ١٩٨٢

دموع من ملف سبتمبر

لا أذكر ما فعلته صباح ذلك اليوم بالتحديد . الأرجح أننى استيقظت كعادتى مبكراً ، فوجدت شريكى فى الزنزانة « محمد عبد السلام الزيات » يدخن سيجارة الصباح . فعلت مثله . تبادلنا كالمعتاد حديثاً ضاحكاً عن زميلنا الثالث « حمدين صباحى » الذى كان معتقلاً مثالياً : يسهر طول الليل ، وينام طول النهار ، وفى المساء يلقى الأشعار . .

ولا بد أن الزملاء استيقظوا تدريجياً ، وأثاروا ضجيج كل صباح : تبادلوا الصراخ باسمى كى اغادر زنزانتى فاتسلم الصحف من ادارة السجن ، وأوزعها عليهم .

فعلت ذلك بالتأكيد .

ساعتها رأيت جانب وجهه . كنت أتحدث ـ عبر قضبان باب الزنزانة ـ مع شريكة فيها محمد حسنين هيكل الذى تسلم الصحف بلهفة سائلاً عما إذا كان بها شىء هام .

حين رأيت جانب وجهه قلت :

ـ صباح الخير يا دكتور عبد العظيم . .

شتويا كان اليوم والشمس ابتسامة . . ربما رأيته بعد ذلك فى الطابور . أكان ذلك حين وقفت مع «د. محمود القاضى » أسمع تحليلاته السياسية العميقة لما قرأه فى صحف الصباح من أنباء وآراء ؟ . ربما . انضم إلينا « د. محمد خلف الله » قلت معقباً :

ـ بس ده تحليل ما يخرجناش من السجن يا دكتور محمود !

ضحكنا . ففى أى زاوية من زوايا السجن كان حزن اليوم يختفى ؟ .

بدأنا نبحث عن تحليل سياسى آخر للأوضاع ينتهى بخروجنا من السجن . تقدم « فؤاد سراج الدين » قادماً من ناحية باب العنبر . وقفنا جميعاً . أفردنا له مقعداً فى الشمس . تقدم تجاهنا بخطوات راسخة رغم وهن الصحة . كما ينبغى لفلاح عتيد من كفر الجرايدة . عابثناه باسمه الجديد : « لويس السادس عشر » ضحك . . روى حكاية .

نادانى النقيب « جلال سعيد » ضابط السجن ، سلمنى كوبونات الكانتين لأوزعها . وضعتها تحت أبطى . . توجهت إلى ملعب الكرة الطائرة . وقفت أتابع اللاعبين : « محمد فائق » و « حسين عبد الرزاق » و « كمال أبو عيطة » و « محمود زينهم » . قلت لنفسى ولهم :

ـ إن مصلحة السجون ومباحث أمن الدولة مسؤولتان عن تدهور مستوى الرياضة والشعر . ففى السجن يظن الجميع أنهم رياضيون ، ويكتب الجميع شعراً فى عيون حبيباتهم .

طردونى شر طردة . أظن أننى رأيته آنذاك وهو يمر خلفى . ولعلى سمعته يقول شيئاً عن حمام ساخن ، ومن المؤكد أننى فتحت مناقشة مع « د. عبد المحسن حمودة » . وصلت إلى طريق مسدود فأجلناها إلى فسحة الغد . .

ما أذكره جيداً أننى دخلت للعنبر بعد انتهاء الطابور وكان معى « د. جلال رجب » و « د. على النويجى » ، جلسنا فى ظل السلم الذى يقود إلى الدور العلوى . . صعد « صبرى مبدى » أولاً وهو يقول شيئاً . أما هو فقد خرج حينئذٍ من الحمام وقد لف جسده بروب ، وصنع من فوطته عمامة .

فى المساحة بين انتهاء الطابور والجلسة النقاشية التى نعقدها بعد صلاة ظهر كل يوم . تجمعنا فى باحة صغيرة تقع بين زنزانة « محمد خليل » وزنزانة « كمال الابراشى » و « محمد عيد »

جاء « هيكل » فاحتل المساحة المشمسة وحين رأى « عبد العظيم أبو العطا » دعاه للجلوس فى الشمس . تناقشنا فى شىء لا أذكره . كنت مشغولاً بعد كوبونات الكانتين ، جاء « حلمى مراد» و « ابراهيم يونس » و « حامد زيدان » تسلم كل واحد نصيبه . وحين صعد « أحمد ناصر » أكدنا عليه بعدم استخدام أى مقعد غير مقعده ، لأن الله لا يكلف مقعداً فوق طاقته ، أظن أن « عبد العظيم أبو العطا » قام ساعتها ، سأله « هيكل » :

ـ رايح فين يا عبد العظيم ؟!

ـ حاستريح شوية !

كان شريكهما الثالث فى الزنزانة ١٧ ـ « عبد العظيم المغربى » ـ يمارس هواية الاستئثار بكل الصحف بعد انتهاء الطابور .

. . . .

لم يكن قد مضى عليه بيننا فى سجن الملحق سوى عشرين يوماً . أذكر أنه وصل ذات غروب . صاح النقيب « سامى سرحان » من الدور

السفلى معلناً أن « صابر بسيونى » قد عاد من مستشفى سجن الاستقبال ومعه ضيف جديد هو « عبد العظيم أبو العطا » .

رأيته فى الصباح وأنا اسلم الزنزانة ١٧ صحفها ، رحبت به وحييته ، وسألته عن أماناته وعما يـريده من الكـانتين كى أدبره لـه . بدا لى رقيقـاً ومهذباً وقابلاً للتفاهم ، ولم يسألنى عن الطريقة التى ننظم بها معاشنا . قال :

ـ ما تنفذونه على أنفسكم ، أقبل به .

فى ضحى اليوم نفسه رأيته مرة أخرى فى العيادة والطبيب يفحصه ، بدا لى شاحباً وهزيلاً أكثر من المعتاد . . سمعته يشكو أمراضه ، لم أتابع التفاصيل ، كنا جميعاً مرضى . وكنت أعلم أن أحداً لن يوافق على نقله إلى مستشفى جامعى .

لعله كـان مثلى حيياً بعض الشىء . . شعـرت فى الأيام التـالية أنـه يبحث عن فرصة نتبادل فيها الحديث . ربما لكى يتعرف على جيل آخر غير جيله ، ومع أننى تذكرت الحملات الاعلاميـة التى كان يشنهـا على « اليسار » حين كان سكـرتيراً عـاماً لحـزب مصر ، إلاَّ أن ذلـك لم يكن السبب ، فلو كنت ـ أو كان ـ أكثر اقتحاماً ، لعرفته قبل أن تضيع الفرصة إلى الأبد . .

في بعض الليـالى كان يتحـدث فى اذاعتنا المحليـة ، وكان مـذيعاً نـاجحاً واضـح الصوت ، محـدد النبـرات ، مـرتب الأفكـار ، يتحـدث الفصحى بطلاقة ورشاقة . وكانت معظم أحـاديثه عن الـزراعة والـرى ، وعن النيل والسد العالى . ويوماً آخر تخلقت له فى ذهنى صورة مهندس الرى المصرى الذى عاش عمره على ضفاف النهر وفوق جسوره . يعمل

فى الحر اللافح وفى المطر الغزير . ويغطى رأسه أحياناً بكاسكيت أو برنيطة ، ويتحدث مع الفلاحين وعنهم . .

حين نظمنا مسابقة تقوم على التتابع الشعرى ، يبدأها واحد ببيت شعر ، ويتخذ الآخر من قافيته حرف ابتداء لبيت آخر . أثبت أنه راوية ممتاز ، وأنك محصوله من محصول الشعر وفير ، ولولا « د. اسماعيل صبرى عبد الله » لما كان له منافس بيننا . .

لم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية ، لكن وزنه كان يزداد هزالاً ، وكان مصاباً بقرحة فى المعدة تتطلب غذاء خاصاً ، لم يسمحوا له به ، ولما كان مستحيلاً أن يأكل طعام السجن . فقد عاش أسابيع على اللبن الزبادى فقط .

. . . .

. . . .

كنا يومها فى انتظاره ، فاليوم كان مخصصاً لمناقشة محاضرة ألقاها قبل أيام عن مشكلة الأرض الزراعية ، وكنت ما زلت أعد الكوبونات . وكان قد دخل زنزانته ليستريح شوية كما سمعته يقول لهيكل ، ولا أذكر أننى رأيت زميلينا الطبيبين «على نويجى» و«كمال الأبراشى» وهما يدخلان الزنزانة ١٧ ، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعوراً ويصرخ طالباً ال انبوبة الأكسجين .

تحركت على الفور ، الأنبوبة عهدتى . . وهى عذابى ورعبى وقلقى ، جاءوا بها يوماً فوضعوها خلف سرير « عبد السلام الزيات » . شرح الطبيب ـ لى ولحمدين ـ كيف نستخدمها قال مشيراً إلى « عبد السلام الزيات » :

ـ الحالة ثابتة ومطمئنة ولكن الاحتياط واجب ، فى الليل كنت أتقلب على فراشى قلقاً ، أرى شبح الأنبوبة الضخمة التى يصل طولها إلى متر ونصف وهو يلقى بظله على وجه « الزيات » النائم ، أدعو الله أن تمر كل ليلة على خير ، اتساءل : ألا يحتمل ألا استيقظ إذا ما احتاج الرجل إلى معونة ، يضنينى السؤال ، يظل فى رأسى حتى أنام مجبراً . .

انتقلت الأنبوبة الضخمة بسرعة شديدة من زنزانتنا إلى الزنزانة ١٧ ، جلست صامتاً ولاهثاً ، عرف الوافدون للمشاركة فى الندوة أن « أبا العطا » يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين ، دقائق مرت ، ربما ثوان ، خرج الطبيبان وهما ينشجان بالبكاء :

مات عبد العظيم أبو العطا !

. . . .

. . . .

لم يتحرك أحد أو شىء من مكانه لم تلتق نظرتان ، اختفت العصافير التى كانت تطير كل صباح أمام أبواب الزنازين ، نظرت إلينا القطة « مشمشة » بذهول ، لأننا انشغلنا جميعاً فى وقت واحد عنها ، سكن الهواء ، جمدت الظلال ، ظل كل شىء على ما كان عليه .

أقدام « فؤاد سراج الدين » و « عبد الفتاح حسن » و « فتحى رضوان » تجاهد الهم والحزن والشيخوخة لتصعد لأول مرة إلى الدور العلوى . اختفى « حلمى مراد » فى زنزانته يبكى . صعد « محمد عبد القدوس » ومعه مصحفة ، ألقى السلام ، داخل إلى الزنزانة ١٧ ، تصاعد صوته يتلو آيات من كتاب الله . كان الشيخ « مصطفى عاصى » و « عبد العظيم المغربى » يقومان بالواجب الذى ينبغى للأحياء أن يقوموا به تجاه

موتاهم ، وجد « أبو العطا » أسرة تودعه وتبكيه وتتلو معه وعنه الشهادتين ، تسبل عيونه ، وتغضب لما جرى له .

وحين جاء « ميلاد حنا » و « محمود القاضى » انفجر البكاء ، لم أكن أعرف أن ما يجمع المهندسين الثلاثة الكبار هو صداقة عمر ، وزمالة مهنة ودراسة ، عرفت ذلك من الدموع ، وعرفته حين أصبح الرجلان فى حالة نفسية دعت الأطباء للقلق عليهما ، حالوا بينهما وبين دخول الزنزانة ١٧ ، أجبروا « القاضى » على العودة لزنزانته ، رفض « ميلاد حنا » أن يغادر الدور العلوى ، أدخلوه زنزانته ، ولم يكف عن البكاء حتى أجبروه على تناول بعض المهدئات .

مر بى « د. على النويجى » . كان قلقاً ومجهداً ، وجدنى جالساً على مقعدى مشدوهاً كتمثال ، فى عنقه سماعة طبية وفى يده جهاز ضغط ، قال :

ـ بيننا سبعة على الأقل مصابون بجلطات مختلفة فى القلب ، أخشى الانفعالات الحادة .

وحين لاحظ جمودى سألنى :

ـ أنت بخير .

نظرت إلى وجهه الطيب بحيرة ، تذكرت أنه أحد هؤلاء السبعة ، فكرت أن أطلب منه أن يستريح ، لكنه كان قد حمل جهاز الضغط ، ومضى يحاصر أى آثار محتملة لكوارث جديدة !

أخطر « الشاويش محمود » الادارة ، مضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم ، ضباط كبار ، وضباط صغار ، مخبرون وشاويشية ، صعدوا السلم بأقدامهم العسكرية الثقيلة ، كنا ما نزال جالسين حيث نحن ، وصوت المرتلين الثلاثة يتلو قول الله عزَّ وجل :

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفارا ﴾ .

دخلوا الزنزانة ١٧ ، خرجوا ، قال كبيرهم :

ـ البقية فى حياتكم !

كان « عصمت سيف الدولة » أول من تكلم . لا أذكر ماذا قال . لم يتحدث إليهم ولكنه تحدث لنا ، من هؤلاء وماذا أتى بهم ؟! من أنتم يا سادة . معزون ؟! فأين القتلة إذن ؟! . كان يتحدث بغضب بالغ ودموعه تتساقط بغزارة . عاجز عن إيقاف غضبه ، وعن إيقاف دموعه . .

من أنتم يا سادة . أسابيع طويلة وأنتم تقومون بواجب سخيف وتنفذون قراراً أحمقاً . مات « عبد العظيم أبو العطا » ، فهل قضى موته على الفتنة الطائفية ؟! . وهل صان أمن الوطن والمواطن . هل استراح الملايين العشرة من المصريين الذين قالوا نعم فى الاستفتاء على قرارات سبتمبر وعلى قائمة الاعتقالات . هل تحققت إرادة الشعب لأن « أبو العطا » مات و « كمال السنانيرى » مات و « جابر بريقع » مات ؟! .

إذا كنتم معزين فمن يكون القاتل . . من أتى بأكرم ابناء الوطن إلى هذا المكان القمىء، ليتحكم فيهم أسفال وأصفار . ماذا صنعتم أنتم للوطن ؟ . أى خير قدمتموه له .

أصبح « أبو العطا » ورقة فى ملف ما يهم إدارة السجن الآن ، هو أن تكتب شهادة وفاة رسمية . وتنقل الجثة من السجن ، لتغلق المصلحة الملف !

عند ذلك الحد قال « عصمت سيف الدولة » : لا . لم يستأذن أحداً منا ولم يعارضه أحد :

ـ لن تخرج جثة أبو العطا من هنا إلاّ إذا جاءت النيابة العامة . لن نتركك تفرون بجريمتكم دون تسجيل حتى لو كان ذلك للتاريخ . لن تخرج الجثة من هنا حتى لو سالت الدماء . اسحبوا مخبريكم وخذوا ضباطكم واجلسوا جميعاً فى مكاتبكم . لن ندخل زنازيننا حتى ولو على أسنة الرماح . لن نخرج من العيادة حتى لا تعبثوا بالملفات الطبية التى تثبت اهمالكم وعدم تنفيذكم للقانون . وتؤكد أنكم لم تكونوا أمناء على الذين أخرجتموهم من بيوتهم وجئتم بهم ـ دون تهمة أو جريمة ـ ليموتوا فى الزنازين الصلدة !

. . . .

حين تقدم الليل كنت ما أزال اجلس على مقعدي أمام الزنزانة . تركنا الأمر كله فى يد لجنة فوضناها للحديث باسمنا مع الإدارة . عصمت وهيكل واسماعيل صبرى ، باحة السجن الداخلية بلا حراس ، الليل يتقدم . الجميع يتجولون قلقين فى الفناء الضيق . تأملت فؤاد مرسى وفريد عبد الكريم وهما يسيران معاً صامتين . ناوشنى اشفاق حاد عليهما . . إلى متى يحتمل هذا النوع القوى الجسور من الرجال عذاب السجن وخطر السياسة وحمق الذين يحكمون .

ازدحم رأسى بشريط من صور الذين رأيتهم يموتون فى السجون . تذكرت السياط والعصى والشتائم والبذاءات . فكرت فى شهدى عطية ولويس اسحاق ومحمد عثمان وفريد حداد واسماعيل الفيومى . . قلت لنفسى : متى يأتى الزمن الذى يدخل القتلة فيه السجون . .

أجبرنى « على نويجى » و « إبراهيم يونس » على الذهاب إلى الفراش . فى الظلام جلست وحيداً ، امتلأت الغرفة بكلمات الذين ايدوا

اجـراءات سبتمبر . كـانـوا امـامى يـرقصـون ويـطبلون ويهتفـون . قلت لنفـسى : متى يأتى الزمن الذى يدخل القتلة فيه السجون . .

حين أطل الفجر من كوة الزنزانة سمعت أصواتاً علمت منهـا ، أنهـم سينقلونـه. أصـر الـزمـلاء على أن يحملوا بـأنفسهم جسـده إلى بــاب السجن . كان الكل يقظاً . احتشدوا جميعاً خلف الجثة . وحين آن لها أن تغادر السجن ، هتف كمال أبو عيطة وحمدين صباحى :

ـ ابنك يا مصر . . عشانك يا مصر . . فداكى يا مصر !

تصاعدت أصوات الرجال مخشوشنة مخنوقة بالبكاء تردد الهتاف. رجال من كل الأجيال وكل الثورات وكل الأفكار . لحظتها فقط سألت دموعى ، بكيت كما لم أبك طول عمرى . حـاولت أن امنع نفسى من البكـاء فلم استطع . . وكان صوت محمد عبد القدوس يتلو آنذاك قرآن الفجر :

ـ ﴿ لا يغرنك تقلب الـذين كفروا بـالبلاد . . متـاع قليل ومـأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(*) الأهالى العدد ٤٨ فى ٨ سبتمبر ١٩٨٢ .

نوبة رجوع للدرس القديم

عندما سمعت النبأ فى بداية المساء ، عرفت أن ما ظللت ليال طويلة أخافه ، وارتعب من وقوعه ، قد حدث اخيراً . . ولكن بعد ست سنوات : مات محمد عبد السلام الزيات . . ولم أدهش حين علمت أنه مات وهو يشهد أحد اجتماعات اللجنة المصرية للسلام . كنت أعرف منذ البداية ، أن نوعه من الرجال يموتون ـ عادة ـ واقفين .

هربت إلى الشرفة خجلاناً من غلالة دمع انسدلت فوق عيونى ، اتأمل ـ من خلال استارها ـ افقاً ينزف دماً ، وأتابع سرباً من العصافير يرحل غرباً . سألتها أن تقبل عنى جبينه المسجى . أصبحت أخبار موت الأصدقاء ـ يا عصفورتى ـ قهوتنا الصباحية . . غدت احضانهم سراباً . . والصقيع يزحف ، وأين أجد ـ يا عصفورتى ـ فى زمن اكل الجفاف خضرته ، والتهم الجراد كل مسراته ، فيضان الدمع الذى يليق بحرقة القلب على رحيل رجال مثل « أمل دنقل » و « شادى عبد السلام » و« نبيل السلمى » و « عبد السلام الزيات » ؟!!

. . أمـا الـوجيعـة المستكنـة فى الضلوع ، فهى أنهم يـرحلون بـلا بدائل . تسقط الثمار الناضجة ـ يا عصفـورتى ـ والأرض خراب لا تنبت سوى الحلفا والأشواك والصبار . . فمـاذا لا يفكر مستثمـر ابن كلب من مستثمرى هذه الأيام السوداء ، فى انشاء بنك دولى للدموع ، نقترض منه مـا يكفى لكى يفيض النهـر . . فتـطفـوا اشـلاء « اوزوريس » وينهض « حـوريس » ـ من بين الحلفـا والأشـواك والصبـار ـ فتيـا عفيـا كقبلة العذراء . . فيهزم « ست » الشرير . . ساعتها يبرأ أيوب العليل ، تزغـرد « ناعسة » من قلب قلبى . . ينسدل شعرها شلال من الفرح على وجهى المبلل بالدموع ، فأسير فى جنازة عبد العزيز الشوربجى وقبارى عبد الله ومحمـود القاضى . . وعبـد الفتاح حسن . . أحـدوا المشيعين منشداً : البحر زاد عوف الله . . غطى البلاد . . عوف الله ! . . .

فى ركن الشرفة ، وجدته ينام على سريـره ـ فى صدر الـزنزانـة ٢٣ بـالدور الثـانى من سجن ملحق مزرعـة طره ـ هـادئاً ووديعـاً وجليـلاً . . والتاريخ يوم ما من شهر القهر سبتمبر ١٩٨١ . تتسلل شقشقة العصـافير مع أول أشعة الشمس . تحمل عبير الحياة الطازج خارج الأسوار . يفتح عينيه . يعتدل فى جلسته . . يمد أسرعنا فى العثور على علبة سجائره يده للآخر بلفافة الصباح ، ويشعلها له ، مع أول أنفاسها ، يقول أو أقول ، أو نقول معاً :

ـ هوا ابن الـ « . . . » ده حابسنا ليه ؟!

يبتسم . اضحـك بصوت عـال . يصيح محمـد خليل من الـزنزانـة المجاورة : بلاش دوشة يا ٢٣ عاوزين ننام . كان السؤال ـ فى الأصل ـ سؤاله . يطرحه على كل صباح بمجرد أن نفتـح عيوننـا فى الوقت نفسـه تقريباً . وابن الـ« . . . . » الذى كان يحبسنا هو السـادات طبعاً . . أمـا

علامات الاستفهام والتعجب . . التى كنا نقتلها بحثاً وتحليلاً كل صباح ، فسببها هو الحالة العبثية التى كنا فيها فقد كان المبرر الرسمى لاعتقالنا ، هو أننا من المحرضين على إشعال الفتنة الطائفية !

في اليوم الأول لانتقالنا من « سجن الاستقبال » إلى سجن الملحق ، وقفت فى زنزانتى اتابع طابوراً من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزنازين المجاورة رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها : تقلبت عليهم العهود والأزمان ، فوهن العظم منهم ، واشتعل الرأس شيباً ، وهاجمتهم الأمراض والعلل ، فطالت حتى القلب . . لكنها لم تطل الروح . . واستغرقنى مشهد المرحوم عبد العزيز الشوربجى ، نقيب المحامين الأسبق ـ وكانوا قد اعتقلوه من فراش المرض ـ وهو يصعد السلم بأعوامه السبعين ، بخطوات بطيئة وواهنة ، وحوله عبد العزيز محمد وأحمد ناصر ومحمد خليل يحاولون مساعدته فيرفض بإباء . . ويهشهم بعصاه التى كان يستند إليها . . لكنهم ـ فى بنوة دافقة كقلب الأم ـ يظلون خلفه ، يتابعونه مثلي بإشفاق . . ولحظتها أحسست أننى مسجون حقاً . . ومقهور فعلاً . . وعضضت على شفتى خجلاً من دموعى التى بللت قضبان الزنزانة !

وحين استقرت الأوضاع ، وجدت نفسى فى زنزانة واحدة ـ هى رقم ١٤ ـ مع محمد عبد السلام الزيات وفؤاد سراج الدين ، وقد قاوما بشلة ـ وبنبل حقيقى ـ تطوعى بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسيطة فى زنزانتنا المشتركة بحكم سنى ، لكنهما اضطرا للرضوخ ، ولأن الزنزانة كانت الوحيدة التى لا اضاءة بها ، فقد أمضينا الليالى الأولى نستمع إلى ذكريات فؤاد سراج الدين ، بينما كان بقية الزملاء يقضونها فى سمر ،

وحين طال اختفاؤنا نادانا حسين عبد الرازق سائلاً : انتوا طلعتوا افراج ولا أيه ؟ قلت : لا . . دا مشوار صغير لحد ثورة ١٩١٩ وراجعين . وكان « الزيات » قليل الكلام . وبدا لى أنه ـ فى أوقات كثيرة ـ يرحل داخل نفسه ، وحين سألته ونحن نشمس البطاطين فى فسحة الضحى ، عرفت أنه قلق على شقيقته الدكتورة لطيفة الزيات ، التى كانت فى القاهرة حين قبضوا عليه من رأس البر . .

وفيما بعد ، أدركت أن ما كان يقلق « الزيات » كان كثيراً ، وفوق الطاقة الانسانية . واذهلنى أنه تحمله بكل تلك الجسارة . كان يبدى فى الأيام الأولى ـ سعادته لأنه يقيم معنا فى السجن نفسه بشكل بدا لى أن فيه بعض المبالغة، أو المجاملة، أما الحقيقة ـ التى عرفتها بعد ذلك ـ فهى أنه كان يدرك أنه واحد من الرؤوس الثلاثة الكبيرة ، التى كانت هدفاً رئيسياً لحملة سبتمبر . . وكان الآخران هما « فؤاد سراج الدين » و « محمد حسنين هيكل » ولم يكن ـ بحكم خبرته بشخصية السادات ، وعمله طويلاً معه ـ يستبعد عليه أى شىء . وكان بعض المقربين من السادات قد نقلوا إليه قسمه المغلظ بأن يغلق بيت الزيات إلى الأبد لذلك كان يرى أن فى اقامته معنا نوعاً من الحماية ، ويخشى أن ينقل وحده إلى سجن آخر يتاح فيه للسادات أن يقضى عليه بشكل أو بآخر ، خاصة وأن حالته الصحية كانت بالغة الحساسية بسبب جلطة خطيرة فى القلب ، كانت قد أصابته منذ سنوات .

ويوماً بعد آخر ، كانت آلامى النفسية تزيد ، وشوقى لأبى يملأ القلب . وخوفى أن يموت فتحول الأسوار بينى وبين أن أقبل جبينه ، وأُسْبِل عيونه ، واتلو عنه الشهادتين ، واحضر غسله ، واتلقى العزاء أمام

قبره ، يملؤني تعاسة . . كنت أصرفها عادة في تأمل مناضلي الحرس القديم ، وهم يتجولون في فسحة الضحى أمام زنزانتي : فتحي رضوان وفؤاد مرسي واسماعيل صبري عبد الله وعصمت سيف الدولة وإبراهيم طلعت وجلال رجب اطال الله أعمارهم جميعاً ، والمرحومين عبد العزيز الشوربجي ومحمود القاضي وعبد الفتاح حسن . . وليس فيهم واحد يخلو من الأمراض . . ومع ذلك فهم يتحملون السجن بشجاعة ، ويصمدون أمام ظروفه القاسية ، ويضحكون في وقار ، ويتحدثون عن الوطن في حماس ، فأقول : لا نامت أعين الجبناء !

وذات ضحى اقترب مني المرحوم عبد الفتاح حسن ، ونحن ننشر بطاطيننا في الشمس ، وهمس في أذني دون أن يوجه إلى الحديث مباشرة : خلي بالك من فؤاد باشا . وهزني حدب الرجل العجوز على صديق عمره ، وأشرت إلى عيني بسبابتي دون أن أتكلم ، ثم مسحت بهما دموعي وأنا ابتعد عنه بسرعة .

وكان يوم ١٧ سبتمبر ١٩٨١ واحداً من أيام الحزن العظيم في عمري . كانت زنزانتنا قد استكملت استعداداتها لإصدار العدد الأول - والأخير - من المجلة الإذاعية « الزنزانة » في مساء اليوم نفسه . وكنا قد اذعنا اعلانات مثيرة عنها ، فرئيس مجلس الإدارة والمحرر الرياضي هو فؤاد سراج الدين ، ورئيس التحرير هو محمد عبد السلام الزيات ، ومدير الإعلانات والتحرير ومذيع الربط هو العبد لله . وفي العدد خبطة صحفية عالمية ، فقد حصلت - بمساعدة فؤاد سراج الدين - على موافقة من محمد حسنين هيكل لاجراء أول حديث معه على الهواء . .

وقبل صدور العدد بست ساعات توالت انباء السوء تترى : جاء طبيب

السجن والمأمور ليطالبا الزيات بأن يجمع حاجياته لينتقل فوراً إلى المستشفى ، وإلاَّ فالسجن غير مسؤول عن حياته ، لأن حالته الصحية حساسة للغاية . ورفض الزيات بعناد . وحين سألته محاولاً أن أخفى جزعى عليه عن السبب ، أكد لى أنه يعرف حالته ، ويشعر أنها مستقرة ، والمح لى ـ لأول مرة ـ ومن طرف خفى بمخاوفه من أن يستدرجونه إلى مكان بعيد يتخلصون فيه منه بعيداً عن رقابتنا ، نحن أصدقاؤه وأبناؤه . . وتشاورت مع فؤاد سراج الدين . . ومع أننا أخذنا شكوك الزيات مأخذ الجد ، فقد كنا ـ أيضاً ـ نخشى أن يكون كلام الطبيب صحيحاً ، وأن نتمسك ببقاء الزيات معنا ، فيصيبه مكروه . . وتوصلنا إلى حل وسط ، هو أن يصر ـ ونصر معه ـ على نقله إلى أحد المستشفيات الجامعية ، وليس إلى أحد مستشفيات السجون ، لكى يكون فى كفالة اطباء ذوى ضمير مرهف !

« وبعد مجموعة من الاتصالات ، أعلنت إدارة السجن موافقتها على طلبنا ، وغادرنا « الزيات » قبل الغروب بقليل ، واحتضنته مودعاً ومشجعاً ، وهو يهمس فى أذنى تحاول تعرف أخبار عن الدكتورة لطيفة . . وجاء موعد صدور العدد الأول من « الزنزانة » وحزن متفجر غاضب يشمل كل خلية فى القلب والروح والجسد ، وكان على أن أحل محل الزيات فى القاء افتتاحية العدد . فنسيت كل ما اتفقنا عليه من أن تكون المجلة خفيفة ، وأن تتوقى الحديث فى السياسة ، إذ كان النبوى اسماعيل قد وضع أجهزة تصنت تنقل إليه ، ما نقول لينقله إلى السادات يوماً بيوم . وخصصت الافتتاحية للحديث عن الزيات ، فحييت ضميره النقى الذى رفض أن يساوم على ما يعتقد أنه الصواب ، وأرسلت إليه بتحياتنا وتضامننا . وقلت أن هذا السجن يضم ثلاث ثورات هى ثورة

١٩١٩ ، وما تفرع عنها ، وثورة ١٩٥٢ وما تولد منها ، والثورة القادمة التى ما زالت فى علم الغيب . . ونبهنى فؤاد سراج الدين إلى أننى قد « سخنت » أزيد من اللازم . . وتوالت مواد العدد . وفى الصفحة قبل الأخيرة ، طلبت من كل واحد من المعتقلين أن يوجه رسالة إلى أى إنسان يختاره فى الخارج . . فإذا بالرسائل تتوجه إلى الزوجات والأولاد والآباء والأمهات ، وإذ بجو الحزن يخيم على السجن ، وإذا به يقودنى مرة أخرى إلى الغضب فأخصص للصفحة الأخيرة بيتين من الشعر ، الأول : نشكو إلى الله أنا نزلنا بمنازل تحكم فى أسادهن كلاب والثانى : ودعا الله عليك فى محرابه الشيخ والقسيس والحاخام . وقال صبرى مبدى : بس الحاخام ما بيدعيش عليه . . قلت : معلش . القافية تحكم . وفى الصباح كنت أنقل إلى التأديب بتهمة القاء قصائد شعرية تعرض بإدارة السجن !

حين عدت . أنا وحمدين صباحى ـ من التأديب بعد عشرة أيام سكنا معاً ، وما لبث الزيات أن عاد من المستشفى فأقام معنا فى الزنزانة ٢٣ وبعد وصوله بقليل ، فوجئت بأنبوبة أكسجين تفوقنى طولاً تدخل الزنزانة لتستقر بجوار سريره ، وجاء الطبيب فناولنى حقنتين زجاجيتين ، أحدهما ـ فيما أذكر ـ أمينو فيللين ، وطلب منى أن أعى جيداً تعليماته ، إذ كان على إذا أدركت الزيات أزمة قلبية ، أثناء اغلاق الزنزانة فى الليل أن أسرع بتحطيم رقبة الحقنة ، واسقيه محتواها ، وأن أفتح الأنبوبة ، وأمد خرطومها نحو انفه ليستنشق الأوكسجين .

وأصابتنى حالة غباء ، فاستعدت الشرح أكثر من مرة . . ومع ذلك فقط ظللت ليال طويلة خائفاً ـ إلى درجة الرعب ـ أن تدركه الأزمة ،

فارتبك وأسىء التصرف ، فيحدث شىء أظل أبكيه طوال العمر . وعلى امتداد الليالى ، كنت أظل متيقظاً بعد نومه عدة ساعات ، أتأمل وجهه المستنيم للراحة ، وأتابع انتظام تنفسه ، حتى يخطفنى النوم . .

وفى كل صباح ، كنا نفتح عيوننا مبكراً على شقشقة العصافير ، فأشعر براحة عميقة لأن الذى أخشاه لم يحدث ، وكان أول سؤال يبادرنى به هو :

ـ هو ابن الـ« . . . . » ده حابسنا ليه !

ثم نضحك من زمن العجائب الذى عشنا حتى رأيناه . وأسأله بفضول عاشق للتاريخ عن أشياء . . وأشياء . . فيروى تفاصيل كثيرة ، أظل التهمها حتى يستيقظ بقية الزملاء . . وتبدأ دورة السجن العادية . .

وقد أدهشتنى صلابته ، إذ لم تكن التهمة التى سعى السادات لتلفيقها له ، ووضع من أجل ذلك ، أجهزة تصنت لمدة عامين كاملين فى منزله ، مما يمكن لرجل فى مثل تاريخه ومقامه ، أن يحتمل مجرد توجيهها له .

وكنت أشعر فى كثير من الأحيان ، بتعاطف قوى معه : هذا رجل عجوز ومريض ووحيد ، يدفع ثمناً باهظاً لأنه دافع عن الصواب . وكان فى استطاعته أن يتواطأ ويصمت فيشارك فى المغانم . هو الذى قال سيد مرعى فى عام ١٩٧٠ ، معترضاً على ترشيح السادات لرئاسة الجمهورية :

ـ عايزين تجيبوا السادات . ده شبخشيخة فى أيد الزيات .

لكنه ـ بعد شهور قليلة ـ يختلف مع السادات ، ويقاوم اتجاهاته التى كان بحكم قربه منه قد اكتشفها ، ثم يركل مقعد نائب رئيس الوزراء

ببساطة ، ولا يجلس فى الظل ، وإنما يظهر فى الاجتماعات العامة ، ويؤلف كتاباً عن دستور ١٩٧١ الذى انقلب عليه السادات ، ويدعو لتشكيل ائتلاف المصريين لانقاذ الوطن من الأخطار التى تتهدده ، فتتكأكأ عليه قوى مجنونة لكى تسلبه حياته ، وتشوه عطاءه للوطن . . لكنه ـ رغم انبوبة الأكسجين التى ترعبنى ـ يبدو قوياً وصلباً . . ومستعداً للفداء . .

وأحببته بلا تحفظ ، حين وجدته ـ رغم كل ما فعله به السادات ـ يحرص على الا تتجاوز الخصومة السياسية اطارها ذاك ، ويرفض بترفع نبيل أن يخوض فى سيرة خصمه الشخصية ، أو أن يهدر خصوصياته ، أو يمس أسرته ، أو يذيع ما أؤتمن عليه من أسراره الشخصية ، حين كانا أصدقاء . . وهى فضيلة نادرة فى الصراع السياسى على الطريقة العربية عموماً . . والمصرية خصوصاً !

وذات مسامرة من مسامراتنا الصباحية ، أنبأنى أنه سيقلب التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى ، إلى عريضة اتهام ضد السادات ، وسيذيع كل ما لديه من حقائق ، ليعرف الناس ـ كما قال لى ـ من فينا الخائن . . ومن فينا الجاسوس . ومع أننى تحمست ـ سياسياً ـ للفكرة ، إلاَّ أن نظرة إلى أنبوبة الأكسجين بجوار سريره ، جعلت قلبى الذى يتحدث ، فظللت أحاول اثناءه عنها ، وأكرر المحاولة . . وأنا فى ذهول من الدروس التى يعطيها لمثلى ، ولمن بعدى ، هؤلاء الحفنة النادرة من حراس الوطن القدماء . . فهل استطيع أن أكون فى صلابته ، حين أصل إلى مثل عمره ، أو أكون فى مثل ظروفه .

وفى صباح ٧ أكتوبر ١٩٨١ ، تقدم قائد المعتقل موكباً يضم كل الضباط . . ووقف أمام كل زنزانة من الزنازين ، فهمس بشىء لمن

يقيمون بها ، اختفوا على أثر سماعه . وحين مر على زنزانتنا تخطاها ، إذ كان من عادة الزيات إلا يحفل بزيارة القائد ، ولا يغادر سريره ، بل يتعمد أن يضـع ساقـاً فوق أخـرى وهـو فى رقـدتـه كلمـا رآه مقبـلاً . . وكنت و « حمـدين » ، معـدوذين من « فـرع الشقـاوة » الـذى يتخـطى لـوائـح السجن . . ولكن مجمل الشواهد جعلتنا نستنتج ما جـرى ، وبمجرد أن فتحت الزنازيـن ، وخرج « عادل عيد » من الزنزانة المقابلة هاتفاً :

ـ تحيا مصر . . تحيا مصر . .

حتى رددنـا الهتـاف نحن الثـلاثـة وراءه : مـات السـادات وعـاش الوطن . .

وقرر « الزيات » ألا يقول شيئاً !

. . حدث الآن يا أيها البدر الذى يتوسط كبد السماء ، ما ظللت ليال طـويلة أخافـه وارتعب من وقوعـه ، مات محمـد عبد السـلام الزيـات . فتعالى نبكى فى جنازته . . ننفخ نوبة رجوع للحرس القديم . نشتله فى رحم الوطن الذى منه جاء . وله عاش . نزرع رفاته فى الأرض . تنبت عظامه أشجاراً تنشر الخضرة فيتفتح نوار الحقول . . يفيض النهر . . تطفو أشلاء « أوزيريس » ، ينهض حوريس من بين الحلفا والصبار الأشواك ، فتيا عفيا . . ننشد في جنازته :

يا صَبَّ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان .
مصر الاسيفة ريفها وصعيدها قبر أبرَّ على عظامك حان .
يا طاهر الغدوات والروحات والأسرار والاعلان . .
أقسمت أنك فى التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان !
ونجفف الدموع !

(*) الأهالى ـ العدد ٣٠٢ ـ فى ٢٢ يوليو ١٩٨٧ .

والجروح قصاص

حين ولد خالد الاسلامبولى فى ١٤ نوفبمر ١٩٥٧ ـ بمدينة ملوى بصعيد مصر ـ كان أنور السادات قد أشرف على عامه الأربعين : وكيلاً لمجلس الأمة ، ومديراً عاماً للدار الصحفية التى أنشأتها الثورة ، وسكرتيراً عاماً للمؤتمر « الإسلامى » . .

سنوات طويلة مرت ، لم تمح من ذاكرته شغب الشباب ـ ولم تكن شمسه قد غربت بعد . وكان قد تسرب إلى الكلية الحربية ضمن جيل « أبناء الأفندية » الذى تسلل اليها عقب توقيع معاهدة ١٩٣٦ . على مشارف الحرب العالمية الثانية ، ومع صعود النازية والفاشية ، قدر الانجليز الذين كانوا يحتلون مصر أيامها ، أن مصلحتهم تقضى أن يدعموا الجيش المصرى ـ الذى حطمت الخيانة كبرياءه النبيل فى هزيمة التل الكبير المريرة ـ لعله يفيد إذا ما اضطروا لاشتباك وشيك مع النازية الصاعدة ، ولو بحراسة الطرق والكبارى !

وهكذا تقدم الابن الأكبر لمحمد أفندى السادات ـ الكاتب بالادارة

الطبية بالجيش ـ لكشف الهيئة ، فلم يطالبه أحد من أعضاء اللجنة ـ ضباط أرستقراطيون ذوى أصول تركية وجركسية وفيهم انجليز ـ بكشف العائلة . لم تكن هناك عائلة : مجرد « كارت » توصية ، داخ الأب الفقير كى يحصل عليه من ضابط انجليزى ممن خدم تحت رئاستهم ، أتاح للابن أن يصبح ضابطاً . بطريقة مشابهة أصبح جمال : ابن عبد الناصر أفندى حسين ـ وكيل مكتب بريد الخطاطبة ـ طالباً بالكلية الحربية .

لم يكن أحد ممن أوصوا بهم يتخيل أن يوماً سيجىء ، ينقض فيه أولاد الأفندية على من منحوهم « كروت التوصية » فينهار عالم ويولد عالم جديد . ذلك أيضاً لم يتخيله أحد من سكان شارع الطوخى بملوى ، الذين احتفلوا ذات يوم من نوفمبر ١٩٥٧ بسبوع خالد الابن الرابع لأحمد أفندى شوقى الموظف بشركة السكر . .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير . إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل . وتخرج الميت من الحى ، وتخرج الحى من الميت ﴾ .

صدق الله العظيم

وحين كان الزمن ثلاثينات القرن تكون وعى السادات السياسى . سنوات الأزمة الاقتصادية الطاحنة . تدهورت أسعار القطن ومقامات الناس . انتشرت البيوع الجبرية وهراوات بوليس الديكتاتور اسماعيل صدقى . أنباء التفليسات هى مانشتات الصحف غير المنشورة ، أما قرارات اغلاق الصحف فكانت تذاع حين لا يجدها الناس مع الباعة . خفتت أحلام ثورة ١٩١٩ المتوهجة . انتهت المطالبة بالاستقلال التام ولو

بالموت الزؤام ، ليموت المصريون برصاص المصريين فى مظاهرات تطالب بالدستور . ويوم ثار عمال العنابر حاصرهم الجيش واثخنهم جراحاً .

كان العقد عنفاً هائجاً متوحشاً ، وشعوب تنتفض لتكسر دائرة العنف الجهنمية . في ليبيا كان السفاح « جرازياتى » يوثق الثوار المسلمين بالحبال ، يلقى بهم من الطائرات . يضحك قائلاً :

خللى محمد ينجيكم . .

لو كان محمد افندى السادات قليل الاهتمام بشؤون وطنه أو شؤون الدنيا حوله ، ما اختار لأبنائه أسماء أبطال الاتحاد والترقى : محررو تركيا الفتاة ، وبناة ما كان مجدها الحديث : أنور وطلعت وعصمت . وحين سئل أنور السادات ـ عام ١٩٥٣ ـ عن الكتاب الذى أثر فى حياته ، اختار كتاب أرمسترونج عن مصطفى كمال أتاتورك وقال : منذ قرأته لم أستطع أن أنام . وتغيرت حياتى تماماً . لكن أسمه ـ بعكس اسم جمال عبد الناصر ـ لم يظهر على خريطة تمرد الثلاثينات . ولعله كان مشغولاً آنذاك برغبته أن يكون ممثلاً فى فرقة يوسف وهبى . .

فى منتصف الثلاثينات تقدم رجلان ليقصا شريط الدم . كان ـ أولهما عبد الحكم الجراحى ، مصرياً وسيماً فى عمر الزهور ، يدرس الآداب ويقرض الشعر. قال : كيف لا يكون لطلبة الجامعة حصانة أدبية تمنع اعتداء الجند عليهم ما داموا بمعزل عن الجريمة ؟ نهره الضابط الانجليزى فلم يذعن ، أضاف : أتود أن تضربنى ؟. وهل هذا من الشجاعة ؟. هاك صدرى اطلق ليز الرصاص . مزق الغشاء البريتونى . من قال أن المستعمرين شجعان ؟ مات عبد الحكم المثالى البرىء كتب

بذمة رسالة للمستر بلدوين رئيس وزراء انجلترا : روح الشر . فى جنازته بكى الشباب وهتفوا : رفعت العلم . . يا عبد الحكم !

كان الآخر شيخاً لأحد مساجد فلسطين . لم يكن أحد يعرف أن تحت عمامته عقل فدائى . وأن فى جيب قفطانه مسدسات ، وأنه قد وصل إلى قناعة بأنه لا فائدة من ايقاظ ضمير المستعمرين . وأن الاستعمار عنف لا يرفع يده إلاَّ بعنف مثله . وحين قتل عز الدين القسام - فى أحراش يافا - كان العربى الجديد قد تعمد بالدم : آن للذين استذلونا واستباحوا أعراضنا ، وقسموا أوطاننا وصنعوا منا هراوات نضرب بها أنفسنا ، آن أن يدفعوا الثمن .

بدأت رحلة الخروج الكبيرة . انسحب أبناء الأفندية من مظلة الوفد الكبيرة الفضفاضة . اختلف ورثة ثورة ١٩١٩ . من الآن فصاعداً ، وبالذات فى الأربعينات ، سنسمع عن مصر الفتاة ، وعن الأخوان المسلمين ، وعن الشيوعيين . آذان الجيل تتابع خطى النازية الزاحفة لسحق الاستعمار القديم ، تحلم بوطن ترفرف عليه أعلام المجد المنكسة . القمصان الخضراء والقمصان الزرقاء وملابس جوالة الأخوان الصفراء . فى سنة من سنوات آخر العقد ، دخل أنور السادات الكلية الحربية بكارت توصية من ضابط انجليزى ، وكف عن التفكير فى أن يكون ممثلاً فى فرقة يوسف وهبى . وفيما بعد قال إن ميتة الجراحى كبدته الماً لا يطاق ، وكانت السبب فى تفكيره فى دخول الكلية الحربية ، حتى لا يواجه المصريون بنادق الانجليز بمجرد لحمهم الحى .

كانت الأربعينات هى شباب السادات المخطوف المسلوب . قضاها مفصولاً ثم معتقلاً فهارباً فمشرداً وجائعاً وهائماً على وجهه ، وهى التى

صنعت منه ـ فيما بعد ـ تلك الشخصية النادرة التى ستحير المؤرخين والمحللين . حوادثها ذائعة معروفة . رواها بنفسه صوتاً وصورة . كتبوها له ومثلوها . مسرحوها . لكن أحداً من المهرجين لم يستخبر دلالتها على الرجل ، وفيها سره المطوى . من عوامة الراقصة حكمت فهمى بدأ . ذهب يصلح جهاز اللاسلكى للجاسوسين الألمانيين ابلر وساندى أبلغت عنهما إحدى فتيات الوكالة اليهودية فى مصر . إعترفا عليه . حاكموه . نزعوا رتبته العسكرية . اعتقلوه . فى رقبته كوم لحم : زوجة وثلاث بنات غالبت احداهن الجوع والمرض فغلباها . حين هرب من المعتقل عمل سائقاً وتباعاً وكاتباً لمقاول . وكان يردد :

ـ آه من قلة الزاد وطول السفر .

سادات الأربعينات هو شباب مصر الذى لم يقبل عليها ذلاً ، ولم يرض لها امتهاناً ، فباعها نفسه دون أن يسألها ثمناً . وليس مهما أن اجتهاده كان صحيحاً . المهم أنه لم يقعد فى بيته ووطنه مختل ومنتهك . لم يقل : وانا مالى . باع البدلة العسكرية وكانت تساوى كثيراً فى تلك الأيام السوداء التى اختفى فيها الخبز فخرجت المظاهرات تهتف إلى الامام يا روميل . أما الويسكى فكان يملأ شوارع القاهرة ، وتتصدر اعلاناته صفحات الصحف .

جنود من كل لون وجنس وملة ودين : أفريكان وسنغال وهنود وباكستانيين وأفغان ، انجليز وأمريكان وفرنساويين . عالم يلعب بالرصاص والقنابل وقناديل المغنسيوم كباريهات وعلب ليل وأغنيات تجمع بين الكلام المسموح به وايقاعات غرف النوم . قال الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى : هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل فاعلنوا القاهرة مدينة مفتوحة . أفكار وآراء

وشعـارات : الله أكبر ولـك الحمد . الله أكبـر والمجد لمصـر . القـرآن دستـورنا والـرسول زعيمنـا والموت فى سبيـل الله أشهى أمانينـا . الخبز والحرية . مصر فوق الجميع . مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكنا .

حين أوشكت الحـرب على الانتهاء ، كان الجيل القديم ما زال يكرر كلماته : لا بد من اعادة فتح باب المفاوضات فلتنفذ انجلترا العهود التى بذلتها خلال الحرب ، ولتعدل معاهدة ١٩٣٦. جاء أوان الجلاء . لا بد من معاهدة جديدة تحفظ لمصر علاقـة « شريفـة » مع حلفـائها فى « العـالم الحر » . قدمت انجلتـرا على لسان قـادتها ٧٤ وعـداً بالجـلاء عن مصر والسودان منذ الاحتلال عام ١٨٨٢ وينبغى أن تنفذ واحداً منها .

بين قادة الجيل القديم تميز أمين عثمان بالدعوة لشىء مختلف . انشأ رابطة النهضة لترعى الصداقة بين مصر وانجلترا . تحلق حولـه شباب من الجيل الجديد يسمعه وهو يقول أن العـلاقة بين مصـر وانجلترا كـالزواج الكـاثوليكى لا انفـصـام لها مهمـا كان الـزوج شرسـاً ردىء الأخـلاق ، خائناً . ويضيف :

ـ انجلتـرا غلبت المانيـا فى الحرب . . فيـه ناس مجـانين عـاوزين يحاربوها . . أنا عاوز أعمل منكم ليدرز (يعنى قادة) !

لم يستطع أمين عثمان أن ينفذ إلى قلوب الشبان المجـانين ، الذين كـانوا ـ ومنـذ بدأت الحـرب ـ قد ولغـوا فى دم جنـود الاحتـلال ـ حملوا السلاح بالفعـل . رأوا فيه فتـوة جيل المسـاومات والمفـاوضات الحلول الوسط منظر الهزيمة ومفلسف التبعية . قالوا :

ـ دابيفلسف الهزيمة . . على الأقل الزعمـاء التانيين وشهم الـظاهر للشعب بيدعى عداء الاستعمار . . لـكـن دا بيقول لازم نفضل متجوزين الإحتلال !

وتتعقـد الفكرة ، ويعـطيها أنـور السـادات ـ أكبـرهم سنـاً وأوفـرهم تجربة ـ دفعة قوية : لا بد أن نبيد جيل ثورة ١٩١٩ الجيل الذى أضاع الثورة فى الخطابات المتبادلة مع لندن الباحث عن وزارة انجليزية معقولة يفاوضها ، لكى يحصل على الفتات . شـاخ الاستعمار رغم أى انتصـار والضرب فيه الآن مؤثـر . انجلترا لا تحكم مصر بجيش الاحتلال ولكن بـالخونـة من ابنائهـا . لـولا خيـانـة محمـد سلطان بـاشـا وعلى خنفس والخديوى توفيق ما دخل الانجليز مصر . لن تمر معاهدة جـديدة . ولن نسمح لجيل التفريط فى كرامة الوطن أن يوقع على مزيد من الصكوك . .

إلى جبل المقطم قادهم السادات ، ثلة من طلاب المدارس الثانوية وطـلاب جامعـة فؤاد الأول ـ باعتبـار ما كـان ـ لم يكن أكثرهم قـد خلع البنـطلون القصير إلاَّ منـذ سنوات قليلة ، لكنهم ـ مـع ذلك ـ قفـزوا إلى الرجولة قبل الأوان . لم يعيشوا طفولتهم . لم يعش أنور السادات أيضـاً شبابه . وجدوا أنفسهم وكل ما يشغلهم هو أن يضغطوا على تتك المسدس ليقتلوا جنود الاحتلال الذين كانـوا يجوبـون شوارع القـاهرة ، يمـرحون ويضحكون ويعاكسون النساء ويحولون بنـات الناس المسـتـورين إلى مـومسـات . والآن ـ ١٩٤٥ ـ دربهم السـادات على استخـدام القنـابـل الميلز . ومن فوق الجبل انقض الجيل الجديد على جيل ثورة ١٩١٩ . فشلت المحاولة الأولى لقتل مصطفى النحاس . بعدهـا بـأسـابيع دخـل حسين توفيق إلى باحة العمارة رقم ١٤ بشارع عدلى باشا ، وأطلق ثلاث رصاصات على أمين عثمان ـ الذى كان صاعداً ليصنع من أعضاء رابطته « ليـدرز » ـ فأرداه قتيـلاً . فى المرتين كـان أنور السـادات ـ المخـطط ـ جالساً فى سيارة ينتظر رفاقه ليهـرب بهم فى الزحـام الذى يعقب اطـلاق النار .

مياه كثيرة مرت فى النهر بعد ذلك . اطبقت الزنازين ـ للمرة الثانية ـ على السادات ، وللمرة الأولى على رفاقه الصغار ، ثلاثون شهراً كاملة ، ناءت خلالها الدولة الشائخة بكل كلكلها على الضابط المفصول المشرد : تهديد وترغيب ووعيد واغراء . حتى النهاية صمد . كان الوحيد الذى لم يفتح فمه بكلمة وقد اعترف كل رفاقه عليه . ماذا دار بذهنه خلال شهور الحبس الانفرادى الطويل المرير الذى لا يعرف عذابه إلاّ من كابده من الرجال .

ولأنه أكبرهم سناً ـ ٢٦ عاماً آنذاك ـ وأغناهم تجربة ، فقد أدرك أن الاعترافات المتبادلة ، قد خلقت احتقاراً متبادلاً يوشك أن يحطم الرجال الذين كانوا يوماً صفاً واحداً يستعذب الموت فداء للوطن ولرفاق الصف . وان استمر هذا المناخ سيمزق هذا الشباب الصغير ويشوهه ، فيفقده الوطن إلى الأبد . . فملك ـ هو الذى لو أخذ القضاء باعترافاتهم عليه لشنق بالتأكيد ـ صفاء الذهن ودعاهم للتسامح . وقادهم فى معارك صغيرة ضد ادارة السجن ، أعادت لهم توازنهم النفسى وحررتهم من احتقارهم لذواتهم . وفى المحكمة صرخ فى وجه النائب العام ، محتجاً حين جاء يسحب كلمات قالها وكيله المترافع ضد الاحتلال ، فأزاحت غضبته رماداً كثيراً وتذكر الواقفون فى القفص حوله ، أنهم مقاتلون من أجل وطن وشعب ، وليسوا مجرد معترفين ، لعب بهم ضابط الأمن السياسى ليذلوا كبرياءهم الرفيع . وكانت تلك قمة السادات كمقاتل . . وإنسان .

أيامها كانت مصر تنتفض من أقصاها لأقصاها . أصبح السلاح لعبة الجيل الجديد ، انتشر لصوص الكامبات يسرقون سلاح المحتلين . اختلط المقاتلون باللصوص بالمغامرين بتجار السلاح . اكوام الرصاص والقنابل والبنادق التى تركتها الجيوش المتحاربة فى الصحراء الغربية

تسللت إلى يـد شباب كـان مقدراً عليـه أن يلغ فى الدم لأن الـوطن لن يتحرر إلاَّ به . لم يكن السادات وجماعته سوى قطرة فى بحر العنف الذى ينبىء بمخاض ميلاد مصر الجديدة : مصر التى لا يأكل الناس فيها زبالة جيش الاحتلال فتنتشر الكوليرا والبلاجرا والحمى الراجعة ويمـوت آلاف الأ[illegible]اء فى الطرقات والمعازل .

حين خرج السادات من السجن ، بحكم براءة ، كانت شمس النظام القديم تغرب ، وبعـدها بسنـوات قليلة ، انقض أولاد الأفنديـة على من منحوهم كروت التوصية ، وانهار عالم بكل رموزه ، وبدأ عالم جديد !

لكنه قبل أن ينهار كان عبود الزمـر قد ولـد فى سنة من سنـوات آخر الأربعينات ، فى قرية ناهيا القريبة من القاهـرة من أسرة منحت تـأييدهـا للثورة العرابية ، وكان جندى بوليس فقير قد رزق بـولد عـرف فيما بعـد باسم : طه السماوى . وكان مقدراً لكل منهما أن يلعب ـ فيما بعد ـ دوراً فى مقتل السادات .

●● مـا العلاقـة بين السادات الـذى قتله الاسـلامبـولى ورفـاقـه ، والسادات الذى قتل مع رفاقه أمين عثمان ؟ !

●● أين سادات السبعينيات من سادات الأربعينيات ؟

●● ماذا جرى للرجل فحوله هذا التحول الغريب؟! . وفى أى لحظة من عمره العريض يكمن سرة يوم مـاتت ابنته جـوعاً ؟ . أم يـوم مد يـده يتكفف الناس القوت كى يستمر كوم اللحم الذى تركه بلا زاد ؟

●● كيف تحـول الرجـل الزاهـد المتقشف إلى مهراجـاً : صاحب بـلاط وحاشيـة ومضحكين وبوليس يفعـل ما فعله ابـراهيم أمام ومحمـد الجزار وتوفيق السعيد مع رفاقه قبل أربعين عاماً . .

●● أهـو الثأر من سنـوات الجوع والفقـر والتشـرد ؟ . أهـو شبـابـه المخطوف المسلوب الذى منحه لمصر غيـر باخـل أو متردد ؟ . ثم جـاء الزمن الذى رأى أن من حقه فيه أن يسترد كل ذلك ، فيثرى ويثرى ابناؤه ويشبع ويشبع أشقاؤه ، ويعوض سنـوات الحرمـان ؟ . ويدفـع له الـوطن دينه ؟ .

●● أهى السنوات العشرين التى قضاها بجوار عبد الناصر ، بلا جاه ولا نفوذ ولا كلمة مسموعة ، كامناً ـ كأولاد الليل ـ فى الظل ينتظر فـرصاً يهتبلها ليأخذ ما يظن أنه حقه . يصعد من حوله رجال ، كان يرى أنهم لم يدفعوا ما دفع . . ولم يضحوا كما ضحى ، ولم يمنحوا مصر شبابهم كما منح ؟ .

كان السادات هو الذى منح الجماعات الاسلاميـة « كارت تـوصية » لكى تستأنف نشاطها ، وتواصـل عملها ، وظلت لفتـرة طويلة تنشط فى حماية نظامه ، وبتشجيـع رجـالـه . كـان الزمن زمن التحـالف للثأر من ذكرى عبد الناصر . وكان جرح الأخوان المسلمين طرياً لم يزل ، تفتحت عيون الجيل الجديد من ابنـائهم على آباء غيبتهم السجـون . وذكريـات تعذيب يبلغ من البشاعة حداً لا يطيقه جماد .

أخذ الجميع كروت التوصيـة ، ساروا معـه شوطـاً فى الطريق ، آن يفترق الصحاب ، بهتـت صـورة ثائـر الأربعينات . تنـاسخت روح أمين عثمان فى جسد السادات الشيخ . فى خطبه الأخيرة ـ وخاصة بعد زيارة القدس ـ نفس المعانى التى قالها أمين عثمان يوماً : انجلترا غلبت المانيا فى الحرب . . فيه ناس مجانين عايزة تحاربها . .

. . . .

افتتح الملازم أول عطا طايل حميد رحيل (٢٦ سنة) محضر التحقيق معه باسم الله ، تلى قوله عزَّ وجل :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن، والجروح قصاص ﴾ .

صدق الله العظيم . .

. . والحياة تمضى !

(*) « الأهالى » العدد ٥٢ فى ٦ أكتوبر ١٩٨٢ .

رجلان في زمن غادر

١ ـ الرحيل :

التقيت بعبد الفتاح الجمل صدفة فى بيت صديق فلسطينى . جاء متأخراً ، ولم أكن أعلم أنه مدعو مثلى ليشاهد ـ بالفيديو ـ أفلاماً تقص مشاهد رحيل المقاومة الفلسطينية من بيروت ، لم أدهش حين رأيته ، فطوال عشرين عاماً عرفته فيها ، كنت ألقاه معظم الأحيان بالصدفة : سارحاً فى الطريق ، أو جالساً على مقهى ، أو واقفاً أمام رفوف مكتبه . وفى كل مرة أشعر كأننى لم أفارقه يوماً . .

وحين جلس إلى جوارى أمام شاشة التليفزيون ، بدأ وكأنه لم يتغير أبداً عن اليوم الذى عرفته فيه أوائل الستينات . دون مناسبة ظاهرة سألت نفسى : أكانت تلك الشعيرات البيضاء فى فودية موجودة آنذاك ؟ . أم أنها تسللت إلى الوجه الضحوك فيما تلا ذلك من أيام ؟ . عصتنى الذاكرة . .

فى استراحة قصيرة بين مشاهد الرحيل ، مال على . . همس فى أذنى :

ـ أنا كمان رحلت . . طلبت إحالة نفسى للمعاش . . وانتهى الأمر . .

كان الخبر مفاجئاً وغادراً . ولعله هو نفسه لم يقدر معناه بالنسبة لى . تجنبت أن أنظر إليه . ركزت انتباهى فيما هو أمامى : فدائيون مبتسمون . مودعون يرفعون أيديهم بعلامات النصر . طاقات زهر . . أحضان وقبلات وزغاريد ودموع تفيض بها عيون لم تنم . كل ذلك جميل لكنه لا يطمس الحقيقة التى ملأت قلبى الموجوع : ها نحن نغادر ديارنا بأمر الغرباء ، ونتركهم فيها أو نتركها لهم . .

فكيف استطاع قلب جيلنا التعس أن يتحمل كل هذا العناء دون أن ينفجر ؟ .

وحين كان جيلنا يتحسس طريقة ليقول كلمته ، قادماً من القرى والنجوع وشوارع المدن الخلفية ، محملاً بخجل الريفيين وشكوكهم فى أهل البندر ، وببعض جلافة ولدتها حياة قاسية تفتقد للرقة وتخلو من النعومة ، التقينا بعبد الفتاح الجمل فى مكتب لم يغيره الزمن ، بركن قصى من صالة تحرير « المساء » الواسعة ، ظل ما يقرب من ربع قرن ، معمل تفريخ لمواهب متجددة فى القصة والشعر والنقد والصحافة . .

ويوماً بعد آخر تخلقت له فى وجداننا صورة ظلت تتواتر بيننا حتى نقلناها إلى أجيال أخرى تلتنا لعلها جاءت من نفس الحوارى والنجوع والقرى ، تحمل قصصاً وأشعاراً ومقالات فى النقد والتاريخ وفى الفكر والفلسفة ، تصدر عن قلوب تفيض بالأشواق لعالم جديد : شباب متمرد غضوب ، يخدش أبواب الغد الموصدة بالظفر والناب . يحلم بالدنيا وبالناس ، ويذوب شوقاً للتعبير عنهم ، والتواصل معهم . يقرأ تاريخ الوطن ، ويتغنى بمواويل الفلاحين ، ويتغزل فى اسطوات المكن . .

ويتوق لبلد بلا بلهارسيا أو أنكلستوما تطارد مباحثه اللصوص لا المفكرين ، والقوادين لا الحالمين بالغد ، وينتظر أمه بدون اسرائيل . وبلا مخيمات لاجئين . يقترض ثمن الكتب والسجائر ، ويهرب من المقاهى لأنه لم يدفع المتراكم من الحساب ، تضيق به الدنيا ، ويضيق بها أحياناً ، فينغمس فى آكل نفسه وينهش لحوم الناس .

لأنفسنا ـ ولمن جاءوا بعدنا كنا نقول :

ـ اذهب لعبد الفتاح الجمل . . ستجده جالساً فى ركنه العتيد بصالة تحرير المساء . . لن يسألك عن اسمك أو اسرتك أو سابق شهرتك أو مذهبك السياسى أو موقف الحكومة منك ولن يطلب أن تنافقه أو تمدحه أو تتذلل له ، قدم له ما كتبت . . إذا كنت موهوباً فستجد ما كتبته منشوراً فى الملحق الأدبي للمساء ، أو فى صفحتها الثامنة . .

وهكذا ظل « عبد الفتاح الجمل » عشرين عاماً أو يزيد ، يزرع الزهور ويستنبت المواهب ، ويسعى لتجميل الوجه الحضارى للوطن ، لم يفقد يوماً الثقة فى أن أرضه الولود ستنبت جيلاً جديداً يخمش بأظافره أبواب الغد ، وظل ينتظره فى مكانه العتيد ، ليرعاه ويحنو عليه ، ويصقل عثراته بذوقه الأدبى الرفيع ، ويضرب له ـ دون تعمد أو تحذلق أو جعجعة ـ مثلاً عليا فى الترفع عن الصغائر وشفافية الروح ، وفى الانتماء والعطاء . .

كنت أحسب ضحكته المترعة استهتاراً بهموم الدنيا ، وأحياناً كنت أحسده عليها ، وأتمنى أن آخذ الحياة ببساطة كما يأخذها ، لكننى أدركت ـ متأخراً بعض الشيء ـ أنها تعال على تفاهات كثيرة ، ونفاذ لجوهر الحياة والناس ، ولعلى لم أر رجلاً يشعر بالمسؤولية ويعبد العمل والعطاء

ويتخذهما مقياساً لقيمة الآخرين مثله ، ولو لم يكن كذلك لما ارتكب فى وضح النهار جريمته الوحشية الوحيدة ، فاغتال موهبته المتألقة ، وفضل أن يرى نفسه فى الآخرين ، بدلاً من أن يراهم فى نفسه .

على الشاشة كان الفدائيون يرحلون . وكنت قد جريت فى الزمن عشرين عاماً أبحث عن أحلام جيلنا التى اغتالتها الأيام بكل قسوة وجلافة . . إذن فقد غادر عبد الفتاح الجمل مكتبه العتيد فى المساء . ومنذ سنوات وهو يذهب إليه فلا يطلب منه أحد عملاً : هذا زمن أحمد عدوية وكتكوت الأمير وحبه فوق وحبه تحت ومشى حالك . فى الشهور الأخيرة قالوا له : أنت موظف . . تعال كل يوم . وقع فى دفتر الحضور فى الثامنة . الزم مكتبك حتى الثالثة . ابق جالساً بلا عمل . تفرج على ما نفعل . اسمع عدويه وكتكوت . غن معنا : احنا اللى دهنا الهوا دوكو .

طاوعهم . يوماً واثنين واسبوعاً وشهر . لم يستطع أن يحتمل . بدأوا يخصمون أيام الغياب من مرتبه . لم يهتم : شهراً واثنين . فى الثالث قال : أمامى على المعاش ست سنوات . سلام عليكم . قالوا : فى ستين سلامة . وقفوا على مكتبه العتيد . مشتل المواهب ربع قرن أو يزيد . تحزموا . رقصوا . غنوا : احنا اللى دهنا الهوا دوكو .

كان الليل قد انتصف حين غادرنى عبد الفتاح الجمل فى ميدان رمسيس . . تأملت كيانه الدقيق وهو يدب خفيفاً بجوار التمثال الشامخ الذى تحدى القرون . يحتضن حقيبة لا أشك أنها كالعادة تحمل قصصاً وأشعاراً كتبها جيل شاب جديد ، جاء يخمش بأظافره أبواب الغد الموصدة . . قلت لزوجتى :

ـ يقولون أن هناك مشروع قانون يقضى بإعدام الذين يبورون الأرض . . هل قرأت جديداً عنه ؟!

نظرت إلىّ بدهشة ولم تجب .

٢ ـ الفلسطينى التائه :

عشت ثلاثة أسابيع أتابع أنباء المفاوضات التى كان الأستاذ خالد محيى الدين وصلاح جلال نقيب الصحفيين يجريانها مع السلطات المختصة للسماح للكاتب والمؤرخ الفلسطينى عبد القادر ياسين بدخول القاهرة وطوال تلك الفترة كان عبد القادر يعيش فى فندق المطار . ولعلى كنت متفائلاً أكثر مما ينبغى فقد كان بينى وبينه جدول أعمال انقطع منذ أربع سنوات ، وكنت مشوقاً لاستئناف الحوار حوله . وحين قال صديق فى التليفون أن المفاوضات قد فشلت ، شعرت أن يداً جلفة قد اقتحمت صدرى . . وعصرت قلبى . .

كان آخر لقاء جمع بيننا فى فندق انترناسيونال تونس قبل ستة شهور . التقيت به صدفة فى بهو الفندق . كان معه كامل خلة ومحمود درويش وأحمد أبو نار ومنح الصلح وكوكبة من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين واللبنانيين . وكنت أصحب كامل زهيرى وفريدة النقاش . . وكان محمود العالم وأديب ديمترى وغالى شكرى قد جاءوا من باريس ، وتصاعدت ضحكاتنا فى بهو الفندق ، تدافعنا نتكلم فى وقت واحد حتى عجزنا عن سماع ما يقال . بدأ الأمر مؤسياً ، فها هى أشواق وذكريات وأيام عمر مشترك ، تقف دونها بوابات حدود . وضباط جوازات ، وقوائم منع من الدخول ومن السفر ، وليس موضوع الغزو الامبريالى الصهيونى للثقافة العربية الذى جئنا لنتناقش حوله فى حاجة إلى مناقشة ، بعد أن أصبحنا

نحن العرب المصريين لا نستطيع أن نلقى العرب الآخرين إلاَّ إذا غادرنا حدودنا !

وكان عبد القادر ياسين بالنسبة لى أحد معالم الحياة الثقافية فى مصر ولا أذكر متى ، ولا أين عرفته ، إذ كان يتمتع بحيوية خارقة ، بحيث يستطيع الانسان أن يلتقى به فى أماكن عديدة ، حتى أننى احياناً كدت أشك فى أنه يستطيع أن يوجد فى مكانين فى ذات اللحظة : فى دور الصحف ودار الكتب ومقاهى الأدباء ومنازل الأصدقاء المشتركين ، وكان يحمل دائماً جدول أعمال لمواعيده ، وينفذها بدقة غير معهودة فينا نحن العرب !

وفى بداية معرفتى به كنت أحسبه مصرياً ، إذ كان مطلعاً على تاريخ مصر ، وواحداً من قرائه الأذكياء الذين لا تفوتهم بعض ملامحه الهامشية ، وكان يحدثنى عن الوفد والنحاس والأخوان المسلمين والسعديين حديث العارف . ولم تنبىء قامته الطويلة الممشوقة والجيم المعطشة على لسانه بشىء إلاَّ احتمال كونه أحد ابناء الصعيد ، وكانت دائرة من يعرفونه ويعرفهم واسعة ، حتى ندر أن وجدت أحداً من أصدقائى لا يعرفه .

وحين علمت أنه فلسطينى من غزة ، لم أدهش ، فمعظم العرب الذين التقيت بهم قد اعطونى نفس الإحساس ، وسواه فى البداية أو فى النهاية ، كنت أنسى ـ مع العشرة ـ الأقطار التى ينتمون إليها ، ولا تبقى سوى فروق هامشية ، كتلك التى نراها فى لهجات المصريين أنفسهم : دمايطة ومنوفيين وصعايدة واسكندرانيين وأولاد بلد وأولاد أيه !

وكانوا قد جاءوا بعبد القادر ياسين من غزة فى عام ١٩٥٩ ابان حملة

الاعتقالات التى شملت الشيوعيين المصريين ، ووضعوه فى معتقل الواحات . فحين تكون فلسطينياً كعبد القادر ، فأنت بلا وطن ، وبلا سجن . وبهذا أصبح كثيرون منهم ـ وخاصة المشتغلون بالسياسة ـ خبراء بتقاليد السجون العربية (والاسرائيلية أيضاً) ولعلهم العرب الوحيدون الذين يستطيعون المفاضلة بين نظم السجون فى أكثر من قطر عربى ، ويملكون الميزة التى عزت على المشتغلين بسياسة الأمة من العرب غير الفلسطينيين : حق تقرير مصيرهم واختيار القطر الذى فيه يسجنون !

عاش عبد القادر ياسين فى مصر عشرين عاماً أو يزيد ، وفيها تزوج من فلسطينية ، وبحث عن شقة ، ودفع لها خلواً كما ندفع نحن المصريين ، وأثثها وملأها بالكتب والأوراق والأقلام وقطع الأثاث القديم وعمل موظفاً بوزارة الصحة ، وأميناً لاتحاد الكتاب الفلسطينيين ، وحفظ الشوارع وأرقام الأتوبيسات واسعار الخضراوات وملامح الناس ، وصادق كثيرين ، ودفع بأبنائه لمدارسها . وبكى معنا حين كان اليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ اختلطت دموعه بدموعنا بكينا غزوة وسيناء ، وبكاهما أيضاً ، بعدت الديار وغاب الوطن ، فمتى يؤوب « الغريب » . . وإلى متى يطول الترحال ؟!

فى يوم ما من سنة ١٩٧٨ ، حملوا عبد القادر ياسين عنوة وضعوه فى طائرة ، طردوه من مصر . وكانت الوفود الاسرائيلية أيامها فى القاهرة . لم أستطع أن أودعه ، أو أرد له ما أقترضته من مكتبته ، لم يستطع أن يودع زوجته أو يرى أطفاله ، أو يلقى نظرة أخيرة على قطع الأثاث ومخطوطات الكتب التى لم تتم !

رأيته لآخر مرة فى بهو الفندق التونسى ، وكان الليل قد انتصف ، فى

والهدوء شامل ، جاء ليقول أنه سيسافر فى الفجر ، احتضنته مودعاً ، قلت له ما كنت أقوله لكل العرب الذى التقيت بهم هناك :

ـ نشوفك فى مصر قريباً إن شاء الله !

قال : بالتأكيد !

فى أى سماء أنت الآن يا عبد القادر ؟ فوق أى أرض تطير طائرتك أيها الفلسطينى التائه . فى بلدنا سفير إسرائيلي يسكن فى شقة على النيل ، ويملك وقاحة تقديم الاحتجاجات على ما نكتب . أما أنت فالقاهرة التى عرفتك ضاحكاً وباكياً وأباً وصديقاً وعاشقاً ، قد ضاقت بك . .

(*) الأهالى » ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٨٢ .

ارفعوا أيديكم عن اسماعيل المهدوى

فى بريد « الأهالى » اليوم رسالة من اسماعيل المهدوى ، أرسلها ـ كالعادة ـ من قسم ١٢ بمستشفى المجانين بالعباسية . وجدتها على مكتبى . تركت كل شىء وتفرغت لها . منذ عشر سنوات وأنا أفعل ذلك : التقطت عينى أولى رسائله ذات يوم من عام ١٩٧٣ . كانت مُعَنْونه باسم أحد الزملاء من محررى الجمهورية . استأذنته أن أقرأها .

منذ ذلك الحين ، ابحث عن رسائل المهدوى . اسأل عنها الأصدقاء . استأذنهم فى قراءتها والاحتفاظ بها أحاول أن أجمع ما فاتنى منها . أضمها إلى ثروتى المتواضعة من وثائق تاريخنا الحديث والمعاصر . أعود إليها كثيراً حين يلم بى حزن ، أو تنوشنى حالة اكتئاب ، أو تزدحم الدنيا حولى بمشاعر البلادة .

وراء هذا الاهتمام دافع ربما لا يعرفه اسماعيل المهدوى . . فهو واحد ممن شاركوا فى تكوين عقل جيلنا . . وما زلت أذكر بحثنا الملهوف عن ترجمته التى لا تتكرر لكتاب المناضل الفرنسى « جورج

بوليتزير » ، التى صدرت فى الخمسينات بعنوان « المبادىء الأساسية للفلسفة » وحين قرأناها زرعت فى طريقنا علامات استفهام ، قادتنا إلى عذاب المسير فى طريق النشوات العليا : خرجنا من قمقم انانيتنا لننتمى للناس فكشفنا بذلك ظهورنا لمن يحملون السياط . .

وحين تلفتنا حولنا لنتعرف بالرجل لم نجده : كان واحداً ممن حملتهم عواصف ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٩ إلى المعتقلات والسجون ، ثم إلى منفى الواحات البعيد ، ليعيشوا به خمس سنوات طويلة مريرة ، يقاومون القيظ والزمهرير والقهر والجوع ، والوحدة والتوحش فى الفلوات ، ويضربون أمثلة للإنسان فى أنقى حالات انسانيته ـ صلباً شامخاً . . قوياً . . وجسوراً . . يأبى أن يعيش إلاَّ كما اختار لنفسه أو يموت ـ كشهدى عطية وفريد حداد ـ دون كلمته.

فى تلك السنوات ، كان « اسماعيل المهدوى » أحد الرموز التى نتبادل اسماءها ، ونعيد قراءة ما كتبت ، ونردد ـ همساً ـ القليل الذى كنا نعرفه عنها : طالب نابغة من طلبة الجامعة . أنهى دراسته للفلسفة بتفوق ، والمستقبل أمامه رحب وفسيح لو راهن على نفسه فاختار الانتماء إليها فرطن كما يرطن الآخرين ، وسخر مواهبه المتعددة ، وعقله المتوهج الذكى لتأييد ما هو قائم . وما أكثر الفرص التى تتاح ـ فى عالمنا الثالث ـ لمثقف يحمل بضاعة ممتازة كالتى يحملها المهدوى ، لو اختار أن يبيعها فى سوق الصحافة والإذاعة والجامعات وكواليس الحكم والحكومات ، ولكنه آثر الانتماء للغد الآتى ، وسار على طريق النشوات العليا : اختار عذابه وأشواكه ، منافيه وسجونه . . كشف ظهره لمن يحملون السياط !

وحين عاد اسماعيل المهدوى من منفى الواحات ـ مع غيره من

الشيوعيين المصريين ـ كانت مياه كثيرة قد جرت فى النهر ، وتغيرت أشياء عديدة ، فيهم وفينا ، وفى الدنيا حولنا ، لكننا لم نفقد اليقين بأن موقف الانسان من الأشياء قيمة ثابتة لا تتغير ، ولم تهتز لحظة واحدة ثقتنا فى أن الذين اختاروا أن يفعلوا شيئاً غير الانتماء لأنفسهم ، ودفعوا ثمن اختيارهم بشموخ وكبرياء ، كانوا يعبرون عن أنقى ما فى الانسان ، ويحفرون بأظافرهم فى الصخر علامة على طريق طويل ، لم يكونوا أول من ارتاده ، ولن يكون من جاء بعدهم آخر من يسير عليه . . قد يتغيرون وقد نتغير . . وقد تتغير الدنيا ، لكن كل عواصف التاريخ أعجز من أن تمحو من الصخر علامة خطها ـ بالعذاب ـ كل من مهد خطوة على طريق تحرير الانسان من القهر والاستغلال والأكذوبة . .

وهكذا تابعنا « اسماعيل المهدوى » ـ فى النصف الثانى من الستينيات ـ كاتباً لامعاً فى « الجمهورية » و « المجلة » و « الثقافة » وسكرتيراً لتحرير « الكاتب » ومحرراً لصفحة « الفكر والرأى » فى المساء وقرأنا ترجمته لرائعة كازنتزاكس « الأخوة الأعداء » وكتاباته عن « بافلوف » وحواراته عن العلوم الانسانية : نرضى ونغضب ، ونتفق ونختلف وفى كل هذا نفكر . .

كان الزمن ، زمن الأحلام المستحيلة ، بدا كل شىء ـ على السطح ـ لامعاً وبراقاً وباعثاً على الرضى . على ايقاع الأناشيد الحماسية بهتت مخاوف كثيرة . انمحت ـ إلى حين ـ ذكريات العذاب فى أوردى أبو زعبل . التأمت ـ على صديد ـ جروح الأقدام الحافية التى انغرست فيها سنون البازلت . أصبح زمهرير منفى الواحات ، تجاعيد على قلوب تحاول أن تضحك لأن هناك قانوناً يحرم العبوس ، أما من ماتوا تحت السياط وبضربات الشوم وبنقص الطعام وبافتقار الحرية فهم مجرد صف

أول من الآلاف الـذين سيقتلون فى ٥ يونيـو ١٩٦٧ ، لتـظل جثثهم فى الصحراء ، يلتهمها البوم ، وتحوم حولها الغربان !

لن يعرف أحد ما جرى لاسماعيل المهدوى فيما تلا ٥ يونيو ١٩٦٧ ، إلّا إذا عرفنا نحن المصريين جميعاً ماذا جرى لنا تحديداً فى هذا اليوم لا تبحثوا ـ فقط ـ عما جرى فى ميادين القتال ، ولكن فتشوا عما جرى أيضاً فى القلوب والنفـوس والعقـول . اسـألـوا الآمـال المحتـرقــة والأحـلام المُحْبـطة ، والتضحيات المهـدرة ، والصبر على المكـاره ، واستخبـروا أنـاشيد الإذاعـة ، وأكـاذيب الصحف ، وعصى المخبـرين ، وكـرابيـج المعذبين . احسبوا الفاصل بين ذروة المجد وقاع العار ، والمسافة بين وهج الانتصار وظلمة الهزيمة ، احصوا الانهيارات العصبية ، واسألوا كل محللى التاريخ ، أكان باستـطاعة أحـد منهم أن يتنبأ بمـا جرى . . ومـا كان !

. . أما المهدوى فتقول الوقائع أنه فى يوم ما من سنة ١٩٦٨ ، كان قد ضاق بكل شىء . . أخذ إجازة بدون مرتب لمدة عام . . وسافر إلى فرنسا ليحضر رسالة الدكتوراه فى الفلسفة وبعد ثلاثة شهور من سفره ، وصلته رسـالة من جـريدة « الجمهـورية » تخـطره بأن إجـازته قـد انتهت ، وأن الجمهـورية تعتبـره مستقيلاً من عمله . وفى بـاريس تعرض لمضـايقات شتى ، ذات طابع سياسى ، فيقطع إجازته الـدراسية ويعـود إلى مصر ، ويبدأ رحلة طويلة مجهدة ، ليسترد حقـه فى أن يعمل ويكتب ، وتنهـال شكـاواه وقضايـاه على المسؤولين وعلى المحاكم ، ويـومـاً بعـد آخـر ، تتحول الشكاوى إلى صرخات سياسية ضد النظام ، وتصدر أحكام قضائية لصالحه ، وقبل أن تنفذ يأتيه زوار الفجر ذات يوم من ربيع ١٩٧٠ ، ليجد

نفسه أمام صهيب حافظ ، وكيل نيابة أمن الدولة العليا ، الذى يواجهه بأنه مقبوض عليه لأنه كتب وأعطى وأرسل أوراقاً فيها دعاية ضد الدولة !

وبعد أربعة أيام من القبض عليه . وجد نفسه فى مستشفى المجانين بالعباسية ، وبعد ستة أشهر نقلوه إلى مستشفى الخانكة ، ليبقى بها عاماً ، ثم أعيد إلى العباسية ، حيث ما زال هناك حتى هذه اللحظة ، ومنذ اثنتى عشرة عاماً ونصف !

وطوال تلك السنوات و « اسماعيل المهدوى » يكتب آلاف الخطابات والأوراق ، يرسلها بالبريد المسجل إلى كل من يعنيهم أمر الثقافة والفكر والقانون فى هذا الوطن ، لرجال النيابة ودور الصحف ، وإلى من يعرف ومن لا يعرف من الكتّاب والأدباء والمفكرين ، ويعيد استنساخ معظمها ، ويجدد ارساله إلى كل من يلى منصب النائب العام أو ينتخب نقيباً للصحفيين ، تتضمن دراسات فلسفية وسياسية على درجة عالية من العمق تشهد بأن هذا العقل المشتعل ، الذكى المتوهج ، لا يمكن أن يقبل بوضعه فى مستشفى للمجانين ، إلاّ مجانين حقيقيين ، ولا يقبل الصمت على ما جرى ويجرى له ، إلاّ البلداء وفاقدو الحس ، وناقصو الإدراك والضمير !

وما تحمله رسائل « اسماعيل المهدوى » من وقائع عما يجرى له ويجرى لغيره من نزلاء مستشفى المجانين بالعباسية وغيرها من مستشفيات الأمراض العقلية ، تؤكد أن هذه المستشفيات هى حظائر يفتقد الذين يديرونها ويشرفون عليها لأبسط صفات الانسان ، وينبغى أن يحاسبوا جميعاً على إجرامهم فى حق التعساء الذين يقيمون بها دون علاج أو احترام للآدمية أو ذرة من الإنسانية يتعرضون للضرب والإهانة ، ولما

يسميه المهدوى بعمليات « نفخ المخ » ، وهى وقائع ليست فى حاجة إلى مزيد من البراهين ، لأنها شائعة ومعروفة ، ويكفى جرائم القتل التى تحدث فيها بين الحين والآخر ، والتى تكررت على نحو يلفت النظر فى السنوات الأخيرة .

والذين يقرأون رسائل « اسماعيل المهدوى » ، يشعرون بأن حزن الرجل على صمت الضمير العام ، أكثر من ألمه مما يعانيه ، وأن مرضه الحقيقى هو ذعره من البلادة التى أصبحت طابعاً عاماً ، تجاه أحزان الآخرين وعذابهم ، حتى أصبح العالم فى نظره مجموعة من المتواطئين على إهدار آدمية الإنسان وكرامته .

وصحيح أن الظروف لم تتح لكثيرين ممن أحبوا « اسماعيل المهدوى » وممن تعلموا على يديه ، ومن يؤمنون بأنه عقلية مصرية نادرة ، أن يفعلوا شيئاً يردون به ما يتعرض له ، ربما لأن الذين خارج مستشفى المجانين ، لم يكونوا ـ طوال السنوات العشر التى انقضت ـ فى أوضاع افضل بكثير ممن كانوا بين أسوارها ، وصحيح أن أحداً منهم لم يكن يستطع أن يحتفظ بحريته لمدة عام كامل ، لأن أبواب الزنازين فى « مستشفيات » الخانكة والعباسية هى نفسها أبواب الزنازين فى « مستشفيات » « القلعة » و« طرة » و« أبى زعبل » و« الاستقبال » . . لكن ذلك على أى الأحوال لم يعد عذراً لأحد . . فإذا ظل « اسماعيل المهدوى » حيث هو الآن ، فليس لذلك معنى إلاَّ أن ضميرنا العام قد مات ، وليس لذلك معنى إلاَّ أننا سنقاد واحداً بعد الآخر لنتعرض لما يتعرض له . .

لقد آن الأوان ، ليكون الدفاع عن « اسماعيل المهدوى » قضية

ساخنة ، تفتح ملفات الاجرام الذى يجرى داخل مستشفيات الأمراض العقلية . . لا لننقذ هذه الموهبة المصرية العربية النادرة ، ونـدافـع ـ فحسب ـ عن عقل ذكى متوهج مشتعل ، أعطى ـ وما زال يعطى ـ كتابة وتفكيراً ومواقف ، وهو خلف أسوار الرعب . . والتآمر والاستهانة بكل ما هو أنكى ، ولكن لندافع أيضاً ، عن آلاف من التعساء ، يقيمون داخل أسوار مستشفيات الأمراض العقلية ليس الصمت على ما يجرى لهم ، إلا إهدار لكل ما هو حضارة فى تاريخ هذا الوطن !

(*) « الأهالى » ـ العدد ٨٥ فى ١٧ نوفمبر ١٩٨٢ .

تغريبة اسماعيل المهدوى

انتابنى شعور جارف بالراحة ، عندما علمت أن السيارة قد غادرت الأسوار الخارجية لمستشفى المجانين بالعباسية وبداخلها « اسماعيل المهدوى » . . وحين تأكدت ـ قبل منتصف الليل ـ أنه قد استقر أخيراً . بحجرة فى « مستشفى بهمان » . نمت نوماً عميقاً ، خالياً ـ لأول مرة منذ زمن طويل ـ من الكوابيس !

وإذن فقد انتهت ـ بهذه البساطة ـ تغريبة الأعوام السبعة عشرة . وآن للمطارد تحت ظلمات الليل المتصل ، أن يستريح فى مقلة الشمس ، وأن يغادر ـ كسيدنا يونس ـ بطن الحوت . . آن لإسماعيل المهدوى أن ينام ليلة قرير العين . . لن يتهاوى مزلاج غرفته المحكم الإغلاق ، أمام دفعات من يسميهم فى رسائله بـ« زبانية أقذر وكر للإجرام الوحشى المفلوت فى سلخانة مستشفى المجانين » ـ لن يقيدونه بقميص الأكتاف . ويخمشونه بأظافرهم الجلفة . ويقودونه ـ مشلول الإرادة ـ إلى جلسات الكهرباء !

بدأ الأمر لبساطته داعياً للذهول وحين استيقظت فى الصباح ، بدأ الكابوس الحقيقى ، وفى البداية شعرت برغبة عارمة فى أن أنادى بائع الفول ـ وكان قد استقر بمطعمه المتنقل تحت شرفتى أقول له :

ـ اسماعيل المهدوى خرج من مستشفى المجانين (!).

فهل انخفضت أسعار الفول ؟ وهل اعترف إسحاق شامير بأن هناك شيئاً اسمه الشعب الفلسطيني ، ومع أننى كبحت لسانى ، إلاَّ أننى لم أفلح فى ذلك طويلاً فهممت وأنا أتخطى عتبة العمارة ، أو أقول لبوابها :

ـ مش « اسماعيل المهدوى » خرج من مستشفى المجانين يا أبو على ؟

ليسألنى ذاهلاً :

ـ صحيح والنبى ؟! ازاى ؟!

فأقول : ولا حاجة مكالمتين تليفون من نقيب الصحفيين للنائب العام . . انتهى بعدهما الموضوع .

فهل يتطلب اتمام هاتين المكالمتين سبعة عشر عاماً بالتمام والكمال ؟.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يزعمون أن أعطال التليفونات قد انقرضت منذ زمن طويل .

ولماذا أهدرت وزارة الداخلية أموال الشعب فى شراء أحدث أجهزة التصنت على التليفونات .

ومع ذلك فأحمد ربك لأن مكالمة « المهدوى » قد تمت أخيراً ، وإن تأخرت كثيراً . ففى السادسة من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ، أرسل قائد الجبهة الشرقية ـ فى الأردن ـ الفريق عبد المنعم رياض . إشارة لاسلكية بأن هناك نشاطاً زائداً فى طيران العدو ، وأن موجات من قاذفاته المقاتلة

تتجه إلى البحر المتوسط . ولأنهم كانوا ينتظرون العدو من الشرق . فإن أحداً لم يتسلم الإشارة ساعتها أو يومها . ولم يتسلمها أحد حتى يومنا هذا ، فيما عدا العدو بالطبع ، الذى وصل قبل وصولها وما يزال يواصل الوصول !

وفى قصة الإفراج عن « اسماعيل المهدوى » ـ بعد سبعة عشر عاماً قضاها معتقلاً فى قسم ١٢ بمستشفى المجانين بالعباسية ـ عجائب تكفى للذهاب بعقل كل العقلاء ، وأعجبها جميعاً أن « المهدوى » احتفظ بعقله رغم هذا كله ، فبعد هذه السنوات الطويلة المريرة ، التى قضاها فيما يسميه « سلخانة للاجرام » يتمخض الأمر كله عن شيء أشبه بالنكتة التى تدعو لقهقهة جنونية . وتكفى لايقاظ الموتى . وإقلاق راحة العظام وهى رميم .

بمنتهى البساطة . قالت مديرة المستشفى لابنه « طارق المهدوى » حين ذهب ليتسلمه ، إنها راجعت أوراق ملفه الطبى ، وأنها لم تجد فى أوراقه ـ من الناحية الطبية المحضة ـ مبرراً يستدعى بقاءه فى مستشفى للمجانين ، وأنها على استعداد للإفراج عنه فوراً ، ليعود إلى منزله ، إذا وصلها أمر من النائب العام ، بحفظ التحقيق فى القضية السياسية التى اتهم فيها ، وأودع على ذمتها فى مستشفى الأمراض العقلية !

واتصل الزميل « مصباح قطب » ـ المحرر بالأهالى ـ بالمستشار « رجاء العربى » رئيس نيابة أمن الدولة ، تليفونياً . ليسأله عن الموضوع . فقال بمنتهى البساطة :

ـ يا سيدى . . نحن الذين حققنا مع « اسماعيل المهدوى » وقد حفظت القضية فى اليوم نفسه الذى أودع فيه المهدوى بمستشفى المجانين وهو ٩ أبريل ١٩٧٠ .

أما ثالثة العجائب . فقد حدثت فى مستشفى خاص للعلاج النفسى نقل إليه « اسماعيـل المهـدوى » ليعالـج على نفقة نقـابة الصحفيين هـو « مستشفى بهمان » وهناك فحصه الأطباء ، وقالوا ـ بمنتهى البساطة أيضاً ـ أنه لا يعانى من أى مرض عقلى أو نفسى ، وانهم لا يرون مبرراً لدخوله المستشفى أو لإقامته فيه ، اللهم إلاَّ لكى يقضى فترة راحة يعالج خلالها من بعض الأمراض الجسدية التى أصابته بسبب نقص وسوء التغذية طوال ١٧ عاماً قضاها فى مستشفى المجانين .

وهكذا ـ وبمنتهى البساطة ـ ثبت أن المهدوى ليس مجنـوناً ، وثبت أنـه كـان يمكن أن يغـادر مستشفى المجـانين منـذ ١٧ عـامـاً ، لـو أن الاتصالات التليفونية تتم على ما يرام ، ولو أن أحداً اهتم فعلاً بـأن يحل فزورة « البيضة أولاً أم الفرخة أولاً » ، ليعرف من الذى أودعـه مستشفى المجـانين ، هل هى النيابـة العامـة التى تقول أنهـا حفظت قضيتـه منذ اللحظة التى أدخل فيها إلى المستشفى ، أم أن المسؤول عن ذلك ، هُم أطباء المستشفى الذى قالت مديرته ، أن ملفه الطبى لم يكن يتضمن أى سبب يدعو لاستمرار بقائه بها ، وأنهم كانوا فى انتظار قرار التصـرف فى قضيته . .

أما « اسماعيل المهدوى » نفسه ، فقد روى القصة آلاف المرات ، وكتبها بخط يده فى آلاف الرسائل ، ظل ـ طوال سبعة عشر عاماً متصلة ـ يرسل منها مستنسخات لكل نائب عام جديد ، ولكل رئيس جديد لنيـابة أمن الـدولة العليـا ، ولكل نقيب جـديد للصحفيين ، وللكتـاب والأدباء والصحفيين، وخلاصتها أنه بدأ العمل فى الصحافة بجريـدة « المساء » فى أواخر عام ١٩٥٦ ، واعتقل ـ للمرة الثانية ـ فى ديسمبر ١٩٦٠ ، ليظل

فى المعتقل أربع سنوات ، أفرج عنه بعدها ، ليعود لممارسة عمله الصحفى فى جريدة « الجمهورية » وفجأة وفى أواخر عام ١٩٦٧ ، منعت « الجمهورية » نشر مقالاته ، دون سبب معلن ، وأوقفت زاوية كان يحررها فى عددها الأسبوعى . ثم انتدبته ـ دون أسباب معلنة أيضاً ـ لتحرير صفحة أسبوعية . فى جريدة « المساء » ـ التى تصدر هى الأخرى عن دار الجمهورية .

وفى أواخر يناير ١٩٦٨ . أوقفوا نشر الصفحة فجأة . وعندما سأل عن السبب قيل له أن أوامر سرية شفهية غير مسببة . قد صدرت من جهة ما بمنع نشر مقالاته . . وحين أيقن أنه لم يعد مرغوباً فيه . وأن كتاباته أصبحت من الممنوعات . قدم طلباً للحصول على اجازة بدون مرتب ، ليستكمل دراسته ويحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وكانت أجهزة الأمن قد حالت بينه وبين السفر إلى فرنسا عام ١٩٥٤ ، بعد أن حصل على منحة من الحكومة الفرنسية لدراسة الدكتوراه ، باعتباره أول دفعة قسم الفلسفة بكلية آداب القاهرة عام ١٩٥٣ . وحصل « اسماعيل المهدوى » على إجازة سنة قابلة للتجديد ، وكانت « الجمهورية » كريمة ، حتى أنها منحته تذاكر سفر مجانية بالطائرة من القاهرة إلى باريس عبر الكويت ، وفجأة ، وقبل أن تنتهى الشهور الثلاثة بأيام . أرسلوا إليه يقولون ، أنهم قد سحبوا موافقتهم على اجازة العام ، وأنه سيعد مستقيلاً إذا تغيب يوماً واحداً بعد انتهاء إجازة الشهور الثلاثة .

وعاد المهدوى إلى القاهرة فى منتصف اكتوبر ١٩٦٨ ، وظل طوال عام وخمسة شهور ، يطرق ـ دون جدوى ـ أبواب مختلف الجهات الرسمية والقانونية ومكاتب العمل ، طالباً ـ كما يقول ـ ، بكل أدب

واحتـرام حق العمل ، إن لم يكن الـرجـوع إلى عمله الأصلى ممكنـاً ، وحين أصم الجميع آذانهم ، بدأ ـ منذ بداية عام ١٩٧٠ ـ يضمن شكاواه وبلاغاته الغزيرة ، دعايـة سياسيـة ضد نـظام الحكم ، وفى صباح اليـوم ـ الذى صدر فى ضحـاه ـ حكم القضاء بـاعتبار فصله من عمله بجـريدة الجمهورية ، فصلاً تعسفياً ، وتعويضه عن هذا الفصل ، وقبل أن يتوجه إلى المحكمة ليسمع الحكم بنفسه ، دق باب منزله ، ضابط من مباحث أمن الدولة ، قاده إلى مبناها فى ميدان لاظـوغلى . وهناك التقى بـوكيل النائب العام الأستـاذ « صهيب حافظ » الـذى واجهه بـأنه متهم أنـه كتب وأعـطى وأرسل أوراقـاً فيها دعـاية ضـد الـدولـة » . . وببسـاطة اعتـرف المهدوى بالتهمـة . وأضاف أنـه أرسل هـذه الأوراق للحكومـة نفسها ، وبخطابات مسجلة وبعلم الـوصول أيضـاً . وأنه سيستمـر فى ذلك لأنـه يـطالب بتحقيق قـانـونى ، فى الأسبـاب الحقيقيـة لفصله من عـمله الصحفى . ومنعه من أى عمل . ومنـع كتابـاته من النشـر وقدم للمحقق نسخة جديدة من الأوراق . وطلب الاطلاع على أمر القبض عليه !

لم يطلع أحد اسماعيل المهدوى على أمر القبض عليه ، وانتقل من مبنى مباحث أمن الدولة إلى سجن الاستئناف ، وبعد أربعة أيـام اقتادوه إلى نيابة أمن الدولة ، ثم إلى مبنى النيابة العامة ، واكتشف أنهم ينهوون أوراق إيداعه فى مستشفى المجانين . وفى كل المكاتب التى طاف بها ، وهى تضم رجال قانون وقضاء ، صرخ المهدوى يطلب التحقيق ، ويطلب سماع أقواله ، أو على الأقل السماح له بالاطلاع على أمر القبض عليه . . فلم يرد عليه أحد واندفع الجميع يضحكون . .

وفيما بعد ، وفى نوفمبر ١٩٧٦ ، استطاع « اسماعيل المهدوى » أن

يطلع على أمر ايداعه فى مستشفى المجانين ، فإذا بـه يستند إلى قضيـة رقمهـا ٣١٥ حصر أمن دولـة عليا ، وإذا بـالمحضر الـذى حرره صهيب حافظ فى هذه القضية قد تضمن اتهـام اسماعيـل المهدوى بـالعجز عن الإدراك والتعبير . وإذا بمستشفى المجانين ، تؤكد ذلك رسمياً ، وتضيف إليه اعتباره مصاباً بعاهة فى العقل . . وإذا بالمحضر المذكور ، يقوم على بلاغ من صحيفة أمريكية اسمها مرجريت بالاس . كان المهدوى قد قابلها وأعطاها نسخة من شكاواه ، فأبلغت مباحث أمن الدولة وسلمتهم الأوراق التى أخذتها منه !

هذه هى القصة الغريبة ، التى انتهت بايداع صحفى وكـاتب ومفكر لامـع فى مستشفى المجـانين سبعـة عشـر عـامـاً . انتهت بمكـالمتين تليفونيتين ، ثبت بعدهما أنه عاقل ، وأنه ليس مصاباً بعاهة عقلية ، وأنه لا جريمة فى تلك الأوراق التى كان يحتج بهـا على محاولـة تجويعـه . وحرمانه من أن يأكل وأن يفكر !

وخلال سنوات التغريبة ، عانى اسماعيل المهدوى عذاباً لا يطيقه إلاَّ الجبـابرة وأصحـاب النفوس الكبـار والأذهان المتـوقـدة ، وظـل يقـاتـل بضراوة ، ورغم كل شىء ، لكى يستعيـد حريتـه ، رغم بشاعـة ما كـان يعانيه ، فأضرب عن الطعام أربع مرات ، فى أبريل ونوفمبر ١٩٧٠ وفى ينـاير وسبتمبـر ١٩٧٢ ، فكانـوا يعذبـونـه بجلسـات الكهـربـاء ، وبأدوية الغيبـوبة ، لكى يشفـونه ـ كمـا كانـوا يقولـون له ـ من مـرض الإضـراب والاحتجاج !

ولم يتوقف اسماعيل المهدوى طوال سنوات التغـريبة عن التفكير والكتابة والدراسة ، وعاش فى صومعته بالمستشفى ، يقرأ ويكتب آلاف

الصفحات فى الفكر والسياسة والفلسفة ، تشكل كتباً كاملة ، كان يستنسخ منها عشرات النسخ ، يرسلها لكل أصحاب العقول والضمائر والسلطة فى هذا الوطن !

وفى السنوات الخمس الأخيرة بدأ يكتب سلسلة من المقالات بعنوان « دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين » تجاوزت الخمسين . لعلها ـ مع رسائله الأخرى ـ أخطر الوثائق ، عن ذلك « الاجرام المفلوت » الذى يدلل المهدوى بوقائع بشعة على أنه يحكم مستشفيات المجانين فى بلادنا !

وبقاء المهدوى طوال هذه الأعوام بين جدران مستشفى المجانين . دون مبرر ـ كما تكشف أخيراً ـ لا بد أن يفتح تحقيقاً فى ظروف ادخاله المستشفى وظروف بقائه بها ، ومن البديهى أن يمتد هذا التحقيق ، وأن يتسع نطاقه ، ليشمل كل ما يجرى داخل أسوار هذه المستشفيات التى تضم بشراً تعساء ، لا يتقنون الشكوى ولا يستطيعونها ، خاصة وأننا كل عدة سنوات نسمع عن جرائم قتل تجرى بين أسوارها !

والمجرم الطليق فى جريمة تغريبة « اسماعيل المهدوى » هو تلك البلادة العامة ، التى اصبحنا جميعاً أسرى لها . منذ انهالت الطعنات على جسد الأمة . وتوارت الأحلام العظيمة ، والآمال الكبار ، فتساوى كل شىء ، بكل شىء . ولم يعد أحد يهتم بما يجرى حوله : جفت الدموع ، وتوطنت الفواجع ، وأصبح تعذيب انسان بين جدران السجون خبراً عادياً . وامتهان كرامة مواطن فى اتوبيس أو طابور جمعية . حكاية مكررة . وأكل القطط والكلاب فى مخيم للاجئين الفلسطنيين حادثة مسلية ، وأصبحت الخيانة حكمة ، والمساومة تعقل ، وبيع الأوطان

وطنية ، وكل شيء يجرى تحت أبصارنا وبعلمنا ، فلا نفعل أكثر مما فعله هؤلاء الذين ظن اسماعيل المهدوى يصرخ فيهم أنه يطلب تحقيقاً ، فلم يردوا عليه إلاّ بالضحك !!

وليس لذلك معنى إلاّ أن الذين يصنعون المآسى التى نعيشها ، قد نجحوا أخيراً فى أن يطبعوا علاقاتنا بها ، وأن يدفعونا لاحتضانها ، وأن يفقدوا ضميرنا الجمعى يقظته ، وأن يميتوه بالتعود . . حتى أصبحنا فى حاجة لتلك الصرخة المدوية ، التى صاح بها حمدى بطل مسرحية ميخائيل رومان الشهيرة « العرضحالجى » الذى صرخ احتجاجاً على البلادة العامة :

ـ كلب ابن كلب اللى يقول ماليش دعوة . . كلب ابن كلب اللى يقول بيتى وعيالى وبس . . كلب ابن كلب اللى يقول لو كنت فى بلد تعبد التور . . . حش وارمى له !

أما المهمة العاجلة الآن ، فهى أن نزيح عن ضميرنا العام ، نحن الكتّاب والمثقفون والمسؤولون والمواطنون العرب ـ عبء جريمة التواطؤ بالصمت على جريمة احتجاز المهدوى فى مستشفى للمجانين ، واعتقاله سياسياً بين جدرانها كأن هناك أزمة فى الأماكن الصالحة للاعتقال ، أو أزمة فى العدد الكافى من المجانين ، ففى سنوات التغريبة ترك « اسماعيل المهدوى » ولديه أطفالاً زغب الحواصل ، وهو يعود اليوم فيجدهم أزواجاً وآباء ، ويعود ليجد نفسه بلا مسكن ولا عمل . . وبلا جدران أربعة تأويه ، وتعيد السكينة إلى نفسه الجسور التى لم تحطمها المحن !

فهل آن الأوان كى نلم أشلاء ضميرنا المبعثرة ، فنتعاون فى شراء

مسكن ، تـأوى جدرانـه الأربعة ، كـاتباً ومفكـراً وصحفياً وانسـاناً قـوى الـروح ، جسور القلب ، فتعيـد إليه السكينـة ، وتؤكد لـه أن الحياة بين العقلاء أفضل من الحياة بين المجانين ؟!

(*) « الأهالى » ـ العدد ٢٩٧ ـ ٢٧ يونيو ١٩٨٧ .

السلخانات التي لم يغلقها أحد

تجمعت بين يدى ـ طوال الأسبوعين الماضيين ـ حصيلة جهد محررى « الأهالى » ، فى متابعة محاكمات الجهاد ، وشاءت الظروف أن التقى ببعض من تابعوا المحاكمات من غير الصحفيين ، وأن استقبل بعضاً من أقارب المتهمين ، جاءوا يحيطون « الأهالى » علماً بما جرى لأقاربهم ، ويطلبون عونها إن استطاعت . .

ولم يكن فيما سمعت من كل هذه المصادر شىء جديد . فطوال الأعوام الثلاثين التى انقضت ، ونحن نقرأ ونسمع ـ وأحياناً نشاهد ـ عن وقائع تعذيب تجرى فى السجون والمعتقلات ، يقوم بها ضباط وجنود ينتمون لأجهزة متعددة مثل المخابرات العامة ، والمباحث الجنائية العسكرية وضباط السجون الحربية والسجون العامة ، ويتعرض لها مصريون يجتهدون فى شؤون وطنهم على غير ما يرى الذين يحكمون ويتحكمون ، بحيث لم يعد فى مصر تيار سياسى معاصر ، لم يتعرض بعض المنتمين له ـ إن لم يكن معظمهم ـ للتعذيب البدنى ، يستوى فى

ذلك الشيوعيون والأخوان المسلمون والناصريون ، ومن لا ينتمون لهؤلاء أو لأولئك . .

ولأن فى مكتبتى قسم كـامـل ، يضم عشـرات الكتب والمقـالات والنشرات والقصاصات ، تروى كلها ذكريات الذين عـذبوا فى السجـون والمعتقلات ـ المصرية والعربية ـ فقد عدت إليها ، أقرأها ، ربمـا للمرة العشرين أو الثلاثين ، وكـان ذلك فى حـد ذاته عـذاباً لا يـطاق ، لكننى واصلت القراءة بدافـع لم استطع أن أتبينـه إلاَّ بعد أن أتيت على كـل ما بـذلـك القسم من كتب ، آنـذاك ادركت أننى فعلت ذلـك لكى اختبـر مشـاعـرى تجـاه وقـائـع التعـذيب ، فقـد خشيت أن يكـون تكـرارهـا واستمرارها ، وعجز الرأى العام فى مصر عن ايقافها بموقف صريح ممن يأمرون بالتعذيب أو ينفذونه ، قد جعل منـه خبراً عـادياً يسمعـه النـاس ، ويتلذذون بترديده ، ويتسلون بالهمس به . . ولا شىء بعد !

وحين طويت آخر صفحة من آخر كتاب ، كانت حجرتى قد ازدحمت بمصريين من كل اتجاه وكل اجتهاد ، بعضهم ينتمى لجيلنا ، أو لأجيال أخرى سبقتنا أو تلتنا ، منهم من يحملون على أجسادهم آثار السياط التى سلخت ظهورهم ، والشوم الذى حط أطرافهم ، والسجائر المشتعلة التى اطفئت فى بطونهم ، والتيار الكهربائى الـذى فكك جهـازهم العصبى ، والأيدى المجرمة التى نزعت شعـر العانـة ، أو وضعت العصى فى أدبار الـرجـال ، والألسنـة الفـاحشـة التى سبتهم وهـددتهم بـالاعتـداء على اعراضهم ، وأجبرتهم ـ بالتعطيش والتجويع ـ على أن يشـربوا بـولهم أو يأكلوا فضلاتهم .

ذلك بعض مما حـدث ـ ويحدث الآن ـ لمصـريين ، وليس ثمة مـا

يدعو إلى الظن أنه لن يحدث غداً ، ذلك أن بعضاً ممن ارتكبوا جرائم التعذيب فى الماضى ، ما زالوا فى مناصبهم ، يترقون بسبب حسن أدائهم لواجبهم !! ويثرثرون أحياناً بالحديث عن أمن الوطن وعن سيادة القانون وعن حماية الحرية ، ويتخرج على أيديهم جلادون صغار يلغون فى دمنا ، ويتلذذون بتعذيبنا ، ثم يعودون إلى منازلهم ليقبلوا زوجاتهم وأطفالهم . .

والغريب أن ملف التعذيب ، قد فتح مرتين ، الأولى عقب نكسة ١٩٦٧ ، والثانية عقب حركة ١٥ مايو ، وقيل فى كل مرة ، أن بلاغات المواطنين عما تعرضوا له من تعذيب سوف يكون محل تحقيق قضائى ، وانشىء مكتب خاص تابع للنائب العام مباشرة ، لتلقى البلاغات ، وبعد أن ادى المكتب دوره الدعائى والإعلامى ، اغلق بالضبة والمفتاح ، وتتالت قرارات حفظ البلاغات ، وانفض المولد بعد تقديم عدد محدود من الجلادين إلى القضاء ، وبعد حادث المنصة ، بل وحتى قبله ، عاد الجلادون لممارسة نوازعهم المرضية ، وتحولت سجون ليمان طره والاستقبال والقلعة والمرج ، إلى سلخانات بشرية ، يضرب الناس فيها صباح مساء ، ويعلقون على أبواب الزنازين ، ويهانون ويذلون ، تحت أسماع وأبصار جميع السلطات القضائية والتنفيذية والقوى السياسية فى مصر .

إن أحداً فى هذا الوطن ، لا يستطيع أن يدعى أن واقعة واحدة من وقائع التعذيب التى حدثت طوال السنوات الثلاثين التى انقضت لم تصل إلى علمه ، وإذا كان هناك من يتوهمون أن النشر عن هذه الوقائع ، يضيف جديداً إلى « العلم العام » بها ، فمعنى ذلك أنهم لا يسمعون ما

يردده الناس فى البيوت وفى الشوارع والمنتديات وعلى المصاطب وفى الأجران وقد آن الأوان لنواجه الحقيقة بكل قسوتها ، إذا أردنا حقاً أن نوقف هذا التوالد السرطانى للعنف ، وأن نكسر حلقته الجهنمية ، وأن نكفل تطوراً ديمقراطياً حقيقياً لهذا الوطن ، شرطه الرئيسى أن نعترف بحق كل مواطن فى أن يجتهد فى شؤون وطنه ، وأن يكون الحوار الفكرى هو الأسلوب المعتمد من الجميع ، فحين تحاور الدولة فريقاً من مواطنيها بالسياط والشوم ، تدفع بعضاً منهم للمشاركة فى الحوار بالخناجر والقنابل !

والخطوة الأولى فى هذا الطريق الشاق ، هى أن تخضع وقائع التعذيب التى تعرض لها كل من اعتقل أو تم التحفظ عليه أو قبض عليه بأمر من النيابة منذ ٣ سبتمبر ١٩٨١ وإلى اليوم ، لتحقيق قضائى حقيقى ، يتولاه مستشارون ينتدبون من الهيئات القضائية العليا ، يكون من حقهم أن يستعينوا بمن يختارون من أعضاء النيابة العامة ، على أن يعاونهم فى توقيع الكشف الطبى على ضحايا التعذيب ، أطباء من ذوى السمعة الحسنة، ليسوا موظفين فى مصلحة السجون ، ولا فى أى جهة حكومية أخرى . .

ولا يمكن أن يكفل جو صحى لهذا التحقيق ، والضباط المتهمون بالتعذيب ما زالوا فى مناصبهم ، بل أن بعضهم يشرف على محابس ضحاياهم ، ويديرها حتى الآن ، بينما ملك آخرون وقاحة الظهور فى قاعة المحكمة ، للتعرف على الضحايا باعتبارهم مجرمين ، وهو واقف يختال بما ارتكب من إجرام ، وكأن الاستشهاد على الضعفاء ومسلوبى الحرية ، من علامات الرجولة والفروسية ومن شروط ارتداء الزى العسكرى (!!).

إن التحقيق فى وقائع التعذيب مع بقاء المتهمين الرئيسيين فيه ، وهما العميد محسن السرساوى مأمور سجن الاستقبال والعقيد صفوت جمال الدين مأمور ليمان طره ، فى منصبيهما ، أمر لا يستقيم مع المنطق كما لا يستقيم معه ، بقاء غيرهم من ضباط السجون ومباحث أمن الدولة المنسوب إليهم تعذيب الضحايا فى ممارسة أعمالهم . . ومن مصلحة هؤلاء الضباط أنفسهم ، ومن مصلحة الحقيقة ، أن يمنحوا إجازات مفتوحة لحين انتهاء التحقيق ، ضماناً لحيدته وصوناً له من أى ضغوط ، فإذا ثبتت براءتهم عادوا إلى مناصبهم .

وليس من حق النيابة العامة أن تعتب علينا لأننا نقترح أن يقوم غيرها بذلك التحقيق ، ذلك أنها من بين الجهات التى نسب إليها المتهمون وقائع تتعلق بالعلم بالتعذيب ، والتستر عليه ، ومن مصلحتها أن تحقق جهة أخرى ذلك الادعاء ، وقد يبدو غريباً أن تكون ضربات السياط واضحة على ظهور المتهمين ، وغائبة عن محاضر المحققين ، فى حين أن من أوليات أى محضر تحقيق ، أن يناظر المحقق المتهم ، وأن يصفه ، وأن يثبت ما به من اصابات ، وأن يسأله عن سببها !

. . ثم إن من حقنا نعتب نحن على النائب العام ، قبل أن يعتب علينا ، وأن نقول له : إن هذه الجريدة سبق لها أن خاطبته علناً وعلى مشهد من الرأى العام ، وطلبت إليه أن ينفذ الواجب الذى فرضه القانون عليه ، فيقوم بالتفتيش على السجون العمومية ، ليتثبت بنفسه من أن المواطنين الذين أودعوا بها يعاملون وفقاً لما يقضى به القانون ، ولما ينص عليه الدستور ، ولدينا ما يحمل على الظن بأنه لم يفعل ، إذ لو كان قد زار السجون ، وتفقدها لتوقف كثير من الاثم والشر كان يجرى فيها

آنذاك ، وجرى فيها بعد ذاك . .

ثم إن « الأهالى » عادت فنشرت نص أربعة بلاغات ، تقدم بها المحامى والقاضى وعضو مجلس الشعب عادل عيد ، إليه تتضمن وقائع تعذيب ، وسألته عما اتخذ بشأنها من اجراءات فلم يتكرم علينا برد ، وتركنا لوزارة الداخلية ، تكذبنا ، بينما البلاغات لم تقدم إليها (!!) وما كان يجوز أن تقدم إليها وهى المتهمة فيها !

ليس هذا فقط ، بل أننا تلقينا ، بعد ما نشرناه من بلاغات ، بلاغات أخرى ، رأينا ـ لأسباب تتعلق بالملاءمة السياسية وتقديراً لبعض المراجع التى نحترمها ـ أن نؤجل نشرها بعض الوقت . فأحلناها إلى النائب العام بخطاب يحمل توقيع رئيس تحرير هذه الجريدة ، وطلبنا منه أن يحقق فيها ، وأن يخطرنا بنتيجة التحقيق ، لكنه لم يرد . . ولعله يكون قد حقق !!

إن ذلك كله ، يفتح مع ملف التعذيب ، ملف السجون المصرية ذاتها ، وهى مؤسسات نظامية ، ينظم القانون انشاءها وادارتها ، ولكن التجارب المرة ، عاماً بعد عام . وعهداً فى أثر عهد ، تؤكد أنها تفقد هذه الصفة النظامية أحياناً ، بل كثيراً ، وتتحول إلى مؤسسات يمارس فيها أبشع أنواع الإجرام ، وأحط أساليب التعذيب ، بحيث يتواضع ما ارتكبه المذنبون الذين حكم بوضعهم فيها ، أمام ما يرتكبه من أناط بهم القانون إدارتها .

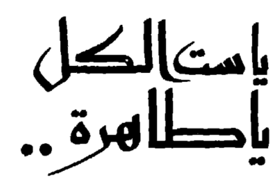
والوسيلة الوحيدة لتحويل السجون إلى هيئات نظامية ، هو نقل تبعيتها من وزارة الداخلية ، ومن السلطة التنفيذية كلها ، إلى هيئة مستقلة ، تتشكل من رجال القضاء وعلماء النفس والتربية ورجال الدين ،

على أن تتبع شرطة السجون هذه الهيئة فتخضع لاشرافها وتفتيشها ، وتتلقى منها أوامرها وعلاواتها وترقياتها ، حتى لا يضطر ذوو الضمائر من ضباط وجنود السجون ـ وما أكثرهم ـ فى ظروف ضآلة مرتباتهم وتدهور أحوالهم المعيشية ـ إلى تنفيذ أوامر التعذيب ، لكى يحصلوا على ما كان اللواء حمزة البسيونى ـ لا رحمه الله ـ يسميه بعلاوة الأجرام ، وهى أجور اضافية تمنح للذين كانوا يعذبون البشر !

ويبقى ذلك كله رهيناً بيقظة الضمير العام ، ففى هذا الوطن عشرات الآلاف يحملون على لحمهم الحى آثار السياط والعذاب الذى لا تمحوه الأيام ، ربما لأن الذين لم يعذبوا ، لم يغضبوا لما حاق بالآخرين من عذاب ، وكلما نظرت إلى عيون الأطفال البريئة، وتخيلت أنهم سيكبرون يوماً ، ويقادون إلى السلخانات التى لم يغلقها أحد ، شعرت أننى مجرم ومتواطىء ، وأن من حولى كذلك . .

فليرفع كل صاحب ضمير فى هذا الوطن صوته ضد الجلادين . . وليكن كما جرى فى قضية « الجهاد » ، آخر عهد مصر بهذه الفظائع ، وليلق كل من اشترك فى تعذيب البشر ، الجزاء الرادع الذى يستحقه ، إذا أردتم أن تكسروا دائرة العنف الجهنمية ، فالنتيجة المنطقية المتوقعة ، لما جرى فى سلخانات الاستقبال وطره والمرج والقلعة ، من حوار اعتركت فيه الدولة بالعصى والشوم والكرابيج ، هى أن يخرج للأسف بعض هؤلاء المتهمين ، أو غيرهم ، اليوم ، أو بعد سنوات ، لكى يتحاوروا مع الدولة بالقنابل والخناجر !

(*) « الأهالى » ـ العدد ٦٢ فى ١٥ ديسمبر ١٩٨٢ .



صعبة هى الحياة فى بلد محتل !

يأتى النهار بعد الليل . . ويجىء الليل بعد النهار ، يتنفس الناس وجودهم قهراً . . يحلمون بفجر غاب آذانه ، وينتظرون شمس يوم لم تطلع بعد ، على عالم غير العالم . . تكون الحياة فيه أقل عسراً . .

ويأتى عام جديد : ١٩١٨ .

لم يفرح أحد . بلهجة حزينة إستقبلت الصحف مطلع العام ، قالت « المقطم » .

ـ ما كان البشر ليظنوا أن الحرب الضروس التى نشبت سنة ١٩١٤ تطلع عليها شمس سنة خامسة ، والمدافع تقصف ، ومعاول الخراب والدمار تعمل فى بلدان الحضارة ، وما كان أشد الناس تشاؤماً ليحسب أن سنة ١٩١٨ تهل ، ورايات الحرب مرفوعة على البر والبحر فى أوربا وأمريكا وآسيا وأفريقيا » !

حرب أوربية لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، لذلك تصعب الحياة على الفقراء ، وشتاء العام الجديد شديدة البرودة ، أفردت « الأهرام » صفحتها الأولى للحديث عن الجو قالت « إن برد مصر الحالى قادم من أوربا ككثير مما يأتينا منها ، وقد قابل معظم الناس البرد بالتأفف والتبرم . . فالبيوت فى مصر روعى فى بنائها طول فصل الحر وشدته فى القطر ، فهى عالية السقوف ، كبيرة الغرف ، وقل أن يكون فيها مواقد لإيقاد النار » !

أما شقة «عبد الناصر افندى حسين » فكانت فوق سطح منزل فقير بباكوس فى الاسكندرية ، فما أبشع أن تستنشق هواء الشتاء البارد ، فى شقة صغيرة ، تصبح فى الليل كالثلاجة . وتتساءل مع الأهرام عن بيوت لوردات الانجليز المزودة بالمواقد . ولا حديث للصحف إلاَّ عن الحرب ، حتى الإعلانات . السلطة العسكرية البريطانية ، أعلنت صباح اليوم ـ ١٥ يناير ١٩١٨ ـ عن حاجتها لخمسين شاباً مصرياً لتدريبهم ليكونوا سواقين للسيارات الكبيرة ، هؤلاء هم « فيلق العمال » ، مهمتهم أن يخدموا فى الخطوط الخلفية لجيوش الحلفاء . تجمعهم سلطة الاحتلال سخرة أو بتطوع شبه قسرى ، ترسلهم إلى مختلف جبهات القتال : فى شبه جزيرة سيناء والعراق وفلسطين والدردنيل ، يموتون هناك بالبرد والصقيع والرصاصات الطائشة ، وتطمر الثلوج جثث مليون منهم . . لا يعرف لهم أحد ـ حتى اليوم ـ قبراً .

عسيرة هى الحياة فى بلد محتل ، لذلك يتبدد مرتب «عبد الناصر افندى حسين» ، معاون مكتب بريد الاسكندرية ، فى سوق اسعارها نار ، ستلد زوجته فى منتصف هذا الشهر ، فكيف يدبر أموره والصحف تقول أن اردب الفول قد ارتفع سعره من ٧٠ قرشاً إلى ٣٦٠ ، واختفى القمح

من الأسواق ، وأشاع التجار أن المخزون منه يكفى فحسب ثلاثة شهور ، فازدادت الأسعار جنوناً .

كالعادة كسب التجار وجاع الفقراء ، فأضحك حتى تدمع عيناك لأن اسعار الخضراوات قد ارتفعت فى بلد « الملوخية » . قالت المقطم : إن غلاء الخضر والبقول فى هذه الأيام التى غلا فيها كل شىء ، شديد الوطأة على الطبقات الفقيرة ، وبعض الطبقات المتوسطة التى تعتمد كثيراً فى طعامها على الخضر بعد ما كاد الحصول على اللحم والأدهان ، والبيض والدجاج يصير متعذراً عليها » !

تتحدث « الأهرام » عن مساكن بلا دفايات كبيوت لوردات الانجليز ، دون أن تتنبه للمفارقة المضحكة ، فهى نفسها التى نشرت أنباء اختفاء الجاز من مصر كلها ، ووقوف الناس فى الطوابير بحثاً عنه ، وأيدت اقتراح « المقطم » بوضع نظام لتوزيعه بالبطاقة ، فكيف يواجه معاون بريد الاسكندرية نفقات استقبال طفل جديد فى بلد لا دجاج فيها ولا لحم ولا جاز ، وقبل أيام اجتمع مجلس النظار برئاسة رشدى باشا ، ليبحث أزمة الجاز ، وانتهى إلى قرار برفع سعر اللتر إلى ١٧ مليماً ، أما سيد درويش ، فكان وقتها يلحن طقطوقته الشهيرة :

استعجبوا يا أفندية . .

لتر الجاز بروبية . .

ما أكثر ما يدعو لعجب الأفندية فى بلد محتل . .

فهل يقدر للطفل القادم أن يعيش فى بلد يتحالف عليه الحرب والغلاء والقهر ، بل والوباء أيضاً . فى بداية طوبة تحدثت الصحف عن عودة الكوليرا ، ظهرت ثلاث إصابات فى يناير الذى سيولد جمال

عبد الناصر فى اليوم المتمم لمنتصفه : جاء الميكروب مع الذين بقوا أحياء من فيلق العمال ، هذا هو مصير شعوب المستعمرات ، فى عالم يتصارع الأقوياء فيه على توزيع الأسواق ، من لم يمت مطموراً فى الثلج ، يعود بميكروبات الكوليرا ، ليموت فى الوطن ، ويموت معهم الذين لم تقسرهم السلطة على التطوع لخدمة قضية الحلفاء ، هذا هو قانون عالم يحكمه المستعمرون : يحاربون بجثثنا وتموت حتى دوابنا . شكى فلاح من « سنورس ـ فيوم» لأن الطاعون البقرى يفتك بالماشية ، وهاجم عمد الأرياف الذين لا يبلغون عن الإصابات فى الماشية ، مما يزيد من خطر الوباء » .

رياح طوبة الباردة تهب . . ينكمش الناس فى جلودهم . . فكيف حال الذين نفتهم السلطة العسكرية البريطانية إلى معتقلات الطور والجماميز وفى سجن القلعة ، وإلى متى تستمر الحرب ، وتستمر معها الأحكام العرفية ، وهل يستمر هذا السياج الرهيب من الصمت الذى منع كل معارضة إلى الأبد ؟!. تبدو الصحف كلها طبعة من صحف انجلترا : كلها دعاية للحلفاء الذين يتنصرون برغم أنف الألمان . . لا كلمة واحدة عن قانون التجمهر الذى يعتبر تجمع أكثر من خمسة أفراد خروجاً على القانون يبيح للسلطة العسكرية تفريقهم بالرصاص . الموت يحيط بنا من كل جانب . والذى ينجو من منجلة تحصده المعتقلات ، لذلك استضافت المعتقلات فى طرة والعباسية والجماميز اعضاء الحزب الوطنى ـ الوطنى (أى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد وليس أى حزب آخر يحمل نفس اللافتة وحق التسمية لشيخ المعارضين فتحى رضوان) . للسبب نفسه أغلق « الحزب الوطنى ـ الوطنى » صحفه ، وغابت شمس آخرها حتى لا تلوث صفحاتها بنشر خبر اعلان الحماية البريطانية على

مصر . وحتى حزب الأمة ـ التجمع السياسى لكبار ملاك الأرض ـ رافع شعار أن الاحتلال أتت به ظروف سياسية معينة ، وتذهب به ظروف أخرى ، الداعى لسياسة مسالمة الاحتلال لا معاندته ، أغلق هو الآخر صحيفته « الجريدة » ، واعتكف رئيس تحريرها أحمد لطفى السيد فى بلدته قلين ، يتأمل وطناً لم يعد فيه مكان للمتشددين ، أو حتى للمسالمين . .

هناك مكان فقط فى الصحف للذين يعيشون على هامش الحياة . . فى بلد غير البلد يعيش الأمراء والأعيان والذوات ،فليسلي معاون مكتب بريد الاسكندرية نفسه ، ولينسى همومه ، فقد سافر الأمير يوسف كمال إلى ضياعه فى الصعيد ليمضى بعض الوقت ، هارباً من برد طوبة فى قصوره المزودة بالمدافىء الانجليزية ، أما جلالة السلطان أحمد فؤاد الأول ، فقد « شرف سراى عابدين العامرة ، فرأس مجلس الوزراء . . ثم شرف حفل سباق الخيل » . كذلك حصل وزير المعارف عدلى يكن باشا على النيشان الفخرى للقديسين ميخائيل وجورج من رتبة فارس . . وبذلك أصبح من حقه أن يلقب بالسير عدلى يكن ، ونوهت الصحف بأن هذا النيشان لا يمنح إلاّ للذين يؤدون خدمات جليلة للامبراطورية ولجلالة الامبراطور .

تنشر الصحف أخبار جلالة الامبراطور تحت عنوان « جلالة الملك » دون أن تذكر : ملك من ؟!، فمصر محمية بريطانية ، وجورج الخامس ملكها أيضاً ، وصباح هذا اليوم سيولد للمواطن عبد الناصر افندى حسين ابن سيسميه جمال ، يزيد عدد الرعايا الذين يستظلون بعَدل . . الامبراطور وينعمون بالمساواة في ظل عرشه المجيد .

في مساء اليوم نفسه ، سهر الذوات فى دار الأوبرا السلطانية ، وكانت تقدم للمرة الثامنة والخمسين رواية كارمن من تأليف فرح انطون ، افتتحت الحفلة السيدة منيرة المهدية ، بانشاد مارش عظمة السلطان فؤاد الأول ، الذى تزدهر الفنون فى عهده الميمون . قبلها بأسبوع نفدت جميع البنوارات والألواح الأولى والثانية ، فهل تتحمل ماهية معاون مكتب بريد الاسكندرية ثمن تذكرة البنوار الحريمى المتقدم وهى لا تزيد عن ٥٠٠ قرش ، أم يكفيه لوج أول رجالى بـ ٤٠٠ قرش فقط ، خاصة أن زوجته قد وضعت طفلها فى الصباح ، ولا تستطيع أن تشاهد العرض . . وحتى لو سمحت الظروف بأن يسافر إلى العاصمة ، فلن يجد نقوداً باقية ، ليشاهد الأشرطة التى تعرضها سينما اكسلسيور ، بقرب محطة المترو ، عن حوادث الحرب ، ووداع الحب ، والروايات الكوميدى المدهشة التى بدأت عرضها فى المساء ذاته. ذلك أن الضيف الجديد كان قد قضى، لا على ماهية يناير فقط ، بل وفبراير أيضاً . ولم لا ؟ أليس لتر الجاز بروبية ؟!

إلى أين يهرب الفقراء من أمثاله ؟!

أيهاجرون إلى امريكا بلد العجائب ؟! . قالت المقطم فى إعلان نشر اليوم أن المادة ٣ من قانون الهجرة الأمريكى تمنع دخول المعتوهين والمختلين والشحاذين والمعدمين والمتشردين والذين يعتقدون بوجوب قلب الحكومات ، أو يعارضون القوانين أو يطالبون بتأميم الممتلكات وتمنع كذلك دخول سكان بلدان قارة آسيا الواقعة غربى خط الطول ١١٠ شرق جرينتش . .

ممنوع دخول الطلاب والضعفاء وصفر الوجوه والمطالبون بالعدل . .

فهـل يهاجـر الفقراء إلى روسيـا . . ولكن الصحف تهاجمهـا بشدة فقـد استولى البلشفيك على السلطة وانسحبوا من الحرب ضد المانيا ، وأعلنوا أن لا ناقة لهم فيها ولا جمل . . لـذلك غضبت « المقـطم » صحيفة دار الحمـاية البـريطانيـة فى مصر ـ وأدانت « نكث روسيـا لـعـهودهـا مـع الحلفـاء » وقـالت أن البلشفيـك جهلة « مصممـون عـلى التـمسـك بنـظرياتهم ، ومنهـا اطلاق الحـرية للشعـوب ذات القوميـات لكى تختار لنفسهـا الحكم الذى تـريده حتى أنهم سمحـوا بتجـزئـة الامبـراطـوريـة الـروسية ، وتنـازلوا عن مستعمـراتهم ، ووافقـوا الفنلنـديين على انشـاء جمهورية مستقلة ، لأنهـم من جنس غير الجنس الروسى » ؟!

فأين المفر . . وأبواب أمريكا قد اغلقت فى وجه المطالبين بالعدل ، والمقطم قد أغلقت باب روسيا لأنهـا تتنازل عن مستعمراتها .

هل يذهب إلى القدس ؟!

من القدس ، وصل الجنرال اللنبى ـ القائد العام لحملة الشـام ، قاهر الألمان والعثمانيين ـ وفى محطة العاصمـة استقبله جميع عـظماء مصـر وكبرائها ، لذلك شغلت قائمة أسمائهم والقابهم ووظائفهم عموداً كـاملاً من صحف الصباح ، وبعد الاستقبال الحافـل ، تناول القـائد المـظفر ، ومن معـه ، الغذاء على المـائدة السلطانيـة العامـرة ـ بعكس مائـدة عبد الناصر افندى حسين ـ بالدجاج واللحوم وحتى الخضروات التى ارتفعت أسعارها ، ولم تشك مطابخ سراى عابدين العامرة من أزمة الجاز !

فى مـانشستر بـإنجلتـرا ، خـطب السيـر « مـارك سيكس » ـ وزيـر الخارجية البريطانية ـ فى اجتماع عقده صهاينـة انجلترا لشكـر الحكومـة الانجليزية ، التى منحتهم ـ قبل ستة أشهر وعد بلفور ـ فقال :

إن الوعد الذى منحته لكم حكومة صـاحب الجلالـة ، بانشـاء وطن

قومى لليهود فى فلسطين ، ينبغى ألا يمس حقوق العرب ، فهم يطلبون اليـوم بحقوقهم القـومية وهم من دم واحـد ولسـان واحـد ، وعـددهم ٧ مـلايين ، وهم كثيـرو النسل ولهم فى بـلادهم تربـة خصبـة وفيهـا بتـرول وعقـول ، فإذا لم تضعوهم في اعتباركم فسوف يكون ذلك فاتحة نزاع شديد لم ير العالم مثيلاً !

لم تستـطيع أنبـاء انتصارات الجنـرال اللنبى فى الجبهة الشـامية أن تغـطى على أخبـار المجـاعـة التى انتشـرت فى ربـوع لبنـان وسـوريـا وفلسطين ، وكان جمال عبد الناصر قد ولد فى صباح اليوم الـذى أقامت فيه بعض « العقيلات المحترمات » حفلة خيـرية لاغـاثة المهـاجرين من أهالى سوريا ولبنان ، ممن وفدوا إلى مصر هرباً من أهوال المجاعة وفظائع الحرب . وفى الحفل انشد عدد من كرائم الآنسات نشيداً يقول :

لا تهنا مصر بنعمتها
والشام تحف بها النقم
إذا ما الأرز شكا سقما
جزعت مصر وبكى الهرم
ستزول الأُرْز وان عبست
ويعود الدهر فيبتسم .

وسط صعوبة الحياة فى وطن محتل ، كان كثيرون يختلفون فى قلب الوطن الرحب .

كـان سيد درويش قـد ترك كـوم الـدكـة بـالاسكنـدريـة واستقـر فى القـاهرة ، وكـان حضرة الـدكتور طـه حسين الطالب بـإرسالـيـة الجامعـة المصرية فى باريس يستعد لامتحان الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية ، أما

سيد درويش ، فلم يمر وقت طويل ، إلاّ وقد لحن نشيداً يقول مطلعه :

قوم يا مصرى . .
مصر أمك بتناديك
خد بناصرى
ناصرى دين واجب عليك !

وكان سعد زغلول يعانى فراغ سنوات الحرب ، وينتظر أن تنتهى لينفض التراب عن نفسه ، ليذهب ـ بعد عشرة أشهر فقط من ميلاد جمال عبدالناصر ـ إلى ممثل انجلترا فى مصر ليطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وكان آلاف من طلاب المدارس وافندية المدن والفلاحين الفقراء يعيشون شهود عمرهم الأخيرة ، إذ كان مقدراً لهم أن يواجهوا ـ بلحمهم الحى ـ جيوش بريطانيا التى هزمت المانيا ودول المركز ، فيهزمونها فى ثورة ١٩١٩ ، ويستشهدون وهم يهتفون باسم الوطن !

فيما يلى ذلك من سنوات ، سيصنع المصريون من ابن معاون مكتب بريد الاسكندرية الفقير ، الذى ولد فى ذلك الصباح البارد من شهر طوبة بطلاً ، سيلهمونه وهو طفل ، ثم وهو شاب ، بكل طموحهم للعدل وللحرية وللأمن وللدفء سيواجه بهم ومعهم ، قوى عاتية ، فينتصر عليها ، ستصب فى شراعه المقدام رياح أمه ، لم يحن القهر ـ يوماً ـ قامتها ولم يستذل الطغيان نفسها الأبية ، تمر بها الأحداث كَلْمى . . هزيمة . . ووجهها وضاء . . وثغرها باسم !

فى صباح يوم ميلاده . . ابتسموا . من يدرى ، ربما يولد اليوم ، أو غداً ، إن لم يكن قد ولد فعلاً ، فى حارة ما ، من شارع ما ، طفل آخر ، تلهمه الأمة ، وتتدافع فى شراعه ، تصنع بطولته ، تمنحه القدرة على

تحـدى القهر والهـزيمة وتضـاؤل الأحلام واستـرداد مـا ضـاع، ومـا قـد يضيع . .

غنوا اليوم للأم التى ولدته
سلامتك يا أمة يا مهرة . .
يا حبالة . . يا ولاده
يا ست الكل يا طاهرة . .
سلامتك من آلام الحيض
وم الحرمان وم القهرة
سلامة نهدك المرضع
سلامة بطنك الخضرة ![1]

(*) الأهالى ـ العدد ٦٦ ـ ١٢ يناير ١٩٨٣ .

(١) من قصيدة للشاعر أحمد فؤاد نجم .

تراجيديا الممثل صلاح بركات

عرفت الممثل صلاح بركات منذ أكثر من عشر سنوات ، كنت أيامها غارقاً لأذنى فى قراءة ملفات قضية اغتيال المرحوم « حسن البنا » - المرشد العام الأول لجماعة الأخوان المسلمين - فعثرت على « صلاح بركات » تائهاً بين أوراق الملف التى تزيد على خمسة آلاف صفحة ، مشرداً بين وقائع المؤامرة المثيرة التى تكشف أوراق التحقيق أسرارها وخباياها . .

ومع أن علاقته بقضية اغتيال البنا كانت واهية ، بحيث تغرى القارىء المشوق لتتبع وقائع القضية ، بالانصراف عن هذا الممثل الفلسطينى الجوال ، الذى اقتحم عالمها دون اذن . إلاَّ أن الدور القصير الذى مثله « صلاح بركات » فرض نفسه على ، وحفر اسمه فى ذاكرتى ، كذلك استقرت ملامحه : وجهه الأسمر النحيل ، وشعره الأسود الطويل الذى يبدو من طربوشه القديم الناحل المترب ، وقامته المتوسطة طولاً وضخامة ، تلتف بجلبات من الزفير الأبيض به اقلام صفراء ، وفوقها

صيديرية من الصوف كحلية اللون وبدون أكمام .

ولا أدرى ـ حتى اليوم ـ سبب هذا الحضور القوى للممثل ، الذى لم يكن يوماً فناناً مشهوراً أو نجماً لامعاً ، ولعله لم يمثل فى حياته سوى دور واحد ، غادر بعدها المسرح ، وأحاط الغموض مصيره ، ربما لأن قصته تنوى على ذلك اللحن الفاجع الذى نسميه بمأساة فلسطين وربما لأنه اختار واحدة من لحظات « الذروة » ليتقدم اثناءها إلى المسرح ، حين بدا أن البحث عن قتلة الشيخ « حسن البنا » قد انتهى إلى طريق مسدود ، وربما لأنه وهو الممثل الجوال الفقير والجائع والتعيس ، استطاع بالدور القصير الذى مثله ، أن يكشف الممثلين الكبار على مسرح الأمة ، وفى تياترو المعمورة ، وأن يقدم اداء طبيعياً لمعان معقدة كالوطن حين يضيع ، والشعب حين يصبح لاجئين ، ولم يكن يحشو فمه بطعام أو بأفكار : كان مجرد تعاسة تسير على قدمين !

. . . .

وكان اغتيال « الشيخ حسن البنا » مشهداً من مشاهد عقد الدم الذى عاشته الأمة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها حين انتفضت تحاول أن تحقق استقلالها وتحررها ووحدتها ، ودفعت مهانة الحياة فى ظل الاحتلال والقهر ، ابناءها للعب بالسلاح ، فانطلق الرصاص غزيراً ، وفى سبع سنوات فقط ـ بين نهاية الحرب وأوائل الخمسينات ـ اغتيل فى الشرق الأوسط وفى المنطقة العربية ١٢ رجلاً كبيراً فيهم ملكان ورئيس جمهورية وخمسة رؤساء وزارات ورئيس حزب وقائد عام ورئيس محكمة ووزير سابق .

وحين بدا أن المؤامرة على فلسطين قد اكتملت فصولاً ، انتهت بسرعة مرحلة مواجهة العدو الخارجى ، وبعد هزيمة حرب ١٩٤٨ ، عاد

الرصاص من الحدود ، لينطلق فى صدور الذين يحكمـون ويتواطؤون . وباسم فلسطين جمع الأخوان المسلمون السلاح وخـزنوه ، تحت سمـع الحكومة وبصرها ، وبرغم أنف قوانينها ولوائحها ، وحين اكتشفوا الخيانة فى جبهة القتال مع العدو ، عادوا ليطلقوا رصاصهم فى الداخل ، ليسمع الممثلون الكبار على مسرح الأمة خطى الزمان القادم . .

وهكـذا انتهت الصـداقـة القـديمـة بين « الأخـوان المسلمين » و « السعـديين » إلى صدامـات عنيفة تقـع كل يـوم ، وحين ضاق رئيس الوزارة « النقراشى باشا » بالأمر استغل الأحكام العرفية التى كانت معلنة بمناسبة حرب فلسطين ، وأصـدر أمراً عسكـرياً بحـل الأخوان ومصـادرة أمـوالهم وصحفهم ، وفتحت المعتقلات أفـواهها لتضم كبـار رجالهم ، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع دفـع الرجـل ثمن قراره ، فـأطلق عليه طـالب ينتمى للإخوان رصاصتين فى فناء وزارة الداخلية فسقط صريعاً أمام كبار وصغار ضباط البوليس .

ومـع أن الشبـاب السعـدى ، قـد سـار فى جنـازتــه يهتف : رأس النقراشى برأس البنا ، إلّا أن الشيخ ظـل يوالى مسـاعيه للمفـاوضة مـع « إبـراهيم عبد الهـادى » خليفة النقـراشى فى رئـاسـة الحـزب والـوزارة للوصول إلى حل للأزمة بين الحكومة والأخوان ، قد يتيح لجماعته بعضاً من الحرية ، وكانت تلك المساعى هى الطعم الذى اصطاده به من كانوا يتآمرون على حياته . .

وفى مسـاء يوم السبت ١٢ فبـراير ١٩٤٩ ، استـدعى البنـا إلى مبنى جمعية الشبان المسلمين ، ليلتقى بأحد الوسطاء فيسمع منه ـ كما قيل له ـ أنباء طيبة ، وفى الثامنة والربع خرج من الجمعية ، وما أن دلف مع صهره

إلى إحدى سيارات التاكسى ، حتى برز من ظلام تلك الليلة الشاتية رجلان ، أولهما أسمر ومتوسط الطول ، ويلف رقبته بشملة ويرتدى معطفاً أسود على جلباب ، والثانى رفيع قمحى اللون ، يرتدى جلباباً أبيض ويلف رأسه بشملة بيضاء ، فانقضا على السيارة وفتحا بابيها وانهالا على الراكبين بالرصاص ، وبسرعة مذهلة عبرا الطريق إلى الجهة الأخرى ، حيث كانت فى انتظارهما سيارة اختفت بهما عن الأعين .

وفى الليلة ذاتها بدأت النيابة التحقيق ، فاستمعت لشهور الحادث ومن كانوا بدار الشبان المسلمين ساعة وقوعه ، فوصفوا السيارة التى هرب فيها الجناة ، وقال بعضهم أن « **محمد الليثى افندى**» رئيس القسم الرياضى بالجمعية ، قد التقط رقمها . . ووجد البوليس فى الشارع أمام الجمعية حافظة تقود بها رخصة لطاه يسكن بولاق ، فقبض على صاحبها ، الذى قال أنه كان عائداً من عمله فى المساء ، ويضع البالطو على كتفه ، فوقعت الحافظة منه دون أن يشعر . . ولم تجد النيابة داعياً لتكذيب أقواله ، إذ لم يبد أن لديه أى دافع لقتل المرشد العام للأخوان المسلمين . .

وجاءت أقوال « الليثى أفندى » الأولى فى النيابة ، لتقطع كل الخيوط ، ويلف الظلام كل شىء ، فقد ذكر أنه لم ير رقم السيارة ، ولكن أحد المارة هو الذى رآها وذكرها له ، وقال أنه كتبها على ورقة ، وأعطاها لأحد ضباط الشرطة لا يعرف اسمه وأضاف أنه لا يذكر من الرقم إلاّ أنه كان مكوناً من أرقام من بينها ٧ و ٩ . .

لكن رقم السيارة كان قد تسرب إلى جريدة « المصرى » ، فنشرته فى صفحتها الأولى التى صودرت بعد أن تسربت ستة آلاف نسخة منها

إلى الأسواق ، وصدرت الطبعة الثانية وهى تحمل الخبر دون تفاصيل أو صور أو عناوين بارزة أو رقم السيارة كتعليمات الرقيب لكل الصحف . أما جنازة الشيخ فقد شيعت فى الصباح الباكر تحت حراسة مشددة من الشرطة ، ومنع أى انسان من المشاركة فيها .

وهكذا بدا واضحاً أن الحكومة غير متحمسة للبحث عن قتلة الشيخ ، وشغل ضباط القسم السياسى أنفسهم بالقول بأن الجناة هم على الأرجح بعض أتباع الرجل ، ممن خافوا أن تنتهى الوساطة بينه وبين الحكومة ، بمصالحة يكونون هم ضحاياها فيسلمهم إليها لتقتص منهم . . وكادت القضية تموت ، إلى أن تقدم الأستاذ « **فتحى رضوان** » المحامى ، ببلاغ للنيابة ، قال فيه أن «**محمد الليثى أفندى**» ، قد أنبأه أنه كذب فى أقواله الأولى أمام النيابة ، وأن الحقيقة أنه هو الذى التقط رقم السيارة ، وأخطر به بعض زملائه فى الجمعية وذكره لأحد ضباط الشرطة ليلة الحادث . .

وقال « الليثى أفندى » أنه فوجىء بالبكباشى الجزار - رئيس القلم السياسى - يتصل به ، ويطلب منه عدم الادلاء بالرقم فى تحقيقات النيابة ، فلما أنبأه باستحالة ذلك لأنه ذكر واقعة التقاطه الرقم لآخرين ، طلب منه أن يغيره أو يذكر أرقامه على غير ترتيبها أو يجعله احتمالاً بين رقمين أو ثلاثة . .

وأضاف « **الليثى أفندى** » : أنه حاور « **البكباشى الجزار** » ، ولفت نظره لأنه هو الذى استدعى الشيخ من بيته للموعد الذى انتهى باغتياله وأنه يخشى أن يظن الأخوان المسلمين أنه تواطأ على قتل مرشدهم فينتقمون منه ، وأن الوسيلة الوحيدة لتوقى ذلك الخطر ، هو أن يكشف القتلة

الحقيقيين ، لكن الجزار حذره وهدده ونبهه إلى مغبة ذكر الرقم الحقيقى ، فخضع له ولم يذكره فى أقواله الأولى فى النيابة ، لكنه أعاد تقدير الأمر ، فقرر أن يدلى بالحقيقة ، مؤكداً أن الجناة قد هربوا فى سيارة سوداء تحمل رقم ٩٩٧٩ . وحين أدلى الليثى بأقواله فى النيابة ، أيد ما سبق وذكره لفتحى رضوان ، وأضاف أنه فهم من الجزار أن الرقم لسيارة تابعة لوزارة الداخلية !

وأنكر البكباشى الجزار كل ذلك ، وقال أن الليثى كان مرشداً للمباحث يعمل معه ، وأنه طرده من العمل لعدم كفاءته ، فأراد أن يبتزه، فاتصل به تليفونياً، وأخطره بحادث قتل الشيخ، وهدده إذا لم يعده إلى العمل ، فسوف يبلغ النيابة برقم سيارة من سيارات الداخلية على سبيل النكاية به ، واختار رقم ٩٩٧٩ ، لأنه رقم سيارة وكيل وزارة الداخلية للأمن الجنائى الاميرلاى « محمود عبد المجيد » ، التى كان « الليثى » يراها فى فناء الوزارة كلما زار الجزار ليقدم له تقاريره عن نشاط الشبان المسلمين السياسيين !

وبثبات تقدم مدرس جامعى وأحد أعضاء هيئة تدريس كلية التجارة ، ليشهد بما يدعم أقوال الجزار ، فقد أكد أنه رأى السيارة والجناة يفرون بها ، والتقط الرقم وهو ٩٩٩٧ وليس ٩٩٧٩ كما قال « الليثى » ، فارتبكت الحقائق ، واستدعى المحقق كل السيارات التى تدخل فى تركيبها الأرقام الأربعة ، وثبت أن اثنتين منها متعطلتان منذ شهور ، وأن الثالثة لم تغادر المنصورة مع صاحبها ، أما الرابعة ، وهى سيارة الاميرلاى « عبد المجيد » فكانت واقفة على مقربة من الحادث ساعة وقوعه ، وقال صاحبها أنه كان يجلس مع عدد من الأعيان والذوات فى مقهى بميدان الأوبرا ، وسيارته على مرمى بصره ، لم تغادر مكانها ، واستشهد بمن

كانوا يجلسون معه ، فأيدوه بثبات يفوق ثبات المدرس الجامعى (!!)

وإلى هنا كان التحقيق قد انتهى أو كاد . . ولم يبق سوى اغلاق الملف .

وفجأة حدث حادث غريب !

فى مدينة شبين الكوم ، ضبط لاجىء فلسطينى اسمه « صلاح أحمد بركات » عمره ٢٧ سنة ، بتهمة سرقة ملابس من محل كواء مصرى كان يعمل لديه ويساعده فى دكانه . وبعد أن انتهى التحقيق فى قضية السرقة ، سأله المحقق ، ذلك السؤال التقليدى : هل لك سوابق ؟ فإذا بالرجل يعترف ببساطة أنه ارتكب جريمة قتل الشيخ حسن البنا . .

وقامت الدنيا ولم تقعد !

تحول صلاح بركات من لص متهم بتهمة تافهة ، إلى رجل يستحق عناية رئيس الحكومة والنائب العام ، وضباط الأمن السياسى ، وكل سلطات الدولة ، ولهذا انتقل التحقيق معه من مدينة شبين الكوم الصغيرة ، فى وسط الدلتا إلى القاهرة العاصمة ، ومن وكيل نيابتها إلى رئيس نيابة جنوب القاهرة وتحلق حوله كبار رجال النيابة يحاورونه ويداورونه ليعرفوا الحقيقة !

وفى كل مراحل التحقيق أصر صلاح بركات على أقواله : قال أنه فلسطينى ولد بيافا وكان مقيماً بها وأن اليهود هاجموا منزله وهدموه ، وقتلوا أمه وأباه واخوته ، ولم يبق من أسرته سواه ، فهرب من المدينة ومعه ٥٠٠ ليرة ، وسافر إلى القدس ومنها إلى عمان ثم إلى إربد بالأردن ، وهناك اشترى مسدساً ، وذهب إلى درعا ، وهرب من شرطتها إلى دمشق فبيروت ، وتسلل إلى ظهر باخرة يونانية نزل منها فى الاسكندرية وبقى بها

يومين ثم سافر إلى القاهرة وترصد للشيخ البنا الذى كان يعلم أنه يتردد على جمعية الشبان المسلمين .

وقال صلاح بركات : أنه استيقظ يوم الحادث فى الصباح ، واشترى زجاجة براندى رخيصة ماركة الميدالية ثمنها لا يزيد عن ٦٧ قرشاً ، وشربها فى اللوكاندة التى كان ينزل بها والتى رفض أن يذكر اسمها ، ثم نام وقام من النوم عند الغروب ، وحمل مسدسه ، وذهب إلى جمعية الشبان المسلمين ، حتى نزل الشيخ البنا ، فتقدم مسرعاً وأطلق عليه الرصاص ، ثم هرب إلى مقهى قريب جلس به بعض الوقت ، وقام منه ليستقل القطار إلى الاسكندرية !

وحاوره المحقق فى كل التفاصيل ، سأله عن الملابس التى كان يرتديها حين ارتكب الجريمة . فقال : أنا كنت البس جلابية وبالطو والجلابية بيضاء من القطن ، والبالطو اسود ، وكان على رأسى طربوش وحول عنقى تلفيحة حرير أبيض كنت شاريها من سوريا .

وسأله أين كانت تتجه السيارة التى استقلها « الشيخ البنا » ، فقال : ناحية المحطة . . . سأله عن عدد الرصاصات التى أطلقها ، فذكر الرقم الصحيح لعدد ما أطلق بالفعل من رصاص ، وسأله عن سبب ارتكابه للجريمة ، فقال إنه كان ممثلاً متجولاً فى إحدى الفرق المسرحية فى يافا ، ثم انضم لفرع الأخوان المسلمين بالمدينة ، وأنشأ لهم فرقة تمثيلية ليشبع رغبته فى التمثيل ، وأنه نقم على الشيخ سياسته ، فقرر قتله ، وجمع معلومات عن تحركاته ونفذ جريمته !

دهش الممثلون الكبار الذين كانوا يملأون المسرح حركة وحيوية ، ويلبسون أزياء الوزراء ، ويتباهون بنياشين وعلامات حفظة الأمن فركوا

أعينهم ذهولاً وهم يرون ذلك الممثل المغمور يقتحم خشبة المسرح ليؤدى دوره الوحيد والمجيد : دور المعترف المحترف ، حاوره المحقق وداوره ساعات طويلة ، فلم يتلجلج له لسان ، ولم ترتجف على شفتيه كلمة ، ولم تتناقض حقيقة قالها مع الثابت فى الأوراق ، فقد كان يحفظ كل التفاصيل : وقت الجريمة ومكانها وملابس القاتل واتجاه السيارة وعدد الرصاصات . وكان أيضاً غامضاً كما ينبغى لقاتل سياسى يحرص على اخفاء اسماء شركائه ، ويخفى بعض التفاصيل غير المهمة ، موحياً بأنه لا يريد أن يذكرها . . فيزيد فضول المحقق ، ويواصل محاصرته ليحصل منه على ما لم يعترف به ، بعد أن حل لغز مقتل حسن البنا ، وعثرت « العدالة » على قاتله !

شغلت النيابة نفسها بسماع أقوال الذين التقوا بصلاح بركات فى القاهرة والاسكندرية وشبين الكوم ، وامتلأت صفحات التحقيق بقصص لا تضيف جديداً ، وحين اقترب دور « صلاح بركات » على الانتهاء وان له أن يغادر المسرح ، التزم الصمت التام ، وفى جلسة التحقيق الرابعة ، أشار إلى زوره بما يفهم منه أنه عاجز عن الكلام .

وفى اليوم التالى فجر مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، إذ ما كاد وكيل النيابة يواصل استجوابه عن قتله لحسن البنا حتى قال :

ـ وحياة الله ما بعرف اللى بتحكى عنه شو بدى فيه !

وهكذا أنكر « صلاح بركات » كل الذى قاله قبل ذلك ، وروى للمحقق تفاصيل عن رحلته منذ طرد من يافا لتعتصر القلب ببساطتها وقسوتها : هذا عصر الخروج . . من يافا إلى القدس إلى بيروت إلى اريحا إلى الاسكندرية فالقاهرة فشبين الكوم ، ثم إلى السجن مع احلام

المقصلة . طوال الرحلة كان « صلاح » معذباً ومشرداً ووحيداً وضائعاً ومشهده الأخير . . كما وصفه المحقق ـ معذب هو الآخر ، طربوشه يتسع على رأسه بحيث يغطي جزءاً من أعلى أذنيه ، وشعره بارز من الطربوش » ، لذلك تبدو أقواله شاهدة على العصر كله . . قال :

ـ دول كتفونى وضربونى وأخذوا منى ٣٧٠ ليرة . . وهيو براسى الاصابات .

ـ من الذين ضربوك ؟

« والله ما اعرف . . البلد اللى كنت فيها . ضبشونى واخذوا الثياب بتوعى الجداد » .

من هم : الصهاينة ؟! أم الخونة ؟! أم الناس فى بيروت وفى أربد وفى عمان ، الصامتون على الخيانة المتواطئون على سلب الأوطان ؟ . . تلك اسئلة لم يجب عنها « صلاح بركات » !

قاسياً وميت القلب يبدو العصر . قال صلاح بركات : « اليهود مسكونى فى رمات غان بفلسطين . حبسونى . بعد كده تركونى » . أما فى يافا فقد هجم عليه البدو العرب « قتلوا أمى وأبى وأخى » لذلك يبدو « صلاح » حزيناً جداً .

سأله المحقق : وما سبب شربك زجاجة كاملة من الخمر صباح يوم الحادث ؟

قال : أنا كنت زعلان شويه !!

فعاد المحقق يسأله بذهول :

ـ ولماذا اتهمت نفسك بارتكاب جريمة لم ترتكبها ؟

فقال بهدوء كسير كأنه يعلن احتجاجه على بلاده العصر :

ـ لأنى كنت زهقان من حياتى . . وما فيش شغل . .

لا عمل ولا وطن ولا منزل ولا أسرة :

فى ذلك الوقت كان الممثلون الكبار ـ والأقل موهبة ـ يبحثون بلا حماس عن قتلة الشيخ البنا ، وهم يعلمون أن القاتل هو النظام الذى يبحث ، وأن العصابة التى أطلقت الرصاص كانت بقيادة وكيل وزارة الداخلية ، ـ وقد أدانه القضاء بعد الثورة بتهمة التخطيط لقتل البنا ـ .

كانت القسوة قد طبعت كل شىء بطابع دموى ، ولم يكن « صلاح بركات » سوى واحد من مواليد هذا الزمن الدموى العنيف ، سرق ملابس تافهة من دكان احد الكوائين ، وترك مكانها ملابسه ، لا لأنه يريد أن يسرق ، ولكن لأنه يريد أن يدخل السجن ليأكل ويتخلص من الحزن الممض الذى يملأ قلبه على أهله الذين ماتوا وداره التى هدمت ، ووطنه الذى ضاع .

كلما تذكرت صلاح بركات سألت نفسى حائراً :

لماذا اتهم نفسه بجريمة لم يرتكبها عقوبتها الاعدام؟ . هل أجبره القتلة الحقيقيون بالضرب « والتضبيش » على تحمل وزر جريمتهم ليفروا من العقاب . ولماذا اختاروه بالذات ؟ .

ألأنه فلسطينى بلا وطن ولا حكومة ولا أسرة ولا أمل ـ أم لأن الفلسطينى قد أصبح من يومها مشجب أخطاء من يحكمون ويخونون ويغتالون الأوطان ؟ !

ولو كان هذا هو ما حدث فلماذا قبل « صلاح بركات » أن يؤدى هذا الدور الذى كاد ينتهى به إلى المقصلة ؟ إن الرجل بالقطع لم يكن مجنوناً ، وقد قال الطبيب الذى فحصه أنه لم يكن منفعلاً أو مذهولاً وأن حديثه خال من أى هلوسة أو تخيلات ولم يجد نقصاً فى قوة انتباهه أو فى ذاكرته . . فلماذا تقدم الرجل لينافس الممثلين الكبار على مسرح الأمة

وفى تياترو المعمورة ؟ هل طاف بخاطره أنهم وزرنا الـذى نحمله ، وأن بقاءهم حيث هم هو الجريمة التى ارتكبها هو وارتكبناها ، بحيث نستحق أن نشنق لأننا سكتنا عليهم ، وتحملنا بقاءهم على المسرح ، فتقدم ليكفر عن جريمة الصمت العـام على الذين يقتلوننـا شعوباً ـ وأوطاناً ـ غيلة . . وغدراً . .

قد يكون ذلك كله قد حدث، وقد لا يكون شيء منه قد حدث، لكن الشيءالمؤكد ، أن صغار الممثلين الموهوبين ، قـادرون ـ فى كل زمـان ومكان ـ على كشف الذين يمثلون أعقد الأدوار ، فى مسرح الأمة ، وفى تياترو المعمورة .

فأين أنت الآن يا صديقى « صلاح بركات » ؟!!

(*) « الأهالى » فى ١٦ فبراير ١٩٨٣ .

هكذا تكلم صلاح بركات

فضلت أن أنشر النص الكامل للوثيقة التى اكتشفت بين سطورها « تراجيديا الممثل صلاح بـركات » ، رغـماً عن برودة الأسلوب الرسمى الديوانى الذى صيغت به ، وبلادته ، وافتقاره للشاعرية التى تتناسب مع المأساة التى يصفها ، بل إن هذا الأسلوب الديوانى البليد ذاتـه ، هو الـذى شجعنى عـلى نشر النص كـامـلاً ، ففى بـلادتـه ، وحياده ، وبيروقراطيته تنويع على البلادة التى واجهت بها بعض المفردات مأسـاة فلسطين بـرمتها ، التى لا تشكـل مأساة « صلاح بركات » سوى مشهد واحد منها . .

وقد كانت الهـوامش التى تتلو النص ، ضروريـة ، لمساعدة القارىء فى ربط ما ورد فى هذه الوثيقة ، بمجمل أوراق القضية التى اجتزأت منها :

الأقوال الأولى لصلاح بركات :

(ص ٣٩٧ ت. ب)[1]

فتح المحضر فى يوم ١٦/٣/١٩٤٩ الساعة ١٢,٣٠ ظهراً بسراى النيابة .

نحن أحمد فؤاد وكيل النيابة العسكرية . وحسن عثمان ـ الكاتب .

الآن أثناء وجودنا بمكتبنا بالنيابة أرسلت نيابة بندر شبين الكوم[2] الجنحة رقم ٣٠٤ سنة ١٩٤٩ وهى جنحة سرقة أتهم فيها المدعو صلاح أحمد بركات بسرقة ملابس ، وقد قام حضرة وكيل نيابة البندر باستجواب المتهم على ظهر المحضر عن سوابقه ذكر لحضرة المحقق أنه ارتكب حادث قتل الشيخ حسن البنا من مدة لا يذكرها وأنه ضربه بمسدس « تومى جن » سبعة رصاصات . بعد نادى المحاماة وأمام جمعية الشبان المسلمين ولم يكن المجنى عليه قد نزل من سيارته وأن ذلك كان فى الصباح المبكر[3] وأنه كان معه شاب آخر وأنه هو كان عضواً بجماعة الأخوان المسلمين بفلسطين وأنه فلسطينى الجنسية ودخل مصر من مدة وتوجه إلى الاسكندرية وسافر منها إلى مصر[4] . وبعد القتل ذهب الى الاسكندرية ومكث بها مدة ثم حضر إلى شبين الكوم من عشرة أيام للسؤال عن شخص لا يريد أن يذكره ـ وقد رأينا نسخ كل الجزء المتعلق بهذه الواقعة من استجواب النيابة كالآتي :

س ـ الك سوابقْ ؟ (ص ٣٩٨ ت. ب)

ج ـ لا ولكنى ارتكبت حادثة قتل الشيخ حسن البنا من مدة لا أذكرها .

س ـ وكيف ارتكبت الحادث ؟

ج ـ أنا ضربته بمسدس « تومى جن » سبعة رصاصات بعد نادى المحاماة[5] وأمام جمعية الشبان المسلمين وكان لسه ما نزلش من سيارة كان راكبها الصبح بدرى لأنى كنت من الأخوان المسلمين بفلسطين .

س ـ ألم يكن أحد موجوداً مع الشيخ حسن البنا ؟

ج ـ كان معاه شاب[6] وضربت الرصاص وما اعرفش جه فيه حاجة والاَّ لا .

س ـ ومتى وصلت مصر ؟

ج ـ أنا فلسطينى ووصلت مصر من مدة وكان معايه ٣٧٠ جنيه ونزلت اسكندرية وسافرت منها ، إلى مصر ، وبعدما قتلته رحت اسكندرية وقعدت مدة وبعدين جيت شبين الكوم من مدة عشرة أيام تقريباً .

س ـ ولماذا حضرت لشبين الكوم وكيف زاولت عملك بها ؟

ج ـ أنا حضرت للسؤال عن شخصٍ لا أريد أن أذكره فلم أجده فاشتغلت مكوجى[٧] لأنى كنت صاحب مصبغة[٨] بفلسطين ولما عرضت العمل عند المكوجى قبل فعملت معه[٩] إلى أن وقعت السرقة .

س ـ هل اشترك معك أحد في قتل الشيخ حسن البنا ؟ ج ـ لا[١٠].

س ـ هل حرضك أحد على ارتكاب هذه الجريمة ؟ ج ـ لا . (ص ٣٩٩ ت . ب).

س ـ وأين أقمت بالقاهرة ؟

ج ـ أنا نزلت فى لوكاندة[١١] ما أعرفهاش ولا أذكر اسمها .

س ـ هل لديك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا .

وقد أمر حضرة وكيل النيابة المستجوب بحبس المتهم أربعة أيام احتياطياً على ذمة قضية السرقة ، وقد أشرنا على محضر الجنحة بالنظر[١٢].

ثم استدعينا المتهم ووجدناه شاباً يبلغ من العمر حوالى ٢٥ إلى ٣٠ عاماً أسمر اللون متوسط القامة والضخامة أسود الشعر طويله عليه من الملابس جلباب من الزفير صفراء فاتحة مقلمة بأقلام صفراء وبيضاء أسفلها فانلة قطن بيضاء ولباس أبيض من القطن وفوق الجلباب جرساً كحلى اللون ليست له أكمام ، وعلى رأسه طربوش قديم وينتعل شراباً[١٣] أحمر قاتم وحذاء شمواه أردوازى اللون .

وقد وجدنا برأسه بأعلى جبهته سحجا رضيا مستطيل الشكل أبعاده حوالى ٢ × ١ سم يقع فى اتجاه مستعرض مائل قليلاً لأسفل ولليمين مقابل الحدبة الجبهية ليمنى ، كما شاهدنا بأسفل السحج كدماً مزدوجاً مستطيل الشكل بطول

حوالى ١٢ سم يقع بنفس الاتجاه السابق على مقدم مشابهاً لكدم الرأس عند الرسغ ويظهر يده اليسرى جرحاً (ص ٤٠٠ ت. ب) صغيراً بطول ١ × $\frac{١}{٢}$ سم وقد فتشناه فلم نعثر معه على أى شيء كما شممنا رائحة يده وفمه فلم يشتم منها شيء وقد لاحظنا أنه فى حالة اعياء[١٤] فأجلسناه ثم بدأنا سؤاله بالآتى قال :

اسمى صلاح أحمد بركات سن ٢٧ سنة صاحب مصبغة بفلسطين فلسطينى الجنسية مولود بيافا وكنت مقيماً بها .

س ـ ورد فى أقوالك فى استجواب النيابة في الجنحة ٢٠٤ سنة ١٩٤٩ أنك قتلت الشيخ حسن البنا فما الذى حصل ؟

ج ـ أنا هربت من يافا بعد هدم منزلى وأخذت معى مبلغ ٥٠٠ ليرة وتوجهت إلى القدس ومنها إلى عمان ، ومن عمان توجهت إلى إربد بشرق الأردن وهناك اشتريت مسدساً ومنها توجهت إلى درعا وهربت من البوليس هناك وركبت سيارة إلى دمشق ثم توجهت إلى بيروت ومن هناك سافرت بحراً بباخرة يونانية لا أذكر اسمها ونزلت منها بالاسكندرية . ودخلت القطر المصرى بصورة غير مشروعة ، وذلك من حوالى ٥٠ يوماً[١٥] وبقيت بالاسكندرية يومين وبعدين جيت مصر وكنت علمت أن الشيخ حسن البنا يتردد على جمعية الشبان المسلمين فرحت الصبح شربت براندى فى المكان الذى كنت فيه ولا أتذكره وبعدين رحت نمت واستيقظت من النوم (ص ٤٠١ ت. ب) وخدت الفرد[١٦] ورحت هناك عند كنيسة[١٧] بالقرب من مبنى جمعية الشبان المسلمين ، ووقفت هناك حتى حضرت سيارة فيها الشيخ حسن البنا ومعه شخص لا أعرفه ، فأطلقت النار على السيارة ومشيت ، ثم دخلت قهوة فيها ناس سود ثم ركبت القطار وعدت إلى الاسكندرية وكنت أريد السفر إلى الغرب بطريق تونس ومرسيليا ، ولكنى لم أتمكن وكانت نقودى قد نفذت فبعت ملابسى ثم حضرت لشبين الكوم للإقامة فيها وقعدت مدة عند واحد هنا اسمه عاشور وهو مكوجى استطيع الارشاد عنه ومكثت حوالى اسبوع واشتغلت عنده ثم تركته واشتغلت بمحل آخر بشبين قريبى[١٨] اسمه أحمد

وهو مكوجى وهو المجنى عليه في القضية وبعد ذلك سرقت هذه الملابس وهذه كل معلوماتى .

س - لماذا هربت من بلدتك بفلسطين ؟

ج - علشان اليهود هاجموا العرب وموتوهم وقد قتل فيها أمى وأبى وأخواتى .

س - وهل هربت بمفردك ؟ ج - نعم .

س - وما الذى دعاك إلى كثرة الطواف فى البلاد ؟

ج - أنا كنت عايز أجى مصر وقد حاولت بكل الطرق حتى تمكنت من الدخول .

س - وما سبب شرائك السلاح ؟ ج - احنا دايماً نحمل أسلحة .

س - هل كنت تقصد به شيئاً ؟ ج - احنا دايماً نحمل السلاح .

س - ومن أين اشتريت السلاح ؟

ج - أنا اشتريته من « اربد »[١٩] وهو يباع علناً فى الشوارع .

س - ومن أين لك بالنقود التى كانت معك ؟

ج - أنا كان عندى محل مصبغة يربح يومى ٣٠ ليرة .

س - وما سبب رغبتك فى الحضور إلى مصر ؟

ج - أنا ليه كيف[٢٠] آجى مصر .

س - هل سبق أن حضرت إلى مصر ؟

ج - أنا حضرت سنة ٤٠ بقصد الفسحة ومكثت ١٥ يوماً .

س - هل تعرف أى شخص فى مصر ؟ ج - لا .

س - وكيف تمكنت من الخروج من بيروت ؟

ج - أنا تمكنت من الهرب مع المهاجرين .

س - ألم تضبط على ظهر الباخرة ؟ ج - لا .

س - وكيف تمكنت من المعيشة على ظهر المركب ؟

ج ـ أنا كان معى فلوس .

س ـ وما اسم المركب التى حضرت عليها ؟ ج ـ ما اعرفش[٢١] .

س ـ وما هى المدة التى مكثتها على ظهر الباخرة ؟

ج ـ المركب قامت من بيروت الساعة السابعة مساءً وصلت بور سعيد الساعة الواحدة ظهراً وبقيت ببور سعيد حوالى ستة أو سبعة ساعات ووصلت اسكندرية فى الصباح المبكر لليوم التالى .

س ـ ولماذا لم تنزل ببور سعيد ؟

ج ـ أنا حاولت ولكن كان فيه تدقيق كثير .

س ـ وكيف تمكنت من النزول فى الاسكندرية ؟

ج ـ فيه ناس كثير صاعدين ونازلين وأنا تمكنت من النزول .

س ـ وإلى أين توجهت عندما نزلت ؟

ج ـ أنا نزلت فى لوكاندة لا أتذكرها ولا أعرف مكانها .

س ـ وما هى المدة التى مكثتها هناك ؟ ج ـ حوالى يومين .

س ـ ومتى توجهت إلى القاهرة ؟ ج ـ بعد يومين .

س ـ وأين نزلت بالقاهرة ؟ ج ـ لا أعرف .

س ـ ألا تستطيع الارشاد عن الأماكن التى كنت بها ؟ ج ـ لا .

س ـ ومتى فكرت فى قتل الشيخ حسن البنا ؟

ج ـ أنا فكرت فى ذلك قبل الحادث بشهر اثناء وجودى بشرق الأردن .

س ـ وما الذى دعاك إلى التفكير فى ذلك ؟ ج ـ شىء فى نفسى .

س ـ ما هو ذلك الشىء ؟ ج ـ لا أستطيع أن أفضى بذلك .

س ـ هل معنى ذلك أن حضورك لمصر كان لهذا الغرض ؟ ج ـ نعم .

(ص ٤٠٤ ت.ب)

س ـ ولماذا لم تذكر ذلك عند سؤالك أولاً ؟ ج ـ أنا ما اعرفش .

س ـ هل حضر معك أحد إلى مصر ؟ ج ـ لا .

س ـ هل دعاك أحد أو حرضك أو اتفق معك أثناء وجودك بشرق الأردن على القتل ؟ ج ـ لا .
س ـ هل معنى ذلك أنك اشتريت السلاح من شرق الأردن بقصد القتل ؟
ج ـ لا أنا دايماً أحمل سلاح .
س ـ هل قابلت أحداً عندما حضرت إلى الاسكندرية وإلى مصر ؟ ج ـ لا .
س ـ ومتى عزمت على تنفيذ القتل ؟ ج ـ قبل الحادث بيومين .
س ـ اذكر لنا تفصيلياً كيف اعددت للحادث ؟
ج ـ أنا انتظرت الشيخ حسن البنا يومين عند جمعية الشبان فلم أجده .
س ـ وكيف علمت أنه يذهب إلى جمعية الشبان ؟ ج ـ أنا أعرف ذلك .
س ـ وممن عرفت ذلك ؟
ج ـ أنا تعبان جداً ومحتاج للراحة وبعد ساعة أقدر أتكلم .

(ص ٤٠٥ ت.ب) واقفل المحضر على ذلك بعد إثبات ما تقدم وقررنا تأجيل التحقيق لمدة ساعة حيث كانت الساعة ٢ مساءً .

* * *

أعيد فتح المحضر الساعة ٣ الثالثة مساءً ببندر شبين الكوم بالهيئة السابقة .

حيث انتقلنا إلى بندر شبين الكوم[٢٢] لاستكمال التحقيق فوصلنا ساعة افتتاح المحضر واستدعينا المتهم وسألناه بالآتى قال :

س ـ ممن علمت أن الشيخ حسن البنا اعتاد الذهاب إلى جمعية الشبان المسلمين ؟ ج ـ أنا علمت ذلك من ناس لا أريد أن أذكرهم .
س ـ هل هؤلاء الأشخاص فى مصر أو خارج مصر ؟ ج ـ بره[٢٣]مصر .
س ـ ما الذى علمته منهم ؟
ج ـ أنا علمت منهم أنه سينضم لجمعية الشبان المسلمين[٢٤].

س ـ فى أى بلد قابلت هؤلاء الأشخاص ؟
ج ـ فى فلسطين ولا أريد ذكر اسم البلد .
س ـ ومتى علمت منهم ذلك ؟ ج ـ قبل حضورى لمصر بأسبوعين .
س ـ هل هذا المصدر شخص أو أكثر ؟ ج ـ شخص واحد .
(ص ٤٠٦ ت . ب).
س ـ هل هذا الشخص عضو فى جماعة الأخوان المسلمين ؟
ج ـ نعم بفلسطين .
س ـ وما صلتك بهذا الشخص ؟
ج ـ هو عضو في الجماعة وزميلى لأنى كنت عضو في الجماعة فى فلسطين .
س ـ هل كان هذا الشخص على صلة بجماعة الأخوان بالقاهرة ؟
ج ـ ربما وأنا ما اعرفش.
س ـ ومن أين حصل هذا الشخص على معلومات ؟
ج ـ أنا ما اعرفش .
س ـ وبأى مناسبة ذكر لك هذه المعلومات ؟
ج ـ كنا نتكلم عن مصير الأخوان المسلمين وهو ذكر لى ماسبق أن قلته.
س ـ هل ذكر لك سبب محاولة الشيخ البنا الانضمام الى جمعية الشبان المسلمين ؟ ج ـ لا .
س ـ هل كان هذا الشخص يعلم أنك تنوى الحضور إلى مصر ؟
ج ـ لا .
س ـ ألم يكلفك بأى شيء ؟ ج ـ لا .
س ـ وما سبب عدم رغبتك فى ذكر اسمه ؟
ج ـ لأنه شخص لم يجد[٢٥] شيئاً .
س ـ وكم مرة توجهت أنت إلى جماعة الشبان المسلمين ؟
(ص ٤٠٧ ت . ب) ج ـ ثلاث مرات .

س ـ متى كانت أول مرة ؟ ج ـ غير متذكر .
س ـ ما الذى كنت تفعله ؟
ج ـ أنا وقفت أمام الجمعية حوالى ربع ساعة ثم مشيت حتى مصلحة المجارى(٢٦) وانصرفت .
س ـ كم كانت الساعة عندما ذهبت إلى دار الشبان المسلمين أول مرة ؟
ج - حوالى الساعة ١١ صباحاً .
س ـ وما الذى كنت تنوى فعله ؟ ج ـ أنا كنت ناوى أقتل الشيخ حسن البنا .
س ـ هل كنت تعلم أنه يحضر فى مثل هذا الوقت الذى ذهبت فيه ؟
ج ـ لا .
س ـ وما سبب ذهابك إذن فى مثل هذا الوقت وانصرافك بعد ربع ساعة ؟
ج ـ كنت اتجسس .
س ـ وما هى وسائل الجاسوسية التى فعلتها ؟ ج ـ هذا ما فعلته .
س ـ ألم تفعل شيئاً آخر ؟ ج ـ لا .
س ـ هل سألت عما إذا كان الشيخ حسن البنا يتردد على الدار ؟
ج ـ لا .
س ـ ومتى ذهبت فى المرة الثانية ؟
ج ـ ذهبت ثانى يوم حوالى الساعة ٦,٣٠ مساءً .
س ـ وما الذى فعلته ؟
ج ـ أنا وقفت شويه حوالى نصف ساعة أمام الجمعية ثم مشيت؟
(ص ٤٠٨ ت . ب).
س ـ فى أى مكان وقفت ؟
ج ـ أنا وقفت بجوار الجمعية فى مكان لاأذكره .
س ـ ألم تسأل أحداً عن حضور الشيخ البنا ؟ ج ـ لا .
س ـ وإلى أين توجهت بعد ذلك ؟ ج ـ روحت .

س ـ أين روحت ؟ ج ـ أنا روحت إلى اللوكاندة ولا أعرفها .

س ـ وما الذى فعلته بالضبط فى يوم الحادث ؟

ج ـ أنا استيقظت فى الصباح الساعة ٩ صباحاً ولا أذكر التاريخ وقعدت ساعة فى اللوكاندة وبعدين اشتريت زجاجة براندى مداليه[٢٧] بمبلغ ٦٧ قرشاً ، وشربتها فى الأوتيل[٢٨] ثم نمت قمت دايخ ، وكان الوقت قرب المغرب[٢٩] فقمت نزلت وخدت معى السلاح ورحت عند جمعية الشبان ووقفت عند الكنيسة القريبة من دار الشبان ووقفت حوالى ثلاثة أرباع الساعة وإذ ذاك رأيت سيارة عادية واقفة أمام الدار فتقدمت إلى ناحية السيارة وبصيت وجدت بداخلها الشيخ حسن البنا ومعه شاب فأخرجت الفرد ودست على الزناد فانطلق منه حوالى سبع طلقات ثم سافرت إلى الاسكندرية .

س ـ فى أى مكان كنت تقف بالضبط ؟

ج ـ أنا كنت واقف أمام باب الكنيسة .

س ـ ما المسافة بين المكان الذى كنت تقف فيه ومفترق الطرق ؟

(ص ٤٠٩ ت . ب) ج ـ حوالى عشرين متر أو أكثر .

س ـ هل كنت في وضع يسمح لك بمشاهدة دار الشبان المسلمين ؟

ج ـ نعم .

س ـ هل كان فى استطاعتك أن تشاهد الباب الرئيسى للدار ؟

ج ـ نعم .

س ـ وما المسافة التى كانت بينك وبين الباب الرئيسى ؟

ج ـ حوالى ٥٠ متراً .

س ـ وما سبب اختيارك الكنيسة للوقوف أمامها ؟

ج ـ حتى ابتعد عن الشبهات .

س ـ وما سبب وقوفك فى اليومين السابقين أمام باب الدار ؟

ج ـ لأنى وقفت يومين أمام الباب رأيت ألا أقف فى اليوم الثالث .

س ـ هل كان نظرك أمام باب الدار باستمرار ؟
ج ـ أنا معظم الوقت كنت أنظر للدار إنما مش دايماً .
س ـ هل شاهدت السيارة عند قدومها ووقوفها أمام باب الدار ؟
ج ـ لا أنا شاهدتها فقط وهى واقفة .
س ـ إلى أى اتجاه كان وجهها ؟ ج ـ كان لناحية مصلحة المجارى(٣٠).
س ـ وكيف لم تتمكن من مشاهدة السيارة وقد مرت من أمامك ؟
ج ـ أنا ما أخدتش بالى (٣١) .
س ـ ما الذى فعلته عندما شاهدت السيارة ؟
ج ـ أنا تمشيت ناحيتها حتى أرى من بها . (ص ٤١٠ ت. ب).
س ـ ومتى شاهدت الشيخ البنا ؟ ج ـ على بعد عشرة أو اثنى عشر متراً .
س ـ على أى رصيف كنت ؟
ج ـ أنا كنت على الرصيف المقابل لرصيف جمعية الشبان .
س ـ وأين كان الشيخ البنا بالضبط إذ ذاك ؟
ج ـ هو كان جالس بداخل السيارة .
س ـ فى أى جانب منها كان جالساً ؟ ج ـ كان جالساً فى الجانب الأيمن (٣٢) .
س ـ هل كان يجلس بجواره أحد ؟ ج ـ نعم كان يجلس بجواره واحد شاب .
س ـ هل كانت أبواب السيارة مغلقة أم مفتوحة ؟
ج ـ كان الباب المجاور للجمعية مفتوحاً .
س ـ تعلم سبب كونه مفتوحاً ؟ ج ـ لا .
س ـ هل كان الشيخ البنا يهم بالنزول أو الصعود للسيارة ؟
ج ـ لا(٣٣).
س ـ وماذا كان يرتدى الشيخ البنا ؟
ج ـ كان لابس بالطو أسود ولا أعرف ماذا كان يرتدى سواه وكان يرتدى طربوشاً(٣٤).

س ـ ما هى أوصاف الشخص الآخر ؟
ج ـ أنا لم أتحقق وإنما هو شخص وسط[٣٥] .
س ـ وما كان يرتدى ؟
ج ـ هو كان لابس طربوش وأتذكر بدلة لا أذكر أوصافها .
(ص ٤٤١ ت . ب) .
س ـ هل كان قائد السيارة فيها ؟ ج ـ نعم .
س ـ وما هى أوصافه ؟ ج ـ أنا ما خدتش بالى .
س ـ هل كان بجوار السائق أحد ؟ ج ـ ما اعرفش .
س ـ وما شكل ووصف السيارة ؟
ج ـ لونها بيعطى على سوادوما أعرفش أوصاف أخرى[٣٦] .
س ـ هل كانت السيارة ملاكى أم أجرة ؟ ج ـ ما شفتش .
ج ـ الم يكن يوجد أى شخص بجوار السيارة ؟ ج ـ لا .
س ـ هل كانت آلات السيارة دائرة أم واقفة ؟
ج ـ أنا ما سمعتش صوت[٣٧] .
س ـ هل كانت السيارة تقف بجوار رصيف الشارع أم بجوار الرصيف الضيق الداخلى ؟
ج ـ العربية كانت واقفة بجوار دار الجمعية مباشرة .
س ـ وفى أى مكان اجتزت الطريق ؟
ج ـ أنا عبرت الطريق أمام جراج السيارات الذى على ملتقى الشارعين .
س ـ فى أى وضع كنت من السيارة عندما عبرت الطريق؟
ج ـ كنت أمام جنبها الأيسر .
س ـ ومتى أطلقت النار ؟
ج ـ على مسافة متر ونصف من السيارة .
س ـ على من الراكبين أطلقت النار ؟ (س ٤١٢ ت ، ب) .

ج ـ على الشيخ حسن البنا .
س ـ هل كان زجاج السيارة مفتوحاً أم مغلقاً ؟
ج ـ كان الزجاج المجاور للسائق فقط هو المفتوح(٣٨) .
س ـ وعلى أى جزء من السيارة أطلقت النار ؟
ج ـ أنا أطلقت النار على لوح الزجاج الخلفى .
س ـ كم طلقة أطلقت ؟ ج ـ سبعة رصاصات .
س ـ هل كانت جميعها فى نفس المكان ؟
ج ـ نعم بس ايدى كانت تهتز قليلاً .
س ـ هل كسرت الأعيرة زجاج السيارة ؟
ج ـ أنا ما اعرفش بالضبط .
س ـ هل تعرف الموضع الذى اصابته كل طلقة ؟
ج ـ أنا ما اعرفش .
س ـ هل كنت تقصد قتل الشيخ البنا وحده ؟ ج ـ نعم .
س ـ وما نوع السلاح الذى استعملته فى الحادث ؟
ج ـ هو سلاح مسدس متوسط الحجم لا أعرف ماركته إنما هو المانى تحوي خزانته ١١ طلقة تنطلق جميعها أوتوماتيكياً ولونه مزرق(٣٩) .
س ـ وما الذى فعلته عقب الحادث ؟
ج ـ أنا جريت وانحرفت فى أحد الشوارع الجانبية واستطيع الارشاد عنه وجلست على قهوة فيها ناس سود . (ص ٤١٣ ت . ب) .
س ـ ما المسافة بين القهوة ومكان الحادث ؟
ج ـ أنا جريت حوالى دقيقتين .
س ـ ألم يتبعك أحد ؟ ج ـ لا لأن ما حدش شافنى .
س ـ وأين وضعت السلاح ؟ ج ـ كنت حامله فى جيبى .
س ـ وماذا كنت ترتدى إذ ذاك ؟

ج ـ أنا كنت لابس جلبية وبالطو والجلبية بيضاء من القطن والبلطو أسود وكان على رأسي طربوش وحول عنقى تلفيحة[٤٠] حرير أبيض كنت شاريها من سوريا .

س ـ وفى أى جيب كنت تضع المسدس ؟

ج ـ فى الجيب الشمال بتاع البلطو[٤١] وذلك بعد الحادث . أما قبل الحادث فكنت أضع السلاح فى جيب خاص بداخل البلطو من الجانب الأيسر .

س ـ وما سبب وضع السلاح فى الجيب الأيسر ؟

ج ـ أنا أضعه هكذا دائماً .

س ـ وما هى المدة التى مكثتها فى القهوة ؟

ج ـ أنا شربت كوبة ماء ومشيت على طول .

س ـ وإلى أين ذهبت ؟

ج ـ أنا توجهت إلى محطة مصر[٤٢] مباشرة وسافرت إلى الاسكندرية .

س ـ أى قطار ركبت ؟ (ص ٤١٤ ت.ب).

ج ـ أنا عندما توجهت إلى المحطة لقيت قطر[٤٣] وقطعت تذكرة بمبلغ ١٢,٥ قرشاً وقام القطار بعد خمس دقائق .

س ـ وكيف وصلت من القهوة إلى المحطة ؟

ج ـ أنا مشيت حوالى ١٠٠ متر بعد القهوة فى داخل حى معروف[٤٤] ثم أخذت تكس توجه بى إلى المحطة وأعطيت التكس[٤٥] ١٢ قرشاً .

س ـ الم تفعل شيئاً بالقاهرة سوى ذلك ؟ ج ـ لا .

س ـ هل كان معك السلاح إذ ذاك ؟ ج ـ نعم كان معى باسكندرية .

س ـ وماذا فعلت فى السلاح ؟ ج ـ أنا رميته فى النيل بالاسكندرية .

س ـ فى أى مكان بالضبط رميته ؟ ج ـ ما اعرفش بالضبط .

س ـ وما الذى فعلته بالاسكندرية ؟ ج ـ حاولت أسافر تونس .

س ـ وما سبب رغبتك فى ذلك ؟ ج ـ كنت عاوز أهرب .

س ـ وما هى المدة التى مكثتها بالاسكندرية ؟ ج ـ حوالى ستة أيام .

س ـ وما كنت تفعل هناك ؟ ج ـ ولا حاجة .

س ـ واين كنت تقيم ؟ ج ـ فى لوكاندة لا أعرفها .

س ـ وما سبب عدم عودتك الى اللوكاندة بالقاهرة عقب الحادث ؟

ج ـ أنا خفت حد يروح اللوكاندة . (ص ٤١٥ ت. ب).

س ـ وكيف يمكن لأى شخص أن يعرف مكانك فى اللوكاندة ؟

ج ـ ربما مع الظروف .

س ـ وما الذى فعلته فى ملابسك ونقودك ؟

ج ـ الفلوس كانت معى والملابس كانت بدلة وثلاثة قمصان وأخذتها فى اليوم السابع عندما عدت من الاسكندرية .

س ـ وما سبب عدم خشيتك فى هذه المرة من العودة الى اللوكاندة ؟

ج ـ لأنى علمت أن أحداً لم يضبط فى الحادث .

س ـ وما الذى فعلته بالملابس بعد ذلك ؟

ج ـ أنا أخذتهم اسكندرية وبعتهم بمبلغ ثلاثة جنيهات ونصف .

س ـ لمن بعتهم ؟ ج ـ بعتهم لواحد ماشى فى الشارع .

س ـ ومتى حضرت لشبين الكوم ؟ ج ـ من حوالى أسبوعين(٤٦).

س ـ وما سبب حضورك ؟ ج ـ أنا جيت أسأل عن شخص فيها .

س ـ ومن هو ذاك الشخص ؟

ج ـ شخص من فلسطين كان قاللى أنه رايح شبين الكوم .

س ـ ومن هو هذا الشخص ؟ ج ـ واحد لا أريد أن أذكر أسمه .

س ـ وما سبب عدم رغبتك فى ذكر اسمه ؟ ج ـ لأنه منتمى للأخوان .

س ـ وما الذى يدعو هذا الفلسطينى الحضور لشبين الكوم ؟

(ص ٤١٦ ت. ب) ج ـ هو قاللى أن له معارف فيها.

س ـ ومتى ذكر لك ذلك ؟ ج ـ أيام ان كنت بفلسطين فى يافا .

س ـ وما الذى كان ينوى أن يفعله مع معارفه هنا ؟ ج ـ ما اعرفش .

س ـ هل ذكر لك اسماء هؤلاء الأشخاص ؟ ج ـ لا .

س ـ وكيف اذن كنت تنوى البحث عنه ؟ ج ـ أنا اعتقدت أنه شخص معروف .

س ـ وكيف سألت عنه ؟ ج ـ أخذت أسأل عنه فى المحلات .

س ـ فى أى محلات سألت عنه ؟

ج ـ أنا سألت عنه فى محل عاشور المكوجى(٤٧) .

س ـ وهل عثرت على هذا الشخص ؟ ج ـ لا .

س ـ وما سبب بقائك فى شبين الكوم ما دمت لم تجده ؟

ج ـ عاشور مسك فيه(٤٨) وقاللى خليك معاية لأنى طول الليل سهران .

س ـ وما هى المساعدة التى طلبها منك ؟ ج ـ أقف اشتغل معه شوية .

س ـ وكيف علم أنه يمكنك مساعدته ؟ ج ـ أنا أفهمته ذلك .

ج ـ وما سبب إفهامه ذلك ؟

ج ـ لأنى قلت له أن الشخص الذى اسأل عنه كان يشتغل معى فى مصبغة فى فلسطين . (ص ٤١٧ ت. ب).

س ـ وما هى المدة التى مكثتها عند عاشور ؟ ج ـ حوالى أربعة أيام .

س ـ هل كنت تشتغل عنده بأجر ؟ ج ـ لا(٤٩) .

س ـ وكيف كنت تعيش إذن ؟ ج ـ كنا ناكل سوة .

س ـ وما سبب تركك له ؟ ج ـ حضر أحمد(٥٠) المكوجى وطلبنى .

س ـ وما سبب طلبه لك ؟

ج ـ هو طلب مساعدتى لأنه في عنده عمل كثير .

س ـ وما هى المدة التى مكثتها عنده ؟

ج ـ حوالى اسبوع أو ثمانية أيام حتى سرقت منه الملابس .

س ـ هل كنت تعمل عنده بأجر ؟ ج ـ لا ببلاش .

س ـ وما سبب سرقتك الملابس منه ؟ ج ـ أنا كنت زهقان .

س ـ ومن أين لك بالملابس التى عليك ؟
ج ـ هى ملابسى واحضرتها معى من فلسطين .
س ـ ما هى ميولك السياسية ؟
ج ـ أنا كنت عضو فى الأخوان المسلمين من ثلاث سنوات وهى الآن-محلولة .
س ـ وما سبب انضمامك لها ؟ ج ـ أنا غويت ذلك .
س ـ فى أى شعبة كنت عضواً ؟ ج ـ بشعبة يافا .
س ـ ألم تكن عضواً بأى شعبة بالقطر المصرى ؟ ج ـ لا . (ص ٤١٨ ت.ب)
س ـ وما هو النشاط السياسى التى كنت تقوم به؟
ج ـ أنا كنت أدير الفرقة التمثيلية[٥١] .
س ـ ألم تقم بأى نشاط سياسى ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم تكن عضواً فى أى تنظيم من منظمات الجماعة ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم تشترك فى أى حادث من الحوادث السياسية التى قامت بها الجماعة ؟
ج ـ لا .
س ـ وما الذى دفعك إذن إلى ارتكاب هذا القتل السياسى ؟
ج ـ بدون سبب .
س ـ هل حرضك أحد على ارتكاب هذا الحادث ؟ ج ـ لا .
س ـ هل اتفق معك أو ساعدك أحد فيه ؟ ج ـ لا .
س ـ هل سبق أن قابلت الشيخ حسن البنا ؟ ج ـ لا .
س ـ كيف عرفته إذن ؟ ج ـ من صورته .
س ـ الم تقابل أحداً من الأخوان المسلمين أو من جماعة لها نشاط سياسى ؟
ج ـ لا .
س ـ هل كنت متكاملاً لقواك ساعة ارتكاب الحادث ؟ (ص ٤١٩ ت.ب)
ج ـ أنا كنت دوخان شوية إنما كنت عارف انى باقتل .
س ـ هل اعتدت على شرب المسكرات ؟ ج ـ مش دائماً .

س ـ وما سبب شربك زجاجة كاملة من الخمر صباح يوم الحادث ؟
ج ـ أنا كنت زعلان شوية .
س ـ ولماذا كنت زعلان ؟ ج ـ كنت أفكر فى العائلة .
س ـ وما سبب عدم اعتزامك (. . .)[٥٢] بهذا الحدث من قبل ؟
ج ـ لأنى بدى أموت .
س ـ ما سبب ذلك ؟ ج ـ لأنى زهقان من حياتى وما فيش شغل .
س ـ وما سبب عدم ذكرك هذا الاعتراف بدء سؤالـك فى استجواب النيـابة اليوم ؟
ج ـ عندما سألنى المدعى العام عن سوابقى أخبرته .
س ـ هل سبق أن حاولت التخلص من الحياة ؟
ج ـ أنا شرعت فى الانتحار فى يافا عقب موت عائلتى ولكن لم أحاول ذلك فى مصر أو شبين .
س ـ الك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا .
س ـ منسوب لك دخول القطر المصرى بدون جواز سفر واحراز سلاح بدون ترخيص ؟ ج ـ نعم .
س ـ واعترفت أمامنا بقتل الشيخ حسن مع سبق الاصرار والترصد ؟
ج ـ نعم . (ص ٤٢٠ ت . ب).
س ـ الك سوابق ؟ ج ـ لا . تمت أقواله وأمضى .

* * *

أقوال الكواء عاشور زين الدين :

ثم استدعينا المكوجى عاشور وسألناه بالآتى قال :
اسمى عاشور عبد المقصود زين الدين سن ٢٥ مكوجى مـولود ومقيم بشبـين الكوم .
س ـ ما معلوماتك عن المدعو صلاح أحمد بركات ؟

ج ـ من مدة حوالى ١١ يوم اثناء وقوفى بالدكان حضر لى صلاح بركات ولم أكن أعرف شخصيته . وسألنى عن محمد إبراهيم القرش[٥٣] . فأنا ذهبت أبحث عن هذا الشخص فى دكانه الذى يبعد عن دكانى حوالى ٢٠٠ متر ولم أجده فعدت للمحل بتاعى وأخبرته بذلك فقاللى أنا عايز مساعدة ، فأبقيته يشتغل معى فى المحل وأديته[٥٤] أجرة ١٠ صاغ وفى اليوم التالى حضر هو والأسطى أحمد عبد الوهاب الفراش المكوجى وكان اليوم يوم اثنين ما فيش شغل[٥٥] ، فخرجنا معاً واتغدينا سوى وتركتهم وانصرفت ثم انقطع عن الحضور ولم أشاهده بعد ذلك اطلاقاً .

س ـ ما سبب سؤاله لك عن محمد إبراهيم القرش ؟ ج ـ هوه كن بيسأل الناس .

(ص ٤٢١ ت . ب) . وطبعاًسألنى عنه فقلت له أنا أعرفه وتركته فى المحل وذهبت أبحث عن القرش .

س ـ وما سبب قيامك بذلك ؟

ج ـ أصله هو عندما حضر افهمنى أنه مكوجى وأنه يريد التعيش ولذلك ابقيته فى المحل وذهبت فى البحث عن محمد إبراهيم القرش .

س ـ هل علمت صلته بهذا الشخص الأخير ؟

ج ـ لا وإنما كنت أقصد الثواب .

س ـ ولماذا لم تصطحبه معك ؟

ج ـ أنا تركته في المحل يشتغل فى بعض القمصان نظراً لأنه غلبان .

س ـ ألم تذهب للبحث عن القرش ثانية ؟ ج ـ لا .

س ـ ألم تسأل صلاح عن بلده أو عن المكان الذى حضر منه ؟

ج ـ أنا سألته عن بلده فقال انها اسمها اكياد[٥٦] مركز التل الكبير .

س ـ الم تسأله عن سبب حضوره الى شبين الكوم ؟

ج ـ هوه قاللى هو جاى علشان يقابل القرش .

س ـ هل سألته عما إذا يشتغله فى أكياد ؟ ج ـ بيقول مكوجى .
س ـ هلا لاحظت شيئاً على لهجته فى الكلام ؟
ج ـ هو كان بيتكلم مصرى مثلنا تماماً .
س ـ الم تلاحظ فى كلمه لهجة عربية كفلسطين مثلًا ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم تقابل محمد إبراهيم القرش بعد ذلك ؟ (ص ٤٢٢ ت.ب) . ج ـ لا
س ـ ألا تعلم أين اشتغل المتهم بعد أن تركك ؟
ج ـ أنا عرفت من الأسطى أحمد أنه اشتغل عنده .
س ـ ألم يكن معه سلاح ؟ ج ـ لا .
س ـ ماذا كان يرتدى عندما حضر لك ؟
ج ـ هو كان لابس جلبية حرير بيضاء مقلم والجرس اللى عليه .
س ـ الم تكن معه ملابس أخرى عندما حضر ؟ ج ـ كان معاه سبت(٥٧) .
س ـ الم تعلم ما كان به ؟ ج ـ كان فيه عيش مشطوح وفطير فلاحى(٥٨) .
س ـ هل ذكر لك متى حضر إلى شبين الكوم ؟ ج ـ لا .
س ـ هل ذكر لك من أين حضر ؟
ج ـ لا ، إنما وهو ذكر لى عند تناولنا الغداء أنه كان يشتغل بمصر ولم يذكر لى ماذا كان يشتغل .
س ـ ألم يكن يتردد على أحد بشبين الكوم ؟ ج ـ أنا ما اعرفش .
س ـ هل تكن له صلة بالأخوان المسلمين بشبين الكوم ؟
ج ـ لا ، ولم يتكلم امامى عن ذلك .
س ـ الم يذكر لك شيئاً عن حادث قتل الشيخ البنا ؟ ج ـ لا . (ص ٤٢٣ ت.ب) .
س ـ الم يذكر لك أنه عضو فى جماعة الأخوان المسلمين ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم يذكر لك أنه فلسطيني أو أنه حضر من يافا قريباً ؟ ج ـ لا .

س ـ ألم يذكر لك شيئاً عن عائلته ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم تعلم أى شيء عن المتهم من أحمد عبد الوهاب ؟ ج ـ لا .
س ـ قرر المتهم أنه مكث عندك أربعة أيام بدون أجر ؟ ج ـ لا .
س ـ ولماذا يقرر ذلك ؟ ج ـ ما اعرفش .
س ـ الديك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا . تمت أقواله .

أقوال محمد إبراهيم القرش :

ثم استدعينا محمد إبراهيم القرش وسألناه بالآتى فقال :
اسمى محمد إبراهيم القرش سن ٤٣ مكوجى مولود ومقيم بشبين الكوم .
س ـ هل تعرف صلاح بركات ؟ ج ـ لا .
س ـ ألم تشاهده من قبل ؟ ج ـ لا .
س ـ قرر عاشور زين الدين أن المتهم كان يبحث عنك ؟ ج ـ لا .
(ص ٤٢٤ ت . ب) .
س ـ لماذا يسأل عنك المتهم ؟ ج ـ أنا ما اعرفش .
س ـ هل هناك أى مكوجى أو أى شخص باسم القرش بشبين الكوم غيرك ؟
ج ـ لا .
س ـ كيف اذن تعلل ذلك ؟ ج ـ أنا ما اعرفش .
س ـ ألم يخبرك عاشور زين الدين أن هناك شخص يبحث عنك ؟
ج ـ هو أخبرنى بذلك .
س ـ ألك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا .
س ـ هل تعرف أحداً فى اكياد ؟ ج ـ لا . . تمت أقواله .

أقوال أحمد عبد الوهاب :

ثم استدعينا أحمد عبد الوهاب المكوجى وسألناه بالآتى قال :
اسمى أحمد عبد الوهاب حسين سن ٢٥ مكوجى مولود ومقيم بشبين الكوم .
س ـ هل تعرف المتهم صلاح بركات ؟ ج ـ نعم .

س ـ ما صلتك به ؟

ج ـ فى يوم خلال الأسبوع الماضى كنت بأزور عاشور المكوجى فعرفنى به وقاللى ده صنايعى[٥٩] جديد من مصر وقاللى الشغل عنده بسيط وما يقدرش يحتمله[٦٠] فقلت (ص ٤٢٥ ت.ب) له ما فيش مانع يشتغل عندى فأشتغل عندى من أول يوم الثلاثاء قبل الماضى حتى يوم الأحد ، ويوم الأحد الساعة ٢ تركت محلى وذهبت الى الهلال الأحمر لاستحضار غسيل[٦١] فعدت ولم أجده ورأيت أنه سارق ملابس فبلغت[٦٢] .

س ـ هل علمت من أين حضر هذا الشخص ؟

ج ـ أنا عرفت أنه جاى من مصر من كلام الأسطى عاشور ، وقد أخبرنى المتهم أنه كان يشتغل عند حرز الجندى بمصر الجديدة بجوار سينما ركس ومن حوالى ثلاث سنوات فى الوقت الذى كنت اشتغل أنا عند « امام اسماعيل » بشارع اسماعيل بمصر الجديدة ، وأنه رآنى هناك[٦٣] .

س ـ هل سألته عن تاريخ تركه لحرز الجندى ؟ ج ـ لا .

س ـ الم تعلم عنه شيئاً عن سبب حضوره لشبين الكوم ؟ ج ـ لا .

س ـ ألم تسأله عما إذا كان يعرف أى شخص بشبين الكوم ؟

ج ـ عاشور قاللى أنه كان جاى يسأل عن واحد مكوجى اسمه محمد إبراهيم القرش .

س ـ ألم تسأل المتهم عن بلده ؟ ج ـ لا .

س ـ هل كان يتناول أجراً ؟ (ص ٤٢٦) .

ج ـ أنا أعطيته مرّة عشرة ، ومرّة خمسة صاغ .. وكان بياكل معى .. ويبيت معى[٦٤] .

س ـ ألم تعلم أن له أى ميول سياسية ؟ ج ـ لا .

س ـ ألم تعلم أنه عضو فى الأخوان المسلمين المنحلة ؟ ج ـ لا .

س ـ ألا تعلم فى أى جهة أخرى كان يشتغل ؟

ج ـ هو قاللى ان احنا كنا بنطلع فى بلاد كثيرة يشتغل فيها تبع الجيش الانجليزى مكوجى وقد شاهدت مرة معه باس[٦٥] لونه أحمر عليه صورته والكتابة بالعربية والانجليزية لكنى لم أطلع عليه ولم أعرف مضمونه .

س ـ ألم يخبرك عن سبب وجود هذا الباس معه ؟

ج ـ هو قاللى أنه كان بيسافر بيه المناطق المحتاجة لجواز سفر زى فلسطين .

س ـ هل ذكر لك المناطق التى توجه إليها بفلسطين ؟ ج ـ لا .

س ـ هل ذكر لك المدة التى قضاها بفلسطين ؟ ج ـ لا .

س ـ هل ذكر لك آخر مرة توجه فيها إلى فلسطين ؟ ج ـ لا . (ص ٤٢٧ ت . ب) .

س ـ ألم يذكر لك أنه أمضى مدة طويلة بفلسطين ؟ ج ـ لا .

س ـ هل شاهدته أنت بمصر أثناء عملك هناك ؟ ج ـ لا .

س ـ هل لاحظت شيئاً على لهجته العربية ؟

ج ـ هو بيتكلم عربي مصرى زينا .

س ـ ألم يكن يتكلم أحياناً بلهجة فلسطينية ؟

ج ـ هوه كان يقوللى أنه يتكلم كل اللغات حتى العبرى .

س ـ ألم يكن يذكر لك شيئاً عن مقتل الشيخ البنا ؟ ج ـ لا .

س ـ ألم يكن معه سلاح ؟ ج ـ لا .

س ـ قرر المتهم أنه كان يشتغل مجاناً لديك ؟ ج ـ لا .

س ـ ولماذا يقرر ذلك ؟ ج ـ ما اعرفش .

س ـ هل ترك لديك المتهم ملابس ؟

ج ـ أيوه جلبية حرير بيضاء مقلمة وفانلة ولباس .

س ـ هل كانت هذه الملابس معه عندما حضر اليك ؟ ج ـ نعم .

س ـ هل كانت الملابس التى عليه معه عند حضوره ؟ ج ـ نعم .

س ـ هل ذكر لك المتهم أنه شرع فى الانتحار ؟

ج ـ نعم قاللى أنه كان حصل له مرض (ص ٤٢٨ ت ب) ولم يحدد فى التاريخ وأنه أراد لذلك الانتحار وشرب ٤٠ اسبرينة[٦٦].

س ـ هل ذكر لك أين كان ذلك ؟ ج ـ هوه قاللى أنه كان فى مصر .

س ـ ألك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا . (تمت أقواله) .

مواجهة : واجهناه بالمتهم فأصر كل منهما على أقواله كما واجهنا عاشور زين الدين بالمتهم فأصر كلٌ منهما على أقواله . (تمت المواجهة) .

* * *

١ ـ ملحوظة : أمرنا بعمل فيش وتشبيه[٦٧] للمتهم وارساله على وجه السرعة إلى إدارة تحقيق الشخصية للإفادة تلغرافياً من سوابق المتهم .

٢ ـ ملحوظة : أمرنا بالاتصال بنقطة اكياد للاستعلام عن شخصية المتهم .

٣ ـ ملحوظة : أمرنا بارسال اشارة لقسم مصر الجديدة للإستعلام من المكوجى حرز حمدى بجوار سينما ركس بمصر الجديدة فى معلوماته عن المتهم .

٤ ـ ملحوظة: حيث سبق أن اتصلنا بحضرة الطبيب الشرعى وطلبنا حضوره للكشف على المتهم لبيان ما إذا كان فى كامل (ص ٤٢٩ ت.ب) قواه العقلية أم لا وقد حضر حضرته جزءاً من التحقيق للإطلاع على طبيعة اصابات المتهم كما قام بالكشف عليه ووعد بارسال تقريره صباح باكر واقفل المحضر على ذلك بعد اثبات ما تقدم حيث كانت الساعة ٧,٣٠ مساءً.

ويحبس المتهم صلاح أحمد بركات احتياطياً عسكرياً[٦٨] على ذمة القضية وتطلب جلبابه الموجود لدى أحمد عبد الوهاب ويحرز[٦٩] ويرسل الينا وتعرض القضية بورود التقرير الطبي صباح باكر .

محضر تحريات الشرطة[٧٠]:

(٤٣٠ ت.ب) محضر تحرى ١٩ أحوال ص ٢٢٠ ـ ٣ ـ ٢٩ بندر شبين الكوم .

فتح المحضر بتاريخ ١٩٤٩/٣/١٦ الساعة ٩,٣٠ ص بمعرفتنا نحن الملازم

عزت أحمد النقيب ضابط نوبتجى[٧١] بندر شبين الكوم أثبت الآتي :

ظهر من تحقيق الجنحة رقم ٣٠٤ بندر شبين الكوم سنة ٤٩ المتهم فيها صلاح أحمد بركات بسرقة ملابس من دكان المكوجى أحمد عبد الوهاب حسن من شبين الكوم أنه من فلسطين ورعية فلسطينية وليس مصرى الجنسية وعليه سألناه بالآتى حيث أجاب :

اسمى صلاح أحمد بركات سن ٢٧ مكوجى مولود بيافا ومقيم بها بشارع حسن الأكبر رعية[٧٢] فلسطينية وأقول :

س ـ ما سبب حضورك للقطر المصرى ؟ ج ـ هربت من اليهود .

س ـ ومتى حضرت إلى القطر المصري ؟ ج ـ من ٣٥ يوم تقريباً .

س ـ وكيف اجتزت الحدود المصرية ؟ ج ـ حضرت فى باخرة يونانية ومش متذكر اسمها .

س ـ هل لديك باسبورت[٧٣] ؟ ج ـ ما عاييش[٧٤] .

س ـ وضح لنا إذاً كيف دخلت القطر المصرى ؟

ج ـ اليهود مسكونى فى رمات غان بفلسطين وبعد كده تركونى ورحت الرملة وركبت سيارة رايحة القدس وطلعت من القدس القديمة إلى أريحا آخر الحدود الفلسطينية وعدت من جسر لمبى[٧٥] ووصلت الشونة أول بلاد شرق الأردن ومن هناك أخذت سيارة إلى عمان وطلعت من عمان إلى الدرعة أول حدود سوريا وبعد سوريا رحت لبنان ومن هناك ركبت الباخرة إلى (ص ٤٣١ ت.ب) الاسكندرية ودخلت هناك البلد مع الركاب .

س ـ ألم يتحر أحد عن شخصيتك ؟

ج ـ كنت لابس لبس كويس وعدت من الجمرك على طول .

س ـ وما هى صناعتك الأصلية ؟ ج ـ كنت بأشتغل ممثل بيافا[٧٦] .

س ـ وماذا فعلت وقت حضورك للقطر المصرى إلى الآن ؟

ج ـ ما اشتغلتش إلاَّ هون عند المكوجى أحمد عبد الوهاب .

س ـ وكيف اشتغلت طرفه ؟

ج ـ كنت باشتغل عند واحد اسمه عاشور زين الدين فى شبين الكوم وهو أخذنى من هناك .

س ـ وما سبب سرقتك للملابس ؟

ج ـ أنا عامل كده مخصوص علشان اتحبس علشان آكل .

س ـ ولكنك كنت تشتغل طرفه وتأخذ أجراً ؟

ج ـ ما كنتش بأخذ أجرة كان بيوكلنى بس واكل بسيط خالص .

س ـ هل لديك سوابق ؟ ج ـ ماليش سوابق .

س ـ ألم ترتكب حوادث أياً كان بالقطر المصرى ؟ ج ـ أبداً .

س ـ هل لديك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا .

(ص ٤٣٢ ت.ب) ٣/١٦ للمديرية بعد عرض محضر جنحة السرقة على النيابة للنظر .

امضاء

محضر تحقيق نيابة جنوب القاهرة(٧٧) :

فتح المحضر فى يوم الخميس ١٧ مارس سنة ١٩٤٩ الساعة ٢,٢٠ أفرنكى مساء بسراى النيابة .

نحن عبد العزيز حلمى رئيس النيابة وعبد الحميد أمين الكاتب .

اتصل بنا حضرة صاحب العزة رئيس نيابة شبين الكوم اليوم تليفونياً وأخبرنا أن شخصاً اسمه صلاح الدين أحمد بركات اتهم بسرقة فى دائرة بندر شبين الكوم فلما استجوب بمعرفة حضرة وكيل النيابة وسئل عن سوابقه اعترف أنه هو الذى قتل الشيخ حسن البنا ـ بأن رصد له عدة مرات على مقربة من دار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وفى ليلة الحادث كان متوارياً عند كنيسة قريبة من محل الحادث فلما ركب الشيخ حسن البنا وآخر فى زى الأفندية كان معه فى السيارة أطلق عليهما

سبع رصاصات كما قرر أنه من أهالى يافا وأن التحقيق عهد به إلى حضرة وكيل نيابة المركز أحمد فؤاد بك وانها تمت فطلبنا ارسال هذه التحقيقات الينا مع المتهم فى نيابة جنوب القاهرة وقد حضر فى نحو الساعة ١,٣٠ مساءً حضرة وكيل النيابة (ص ٤٣٣ ت.ب) المحقق ومعه التحقيق الذى أجراه وكذلك حضره رئيس مباحث المنوفية ومعه المتهم وقد عرضنا موضوع هذه التحقيقات على سعادة النائب العام .

وقد شرعنا فى التحقيق على الوجه الآتى بحضور حضرة صاحب العزة نجيب بك أحمد المحامى العام وكذلك بحضور حضرة وكيل النيابة المحقق ورئيس مباحث مديرية شبين الكوم الصاغ عبد الحميد شوقى.

استدعينا المتهم صلاح احمد بركات فوجدناه فى نحو السابعة والعشرين تقريباً ويلبس الملابس كما أن حالته على الصورة التى ذكرها حضرة وكيل النيابة فى تحقيقه وسألناه عن اسمه فأشار لنا بيده بصورة يفهم منها أن زوره تعبان وأنه يريد أن ينام وأنه لا يستطيع الكلام إذا أشار لنا اشارات فهمنا منها هذه المعانى فذكرنا له ما فهمناه منها فأشار بالايجاب ولم تجد معه أية محاولة لكى يتكلم إذ أصر على اشاراته السابقة واقفل المحضر على ذلك فى تأريخه بعد اثبات ما تقدم ويرسل المتهم للسجن تنفيذاً لأمر الحبس العسكرى الصادر ضده من نيابة شبين الكوم .

هكذا تكلم صلاح بركات :

فتح المحضر فى يوم السبت ١٩ مارس سنة ١٩٤٩ الموافق ١٩ جماد أول سنة ١٣٦٨ بسراى النيابة الساعة ١٢ مساءً.

نحن محمود حسن عمر وكيل النيابة الأول وناشد نجيب الكاتب.

أحال الينا حضرة صاحب العزة رئيس النيابة هذا التحقيق لاعادة مناقشة صلاح أحمد بركات(٧٨) فطلبناه من السجن فحضر الآن ووجدناه يرتدى الملابس التى سبق (ص ٤٣٤ ت.ب) وصفها بمحضر نيابة شبين الكوم وقد لاحظنا أن

طربوشه يتسع على رأسه بحيث يغطى جزءاً من أعلا أذنيه وان شعره بارز من هذا الطربوش وقد أعدنا مناقشته بالآتى :

أقوال صلاح أحمد بركات :

اسمى صلاح أحمد بركات (سابق سؤاله).

س - هل ارتكبت هذا الحادث وهو مقتل الشيخ حسن البنا ؟

ج - وحياة الله ما أعرفه اللى بتحكى عنه شو بدى فيه (لاحظنا أن المتهم يتحدث بهذه اللغة)(٧٩).

س - الم تعترف أمام نيابة شبين الكوم بأنك قتلت الشيخ حسن البنا ؟

ج - ايه شبين والله يا سيدى ما باعرفش ودول كتفونى وضربونى وأخذوا منى ٣٧٠ ليرة مصريات .

س - ومن الذى ضربك وأخذ منك هذه الليرات ؟

ج - والله ما أعرف البلد اللى كنت فيها .

س - ومتى حصل هذا الاعتداء عليك والسرقة التى تزعمها ؟

ج - ما بتذكر مضبوط « وهيد براسى الاصابات » .

س - هل أنت مصرى أم فلسطينى ؟ ج - أنا من يافا ومولود هناك .

س - ومتى تركت يافا ؟ ج - من عشرين يوم (وهنا لاحظنا أن لهجته قد تغيرت إلى ما يقرب من اللغة المصرية) .

س - سبق أن قررت أنك حضرت من يافا من مدة خمسين يوماً ؟

ج - والله ما حكتش سيدى ؟

س - سبق أن قررت أمام نيابة شبين الكوم أنك ارتكبت حادث مقتل الشيخ حسن البنا فى الصباح ثم قررت مرة أخرى أنه كان فى المساء ؟

(ص ٤٣٥ ت . ب) ج - مين هو هذا يا سيدي .

س - ومن أين بالأقوال التى ذكرتها بنيابة شبين الكوم ؟

ج - ما بعرف شىء .

س - هل أنت قتلت الشيخ البنا أم لا ؟ ج - والله ما باعرفه ولا شفته.

س - قلت انك حضرت لمصر ونزلت بلوكاندة وتربصت لـه أمام مبنى جمعية الشبـان المسلمين وكـان معك مسـدس باحـدى عشر طلقـة أفـرغت منـه سبـع رصاصات على الشيخ حسن البنا فى السيارة ؟

ج - وحياة الله ما حكيت شيء ودول أخذوا منى ٣٧٠ ليرة وضربونى فى رأسى ؟

س - هل سبق لك أن اشتغلت فى مصر أو مصر الجديدة ؟ ج - لا.

س - هل اشتغلت مكوجى بشبين الكوم ؟ ج - والله ما بتذكر.

س - ألك تذكر أنك من أكياد بالتل الكبير ؟ ج - ما باعرف.

س - شهد عاشور عبد المقصود زين الدين المكوجى بشبين الكوم انك عندما اشتغلت معه كنت تتكلم باللغة المصرية ؟

ج - أنا كنت باتكلم كده زى كلامى دلوقتى ؟

س - الك سوابق ؟ ج - ما اتحبستش.

س - تبين من الاشارة التليفونية المبلغة من نيابـة شبين الكـوم أن لك سـابقة سرقة ؟ ج - كيف امتى سرقت.

س - ألم تشتغل عند شخص يدعى حرز الجندى بمصر الجديـدة بجواز سينـما روكس من حوالى ثلاث سنوات ؟

ج - والله يا سيدى ما اشتغلت. (ص ٤٣٦ ت. ب).

س - ولماذا تركت يافا ؟

ج - من اليهود يا سيدي ضبشوا الدار بتاعتنا وأهلى كلهم ماتوا.

س - هل أنت منتمى لجماعة الأخوان المسلمين المنحلة ؟

ج - كيف الأخوان المسلمين والله ما بعرف.

س - هل لديك أقوال أخرى ؟

ج - ٣٧٠ ليرة المصرياتى ضبشونى أخذوا الثياب بتوعى الجذاد.

تمت أقواله وأمضى، امضاء

ملاحظة : لاحظنا أن الطربوش الموجود على رأس المتهم بدون زر .

وكيل النيابة   امضاء(٨٠)

هوامش

(١) الحروف (ت.ب) هي اختصار لعبارة (تحقيق بالوظة) ، وذلك أن قضية اغتيال الشيخ البنا المعروفة بالقضية رقم١٠٧١ سنة ١٩٥٢ قصر النيل ورقم ٦٨٤ سنة ١٩٥٣ كلى ، تتضمن مراحل متعددة ، وتحقيق البالوظة هو أول مراحلها ، وقد أطلق عليه هذا ، تمييزاً له بطريقة الطباعة التى طبع بها ، على ورق الكربون المعروف بالزفر ، وقد طبعت الأجزاء الأخرى من القضية ، بوسيلة مختلفة ، وبدأت بأرقام متسلسلة جديدة .

(٢) عاصمة محافظة المنوفية إحدى محافظات الدلتا بمصر ، ويطلق مصطلح بندر على حاضرة الأقاليم والمراكز ، تمييزاً له عن القرى التابعة له .

(٣) قتل الشيخ حسن البنا فى الساعة الثامنة والربع مساء يوم ١٩٤٩/٢/١٢ وليس فى الصباح المبكر - راجع محضر بوليس قسم الأزبكية عن الحادث ص ١ من ملف القضية رقم ١٠٧١ لسنة ١٩٥٢ قصر النيل .

(٤) المقصود مدينة القاهرة ، التى كان اطلاق اسم « مصر » عليها شائعاً إلى فترة قريبة . وهو مصطلح شائع فى التحقيق ولن نصححه دائماً .

(٥) الاشارة هنا إلى مبنى نقابة المحامين ، وهو يطل على شارع الملكة نازلى - رمسيس الآن - بالقرب من مبنى جمعية الشبان المسلمين التى ارتكب الحادث أمام بابها . وقد تبين بعد الحادث وجود سبعة مظاريف نارية فارغة جمعها شهوده ، والبيان الذى أدلى به صلاح بركات حول عدد الرصاصات التى اطلقها على الشيخ صحيحة (راجع ملف القضية محضر البوليس ص ٧ ت.ب).

(٦) إشارة إلى واقعة صحيحة هى تواجد الأستاذ عبد الكريم منصور المحامى صهر البنا معه فى نفس السيارة التى ارتكب فيها الحادث ، وكان وقتها فى السادسة والثلاثين من عمره .

(٧) كواء .

(٨) فى مرحلة تالية من التحقيق ذكر صلاح بركات أن مهنته الحقيقية أنه ممثل ، والأرجح أنه ـ كما سيتضح من التحقيقات ـ كان ممثلاً متجولاً ، وأنه امتهن عديداً من المهن .

(٩) هنا غموض فى المعنى والأرجح أن هناك كلمات سقطت فى النص الأصلى ، ويقصد صلاح هنا أنه عندما عرض على صاحب محل الكواء فى شبين الكون أن يعمل عنده قبل الرجل فعمل معه إلى أن قام بسرقته .

(١٠) كانت كل أقوال الشهود حتى تلك اللحظة تجمع على أن المعتدين على الشيخ البنا كانوا اثنين .

(١١) فندق .

(١٢) إلى هنا انتهى ما نقله وكيل النيابة العسكرية من أقوال صلاح بركات عن حادث اغتيال الشيخ البنا أمام وكيل نيابة شبين الكوم الذى حقق واقعة السرقة فقط ، وأحال الجزء الخاص بالشيخ البنا إلى محقق آخر ، والجزء التالى يتضمن تحقيقه هو الخاص فى الموضوع .

(١٣) جورب .

(١٤) من الواضح من هذا الوصف المحدد أن صلاح بركات قد تعرض لاعتداء بدنى فى سجن شبين الكوم الذى حبس فيه على ذمة قضية السرقة .

(١٥) بحساب التواريخ التقريبية يكون صلاح بركات قد وصل إلى الاسكندرية فى أوائل فبراير (شباط) ١٩٤٩ ، وقبل مقتل الشيخ البنا بنحو أسبوع .

(١٦) المقصود المسدس .

(١٧) اشارة إلى كنيسة تقع بشارع عبد الخالق ثروت المتعامد مع شارع رمسيس الذى جرى فيه الحادث .

(١٨) هكذا فى الأصل وهو خطأ املائى والأرجح « قريب » . والإشارة هنا إلى الكواء محمد ابراهيم القرش الذى عمل صلاح بركات عنده ، ثم سرق منه ملابس كانت سبباً فى الابلاغ عنه ، وستأتى أقواله فى جزء تال من الوثيقة .

(١٩) المدينة الأردنية المعروفة .

(٢٠) رغبة فى الحضور .

(٢١) لا أعرف وسوف تتكرر كثيراً ولن نصححها .

(٢٢) يلاحظ أن المحقق هو وكيل النيابة العسكرية التابعة لشبين الكوم . وكان الجزء الأول من تحقيقه فى مبنى النيابة نفسها حيث استدعى المتهم إليه ، ثم أعاده إلى مبنى البندر ، أى مقر شرطة شبين الكوم ، وانتقل إليه لاستكمال التحقيق .

(٢٣) خارج مصر .

(٢٤) كان الشيخ البنا بعد حل الأخوان المسلمين يتردد بكثرة على جمعية الشبان التى كان من مؤسسيها ثم تركها لينشىء جمعيته، وقد تمكن قتلته من متابعته إلى هناك حيث كانت له مواعيد دورية للتردد عليها ، إلى أن تمكنوا من استدراجه حيث قتل وهو خارج منها ، وكان قد أبدى رغبة فى استعادة عضويته بجمعية الشبان وكتب بذلك طلباً بالفعل .

(٢٥) هكذا فى الأصل والأرجح أنها « لم يجن » .

(٢٦) مبنى حكومى مجاور لجمعية الشبان المسلمين وفى نفس صفها فى شارع رمسيس وما زال قائماً الآن ، ومن الملاحظ أن صلاح بركات لديه المام كاف بطبوغرافية المكان الذى ارتكب فيه الحادث.

(٢٧) اسم تجارى لنوع من الخمور الرديئة .

(٢٨) الفندق .

(٢٩) من الواضح أن هنا تغيراً هاماً فى « اعترافات » المتهم ، فقد حدد وقت ارتكاب الحادث بدرجة أقرب إلى الدقة .

(٣٠) هذه الواقعة صحيحة بحسب أقوال الشهود فقد كانت السيارة واقفة فى اتجاه يقودها إلى ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) .

(٣١) أى لم أنتبه .

(٣٢) هذه الواقعة التفصيلية صحيحة ، والملاحظ أن وكيل النيابة المحقق يحاول التدقيق فى الحصول على اعترافات صلاح بركات ، راصداً كل تفصيلات الحادث الصغيرة . ومن الواضح أن صلاح يذكرها جميعاً وبدقة متناهية . فضلاً

عن غموض الهدف وإصراره على عدم الاعتراف عن شركائه أو ذكر مبرر ارتكابه الحادث ، فهو يبدو مجرماً سياسياً مقتدراً .

(٣٣) هكذا فى الأصل والأرجح أنها « لا أذكر » .

(٣٤) هذه الواقعة التفصيلية صحيحة أيضاً .

(٣٥) إشارة إلى الأستاذ عبد الكريم منصور والوصف صحيح .

(٣٦) جاء فى محضر معاينة السيارة التى ارتكب فيها الحادث وهى سيارة أجرة أن لونها ازرق داكن (ص ٣١٣ ت . ب) .

(٣٧) هذه نقطة هامة إذ اختلف الشهود فى اقوالهم عما إذا كان سائق السيارة قد اوقف الموتور خصيصاً لمساعدة الجناة ، ولم يجمعوا على شىء بخصوص هذه النقطة .

(٣٨) هذه الواقعة صحيحة كما ورد فى أقوال سائق السيارة التى ارتكب فيها الحادث (ص ١٠٦) وما بعدها من ملف القضية .

(٣٩) لم يعثر على السلاح الذى ارتكب به الحادث ، ولكن عدد الطلقات التى ذكرها صلاح صحيحة .

(٤٠) أجمع شهود الحادث ، وعلى رأسهم محمد الليثى على أن واحداً ممن أطلقا الرصاص كان يرتدى جلباباً ومعطفاً أسود وشملة حرير بيضاء .

(٤١) أى المعطف .

(٤٢) هى محطة القطارات الرئيسية فى مدينة القاهرة وتقع فى ميدان رمسيس وعلى مبعدة قليلة من المكان الذى ارتكب فيه الحادث .

(٤٣) قطار .

(٤٤) هو حى قريب يتفرع من شارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) الذى ارتكب فيه الحادث .

(٤٥) سيارة أجرة .

(٤٦) هذا يعنى أن صلاح وصل إلى شبين الكوم فى أواخر شباط أو أوائل آذار .

(٤٧) كان الكواء عاشور عبد المقصود زين الدين هو أول من التقى بهم صلاح فى شبين

الكوم حيث تعرف به وانتهى الأمر باشتغاله عنده بعض الوقت. وستأتى أقواله فيما يلى .

(٤٨) أى تمسك بى .

(٤٩) واضح أن صلاح بركات وقع ضحية عملية استغلال بشعة ، فعاش وقتاً يعمل بطعامه .

(٥٠) هو الكواء أحمد عبد الوهاب الذى ترك صلاح العمل عند عاشور والتحق للعمل بمحله .

(٥١) هذه أول اشارة من صلاح لعمله الأصلى كممثل . .

(٥٢) هكذا فى الأصل ، والأرجح أن هنا كلمة ساقطة قد تكون « القيام » .

(٥٣) هذا هو الشخص الذى نزل صلاح شبين الكوم وسأل عنه ، وقد ذكر القرش عندما استجوب أنه لا يعرفه ، وهذه نقطة ترجح أن صلاح من الشخصيات التى تملك قدرة هائلة على التقمص ، ولعله حفظ الأسم من لافتة المحل الذى يملكه القرش .

(٥٤) أى أعطيته ، والأرجح أن أقوال صلاح هى الصحيحة وأنه كان يعمل مقابل طعامه .

(٥٥) أى يوم العطلة ، ويوم الاثنين هو يوم العطلة الأسبوعية للكوائين فى جميع انحاء مصر .

(٥٦) واضح أن صلاح أخفى جنسيته الحقيقية لأن دخوله مصر كان خلسة ، و« اكياد » قرية مصرية تتبع إدارياً محافظة القيلوبية ولا علاقة لها بالتل الكبير التى تقع فى محافظة الشرقية .

(٥٧) سله .

(٥٨) العيش المشطوح نوع من الخبز يصنع من القمح فى ريف مصر ، والأرجح أن صلاح كان قد تسوله من ريف مصر كما كان يفعل معظم اللاجئين الفلسطينيين إلى مصر فى ذلك الحين ، وربما يكون قد وصل فى جولته إلى بلدة اكياد التى ادعى أنها مسقط رأسه .

(٥٩) مصطلح يستخدمه الحرفيون المصريون والمعنى « عامل » أو « صانع » .
(٦٠) أي أن حجم العمل فى محل عاشور قليل لا يتطلب صانعاً اضافياً .
(٦١) واضح أن أحمد عبد الوهاب كان كواء كبيراً يقوم بغسل وكى ملابس ومفروشات المستشفيات .
(٦٢) أى أبلغت الشرطة وهذا هو الحادث الأصلى الذى أدى إلى القبض على صلاح بركات .
(٦٣) ونجح صلاح هنا فى اقناع أحمد عبد الوهاب بأنه مصرى الجنسية وكواء قديم كان يشتغل لدى اكبر كواء فى مصر آنذاك وهو حرز الجندى الذى ذكر فى أقواله أنه لا يعرفه .
(٦٤) هذه الأرقام تمييزها بالقروش المصرية .
(٦٥) أى تصريح مرور .
(٦٦) أى ٤٠ قرص من الأسبرين .
(٦٧) مصطلح ديوانى مصرى بمعنى صحيفة الحالة الجنائية التى تسجل الجرائم السابقة التى يرتكبها أى مجرم .
(٦٨) هذا قرار جديد بحبس صلاح بركات ، وكان وكيل نيابة شبين الكوم قد أمر بحبسه على ذمة قضية السرقة لمدة أربعة أيام ، لكن القرار الجديد يتعلق باعترافه بقتل الشيخ البنا .
(٦٩) يوضع فى حرز .
(٧٠) الترتيب المنطقى للحوادث يجعل هذا المحضر سابقاً لمحضر تحقيق وكيل النيابة أحمد فؤاد وهو السابق ، فتاريخ هذا المحضر هو الساعة ٩,٢٠ من يوم ١٩٤٩/٢/١٦ ، بينما أجرى أحمد فؤاد تحقيقه فى نفس اليوم الساعة ١٢/٣٠ . ولكن ترتيب أوراق التحقيقات له أسس ديوانية . وقد فضلنا الالتزام بالتسلسل الرقمى لصفحات الوثيقة . وهذا المحضر يتعلق بقضية السرقة ولكنه يتضمن وقائع وتفصيلات جديدة عن حياة صلاح بركات قبل دخوله مصر .
(٧١) مصطلح ديوانى والمقصود « الضابط صاحب النوبة » .

(٧٢) مصطلح ديوانى والمقصود « جنسية » وهنا اشارة إلى عنوان منزل صلاح بركات بيافا .

(٧٣) جواز سفر .

(٧٤) ليس معى .

(٧٥) الصحيح جسر اللنبى .

(٧٦) بشير صلاح هنا إلى مهنته الحقيقية كممثل .

(٧٧) هذه مرحلة أخرى من التحقيق ، فقد انتقل من مدينة شبين الكوم إلى القاهرة ، وإلى نيابة جنوب القاهرة التى كانت مختصة بالحادث لأنه وقع فى دائرة اختصاصها وكان عبد العزيز حلمى (بك) رئيس نيابة الجنوب أحد المحققين الأساسيين فى القضية ، ويتضح من نص المحضر مدى الارتباك الذى أحدثه صلاح بركات لسلطة التحقيق ، إذ تمت الاتصالات بسرعة ، وحقق مع المتهم مرتين فى نفس اليوم بشبين الكوم ، وفى اليوم التالى ١٩٤٩/٣/١٧ رحل إلى القاهرة للتحقيق معه .

(٧٨) أحال رئيس النيابة عبد العزيز حلمى التحقيق إلى أحد معاونيه ، هو محمود حسن عمر وكيل أول النيابة ، وكان أحد محققى قضية مقتل الشيخ البنا .

(٧٩) هذه ملحوظة هامة من وكيل النيابة المحقق ، فالملاحظ أن هذه أول مرة يتكلم فيها صلاح بركات باللهجة الفلسطينية ، بينما كان يتكلم بالعامية المصرية بطلاقة فى كافة مراحل التحقيق السابقة . وفى أقوال الكواء عاشور زين الدين أنه كان يحادثه بالعامية المصرية بطلاقة .

(٨٠) الأجزاء التالية من التحقيق من صفحة (٤٣٧ ت.ب ـ ٤٤٤ ت.ب) لا تضيف جديداً للموضوع فهى تتضمن أقوال حرز جندى تاوضرس الكواء بمصر الجديدة ، والذى زعم صلاح بركات لأحمد عبد الوهاب كواء شبين الكوم أنه كان يعرفه ويعمل عنده . وقد نفى حرز جندى ذلك تماماً ، كما تتضمن رد ادارة تحقيق الشخصية بأن صلاح بركات ليست له سوابق مسجلة فى مصر . وتقرير الطبيب عن حالة صلاح بركات العقلية وأهم ما ورد به أن صلاح اثناء إجابته على

أسئلة النيابة » كان كله آذاناً صاغية لما ألقى عليه من أسئلة ، لم يتضح على سيمائه أثر الانفعال أو الذهول وكان موضع حديثه خال من أى هلوسة أو تخيلات ما ، ولم نجد نقصاً فى قوة انتباهه أو فى ذاكرته ». وأشار الطبيب إلى الاصابات المصاب بها صلاح بركات ، وذكر أنه من الجائز حصولها نتيجة الضرب بعصا رفيعة كالخيزران أو ما أشبه وأنها اصابات حدثت قبل ثلاثة أيام . هذا وقد أصدر وكيل النيابة المحقق قراره فى ١٩٤٩/٣/٢١ باخلاء سبيل صلاح بركات وترحيله لنيابة شبين الكوم للتصرف فى شأنه فيما يختص بتهمة السرقة هناك والمحبوس من أجلها .

هؤلاء العرب الحمقى ونفطهم الملعون

عاش العرب قروناً يحلمون بخاتم سليمان وينتظرون مصباح علاء الدين ، ويتلون الأدعية ، علّ طاقة ليلة القدر ، تضىء أمامهم ، فتستجيب لمطالبهم وتحقق أحلامهم ، وتشبع احتياجهم .

وفى انتظار الخاتم والمصباح والطاقة تطورت علوم السيما واليازرجة ، وشغل كيمائيون عرب أنفسهم باجراء التجارب لتحويل النحاس إلى ذهب ، ونشأ صناع التمائم وكتاب الأحجبة يبيعون العرب حلم الانعتاق من الفقر والجوع والتخلف ، ونافس بعض حكام العرب رعاياهم الصعاليك فى مهنة صناعة التمائم وكتابة الأحجبة ، فوعدوا شعوبهم بانهار اللبن والعسل المصفى ، وعاش الجميع ينتظرون أن تنطلق من القمقم سحائب الدخان ، أثر حكة على خاتم ، أو دعكة لمسطح قنديل أو في اعقاب قراءة اسمه تعالى : يا لطيف . . الف الف ، ليتشكل منها جسم ذلك العبد الأسود الشهير بكلمته الساحرة :

ـ شبيك . . لبيك . . عبدك بين ايديك !

واستيقظ العرب ذات عام ، فإذا الحلم حقيقة ، وإذا بالدولارات تنهمر على صحاريهم أو من صحاريهم التى تشكو الجفاف ، فيرتفع ثمن برميل النفط من ٦ دولارت فقط إلى ٣٠ دولاراً ، وإذا بالمارد المحبوس ، طليقاً بين أيديهم ، اسمه البترول أو الجاز أو النفط ، يحقق للعرب كل ما تشتهيه نفوسهم التى عانت جفاف الصحراء تغضناً فى جلودها ، وفى تمرها ، وبعد أقل من عشر سنوات ، كان العرب يجلسون بمنتهى الاعتزاز والثقة فوق براميل نفطهم بنفس العقال وبنفس الدشداشة ، تتوهج فى الشمس خواتمهم الماسية ، ومباسم نرجيلاتهم الذهبية ، ينفثون دخانها المكرر بالويسكى المعتق ـ فى وجوه الخواجات الذين كانوا قبل النفط ساداتهم وأولياء أمورهم .

رائحة النفط تملأ الآن كل أقطار الوطن ، من البحر إلى النهر ، ومن الخليج إلى المحيط ، تنتشر من صحاريه وفى حقوله وبساتينه وبياراته تشمها فى مطبخك ، وفى غرفة نومك ، وفى عبير زوجتك . تفح من صفحات ما تقرأ من صحف ومن كتب معاً ، وما تشاهد من أفلام ومسلسلات ، وتكتشفها فى تلافيف مخك ، ونجدها فى كل شىء : فى التركيب الطبقى وفى النظام السياسى ، فى العادات وفى القيم والأخلاق ، فى علاقات الحب والزواج وفى أغانى الديسكو ، والقصص والأشعار ، فى الكباريهات وفى أفلام السينما وأغانى أحمد عدوية وكتكوت الأمير .

ولأنها رائحة نفاذة ، فهى تقضى على كل الروائح الأخرى ، وتغتصب أنفك مهما نفرت منها ، وتخدرك فلا تملك معها مقاومة : فأين تذهب وأنّى وليت وجهك فى خريطة الوطن الكبير شممتها ، فالنفط

أمامك والدولار خلفك ، وصراخ اطفالك يتعالى حولك وأسعار كل شيء ترتفع .

ولأنها رائحة زاعقة فهي الشيء الوحيد الذى يمرق عبر الحدود القطرية بين الوطن المجزأ الممزق الأوصال ، المزدحم بالمخافر ونقاط الحدود المسلحة ، فحتى « عرب الماء » الذين ليسوا هم « عرب النفط » لا يستطيعون أن يزكموا أنوفهم عن شم رائحته التى لا مهرب منها . نحن فى الواقع أصبحنا أمة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة هى انتاج النفط والعيش على حسابه ، ورفع الأكف ، شكراً لله على ما أنعم وأعطى فأراحنا من الكد فى سبيل الرزق ، والذين لا يملكون منا « الجاز » كالعرب المصريين أو اليمنيين الجنوبيين أو الفلسطينيين يملكون العرق ، وسوف نكافئهم على خدمتنا بجزء من فيض احساناتنا يوسعون به على أزواجهم ومن يعولون .

وفى القصص الرديئة تتحول « النعمة » إلى « نقمة » ولا يجلب خاتم سليمان لمن أسعده الحظ فوجده سوى التعاسة ، وهذا هو ما حدث مع العرب فالنفط الذى انطلق من قمقمهم قد زادهم شقاء وفرقة ونفوراً ولم يحقق أياً من أحلامهم ، حين كانوا فقراء صحراويين ، يحلمون بالتحرر من القهر القومى والقهر الاجتماعى ، ليبنوا مجتمعاً موحداً ومتقدماً .

لم يعد حكام العرب بعد النفط ـ كما كانوا قبله ـ أشقاء يتخاصمون فلا يطول خصامهم ، ويتغاضبون ليتعاتبوا . ولم يعد أسلوبهم فى الخلاف هو تبادل الكلمات بل اللكمات وحشود الحدود ، والحروب الفعلية بالذات وعبر وسطاء والتصفيات الجسدية فى شوارع لندن وفنادق باريس ونسف السفارات واغتيال الكتاب والصحفيين ، حتى أصبحت

فضيحتهم بجلاجل فى أربعة أرجاء المعمورة .

وقبل النفط كان العمل هو معيار القيمة ومُحدِّد الأدوار ، على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأقطار ، فكانت مصر هى مركز الوطن لأنها اكبر أقطاره . وأعظم مخزن للطاقة فيه ، حين كانت الطاقة عملاً وعرقاً لا جازاً ونفطاً ، وإبداعاً وتفنناً لا سفهاً وحمقاً أما بعد النفط فالبترول ودولاراته هى منتجة الطيبات وليس العمل ، فيكون منطقياً أن تصبح مُحدِّدة الأدوار ومانحة المراكز . وبعد أن كنا أشقاء ننجذب إلى أكثرنا علماً وثقافة وتقدماً أصبح أكثرنا مالاً وأوفرنا نفطاً هو أعلانا مقاماً ، وأكثرنا هيبة : يمنح ويمنع ، ويقول فيسمع ، ويعامل الآخرين بنفس الطريقة التى تُعامل بها الفروع الفقيرة من الأسر العريقة ولهذا السبب هبط قدرنا نحن المصريين لأننا « لعرب الماء» لا « لعرب النفط » ننتسب .

ومنذ فتح الله على العرب غير المصريين بالنفط ، فتح حكامهم مدافع سبابهم علينا نحن العرب المصريين ، فنحن اشعبيون طماعون ، أذلاء ماكرون : نرضى بالخنا ولا نثور لأعراضنا ونحن لم نجلب شيئاً للعرب إلاَّ الهزائم والنكبات والنكسات منذ هزيمة ١٩٤٨ إلى هزيمة « كامب ديفيد » وأفضل ما فينا « باروكات حضارية » لأنها من صنع غيرنا فالمسرح الذى ندل به على الأمة ليس من صنعنا ، فهو شامى المولد منذ القرداحى إلى القبانى إلى سليم النقاش وروز اليوسف وحتى بديعة مصابنى ، والصحافة هى الأخرى لربوع الشام تنتسب منذ « أولاد تقلا » أصحاب الأهرام ، حتى « أولاد زيدان » أصحاب الهلال . ولا تنسوا أصحاب « المقطم » و « اللطائف المصورة » ، بل ان السينما هى الأخرى

ليست باروكتنا لأن « أولاد لاما » ـ وهم فلسطينيون ـ هم روادها العرب الأوائل .

قيل هذا الكلام همساً ، قبل زيارة القدس ، أما بعدها فقد كتب شعراً ونثراً ، ونشر صحافة وإذاعة وتمسرح وتلحن ، ووقع على الدفوف حتى أصبح جزءاً من المفردات المتداولة فى الشارع العربى : سمعه عرب مصريون فى كل العواصم العربية ، وعاينوه : خشونة فى اللفظ ، وجلافة فى التعامل .

كثيرون من العرب غير المصريين ، يعتذرون عن هذا التجاوز الصريح والقبيح فيعلقون رأسه فى رقبة « كامب ديفيد » ، وتلك خديعة للنفس وللآخرين عن الحقائق المرة ، التى ينبغى لنا أن نواجهها مهما كانت قاسية ، فهذه الرؤية المستصغرة شأن المصريين ومكانتهم ، بدأت قبل « كامب ديفيد » وشاعت منذ عثر العرب على خاتم النفط فجاءونا وهدفهم تعمير « شارع الهرم » وتنمية ظاهرة الشقق المفروشة ، وتوسيع رقعة الفئات الاجتماعية التى تعيش على السياحة ثم التحيز المسبق ضد العرب المصريين بالحكم عليهم جميعاً طبقاً لما يحدث من احتكاكات بين بائعى المتعة ومن ينشدونها بفادح الثمن وهذا التحيز هو التعبير الأصيل عن تغير مقاييس القيمة من العمل إلى المال ومن الحضارة إلى الثراء ، أما كامب ديفيد ـ ونحن من معارضيها ـ فكل ما فعلته أن أعطت مبرراً ، لبعض الحكام العرب والمواطنين العرب لهتك أستار الخجل فانبرت الأقلام تسبنا وتنكر علينا نحن العرب المصريين دورنا بين أشقائنا متسترة بكامب ديفيد ، مخفية بالهجوم عليه رائحة النفط الزاعقة، التى ترى أنها بما تحوز من براميل وما تملك من دولارت ـ

أحــق بالمكانة وأولى بالزعامة . ولا يعنى هذا أن كامب ديفيد لا تستحق الهجوم ، أو أن ما وجه إليها من هجوم لم يكن فى ذاته حقيقياً .

وهـذه النتيجة المحـزنة والمنـطقية لتغيـر محكات القيمـة ومقـاييس المكانة ، ليست التعاسة الوحيدة التى حـطت على العرب بعـد عثورهم على « المصبـاح النفطى المسحـور » فقد خسـر العرب القـطب المؤهل لجـذبهم ، وانفتح بـاب الوطن على مصـراعيه ، للتـزاحم بين أصحـاب بـراميل النفط لـوراثة الـدور الذى كـانت تلعبه مصـر ، واختلف الـورثـة وتشـاجروا حتى تبـددت التركـة وأصبحت الأمة شـظايا يخـطط اعداؤهـا لتحويلها إلى كيانات طائفية ، تستخدم براميـل نفطهـا لإشعال مـزيد من حرائق التجزئة .

ولم لا تشتعل النيران الطائفية ، والنفط موجود وموفور ، ولم لا يتفرغ المسلم للقبـطى ، والمـارونى للشيعى ، والشيعى للسنى ، فضـــلاً عن الزيود والشوافع والحنابلة والأحناف والمالكيين وما لا أذكـر ولا أعرف ، من طوائف وفرق ، وقد فرغت الأمـة من هم التوحيـد وطموح الانـدماج وتجاوزت مراحل «الفيد يريشن» و « الكونفيديريشن » إلى مرحلة التفركش الشامل الـذى لا ضابط لـه ولا رابط ، ولم تعد تجـد ما تنتمى لـه ، غير نوادى الكرة والعمل من أجل انشـاء « امارات الـطوائف العربيـة » ، غير الأندلسية وغير المتحدة .

فأهلاً بعصر البترودولار الذى انتقل فيـه الخلاف بين حكـام العرب إلى خـلاف بين العرب والعـرب ، قامـوسه المنشـور والمحفـوظ : لفظ حوشى وأفعال سوقية وما أسعدنا بتلك المشاعر الوحدوية الأخوية الحميمة التى تـدفقت من آبـار النفط واتخمت بـراميله أمـا تـرى ذلـك التجبر

« الأخوى » والتكبر « الوحدوى » والاستعلاء « الحميم » الذى يتعامل بـه عـرب النفط والدولار مـع عرب العـرق والدم : يشتـرون بـأبخس الثمن عرقهم وأعراضهم ، مأجورين بأقل من التكاليف يبنون ويعمرون فيستكثر عليهم ذوو رحمهم النفطيين، أن يقتصدوا ما يضمن لهم سقفاً يسترون به وقبرا يدفنون فيه إذا ما عادوا إلى الماء الذى منه جاءوا ، فيتهمونهم بالبخل والشح والطمع والشره ، كـأنهم يشحذون ولا يعملون ، وكـأن ذنبهم أن نشأوا فى ظل حضـارة صنعها العمـل لا الكسـل ، والعـرق لا النفط . ويلصقون بهم كل رذيلة أخلاقية كان دولاراتهم الزائـدة على الحاجـة لم تخلق كل ما هو فساد وإفساد من القوادة إلى الخنا إلى اللواط .

مؤلمـة هى الحقيقـة لكنهـا مقيـاس الإخـلاص ، إذا كـان ثم من الاخلاص بواق ، فلنواجه بها أنفسنا ولـو بفادح الألم . ولننبش الجـراح فهذا ـ على ايلامه ـ أفضل من أن نتغلق على عفونة ونندمل على صديد : زكم النفط انوفنا فلم نعد نشم شذا الأمل ، أغرانا بالتنكر لذوى رحمنا ، كما تغرى الثروة فى أفلام حسن الامام كل ناقص العقل والدين ، بالقسوة على أهله ، واستغلال أشقائه ، وآية ذلك أن عرب النفط خصوا أنفسهم بأجمل ما فى الوطن فحشدوا فى أقطارهم الصغيـرة المحدودة ، خبـراته وطاقاته الفعالة والخلاقة ، حتى تلك التى ليسوا بحاجة إليها ، أو جاءتهم على بطونها الجائعة بحثاً عن محدد القيمة الوحيدة فى الأمة : البترودولار ؛ يوظفونها فى أدوار أقل ممـا أهلت له ، دون أن يهتمـوا بحاجـة اخوانهم عرب الماء ، أو يسعوا لتوظيف طاقات الأمـة توظيفـاً أمثل بمـا يفيد كـل أقـطارها ، ويضـع مصلحتها الشـاملة فوق المصلحـة القطريـة المحددة والقصيرة النظر .

وهكذا أصبحنا نسمع عن أساتذة جامعات يدرسون فى قطر نفطى لعشرة طلاب ، بينما لا يجد عشرات الآلاف من طلاب الجامعات فى مصر « المائية » مثلاً العدد الكافى من الأساتذة ، وشكا « قصر العينى » أكبر المستشفيات الحكومية فى مصر - من نقص الأطباء قبل سنوات ، وأخلت الهجرة المتزايدة للعمالة الفنية بقدرة مصر على الوفاء ببرنامج نموها ، ولو كنا وحدويين حقاً ، لتعاملنا مع الأمة كوحدة واحدة ، ولنسقنا هجرة « الكادر الفنى » بين أقطارها ليكون فى المكان الذى يعطى أفضل عطاء لمصلحة الأمة فى تكاملها وشمولها وفى حاضرها ومستقبلها . ولأدرك عرب النفط ما فيه عرب الماء من خصاصة ، وأثروهم على أنفسهم وكفوا عن « العكس » الذى يفعلونه الآن !

أما شر البلية الذى لا يضحك بل يفجع ، فهو ما يجرى فى سوق العمل العربية من تنافس وتناحر بين الأشقاء القادمين لبيع قوة عملهم ، فلأنها سوق رأسمالية ، فهى لا تخضع لأى تخطيط فى تنقلها ، ولا أى إتفاقات تضبطها أو تحكمها ، وكانت النتيجة المنطقية أن ساد قانون العرض والطلب ، فاشتدت الخلافات بين ابناء الفرع الفقير من العائلة العربية يتصارعون على العمل وفى العمل ، لدى إخوانهم النفطيين ووجد هؤلاء فى أنفسهم جسارة اللعب بنار تأجيج الصراع على الرزق بين العرب المصريين والعرب الفلسطينيين والعرب السودانيين ، فترسبت المرارات القطرية وتركزت لتكون بعضاً من « السعادة » التى جلبها النفط على العرب !!

وحين مل عرب النفط أشعبية المصريين والفلسطينيين ، وكل عرب العرق أرادوا أن يجددوا خدمهم القدماء ففتحوا أبواب أقطارهم أمام العمالة الآسيوية ، وازدحمت شوارعهم بالكوريين والأفغانيين

والباكستانيين والهنود ، يتقاضون أضعاف ما يتقاضى الأشقاء العرب ، ويعملون أقل ويفرضون شروطاً ويأخذون حقوقاً ، لكنهم مع كلفتهم أضمن وآمن وأقل خطراً ، فهم لا يعملون بالسياسة ، ولا شأن لهم بما يجرى فى الأمة والوطن ويكفى أنهم لن ينقلوا إلى أرض النفط جراثيم المبادىء أو وباء الايديولوجيات ، ولن تطمح نفوسهم للوراثة ، ولن ينزحوا ما يتقاضون من أجور إلى أقطار عربية فقيرة ، فيدعمون نفوذها أو يزيدونها هيبة أو يشجعونها على أن تشب برأسها لتطاول أخوتها الأغنياء .

وكانت النتيجة أن اكتشف « عرب الخليج » فى العام الماضى أن ٧٥٪ من المستوطنين به آسيويون وتعالت الصرخات تحذر من مصير كمصير فلسطين وتربط بين الهجرة الآسيوية والهجرة الصهيونية .

وجد العرب خاتم سليمان ، فلم يجلب لهم وحدة ولم يمنحهم تحرراً ، ولم يزدهم سعادة بل أضاف لهم شقاء ، ومع ذلك فما زالوا ينفذون ، باقتدار بالغ وحمق نادر المثال ، سيناريو عنوانه « لعنة النفط » ينتمى للمدرسة الروائية التى ابتكرها الأستاذ العظيم حسن الامام ، وليس كل ما سبق ـ على فواجعه ـ سوى فصل واحد منه !!

(*) « الأهالى » ـ العدد ٧٦ ـ فى ١٣ مارس ١٩٨٣ .

رابطة صناع الطغاة

انزعجت بشدة من تلك الحملة المسعورة التى انطلقت ضد « محمد حسنين هيكل » و « يوسف ادريس » ، وحين اتيح لى وقت أحلل فيه أسباب انزعاجى ، اكتشفت أن الطاعنين على « هيكل » و « إدريس » ، يبشرون جميعاً ـ ودون استثناء ـ بالدعوة لتقديس من يحكمون ، وتأليه من يترأسون ، وعبادة الزعماء والمتزاعمين !

ما أزعجنى حقاً أن التهمة الموجهة لهيكل وإدريس ، والتى تشدو بها جوقة من « الكتاب » و « المفكرين » و « رجال الدين » هو أن الرجلين قد تطاولا على مقام الزعامة وبذلك تطاولا على مقام الوطن ، وأنهما قد هونا من تاريخ الزعيم ، فهان ـ بما قالا ـ تاريخ الوطن ، فالزعيم عندهم هو الوطن ، والوطن هو الزعيم !

ولست أريد أن أكون مضحكاً ، فأرد على هذا العبث ببديهيات قيلت ألف مرة : فمصر ليست « السادات » أو « عبد الناصر » ، وهى ليست « النحاس » أو « سعد زغلول » ، والطعن على هؤلاء جميعاً بالحق أو

بالباطل ، ليس طعناً فى الوطن الذى يمتد تاريخه إلى سبعين قرناً سبقتهم ، وسيمتد إلى مئات القرون ، سيحكم خلالها غيرهم ، وهو تاريخ لم يصنعه هؤلاء ، ولم يصنعه من سبقوهم ، ولن يصنعه من يلحق بهم ، بل صنعه عشرات الملايين من المصريين المجهولين ، الذين طوعوا النهر فى عصر مستنقعات ما قبل التاريخ ، وبنو الاهرامات ، وشيدوا المعابد ، وحاربوا الحيوانات والوحوش وقاوموا الغزاة والطغاة ، واقتحموا الخوف والرعب ، وابتكروا اللغة واكتشفوا التحنيط ، وزخرفوا الأسبلة ، وذَهَّبوا الخشب وكَفَّتوا النحاس ، وصنعوا حضارة وصفها « أرنولد توينبى » بأنها لم تولد ولم تلد ، لم يسبقها مثيل ، ولم يتلها شبيه ، صمدت فى وجه الزمن ، وضحى فى سبيلها ملايين التهمتهم المجاعات والطواعين ، وانهارت عليهم الأتربة وهم يحفرون القنوات ، وواجهوا الفيضانات والزوابع ، وماتوا فى مظاهرات الشوارع وهم يهتفون باسم الوطن ، فلم تذكر أحدهم صحيفة ، ولم يدافع عن تاريخهم قلم ممن يتشنجون اليوم ، لأن « الفرد ـ الوطن » ناله بعض نقد .

إن أحداً يا سادة لم يشتم الوطن وشاتموه الحقيقيون هم الذين يختصرون كل تاريخه فى حكم حاكم ، طال أو قصر ، أحسن أو أساء ، فلا يجوز لأحد أن يستهين بعقولنا ، وأن يستخدم الوطن ستاراً للدفاع عن سياسات منحته مناصب ، أو لتبرير نفاق بذله بكرم ليرفع مرتباته ومراتبه ، أو أن يفرض علينا تقديس ذكرى من جاملوه بما لا يستحق فيهين الوطن ، حين يصغر فى نظره ليصبح هذا الحاكم أو ذاك !

وليس يعنينى هنا أن أتحدث عن هيكل وكتابه ، ولا يعنينى ادريس ومقالاته ، لكن ما يزعجنى حقاً ، هو رابطة صناع الطغاة ، ممن يظن

الناس أنهم أصحاب فكر ورأى ، وهم لا يملكون إلا موهبة واحدة هى القدرة على تحويل الزعماء والقادة من بشر يمكن مناقشتهم إلى آلهة لا يحسون التفكير في نقدهم، فهم معصومون من الخطأ، ومحصنون ـ أحياء وأمواتا ـ ضد الحساب ، وما علينا نحن الذين ابتلانا الله بأحكامهم ، إلاَّ أن « نطبل » لهم وهم أحياء ، ونحرق البخور لذكراهم بعد أن ينتقلوا إلى رحاب الله ، وننتقل للتطبيل لخلفائهم ، ليتحولوا من بشر يحكمون ، إلى آلهة معصومين وبهذا نظل نحن المصريين ـ بل والعرب ـ عبيد احسانات من يحكموننا وأسرى قداسة من سقونا المر كؤوساً وأباريق !

وليس عجباً إذن أن فضيحتنا ـ نحن العرب ـ قد أصبحت بجلاجل فى أربعة انحاء المعمورة ، فنحن ننفرد ـ دون كل الدول المتحضرة ـ بتلك المبالغة التى توحى بعدم الصدق فى استخدام أفعل التفضيل لوصف مناقب حكامنا ، فالزعيم العربى ، هو ـ فى رأى رابطة صناع الطغاة ـ أذكى الناس وأعلمهم وأعدلهم وأكرمهم وأخفهم ظلاًّ ، وهو القائد والمفكر والمعلم والملهم ، وهو رئيس كل شىء : القوات المسلحة والشرطة والقضاء ، وهو نقيب الصحفيين ونقيب الصيادين ، ورب العائلة ، وحامى حمى اخلاق القرية ، وهو فارس الحرب وبطل السلام ورائد التأصيل الفكرى وهو الذى صنعنا من العدم و « أعاد » لنا كرامتنا ، و « منحنا » العزة والكرامة ، ورفع رؤوسنا فى الخارج ، ولولاه ما احترمنا انسان ، ولا اعترفت بنا دولة ، والمعنى الوحيد لاجتماع كل هذه الصفات فى فرد واحد ، هو أن نركع ونصلى ـ والعياذ بالله ـ له !

وقد كنت ـ وما زلت ـ أدهش ، لذلك الركام الهائل من المقالات والخطب والاشعار والسياسات الإعلامية ، التى وضعها اصحابها ، بهدف

واحد هو تأليه حكامنا ، وإجبارنا ، بالإلحاح السَّمِجّ والمرذول ، على عبادتهم ، وتحذيرنا من نقدهم أو التطاول على مقامهم ، وكأننا عبيد أولاد اماء ، ورثنا هؤلاء الحكام عن خلفائهم أو عن آبائهم ، ولا حق لنا تجاههم ، إلاَّ حق تقبيل الأقدام ، وتمريغ الوجوه فى العتبات !

والغريب أن سياساتنا الاعلامية تلك ، ككثير من قوانيننا الديمقراطية (!!) مقتبسة من أنظمة ادانها التاريخ ، واذكر أننى قرأت مرة لمسؤول إعلامى عربى كبير ، فى رسالة دكتوراه قدمها للجامعة ، مدحاً شديداً لسياسة جوبلز - وزير الدعاية النازى الشهير - لأنه نجح فى أن يقحم الزعيم فى حياة كل فرد من أفراد شعبه ، باجبار المواطنين على رؤية صورة زعيمهم فى كل مكان ، منذ أن يفتحوا أعينهم فى الصباح ، إلى أن يغلقوها قبل النوم ، فهم يرونها فى الصحيفة وفى الشارع وفى الترام وفى المكتب وفى السينما وفى المقهى ، وهم يرون هذه الصورة فى أوضاع « بوزات » مختلفة ، تتناسب مع الظروف السياسية : فحين تكون هناك قلاقل أو اضطرابات تكون صورة الزعيم قاسية الملامح ، زاجرة النظرات ، توحى بالقوة والبطش ، وحين يكون الأمر هزيمة ، فهو منكسر النظرات ، حنون اللفتات ، يدعو للتعاطف والرثاء ، وبهذا يتسلل الزعيم إلى دم المواطن ،ويصبح جزءاً من نسيجه النفسى الداخلى ، لا يفكر الانسان فى انتقاده أو الخروج عليه ، ولو بينه وبين نفسه !

وما أظن أن بلداً متحضراً فى العالم قد ألف فى زعمائه ، كل ذلك الكم الهائل من الأغنيات التى تتغزل فى صفاتهم النبيلة ، التى تجعلهم يبدون وكأنهم خلقوا من طينة أخرى غير طينة البشر . والغريب أن كلمات اغنيات الغزل نفسه كلها متشابهة ، فإذا رفعت اسم هذا الزعيم أو ذاك ،

من مطلع الأغنية ، وجـدت نفس المعانى ، بـل ربما نفس الكلمـات ، فالزعيم شجاع وحكيم وبار وابن لشعبه ،وصانع للتاريخ ، والشعب بدونه لا يستطيع شيئاً ، فهو ـ الشعب ـ رهن اشارته ، لو أمره أن يخبط رأسه فى الحائط لخبطها ولو أشار لمشى خلفه إلى الجحيم ، وهى أغنيـات تذاع بالحاح سمج ، يدفـع الناس عـادة لإغلاق الـراديو ليـرحموا أنفسهم من صوت المطرب المنافق ، أو إغلاق التليفزيون ليرحموا أنفسهم من وجـه الزعيم البهى !

وهذه السياسة الاعلاميـة المبتذلـة ، هى المسؤولة عن عـدم اهتمام العرب عموماً بالبرامج الاخبارية فى أجهزة الاعلام المسموعة والمرئية ، فهذه البرامج لا تقدم ـ عادة ـ للناس أنبـاء الوطن وأخبـار الدنيـا ، ولكن تقدم لهم الزعماء الآلهة ، فكل ما يفعله الزعيم ـ تافهاً كان أو ذا قيمـة ـ مقدم على غيره من الأنباء مهما كانت أهميتها ، وغالباً ما تلتهم مقابلات الزعيم وخطبه وتصريحاته ، كل الوقت المخصص لأخبار الدنيـا ، فكل خطب الزعيم هامة ، وكل أحاديثه خطيرة ، وكل أقواله تـاريخية ، وحين يتحدث تتوقف الدنيا لسماعه ، فما دام أمامه ميكرفون اذاعة فمن حقه أن يقول : العالم كله سامعنى دلوقتى ، حتى نصف الكرة الغربى النائم ، وسكان خط الاستواء الذين لا يعنيهم الأمر ، وسكان مالطة الذين ضرب المثل بالآذان فيهم ، لأنهم ليسوا مسلمين ليهمهم الآذان ، وليسوا عـرباً ليفهمـوا معناه ! وهـذا ما تقـولـه عـادة وتكـرره صحف اليـوم التى تنشـر التصريحات كاملة ، أما الاذاعة والتليفزيون فتحرصان على التنكيد على المواطنين بتكرار اذاعة الخطاب ، الذى لا يتضمن فى الأغلب الأعم شيئاً جديداً ، وتفرضه على الناس فتذيعـه على كل القنـوات ، فلا تتـرك لهم خياراً إلاَّ سماعه أو إغلاق الإذاعة !

وصحفنا العربية ـ دون كل صحف العالم ـ هى الصحف الوحيدة التى تنشر صور حكامنا بكل تلك الغزارة ، وبشكل شبه يومى ، وسواء كان الخبر هاماً أو تافهاً ، يخص الزعيم أو يخص أسرته وحاشيته وحواشيه ، يتعلق بمصالح الناس ، أو يتعلق فقط بذلك التسابق المخيف بين الصحف والصحفيين العرب ، لاثبات ولائهم ، وأحقيتهم بكراسيهم ، باغراقنا بصور الزعماء العرب ، وهم ليسوا بالضرورة ، نموذجاً للجمال !

والمسؤولية عن هذا العبث كله ، ليست مسؤولية الحاكم وحده ولكنها مسؤولية رابطة صناع الطغاة ، وهى رابطة اثبت التاريخ أن المنضمين إليها لا يخلصون لشىء ، ولا يهمهم إلاَّ التقرب من الزعيم والتزلف إليه ، والحصول على مكاسب من هذا وذاك ، لكن صرخاتهم المنافقة لا تذهب فى واد وطبولهم المتزلفة لا تضيع فى فلوات ، فما أصعب أن يقاوم الحاكم ـ مهما كان متواضعاً ومتجرداً ومدركاً لأهداف المنافقين ـ مدح الذين يمدحونه وهكذا ينتهى الأمر بأن يصدق فعلاً أنه زعيم منزه عن الخطأ ، وأنه حكيم ومثقف وذكى ومخلص .

ولا يجوز لأحد أن يلومه إذا ما اتخذ أخطر القرارات دون أن يستشير أحداً ، يكفى أنه اتخذ القرار على « مسؤوليته التاريخية » لأنه ليس مسؤولاً أمامنا نحن الشعب ، بل أمام التاريخ ، وحين يقارن تطبيل المطبلين بنقد الناقدين ينحاز تلقائياً لمن مدحوه ، ويعتبر الآخرين شرذمة من الحاقدين ويظل حماسه للمطبلين يتصاعد ، وضيقه بالناقدين يستحكم . حتى يجد نفسه وحيداً على القمة ، أسير وهم الذين أوهموه بقداسته ، وحرضوه على الا يستمع لرأى آخر ، أو يقبل ما هو دون التقديس !

ورابطة صناع الطغاة ، هى المسؤولة عن تحول كثير من الحكام من بشر متواضعين إلى قياصرة متجبرين ، فالذين عرفوا « أنور السادات » قبل أن يصبح رئيساً ، يقولون أنه كان انساناً متواضعاً ، بسيطاً فى تعامله مع الآخرين ، قابلاً للحوار وللخلاف ، وأحياناً للعدول عن بعض آرائه .

ولا شك أن ظروفاً معقدة ، ساهمت فى تحويل هذا الرجل البسيط إلى الصورة المخيفة التى شهدناها فى أواخر حكمه ، كان على رأسها انجازات الكهنة من صناع الطغاة ، ولقد ذهلت فعلاً حين قال لى بعض من عرفوه فى تلك المرحلة ، أنه كان يصدق أن ٩٩٪ من الناس معه ، وأن استفتاءات النبوى ليست مزورة ، وأن العبد والرب وريجان وبيجين راضون عنه . .

وليس غريباً إذن ، أن رابطة صناع الطغاة ، هى الرابطة القومية الوحيدة التى تدل على اننا أمة عربية واحدة فالعرب الآن لا يجمعهم شىء ، إلَّا أن فى كل بلد من بلادهم جوقة من المطبلين والمزمرين وشعراء السلاطين ، مهمتهم هى تحريض الحكام على أن يحكمونا بالجلادين وبالسياط وبقطع الألسنة وقطع الأرزاق ، والاستئساد علينا ، والجرى كالأرانب أمام أعدائنا . . وأخطر ما يفعله المروجون لفكرة تقديس الزعامة ، هو أن تلك القداسة ما تلبث أن تتجاوز الزعيم ، لتشمل أعوانه ، وأعضاء الحلقة الضيقة التى تشاركه الحكم ، ثم تنتقل من هؤلاء إلى اتباعهم ومديرى مكاتبهم وحاشيتهم وحواشيهم ، فيتحول كل مسؤول مهما قلت مرتبته فى سلك المسؤولين إلى ديكتاتور صغير ، يرفض أن يناقشه أحد ، ويتعالى على أن ينقده ناقد ، ويغضب على الذين لا يطبلون لعبقريته ، وبهذا يُقَرِّب الأسافل ويرفع الأراذل ، ويضيع فى زحام

المنافقين ، المخلصون حقاً للوطن ، والحريصون على مصالحه ، والمهمومون بهمومه !

الشيء المفجع في هذا كله ، أن رابطة صناع الطغاة ، تضم بين صفوفها ، أحياناً ، مفكرين وأصحاب رأى وأصحاب مواقف ، لا أحد يدرى الظروف التى تقودهم إلى تلك المواقف التى تزرى بهم وبتاريخهم ، وأى ضعف بشرى يهبط بهم إلى مستنقع الدعوة لتقديس ما لا يقدس ، فيتحول الشعب والوطن والتاريخ إلى شخص ، مهما كان ما أنجزه ، فهو ليس اكثر من انسان يخطىء ويصيب ، لم يتول أمورنا بتفويض من الله عزَّ وجلَّ ، لكى يكون معصوماً من الخطأ ومن الحساب ولكنه تولاها ـ من الناحية الشكلية على الأقل ـ بإرادة الشعب ، فهو مسؤول أمام كل فرد فيه ، ومن حق كل فرد فيه أن يسائله ، وليس من حق حارقى البخور ، ودقاقى الطبول أن يفرضوا علينا الصمت على ما فعل !

ربما كان السبب فى هذا ، هو أن معظم المثقفين فى وطننا العربى ينتمون اجتماعياً ، لنفس الفئات التى تحكم وتتحكم ويعيشون فى كواليسها اكثر مما يعيشون مع الشعب وللشعب ويثرون من عطاياها ، ويتشربون مع الزمن رؤاها ، ويجدون المبرر الفكرى الذى يغطون به أنفسهم أمام أنفسهم وأمام الناس ، بسهولة وربما لهذا ، صرخ الشاعر « نجيب سرور » ، قبل أن يموت بقليل فى وجه المثقفين العرب : أيها المثقفون كفوا عن هذا الضعف الذى يكاد يكون انثوياً تجاه السلطة . . كل سلطة . . وصرخ « نزار قبانى » فى وجه السادات : أنا لا أريد لشعرى أن يكون طبلة فى مواكب السلاطين !

جانب آخر من المأساة ، يصنعه الكهنة من صناع الطغاة ، فهم لا

يفسـدون الحكام فقط ، بـل يفسـدون النـاس انفسهم بما يـروجـونـه من افكار، فما أكثر الذين يروننا حمقى لأننا نعارض، وما أكثر الذين ينصحوننا أن نؤيد فهذا أربح لأشخاصنا ، وما أكثر الذين لا يصدقوننا ، لأنهم تشربـوا دون أن يـدروا صورة الـزعيم الإله ، ومـا أكثر الـذين يتأسـون بحكامنـا ويقتدون بهم ، فيرفضون أى نقد ويضيقون بأى اختـلاف ويتحولـون إلى طغاة صغار ، يزحمون البيوت والمكاتب والدكاكين !

ما يدهشنى حقاً ، حين أراجع هـذا الركـام من الأغانى والمقـالات والأشعار والكتب التى تقدس زعـامات الأمـة ، وتنسب إليها كـل ما هـو شجاعة وحكمـة وفكر وفلسفـة واخلاص ، هـو : أين أثر هؤلاء الـزعماء المقدسين ، والأمة كلهـا ، فى حال من التـدهور لم يسبق لهـا مثيل ؟. وكيف كان حالنا سيكون ، إذا لم يهبنا الله هؤلاء العباقرة الذين هم منبع العلوم والفضائل والحكمة والشجاعة ، ومثال الوطنية والعـدل والتجرد ، الديمقراطيون أبناء الديمقراطيين من سلالة الخواجة ديمقراط ، الذين لا يريد لنا البعض أن نمسهم بكلمة ، أو أن نتعرض لتاريخهم بنقد ! .

فهل ترفع رابطة صناع الطغاة اقلامها عنا ؟. هل تتوارى خجـلاً مما صنعه الطغاة بالأمة ، ومما شجعوهم على صنعه بها ؟. هل تتعامل معنا باعتبارنا بشراً من حقهم أن يختاروا حكامهم وأن يسائلوهم ، أم تظل تبشر بالحاكم المعصوم ، رب السيف والقلم ومنبع الحكمة والفضائل ومؤسس الوطن ومبتكر الأفكار ومبدع الفلسفات . . فلا يبقى لنا من كهانتهم سوى أن ننحنى فنقبـل اقدام « الـرسـل » الـذين يحكمـون الأمـة ؟! اعتـرافـاً بجميلهم عليها ، وتقديراً للهوان الذى قادونا إليه ؟!

(*) « الأهالى » - ٤ مايو ١٩٨٣ .

والضفدعة .. شايلة المركب

لست أدرى من أين يأتى الناس فى بلادنا بكل تلك القدرة الفذة على التأليف الفورى أو الحكى ، دون أى مجهود ، وبأدنى قدر من الافتعال ، وباقتدار يستحق الاعجاب - رغم ما قد يثيره من قلق أحياناً - بشكل يجعلهم أكثر موهبة ، وأعمق تفنناً من هؤلاء المؤلفين المحترفين ، الذين يؤلفون مسلسلات السياسة المملة ، أو يصدعون رؤوسنا كل عام بما يسمونه مسلسلات رمضان وما قبل ، وما بعد ، رمضان !

ومنذ أكثر من أسبوعين ، سمعت قصة تلك العصابة التى تخطف الأطفال الصغار وتذبحهم ، لأن ذلك - فيما تقول القصة - هو الشرط الذى إذا تحقق ، فسوف تعثر هذه العصابة على سر كنز ضخم ، مخبأ فى مكان اختلف فى تحديده الرواة فهو - فى بعض الروايات - مدفون تحت اسوار قصر العبنى ، وهو فى روايات أخرى ، مدفون بالقرب من الهرم الأكبر ، لكن تعيين مكانه الدقيق ، رهين بنجاح العصابة فى الحصول على عدد معين من الذبائح تشترط

القصة ، أو العصابة ، أن يكونوا أطفالاً !

وليس مكان الكنز وحده ، هو الذى اختلف فى تحديده الرواة ، فهم يختلفون أيضاً فى تحديد عدد الضحايا المطلوب ذبحهم ، فبعض الروايات تهبط بالعدد إلى خمسمائة وبعضها الآخر يرتفع إلى ألف وخمسمائة ، لكن كل الروايات تجمع على أنهم أطفال بين السابعة والعاشرة وأنهم أيضاً ذكور ، أما محتويات الكنز ، فإن الرواة لم يتفقوا على تعريف جامع مانع لها ، فهم يتبارون فى تخيل ما يضم من ذهب ، بالكثرة التى تليق بكنز يتطلب كل هذا العدد الوفير من الذبائح ، حتى يبوح بسره ويمطر خيراته . .

وكما يحدث فى مسلسلات التليفزيون الرديئة ، وما أظن أن هناك مسلسلات ليست كذلك ، فقد سمعت هذه القصة أكثر من مائة مرة ، مع تغيير فى شخص الراوى ، وفى طريق روايته ، واختلاف فى التفاصيل ، سعى بها إلى أناس مختلفى الأعمار والثقافات والمهن والأزياء ، بعضهم يهمس بها إلىّ وكأنه يخصنى وحدى بسر الكون ، بينما ساقها الآخرون إلى سمعى بصوت مرتعش فيه بعض خوف حقيقى أو مفتعل ، والجميع يكررون القصة وذيولها وحواشيها ، ويضيفون إليها كل يوم ما يعتبرونه دليلاً على صحتها ويتبادلون أخبار نشاط العصابة فى أحياء المدينة المختلفة وفى القرى المحيطة بالعاصمة وضواحيها ، ويختلفون فى تحديد عدد الأطفال الذين اقتنصتهم العصابة حتى تاريخ الرواية ، وما بقى أمامها من أهداف حتى يبوح الكنز بسره الخفى ، ويفتح أبوابه المغلقة أمام الساعين وراءه بدم الأطفال !

الغريب أن كل واحد من الرواة ، جاء وبيده دليله على صحة

حكايته ، لهذا رواها الجميع لى وهم واثقون من صحتها ، والمذهل أن الأدلة جاءت متشابهة ، مع أن الرواة غير متشابهين ، فالكل يقسم أنه سمع بأذنيه ـ اللتين سيأكلهما الدود بعد عمر طويل ـ من قريب له أو زميل فى العمل أو صديق ، أنه ـ أى الزميل أو الصديق ـ كان واقفاً فى شرفة مسكنه ذات أمسية ، ودائماً ذات أمسية ، فسمع ضجيجاً فى آخر الشارع الذى يسكن فيه ، وحين سأل عن سببه ومصدره ، قيل له أن رجلاً قد ضبط وهو يحاول خطف طفل ، أو استدراجه بعيداً عن منزله ، وأن الناس أحاطوا به وأوسعوه ضرباً ، فهرب فى معظم الروايات ، وقبض عليه فى روايات أخرى ، وتسلمته الشرطة !

وفى المرات الأولى سمعت الحكاية دون تعليق أو تصديق ، وأهملتها تماماً ، فقد كانت واضحة الافتعال ، ذلك أن واحداً من الرواة على تعددهم واختلاف مناطق اقامتهم ، لم يذكر واقعة واحدة من وقائع الخطف ، كان هو بذاته طرفاً فيها ، ولو من بعيد ، كأن يكون الطفل ابناً له ، أو لبعض أقربائه ، أو لصديق أو جار من جيرانه ، فالجميع ينقلون عن قريب أو صديق سمع عن آخرين ، وفى عملية « العنعنة » هذه تضاف تفاصيل ، وتحذف أخرى ، ليظل جسم القصة الرئيسى كما رويته ، دون دليل أو قرينة ، أو اعتراف من عشرات الذين قيل أن الناس ضبطوهم وهم يحاولون الاختطاف وسلموهم للشرطة !

ثم أن القصة ذاتها بعيدة عن كل منطق ، ويمكن تكذيبها من نصها نفسه ، ودون حاجة للبحث عن دليل يكذبها أو آخر يثبتها .

وإلاَّ فكيف تستطيع عصابة مهما كان عدد أفرادها وأحكام تنظيمها ووفرة امكانياتها البشرية والتكنولوجية أن تخطف وتذبح الف وخمسمائة

طفل مرة واحدة ، فى مدينة مزدحمة بالناس ، تتبختر سيارات الشرطة اللاسلكية فى شوارعها ليل نهار ، دون أن ينكشف أمرها ؟!

وأين يمكن أن تخفى كل هذا العدد الضخم من الأطفال حتى يأتى أوان الذبح فى مدينة تشكو من الازدحام ويسكن ربع مليون من سكانها مع الأموات فى أحواش المقابر لأنهم لا يجدون مسكناً ، ويتشاجر فيها الأب مع أولاده والأخوة مع أشقائهم من أجل شقة . . ؟

وكيف تطعم العصابة كل هذا العدد المهول من الأطفال وقد ارتفع سعر كيلو اللحم إلى ستة جنيهات ، وأصبحت البامية بجنيهن بينما تباع الملوخية فى بلد الملوخية بخمسة عشر قرشاً للكيلو ، وأصبح البطيخ طعام أصحاب الملايين ؟

من أين تنفق العصابة على هذا الجيش من الأطفال وهى لم تعرف بعد سر الكنز ، ولم تقبض منه مليماً واحد ا؟ ، وكم يبقى لها من الكنز إذا انفقت كل هذا ؟ . وكيف يكون الحال لو انفقت على التحضير ثم نقص عدد الضحايا المطلوبين واحداً لسبب أو لآخر ؟

ثم : أين تذهب العصابة بجثث هؤلاء المذبوحين بعد الذبح : هل تلقيها فى الطرقات أم تضعها بجوار المكان الذى دفن فيه الكنز ، فتكشف عنه للطامعين والمتربصين ؟

ثم : أليس من « الخيابة » التى ليس بعدها « خيابة » أن تعجز العصابة عن اخفاء سرها ، فيذيع مخططها على كل لسان ، ويعرف كل الناس مكان الكنز ، والمطلوب لفتحه وكشف سره ؟! . فكيف تستقيم هذه الخيابة الظاهرة ، مع المخطط الطموح الذى تسعى هذه العصابة

لتحقيقه ، وكيف تعجز عن اخفاء سرها ، ومع ذلك تواصل تنفيذ خطتها ؟!

تلك كلها اسئلة الحت على حين سمعت القصة فى المرات الأولى ، فطرحتها على الرواة والحكواتية ، وبدوت بذلك أمامهم مستمعاً يفتقد لأبسط الشروط التى يبحثون عنها ، فيمن يهمسون له ، بما لا يعرف من أسرار ، وحين لاحظوا أن اسئلتى مستريبة ومشككة ، وأننى تحولت من مستمع ظريف إلى مستجوب ثقيل الظل . انسحبوا بدون انتظام وغيروا الموضوع ، كأنهم يخشون أن أقنعهم أن الرواية التى يرددونها ، ويجدون لذة خفية فى ترديدها وربما فى تصديقها ، غير صحيحة !

ولا أنكر أننى كنت فى البداية حانقاً على رواتى مستفزاً مما يقولونه ويرددونه ، وكنت أستمع إليهم بانزعاج بالغ : استفزنى أن يفتقد الناس إلى أبسط مقومات المنطق العقلى ، وأن يصدقوا قصة حمقاء واضحة الكذب إلى هذه الدرجة ، وفيهم قوم يقرأون ويكتبون ، تلقوا من العلم والثقافة والوعى ما يمكنهم من ادراك لا معقولية هذه القصة وعبثيتها ، وخروجها عن كل منطق ، وبدا لى أن ما نفعله نحن المعارضون وما يفعله غيرنا من التنويريين ، عبث لا طائل من ورائه ، فها نحن مهمومون بالموازنة الجديدة ، والعلاوة الجديدة ، والتضخم ، وما يجرى فى البقاع وفى غير البقاع ، والناس مشغولون عن ذلك كله بقصة مختلقة ، كأنهم أصيبوا جميعاً بحالة من اللاعقل ، وكأنهم يتدافعون جميعاً للتأليف العبثى ، ويشتركون جميعاً فيه ، ويرفضون باصرار كل محاولة لاقناعهم بلا معقولية ما يرددون وعبثية ما يروجون وما يصدقون !

وسرعان ما أدركت خطئى البالغ ، لأننى أحاول أن أناقش منطق

القصة ذاتها ، وليس المنطق الذى يختفى وراء ترويجها وتصديقها : منطق آلاف المؤلفين المجهولين الذين يضيفون لها ويحذفون منها ، ويضعون خطأ هنا ، ولمسة هناك ، وجملة حوار فى مكان محدد من السياق ، أدركت باختصار ، أننى لست أمام واقعة تاريخية تتطلب اثباتاً أو نفياً ، ولست أمام اشاعة تزعج الناس وتخل بالأمن العام تتطلب بياناً رسمياً يكذبها ، وهو ما فعلته وزارة الداخلية ولكنى أمام نص فولكلورى ، مجهول المؤلف أو متعدد المؤلفين ، يتطلب فهماً لدلالاته ، وتأملاً فى جمالياته ، وتفسيراً له يربطه بالظروف التى نعيش فيها ، وبالحالة النفسية التى نمر بها ، وبالوجدان العام الذى يشكل فهمنا ـ أو عدم فهمنا ـ لما يحيط بنا !

وكان شيوخ المؤرخين كـ« المقريزى » و« ابن اياس » و« ابن تغرى بردى » و« الجبرتى » هم الذين غيروا منهجى فى تناول قصة كنز الذبائح فقد كنت أراجع شيئاً ، فى بعض مؤلفاتهم ، فإذا بى أعثر على قصص شبيهة بالقصة التى استفزتنى ، وإذا بالمصريين فى فترات كثيرة من تاريخهم يصابون بهذه الحالة الجماعية من التأليف الفورى ، وهى قصص لا بد أنها أزعجت ـ فى حينها ـ الذين يفكرون بالمنطق ويدعون لسيادة العقل ، ويزعجهم أن يفتقد الناس للحس النقدى ، ولا بد أنها أيضاً أزعجت ـ ولأسباب مختلفة ـ الولاة والمحتسبين ومتولى الشرطة وقادة البصاصين ، لكنها بدت لى قصصاً جميلة وذات دلالة ، حتى أننى فكرت أن أجمعها وأتفرغ لتحليلها ، واكتشف علاقتها بالعصر الذى نشأت عنه ، إذ لا بد أن هناك أسباباً معقدة ، اجتماعية ونفسية وحضارية وسياسية دفعت الناس لتأليف هذا الكم الهائل من القصص اللامعقولة ، وترويجها وتصديقها .

وإلاَّ فكيف عاش الناس شهوراً يرددون قصة تقول أن جنينا تكلم فى بطن أمه وهو فى الشهر السادس ، دون أن يتثبت أحد من القصة التى وقعت فى عصر سلاطين المماليك .

وكيف تدافع الناس يروون تلك القصة التى تقول أن حائطاً فى أحد المنازل، قد تكلم ، وأطلقوا عبارتهم المشهورة « يا سلام سلم .. الحيطة بتتكلم » .

ولماذا صدق الناس ـ أو الفوا ـ أثناء ثورة ١٩١٩ ، تلك القصة التى تقول أن فلاحاً استيقظ ذات صباح ، فإذا بنوار الفول فى حقلة ، يكتب بخط واضح مقروء اسم سعد زغلول ـ ولم يجدوا وفيهم العاقلون والواعون والثائرون الحقيقيون ـ ما يدفعهم لتكذيب قصة أخرى نقول أن عجلاً نزل من بطن أمه وهو يهتف بحياة سعد !

والواقع أن الخيال الشعبى فى مغامرته الدائبة والمستمرة ، للانعتاق من القهر والظلم والفقر أثبت أنه قادر دائماً على رسم صور تجمع بين اللامعقول والعبث والرمز والسيريالية، بشكل يعجز عنه أبدع الفنانين ، وقد التقط الأستاذ توفيق الحكيم ، أرجوز جميلة تهنن بها الأمهات المصريات أطفالهن ، فصنع منها مسرحيته الشهيرة « يا طالع الشجرة » ، ويقول نص الأرجوزة « يا طالع الشجرة .. هات لى معاك بقرة .. تشرب وتسقينى .. بالملعقة الصينى » .. وحين كنت طفلاً كانت أمى ـ رحمها الله ـ تغنى لى أرجوزة ، مضى زمن طويل قبل أن يستوعب عقلى معناها ، وكان نصها يقول « يا ليل .. يا ليل وانا ما اعرفش أكذب ..والضفدعة شايلة المركب .. وأبو فصادة ريسها .. والقط الأعمش حارسها .. يا ليل .. يا ليل .. وانا ما اعرفش أكذب » .

أما كيف يجد الانسان بقرة فى أعلى الشجرة ، وكيف تحمل

الضفدعة مركباً فتسبح بها فى النهر ، وكيف يقود أبو فصادة دفتها ، وكيف تخطف العصابة ألف وخمسمائة طفل ، وليس واحداً أو اثنين ، فذلك هو سر الشعب المصرى ، الذى دوخ الغزاة والطغاة والولاة ، وما أندر الذين فهموه منهم !

قالت « حكمت » ـ وهى فتاة نصف قروية تساعد زوجتى فى إدارة المنزل ـ أنها لم تجد فى السوق ما يمكن شراؤه من خضار ، إلا بعض الملوخية ، وأنها لم تجد خبزاً مفروداً وتام التخمير كما طلبت منها ، وأنها وقفت فى طابور البيرسول ساعتين وعادت بلا بيرسول ، وكان الناس فى الطابور يسلون صيامهم بالحديث عن قصة عصابة الأطفال التى تنتظر الكنز ، وبعد أن روت آخر ما وصلها من معلومات عن الموضوع ، علقت على القصة بمجملها متهمة الحكومة بأنها هى التى تروج للإشاعة ، حتى ينشغل الناس بشىء آخر غير الأزمات التى تحيط بهم من كل مكان ، وقالت حكمت :

ـ أصلهم حيغلوا الحاجة !

ولم تبد الفكرة مغرية لى ، رغم أننى معارض ، والمفروض أن أتحمس لفكرة مثل تلك ، فلست أظن أن الحكومة بلهاء حتى تروج لاشاعة مثل هذه ، تسبب لها مشاكل أمنية وعملية لا حد لها ، وقبل الافطار بقليل ، عاد شقيق زوجتى من الخارج وفى يده بطيختين دفع فيهما عشرة جنيهات ، وعرض مغر من أحد أصدقائه ، بأن يبيع لنا قطعاً ممتازة من لحم الجمعيات بزيادة جنيه ونصف جنيه فقط فى الكيلو ، وحين ذبحنا البطيخة ثبت أنها اشاعة كاذبة كأطفال الكنز ، ذلك أنها لم تشر دماً ، واتضح ، أنها كالسابقات ينقصها بعض الملح ليكون حدقها مضبوطاً ، وثار عاصم وخرج دون أن يفطر مصطحباً بطيختيه ليؤذب

الفكهانى الكاذب ، الذى تفوض معه هامساً وكأنهما « يتآمران » لخطف طفل وليس لبيع بطيخة ، واستدرجه إلى مكان يبعد عن دكانه حوالى ربع كيلو ، لكى يسلمه « البضاعة » التى ثبت بعد ذلك أنها مغشوشة !

وهكذا فاتت الحلقة الأخيرة من مسلسل « عطفة خوخة » عاصم لأنه كان مشغولاً « بعطفة بطيخة »، فلم يعرف أن عبد الباقى هو عبد الناصر ، وأن فوزى هو مراكز القوى ، وأن حسن المحبوس على امتداد ١٥ حلقة هو الشعب ، وأن سمير هو أنور السادات الذى سلم الأمانة للشعب ، فيا سلام سلم على الحيطة التى تتكلم .

وقالت زوجة شقيقى أنها سمعت أحد زملائها فى المكتب ، يعلن أنه ليس فى حاجة إلى العلاوة لأن الارتفاع فى الأسعار قد التهم اضعافها قبل أن تأتى ، وبعد أن أمسك ورقة وقلماً ، وحسب الزيادة فى أسعار السلع ـ وكمية ما تستهلكه أسرته منها كل شهر اكتشف أنه فى حاجة إلى عشرين علاوة فطوى ورقة الحساب ، وبدأ يروى لها قصة العصابة التى تذبح الأطفال !

وهكذا بدت لى قصة العصابة والكنز ، نوعاً من الاثارة المفتعلة ، لجأ إليها الناس ليفروا من واقع أصبحت تعاسته لا معقولاً ، ومنذ شهور فقط ، وحين تفجرت قضية عصمت السادات كان هناك جو من الإهتمام الصحى بالأشياء ، وكان الناس يجدون ما يهتمون به وله ، وتصاعد وعيهم السياسى إلى الذروة ، وهم يكتشفون ما مضى ، ويحكمون عليه وقد شملتهم رجفة سرور، وعابثتهم آمال وأحلام فى أن عهداً جديداً بدأ لكن رابطة صناع الطغاة ، تجمعت بسرعة ، وهاجمت بعنف ، فأغلق ملف الفساد ، وأغلق ملف الأمل ، وعادت الحياة تسير رتيبة ، وبدت كل

الطرق للانعتاق مما نحن فيه مسدودة ، لهذا أصبح الواقع لا معقولاً ، فالبطيخ ينقصه الملح ، والتجار يمارسون حق الاضراب عن بيعه فى حماية الدولة ، وأنور السادات سلم الشعب الأمانة كما قال الخوخ الذى فى العطفة ، أو العطفة التى هى داخل الخوخ ، والعلاوة اصبحت تخفيضاً فى المرتبات ، والذباب يملأ شاشات التليفزيون بلونه الأسود الجميل ، والكاذبون ينعقون كل صباح فى صحف الحكومة بأن كل شىء على ما يرام،وبأن الخطر الرئيسى على مصر هم عصابة المعارضة ، وليس عصابة اخفاء البطيخ ورفع اسعار الخضروات ونهب سلع المجمعات ، وأكل لحوم الناس وهم احياء ، وتربية الذباب فى رعاية الدولة ، وتنمية القمامة فى شوارع العاصمة ، ويملكون ـ مع ذلك ـ وقاحة الحديث عن الشرف وعن الوطن وعن الشعب !

لكن الناس الذين دوخوا الطغاة والغزاة والولاة اكتشفوا العصابة الحقيقية التى تتآمر لتذبح حاضر الوطن ، ولتذبح أيضاً أطفاله ، أى مستقبله ، فألفوا قصة وتداولوها ، لأنهم وجدوها أقرب إلى الإثارة من ذلك الملل واليأس والموت الذى يحيط بهم .

صحيح أنها قصة تتضمن مزالق خطيرة ، وخاصة إذا أضاف إليها مشعوذ أو مجنون أو مغرض أو مأجور ، سمات طائفية ، ولكن الناس آنذاك لن يكونوامسؤولين ، فالمسؤولون الأول، هم الذين سدوا ويسدون طريق الأمل فى التغيير الحقيقى والجذرى لسياسات اجاعت الناس وتجيعهم ، ويحيلون حياتهم إلى شىء يبدو عبثياً ولا معقولاً وطالما أن البقرة قد طلعت إلى قمة الشجرة ، والضفدعة ما تزال تشيل المركب ، فإن الخطر قادم !

فهل يسمع « العصبجية » هذا التحذير القادم من قلب الناس المتخم بأحزان لا توصف !

(*) « الأهالى » ـ العدد ٩٠ ـ فى ٢٩ يونيو ١٩٨٣ .

تعظيم سلام للوطن الذى أنجبك ..

كان شحاتة أفندى أحد الذين يدرسون لي وأنا تلميذ فى المرحلة الابتدائية ، وكان غاضباً دائماً ، ومتعضاً دائماً ، تتشكل ملامح وجهه - الذى يتوسطه شارب هتلرى يبالغ فى العناية به - فى حالة من القرف المستمر ، ربما لأنه - كمعظم مدرسى المرحلة الأولى آنذاك - كان مكدوداً بمرتب ضيئل وأسرة كبيرة وأحلام محبطة !

وحين كان يضيق بازدحام الفصل ، وبصخبنا وضجيجنا وعدم استيعابنا للدروس ، كان يغلق الكتاب ويمسح السبورة ، ليلقى علينا محاضرة كاملة ، يتحدث فيها بصراحة مؤلمة عن رأيه فينا وفى أهالينا ، وفى « البيئة الواطية » التى تربينا فى ظلها ، ثم يطلب من المخطىء أو المقصر ، أن يفتح يده ، ليتلقى ضربات مسطرته الحادة ، التى كان يسميها بالحاجة مبروكة ، فيجاب عادة بكلمات كانت ذائعة آنذاك على ألسنة تلاميذ المدارس ، يكررونها في آلية ودون فهم حقيقى ، خلاصتها أن الضرب فى المدارس ممنوع طبقاً للمادة ٨٨ من قانون لم نكن نعرف

رقمه أو اسمه ، بل لم نكن متأكدين أنه قد صدر حقاً !

وكانت تلك هى اللحظة التى ينتقل فيها شحاتة افندى من القرف والسخط ، إلى الغضب العنيف ، آنذاك ، كان ينهال هجوماً على « طه حسين » الذى لولاه لما أتيح لأولاد العربجية والغسالات أمثالنا أن يدخلوا المدارس ، بدلاً من أن يجمعوا السبارس - أى أعقاب السجائر - من الطرقات ، وهو العمل الوحيد الذى يليق بهم .

ومع أن أمى لم تكن غسالة ولم يكن أبى عربجياً إلاَّ أننى لم أتعاطف أبداً مع شحاتة أفندى وعلى عكس ما أراد ، فقد لفتت كلماته نظرى لطه حسين ، وكان أيامها وزيراً للمعارف فتابعت أنباءه وصوره فى الصحف والمجلات ، وسمعته يتحدث فى الاذاعة ، واجتذبتنى شخصيته الغريبة ، فدخلت فى عالمه الرحيب اقرأه - وأقرأ عنه - كتباً ومقالات وتاريخ . . وحين مات بعد ذلك باكثر من عشرين عاماً - فى ٢٨ اكتوبر ١٩٧٣ - شعرت أن يداً جلفة قد اقتحمت صدرى لتحفر فى القلب ندوباً لا تلتئم . . وإذن فقد مات طه حسين : طالب الأزهر المشاغب وأول دكتوراة من الجامعة المصرية القديمة . . . السوربون والحى اللاتينى . . . « الشعر الجاهلى » و « على هامش السيرة » و « الأيام » و « الفتنة الكبرى » ألمع وأخصب دراساته فى التاريخ الإسلامى . كلماته التى لا تنسى ومواقفه التى تبعث الحماس فى القلب مهما شاخ وفى العقل مهما فقد توجهه : العلم كالماء والهواء . . والحمد لله الذى خلقنى اعمى لكى لا أرى قبح وجوهكم ، واهدائه الموجز والمعجز لكتابة « المعذبون فى الأرض » [إلى الذين يؤرقهم الشوق إلى العدل وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل . وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون ، والذين لا يجدون ما ينفقون] .

ويوم اختاره « مصطفى النحاس » وزيراً فى حكومة الوفد الأخيرة ، اعترضت السراى، وقال الملك فاروق لرئيس ديوانه « حسين سرى » الذى كان يعرض عليه الترشيحات :

- « طه حسين » ؟! . . دا راجل افكاره يسارية .

ولكن « النحاس » تمسك به ، وقال : دا أهم واحد . . أنا مستعد اتنازل على الجميع إلاَّ طه حسين !

ووافق الملك بعد أن كاد الموضوع يتحول إلى أزمة ، وأصبح « طه حسين » ابن قبانى شركة السكر بنجع حمادى وزيراً وباشا ، ففتحت المدارس أبوابها لأولاد الغسالات وأبناء العربجية ، وفيما بعد قال « عبد الناصر » - ابن وكيل مكتب بريد الخطاطبة - أن الفقر كان ارثاً والعلم كان ارثاً ، وكذلك كانت الصحة وكان المرض ، وبنى « كمال الدين حسين » مدرستين كل ثلاثة أيام ، فكم من ابناء الغسالات إستنشق هواء العلم وشرب مائه ، وسار خلف نعش « طه حسين » بروب الجامعة ، يحمل شهاداته ، بدلاً من أن يحمل كوزاً ليجمع فيه أعقاب لفائف المشيعين .

وحين قرأت « الأيام » بأجزائها الثلاثة ، مرات ، حتى كدت أحفظها ، ثم الكتاب العذب الجميل الذى كتبته عن « طه حسين » - بعد وفاته - زوجته « سوزان » تذكرت صديق طفولتى « قطب سليمان الحنفى » ، احتل وجهه الصفحات : مطاردة الزنابير وصيد النحل وجمع الصمغ والجميز والتوت وسرقة البلح والاستحمام فى الترعة ، وشى الذرة على رأس الغيط ، لم تكن الدنيا قد اسفرت بعد عن وجهها القمىء . ولأن أبى كان افندياً ومستوظفاً فقد رحلت ذات صباح إلى القاهرة ، وآن لصداقتنا أن تنتهى . ظل قطب فى القرية يساعد أباه ، وكان نجار قريتنا

الوحيد ، فى اصلاح الطبالى وصنع النوارج والطنابير والسواقى ، وفيما بعد ، أدركت بأسى ، وعبر لقاءاتنا المتباعدة ، حين أعود إلى القرية ، أننا اصبحنا ننتمى لعالمين مختلفين ، ظل قطب أمياً ، لا يفرق بين الألف وكوز الذرة ، أما أنا ، فقد بدأت أرطن بالانجليزية ، التى كان شحاتة أفندى يعلمنا إياها . وكنت أحلم دائماً بأن يحتل قطب مكاناً بجوارى على نفس « القمطر» ، ولكنى لم أجهر بهذا الحلم أبداً ، إذ لوفعلت ، لغضب شحاتة افندى ، لأننى اضفت إلى المدرسة ، شراً جديداً هو أولاد النجارين !

وقد دهمنى خبر وفاة طه حسين منذ عشر سنوات بالضبط ، كنا قلقين وخائفين ، إذ كانت ثغرة الدفرسوار تمر فى يومها الثانى عشر ، ومصير رجفة الفرح التى لم يشعر القلب بمثلها أبداً ـ وما أظنه سيشعر ـ بما حدث فى ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، بتأرجح بين مرارة الواقع الذى كنا ـ بحكم وجودنا فى مطابخ الصحف ـ أكثر علماً به من غيرنا ، وحلاوة الفرحة الوحيدة التى كان قلب جيلنا المملوء تعاسة واحباطاً ، تواقاً للاحتفاظ بها دون عكارة من حزن ، لذلك بكيت فى جنازته التى امتلأت بسواد الأرواب الجامعية ، ولم أميز ساعتها بين أسباب حزنى المتعددة ، ولم أعرف بالضبط هل أبكى الرجل ، أم أرثى الفرحة الوحيدة فى عمر الحزن .

لكنى أدركت فيما بعد ، حين جمعت كتبه ومقالاته وما كتب عنه ، فأعدت قراءتها جميعاً فى نفس واحد ، وكأننى اقرأ ذكرياتى معه ، أن « طه حسين » لم يكن فرداً عبقرياً ، بل كان وطناً عبقرياً ، وأن قصته ليست قصة الأعمى الفقير ، ابن القبانى الفقير المثقل بالأعباء والأبناء والمحاط بالجهل والخرافة ، والذى لم تكن ظروفه تؤهله إلاَّ لشىء واحد

هو أن يقرأ القرآن فى المنادر ، وعلى المقابر ، ليعود ببعض الفطائر وشيئاً من البلح وقد يجد وجبة من اللحم والثريد ، ورغم كل ذلك ، استطاع أن يخترق السدود والقيود ، وأن ينطلق من عزبة الكيلو إلى ابهاء السوربون وقمم الألب وأن يفرض اسمه على الدنيا كلها ، بل هى ـ بالأساس ـ قصة وطن كان مقدراً له أن يظل تابعاً وملتحقاً وبلا ذكر ، وقصة شعب كان الأعداء ـ يوم ولد طه حسين ـ يحيطون به من كل جانب :

هزم الفارس الشجاع أحمد عرابى . . هزمه أو كسره « الولس » كما قيل بعدها فى الأمثال ، وفى التل الكبير كانت جماجم الذين ماتوا من أجل الحرية والعدل والاستقلال جبالاً ، وفى المنفى يعيش أبطال الثورة ، وقد خبا كل شىء ، ولم تعد ثمة أحلام ، لكن هناك فقط درس قاس لمن يفكر فى التمرد على بريطانيا العظمى وفرنسا العظمى ،ورأى دولة عظمى وهناك « الولس» الذى كسر عرابى يملأ الوطن ، ويحكم ويكتب فى الصحف . جيش احتلال انجليزى وبوليس مصرى بضباط من كل ملة و ١٥ دولة أوروبية ، صاحبة امتيازات جعلت كل خواجة صعلوك أعلى مقاماً من صاحب السمو الخديو ، فقر وجوع وبلهارسيا وانكلستوما وبلاجرا وقراع وكوليرا وطاعون وفقر دم وفقر مال . ويتبرع الوجيه مصطفى أفندى الغمراوى بخمسمائة جنيه لتكون فاتحة إكتتاب « أهلى » لانشاء أول مدرسة كلية ـ أى جامعة ـ فى مصر ، اشترط شرطاً غريباً ، هو أن تكون لها حديقة مزروعة بالزهور ، فيصرخ الاستعمارى القارح اللورد كرومر : ما حاجتكم لجامعة . . تكفيكم الكتاتيب . بالكتاتيب وحدها ، يستطيع كرومر أن يحكم مصر ـ كما قال مرة ـ بخمسين جندياً فقط ، لتظل جزءاً من الامبراطورية التى لم تكن الشمس تغيب عنها آنذاك ، ويحق له أن يفخر ، كما فعل ، بأنه لم يسمح لأية مومس انجليزية بأن تعمل فى

مصـر ، صيانـة للجسد الأوروبي الممتـاز ، أن تبتذلـه « أشياء » تحمـل الجنسية المصرية ، أما اجساد نسائنا فكانت مباحة لهم ، كـذلك كـانت أعمارنا ، ويادنشواى التى ذهبت بأنس ربوعك الأيام ، على ربوعك سلام !

بكل الحسابات ، حتى بالكمبيوتر الذى لم يكن قد اخترع بعد ، لم يكن الوطن مؤهلاً إلاّ ليكون متسولاً يشحذ من غزاته ويعيش فى كنفهم ، لا يـرفع فى وجـوههم الحمراء المتـوهجة بـالصحـة ، بصـره المكفـوف بالحاجة والذل ، وطن مهزوم وضرير وعاجز ومنكمش على ذاتـه ، لكن تحت تـلال الجماجم التى تـركها عـرابى فى التل الكبيـر ، كانت هنـاك جمجمة لم يقتلها «الولس»، هى رأس الوطن ، روحه التى لا تشيخ . . وقلبه الذى لا يموت !

أهى صدفة أن طه حسين الضرير العاجز ، حصل على الدكتوراة فى اليوم نفسه ، الـذى رزق فيه عبـد النـاصـر افندى حسين ، مـوظف بريـد الاسكندرية ، بابنه جمال ، وقبل عشـرة أشهر من اليـوم الذى ذهب فيـه سعد زغلول ، ابن الشيخ ابراهيم زغلول ، إلى المعتمد البريطانى ليطالبه بالجلاء عن مصر !!

أهى صـدفة ، أن طـه حسين كان يغـالب بصره المكفـوف ، ليقـرأ خرائط الجغرافيـا ويتعلم اللاتينيـة ، ويضيف إلى الدكتـوراة التى بعث ليتعلمها ، اخرى لم يطلبها أحد منه ، فى الوقت نفسه ـ مارس ١٩١٩ ـ الذى كان الوطن فيه ينتفض من اقصاه إلى أقصاه ، بعزبه وقراه ، بمدنه وشوارعه ، بأفندية وباشاواته ، بأبناء الغسالات وأحفاد العربجية بصانعى القبـاقيب وكوائى الـطرابيش ومجاوري الأزهـر : عجـزة كـانـوا ، وكـانـوا مكفوفين بالفقر والجوع والرمد الحبيبى والرمد الصديدى لكنهم واجهـوا جيش بريطانيا العظمى التى لا تغيب عنهـا الشمس ، المدجج بالبنـادق

والمدافع والبارود، وآخر تكنولوجيا ذلك العصر ، بمجرد عجزهم ، بلحمهم الحى وحده ، لم يرهبهم تل الجماجم فى التل الكبير هتفوا بالاستقلال التام ، ونال بعضهم الموت الزؤام ، ومع ذلك واصل الآخرون !

لم تكن صدفة . .

ذلك أن طه حسين لم يكن مجرد فرد عبقرى ، لكنه كان نزوع أمة لرفض العجز واحتجاج وطن عليه ، وثورة شعب ضده ، كان يقيناً لا يتزعزع ، بأن الحياة لا تستحق أن تعاش ، إلاَّ فى مثلها الأعلى فى رفعته وعلوه وسموق هامته قوية وعزيزة وكريمة ، ويلا كف للبصيرة :

وحين آن لثغرة الدفرسوار أن تعطى أكلها بعد ست سنوات من وفاة طه حسين ، نصبب « حكومة كامب ديفيد » - فى عام ١٩٧٩ - سيركاً للاحتفال بمولد طه حسين . تزعمته سيدة مصر الأولى ، باعتبار ما كان ، وما لن يكون ثانية ، فلم تكن صدفة أنهم استعاروا جثة الرجل ، ليزعموا أنها تؤيد كامب ديفيد ، وفاتهم أنه كان رمزاً للتمرد على العجز والخوف ، وصرخة ضدهما ، وعنواناً لفتوة وطن وصلابة شعب مرغوا جثث شهدائه فى تراب الولس ، لذلك ضن الرجل عليهم وهو ميت بتأييده ، كما ضن عليهم به وهو حى ، هو الذى عاش ضد الانسحاق والعجز والتبعية ، رغم كل ما أحدثوه من ضجيج فكفوا عن الاحتفال بذكراه من يومها ، فلا تنسوا أن الذين ملأوا الدنيا ضجيجاً بذكرى داود حسنى قد اهملوا طه حسين ! ولا تنسوا أن الذين اكرموا الراقصات وخلدوا مناضلات الفتح فى شارع كلوت بك قد ازدروا طه حسين !

بيان غير عسكرى :

يا طلاب المدارس وباعة اللبن الحليب ، يا عمال الكومبانية ويا أبناء

الغسالات ونسل العربجية ، يا من تمرحون في جامعة بحديقة وزهور ، يا بنات المشغل ، يا كتاب يا شعراء يا صحفيين ، يا جيلي المتخم حزناً والممتلىء احباطاً والذى شاخ قبل الأوان ، ومات احتجاجاً وهو يسير على قدميه ، يا مغنين يا ممثلين ويا مُتفنّنين ، يا سادتي في المصانع والمزارع . . . يا مهاجرين . . . يا ضباط . . . يا جنود . . يا عبد الناصر ويا عبد المنعم رياض يا مصطفى النحاس ويا حسن البنا ، يا زكى مراد يا اسماعيل المهدوى ، يا أهل قريتى بشلا مركز ميت غمر دقهلية ، يا أهلنا فى يافا وفى حيفا وفى دير ياسين . يا قدس يا فلسطين يا بيروت . يا قطب سليمان الحنفى : يا أيها المؤرقون شوقاً للعدل ويا من لا تجدون ما تنفقون .

ـ أبونا طه حسين مات فى مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات ، اذكروا هذا لأن التليفزيون نسى ، وصحف الحكومة نست ، أنهم قد نسوا أبانا . . أما تقرأونهم فى صحفهم يتوجعون لأن التعليم أفسد الدنيا فلم يبق في البلد خادمة أو غسالة أو جامع أعقاب سجائر بعد أن تعلم أبناء الغسالات والعربجية ! لا تبكوا أبانا المنسى ، تذكروا فقط أنه كان رمزاً لتحديكم ، ولا يهولنكم ما يتحدثون به ، ولا تخيفنكم الفزّاعات التى يشهرونها فى وجوهكم . وفى هذا الصباح قفوا حيث انتم فى مدارسكم ومصانعكم ومكاتبكم ، ارفعوا الرءوس ، اضربوا تعظيم سلام لعلم الوطن الذى لم يعجز أبداً ولم تكف بصيرته يوماً !

فى الذكرى العاشرة لموتك يا أبى . . انحنى على تراب الوطن الذى انجبك . . أقبله وأبكى !

(*) « الأهالى » ـ العدد ١٠٧ فى ٢ نوفمبر ١٩٨٣ .

شربة عورشوان

عملت فى الريف المصرى خمس سنوات ، كانت من أجمل سنوات عمرى ، وخلال تلك السنوات ، جبت معظم قرى محافظة القيلوبية ، وامتدت اقامتى فى بعضها شهوراً جاوزت العام ، بينما لم تستمر فى أخرى ، سوى اسابيع ، وأتاح لى هذا أن أرى فى مقتبل شبابى ما طرأ من تغيير على كثير من النماذج البشرية التى يزدحم بها الريف والتى رأيتها قبل ذلك فى قريتى وأنا طفل .

ولأننى كنت أقيم فى القاهرة . . وأسافر منها كل صباح إلى القرى التى أعمل فيها ، فقد أصبحت المواصلات التى تربط بين الاثنين ، جزءاً من عالمى ، وفيها رأيت نماذج غريبة من البشر ، تحتال لأكل عيشها بوسائل تخاطب فى الناس عواطفهم البشرية أو الدينية ، أو ما تظنه سذاجة فيهم ، بحكم أن معظم الذين يستخدمون « الخط » فلاحون ، فيهم من الطيبة والبراءة ، ما يغرى « أولاد السوق » هؤلاء ، بالضحك عليهم ،

وانتزاع قروشهم القليلة ، نظير سلع بائرة أو لا قيمة لها ، وبأسعار تـزيد على أسعارها الحقيقية !

كـان هؤلاء ـ كغيرهم ـ طـابوراً من العـارقين ، الذين يجهـدون فى معركة الحياة ، ويقضون اليوم بطوله ، ينتقلون من قطار إلى آخـر ، ومن أتوبيس إلى غيره ، يحملون قففاً ومقاطف وجرادل وسلالاً ، تزدحم بسلع متعددة : مصاحف وأدعيـة وأحجبة تحمى من العين وتـرد شر الحسـد ، وبخور وعطور شعبية زاعقة الرائحة ، وحبوب نعناع فيها من الدقيق اكثر مما فيها من السكر ، وأدوية ومقويات ومراهم ودهونـات تشد العصب ، وأحيـاناً يـوسفى وبرتقـال ولارنج . صبيـة صغـار وفتيـان ونسـاء ورجـال نـاضجون وكهـول وشيوخ ، أحنت الأيـام ظهورهم يـرتدون كـرنفالاً من الأزياء : جلابيب وزعـابيط وفانـلات وسترات ومعـاطف كاكيـة اللون . خاضت غمار حرب ما ، لعلها الحرب العالمية الثانية ، وينتعلون أحذية بلا جوارب ، غمـرت فى الطين وسـارت فى الشمس حتى أصبحت بلا لون ، وكل ما فيهم يمتلىء بالرقع وبالبقع : ملابسهم والمقاطف والسلال والمخـالى التى يبيعون فيهـا سلعهم ، وحتى وجوههم وأيـديهم ونظرات عيونهم ، حفرت فيها الأيام والليالى أخاديد وتركت فيها آثاراً .

ومع أننى كنت أشغل نفسى فى أوقات السفر اليومى التى تمتد أحياناً إلى أكثر من ثلاث ساعات ، بالقراءة ، إلاَّ أن مغامرات « أولاد السوق » هؤلاء مع الفلاحين ، كانت تشغفنى دائماً ، فكنت أتابع باهتمام وسائلهم فى الدعاية لبضاعتهم التى كانت رديئة فى الغالب الأعم ، وهى دعاية تبدأ عـادة بخطبـة منبريـة جهيرة مـزودة بآيـات من القرآن الكـريم والأحاديث

النبوية ، وحكايات منسوبة للفقهاء أو الأئمة أو السلف الصالح ، يتلوها قائلها دون اهتمام بصحة الالقاء ، أو سند الحديث ، ثم يربط بشكل واضح التعسف بين آيات القرآن وأحاديث الرسول ومأثورات السلف الصالح ، وبين ما يبيع ، بينما الفلاحون يتابعون القاءه باهتمام ، ويصلون ـ بناء على طلبه ـ على النبى الذى أجار غزاله البر لما استجارت به ، ويصدقون الله العظيم . الذى خلق المرض ، وخلق الدواء ، وجعل العسل للناس شفاء ، وسقانا شراباً طهوراً ، ويزيدون النبى صلاة وتسليماً، ويزيدون الله تصديقاً وتعظيماً ، ويمصمصون بشفاه-شققها البرد ونقص التغذية ، وهم صامدون أمام الحاح البائع ، ويمر وقت طويل ، قبل أن يتهور واحد منهم ، فيخرج محفظته الضخمة ويفرد طياتها المتعددة ، قبل أن تعود أصابعه بقروش صدئة ، يحصيها ويعيد احصائها مرات ، ثم يدفعها متردداً للبائع ويشترى البضاعة .

كان الأمر بالنسبة لى لعبة تدور بين فريقين ينتميان لنفس العالم الذى أحبه وأتعاطف معه : طاقم الشغالة الذى يجهد طوال اليوم لكي لا يبيت بمعدة فارغة . كل ما هناك أن البائعين « أولاد سوق » جاءوا غالباً من مدن صغيرة ، أكثر تنوراً من القرى ، أو قرويين ، عاشوا حياة جعلتهم أكثر « لحلحة » ، وجعلت لسانهم ذرباً أكثر من الآخرين ، ولديهم خبرة فطرية بما يؤثر فى مشاعر زبائنهم ، وبما يثير عواطفهم وتقدير لسذاجتهم أو طيبتهم ، يستخدمونه كأمهر خبراء الدعاية والإعلام ، فى تصريف بضائعهم الكاسدة ، وتحويلها إلى ملاليم وقروش ، تقيهم وأولادهم عذاب المبيت على الطوى . . وكنت أقول لنفسى :

ـ أين أولاد السوق المساكين هؤلاء ، من حيتان الأسواق فى المدن الكبيرة والمعمورة . . ؟

وربما لهذا السبب لم أنتم لأحد من طرفى اللعبة التى أشاهدها كل يـوم . ظللت أتابعهـا فقط ، باستمتـاع ، أنبت نفسى عليه كثيـراً ، لكن عزائى ، أنه لم يفقدونى لحظة تعاطفى مع طاقم الشغالة المصرى ، الذى يصنع كل ما فى الوطن من بهجة ، ولا يستمتع بلحظة هنـاء ، أو فـرصة شبع !

وحين كـان « عم محمود » يصعـد إلى القـطار أو الأتـوبيس ، كنت أخفى وجهى فيما أقرأه ، لكى أتأمله دون أن يرانى ، فقد كنت حريصـاً على أن أتأكد بأن هؤلاء « العم محمودات » أشخاص بذواتهم ، وليسـوا مهنة يمكن تسميتها بمهنة « العم محمودات » فهم جميعاً متشابهـون فى الشكل ، وفى الزى : قامة طويلة ، كل ما فيها نحيل ، وملامح ممصوصة تشى بسوء التغذية ، وجلباب من الزفير أو الكستور المقلم بأقلام كان لها ذات يوم لوناً ، ومعطف أو جاكتة مبرقشة بالرقع والرتوق ، وحذاء قديم بلا رباط ولا جوارب ، ومهنة واحدة يمارسونها جميعاً ، وهى بيع شربـة عم محمـود ، التى تقضى على ما فى الأمعـاء من دود ، وأسلوب واحـد فى الدعاية ، هدفه إقناع هؤلاء الفلاحين الفقراء والمرضى والمنهكين ، بأن شربة عم محمود ، هى التى تقضى على الدود وليس أى شربة أخرى!

وكـان ما يبيعـونـه ـ على الأرجـح ـ نـوعـاً من الأدويـة التى تعـالـج الـطفيليات ـ ومـا أكثر العـذاب الذى لاقـاه ويلاقيـه المصريـون من هذه الطفيليات ـ تصنعه ـ فى الغالب ـ مصانع أدوية صغيرة تخـرج عن رقابـة وزارة الصحة ولذلك تعتمد عليهم فى توزيع انتاجها ، وقد يكون مجـرد وصفـة بلديـة يـركبهـا بعض العـطارين ، ويسـرح بهـا هؤلاء « العم محمـودات » على الفـلاحين فى قـراهـم ، أو يقتحمـون عليهم عـربـات

الدرجة الثالثة فى القطار القشاش ، الذى يسير ببطء سلحفاة ، ويتوقف كل خمسة كيلومترات ، ويضم نماذج غريبة من البشر ، ربما كنت أنا نفسى واحداً منهم .

وقد خيل لى لفترة أن جميع « العم محمودات » قد تخرجوا فى كلية واحدة للإعلام والدعاية ، لا لتشابه أسلوب دعايتهم فحسب ، بل لذلك التوقيت المحكم الذى يختارونه لبدء عملهم ، فهم ينتظرون حتى يغادر القطار أو الأتوبيس المحطات الرئيسية ويهدأ ركاب الترسو ، وتنفصل الحدود بين القفف والبشر ، ويجد كل راكب لنفسه مكاناً ينحشر فيه ، وتغيب ملامح المدن ، ويختفى زحام شوارعها ، فيضمنون بذلك الاستيلاء على آذان الركاب ، واهتمامهم ، آنذاك ، يقف عم محمود ، فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويبسمل باسم الله الرحمن الرحيم ، ويصلى على رسوله آخر المرسلين ، وخير خلقه أجمعين ، وهو استهلال يقوله « عم محمود » عادة ببطء ، وبصوت منغم وجهورى ، يتغلب به على ضجيج موتور الأتوبيس ، أو وقع عجلات القطار ، ويجبر به المستمعين على الصمت ، لينتقل من هذا الاستهلال الفصيح ، إلى الحديث بالعامية المصرية ، ليملك ، بعد الأذان ، افهام سامعيه . . ويقول :

ـ اسمع يا مؤمن ، ربونا ـ وهذا هو النطق العم محمودى لكلمة ربنا ـ عزَّ وجلَّ ، زى ما خلق الداء ، خلق الدواء ، وعشان كده بيقول فى كتابه العزيز : ﴿ ولقد خلقنا لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها . . وجعلنا بينكم . . وبينهم مودة ورحمة ﴾ . صدق الله العظيم . وبيقول كمان . بيقول إيه ؟ اسمعنى يا مؤمن ياللى هناك . لأن ربونا (أى ربنا) بيقول : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا ﴾ .

وعلى هذه الوتيرة ، يمضى عم محمود ، فالآيات التى يختارها من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، لا تتعلق بالموضوع الذى يتحدث عنه ، ولا تصلح للاستشهاد بها لتأكيده ، لكنه يفيض فى استخدامها ، فتزداد مصمصة الفلاحين بشفاههم ، وترتفع بسملاتهم وصلواتهم وتسليماتهم حتى يجىء الوقت الملائم الذى يدخل فيه عم محمود فى الموضوع ، فيقول :

ـ قال لك إيه . . قال ايه : شربة الدود . . تنزل الدود ، تروح الأجزخانة يا مؤمن ، الأجزجى يديك الشربة . بكام ؟ بعشرة صاغ . توجع مصارينك يا مؤمن بحتة بعشرة وتنضر ، لأن جسم البنى آدم يا حضرات فيه ٢٣ نوع من الدود ، وشاءت حكمة ربونا ، أن فيه دود مضر ، ودود نافع ، وشربة الأجزجى ، بتقضى على الاثنين فتضرك ، لكن شربة عم محمود تموت الدود المضر وتغذى الدود النافع ، بعون الله ، وببركة نبيه عليه الصلاة والسلام . .

ما أدهشنى آنذاك ، أن كثيراً من رجال الدين الذين لم يكن « القشاش » يخلو عادة من أحدهم نادراً ما كانوا يعترضون على اللحن فى آيات القرآن الكريم ، أو الخطأ فى رواية الأحاديث ، فإذا فعلوا ذلك فعلوه بهدوء ، ودون عصبية ، وما زلت أذكر شيخاً ، لعله مأذون أو إمام جامع ، كان يجلس إلى جوارى ، ويعلق على كل آية أو حديث يسوقه أحد « العم محمودات » بطقطقة عنيفة من لسانه يتبعها بتصحيح هامس للنص لا يسمعه سواى وتوقعت أن يفقد الرجل أعصابه فى لحظة ، فيقضى بكلمة واحدة على نصف ساعة من المجهود الدعائى المكثف ، بذله عم محمود ، حتى نفرت عروق رقبته ، وسال عرقه غزيراً ـ كالمطر الذى كان رذاذه يقتحم علينا عربة القشاش وكانت بلا نوافذ ـ وأوشك أن

يجنى ثماره ، فالفلاحون قد أصبحوا الآن منومين تماماً ، وقد فتحوا أفواههم ، وهم يتابعون سيلاً من الآيات والأحاديث ، تلاها عم محمود . واستنتج منها أن عدم شرائهم لشربته سينتهى بدخولهم النار ، وجارى الشيخ يطقطق بلسانه ، ولكنه لم يفتح فمه ، حتى أنهى عم محمود اعلانه ، وانتهى من البيع ، فناداه إليه ، وقال له بصوت هامس أنه أخطأ فى تلاوة الآيات والأحاديث ، وعليه أن يستغفر لخطئه ، ونصحه بلهجة ودودة ، أن يستخدم عبارة أن الله ـ أو الرسول ـ قال « ما معناه » ، لكى لا يقع فى الخطأ .

وكان وجه « عم محمود » المعذب والمكرمش كزيتونة جافة ، قريب منى آنذاك ولأول مرة ربما ، أدرك أن العم محمودات ، ليسوا ، نوعاً ، ولكنهم أفراد ، لكل واحد منهم سحنة ، وملامح تختلف عن الآخر ، ومن المؤكد أنهم جميعاً لا يحملون اسم « محمود » ، وفكرت أن أسأله عن اسمه أو بلده ، ولكنه كان يلهث بشدة ، اثر نصف ساعة من الصراخ المتواصل ، وحين ابتعد ليقف على باب القشاش المفتوح ، استعداداً للنزول فى المحطة القادمة ، ليأخذ القطار القادم من الاتجاه المعاكس نظر إلىّ جارى الشيخ وقال :

ـ غلبان . . بيسترزق !

فى تلك السنوات ـ بداية الستينيات ـ كان العم محمودات ، ينقرضون بسرعة مذهلة ، وكانت دعايتهم قد فقدت الجانب الأكبر من جاذبيتها ، فالتعليم قد انتشر ، والوحدات المجمعة والمراكز الاجتماعية والوحدات الصحية تملأ الريف ، والفلاحون يعلقون الترانزستور على قرن الجاموسة ويفضلون شربة الأجزجى على شربة عم محمود ويدركون أنه لا علاقة بين ما يسرده من آيات وما يبيعه من بضائع ، ولاحظت بأسى

.كبير ، تساقط معظمهم فى معركة الحياة ، وهم يواصلون الشقاء لانتزاع اللقمة من فم الأسد ، ربما لأن معظمهم لم يكن يتقن مهنة سوى تلك . . وغادرت أنا الريف إلى السجن، ولم أعد إلى وظيفتى فى القليوبية ولا إلى أى وظيفة أخرى ، ونسيت مما شهدته فى خط بنها طوال خمس سنوات ، بما فيها « العم محمودات » وشربتهم التى تستطيع وحدها أن تفرق بين الدود المفيد . . والدود الضار . .

وكان ممكناً أن أظل ناسياً ، وكان ممكناً إذا تذكرت ألا أكتب ، لكن واقعة حدثت فى الأسبوع الماضى ، حطمت جبال الجليد التى جمدت الذاكرة ، وطمرت أجمل ذكريات العمر ، رغم أنها لم تقع فى « القشاش » ، بل فى مجلس الشعب ، ورغم أن بطلها لم يكن عم محمود ، بل عم محمد رشوان وزير شؤون مجلسى الشعب والشورى ، ورغم أن شهودها لم يكونوا فلاحين سذجاً بل هم أعضاء فى مجلس الشعب ، وأقطاب فى الحزب الوطنى الديمقراطى الذى شاءت مقاديره ، أن يحكم بلداً صنع حضارة وصفها البروفسير توينبى ، بأنها لم تلد ولم تولد ، أى لم يسبقها مثيل ، ولم يتلها شبيه !

فى يوم الاثنين الأسبق ، كان المجلس يناقش مشروعاً بتعديل قانون المطبوعات ، يقضى بمنح مجلس الوزراء ، حق مصادرة كل صحيفة مصرية تنقل فى صفحاتها شيئاً يكون قد نشر فى الصحف الأجنبية التى يصدر من مجلس الوزراء قراراً بمنعها من الدخول إلى مصر ، ولم يكن الأمر فى حاجة إلى ذكاء كبير ، ليدرك الكل ، أنه قانون آخر من تلك القوانين التى تصدر خصيصاً من أجل واقعة معينة ، أو كاتب معين والتى ستدخل تاريخ القانون ، بأسماء الذين صدرت من أجلهم ، فكما أن

عندنا قانوناً اسمه قانون كمال الدين حسين ، صدر خصيصاً فى عام ١٩٧٧ ، ليمنع الذين فصلوا من عضوية مجلس الشعب من إعادة ترشيح أنفسهم فى الدورة نفسها ، فقد أصبح عندنا قانون اسمه « قانون هيكل » صدر خصيصاً فى الربيع الماضى ، على اثر نشر كتاب « محمد حسنين هيكل » « خريف الغضب » ، ليمنع الذين اطلعوا على شيء من وثائق الدولة ، أن يذيعوا محتواها أما التعديل الذى كان ينظر يوم الاثنين الماضى ، فنستطيع أن نسميه قانون « الأهالى » ، لأنها الجريدة المصرية الوحيدة التى نقلت عن الصحف العربية والأجنبية ، فصلاً يتيماً من كتاب « خريف الغضب » قبل أن تهدد بالمصادرة ، فتتوقف عن النشر ، والمعنى المباشر والصريح للقانون ، أن « الأهالى » ومثيلاتها من الصحف ، لا تستطيع أن تنقل عن صحف العالم الممنوعة كلياً ، أو الممنوع بعض أعدادها ، شيء يحظر وزير الاعلام ، دخوله إلى مصر ، أو اطلاع المصريين عليه . . سواء كان كتاب هيكل أو يوسف ادريس ، أو مذكرات محمد إبراهيم كامل . .

وكان مشروع القانون قد قدم فى عزّ الضجة التى اعقبت نشر كتاب هيكل ، مع قانون نشر الوثائق وهاجمته صحف المعارضة ، وهاجمه صحفيون كبار فى الصحف القومية ، ففضلت الحكومة تأجيل نظره ، حتى تهدأ الضجة ، ويسهل تمريره دون اعتراض ، وهو ما حدث فى الأسبوع الماضى ، دون أن نسمع صوت نقابة الصحفيين ، فمر القانون مع أنه يمس حرية الصحافة فى الصميم ، ودون أن ينشال المجلس الأعلى للصحافة وينحط ، كما فعل حين اجتمع ليدين هيكل ويوسف ادريس ، ودون أن يقول لنا أحد :

إلى متى يستمر ترزية القوانين فى البقاء على مقاعد الحكم ، ليصدروا فى عام واحد ، أربعة قوانين على أحدث الموضات ، واحداً للمحامين ، واثنان للصحفيين ورابعاً لانتخابات مجلس الشعب على مقاس وذوق الحزب الوطنى ، فمن ينقذنا من حيرتنا ويثبت لنا أن الليلة لا تشبه البارحة ؟

ولماذا تتطوع « سهير القلماوى » الأستاذة الجامعية الجليلة التى كانت موضع فخر استاذها طه حسين ، بأن تصبح - فى نهاية عمرها - تلميذة لفؤاد محيى الدين ورشوان ومختار هانى وما أشبه ، فيمر القانون من لجنة هى مقررتها ، وتنال شرف التوقيع على نصوص تكتم أنفاسنا ، وكأن ذلك هو ما تعلمته من « طه حسين » !

لم يقل لنا أحد ماذا نفعل إذا حملت الينا وكالات الأنباء ، كما تفعل كل صباح ، نبأ منقولاً عن كتاب أو صحيفة صدرت فى الخارج ، فنشرناه دون أن نعلم أنه محظور ، فهل نصادر آنذاك ؟

وماذا يفعل استاذ جامعى أو باحث أو مؤلف كتب ، إذا أراد أن يستشهد بفقرة من كتاب « هيكل » أو « يوسف ادريس » أو « محمد إبراهيم كامل » ، فى كتابه ولو بهدف التنديد بما كتبوا وتفنيد ما ذهبوا إليه . .

وإذا كنا لا نستطيع أن نسأل رشوان وهانى وفؤاد محيى الدين ، وما تنسل ، عن حرية البحث العلمى ، فهل نستطيع أن نسأل سهير القلماوى ؟!

وهل يتكرم السيد وزير الاعلام - الذى اناط به القانون تنفيذ بنوده - فيصدر لنا نشرة يومية باسماء الكتب والصحف ، وعناوين الأخبار واسماء

الكتاب الذين يكتبون فى أربعة أرجاء المعمورة ، الذين لا يجوز لنا النقل عنهم ، ويعلقها على أبواب الجامعات ودور البحث والصحف ونقابة الصحفيين ومديريات الأمن ومنزل سهير القلماوى ، حتى لا نقع فى المحظور ؟!

تلك اسئلة كنت أفكر فيها ، وأنا أقرأ ما دار فى مجلس الشعب اثناء مناقشة المشروع ، وأتابع المأزق الذى وقعت فيه الحكومة ، حين فوجئت باثنين من نوابها هما حسن حافظ ومحمد السودانى ، يعارضان فيه ، ويطالبان بدعم الديمقراطية والحرية ، ويقولان : كفاية قوانين استثنائية ، وينبهان زملاءهما ، إلى أن القانون يسىء لحزب الأغلبية ، ولنوابه الذين أصدروا من القوانين والتقاليع خلال السنوات الخمس التى توشك أن تنقضى ما سيكون فصلاً هزلياً فى تاريخ القانون منذ عصر حمورابى . وقال ممتاز نصار صراحة أن القانون صدر لمواجهة حالة خاصة هى كتاب خريف الغضب ، وقال فكرى الجزار : ان القانون يسد كل منفذ لضوء الحرية ويتناقض مع ما يعلنه الرئيس وتعلنه الحكومة من أننا نعيش أحلى أيام الديمقراطية . .

تابعت المناقشة بشغف وتمنيت لو أنى شهدتها لأسمع مبارزة قانونية ودستورية تليق بمجلس تشريعى ، يمثل شعباً يبلغ عمر حضارته سبعة آلاف عام ، ويضم أفضل « عقول » الأمة ، وأعظم خبراتها وتتبختر أمامه أحدث سيارات العالم ، وأشيك خنزيراته ، خاصة أن فتاوى الوزير « مختار هانى » المعروفة التى كررها فى الجلسة فى محاولة لتمرير القانون ، بدت تافهة ، وغير مقنعة ، ووصلت المناقشة إلى لحظة الثورة ، وبدا أن الحكومة محرجة وهنا تقدم الوزير « محمد رشوان » لينقذ

الحكومة بذكائه ، ومهارته النيابية ، وحججه المقنعة ، والمفحمة ، فوقف ليقول بالنص ـ والعهدة على الأهرام :

ـ هذا القانون لمواجهة ظاهرة نشر مصاحف مزورة ، تأتى من الخارج . فهل نترك الأمر على عواهنه للنيل من أغلى مقدساتنا وهو القرآن الكريم ؟ . إن القانون يحترم الرأى الحر ويحمى فكر المجتمع وعقيدته الدينية حتى لا تمتد إليها يد عابثة !

ولأنى أعلم ، كما يعلم الوزير رشوان ، وكما تعلم الحكومة ، وكما يعلم أعضاء مجلس الشعب ، أن الدولة الوحيدة التى تزور المصاحف متعمدة ، هى اسرائيل الصديقة لحكومة رشوان ، ولأننا جميعاً نعلم ، أن تسرب مصحف مزور أو به خطأ ، إلى قارىء واحد فقط ، كفيل بأن يقيم الدنيا ويقعدها لتجمع كل نسخة ونحرقها ، بل إن ناشرى المصاحف التى تقع بها أخطاء يفعلون ذلك دون حاجة لقانون حتى لا يتحملوا وزره أمام الله ، فقد دهشت حين حسمت عبارة رضوان المناقشة ، وحين صدق مجلس الشعب فعلاً . أن القانون هدفه حماية المصاحف من التزوير وليس حماية الحكومة من نشر الحقائق لنظل نحن المصريين فقط ، الوحيدين الذين نجهل أمور وطننا .

لحظتها ، تذكرت فجأة ، القطار القشاش الذى كان يحملنى كل صباح إلى بنها ، ورأيت « أمامى العم محمودات بقامتهم النحيلة ، وبضائعهم البائرة ، ولأول مرَّة أتذكر أننى رأيت بينهم وجهاً يشبه وجه الوزير رشوان ، وقد وقف بوجهه الأسمر ، وقامته الربعة ، وعلى جسده بالطو وفى يده قانون عم رشوان ، وهو يخاطب أعضاء مجلس الشعب قائلاً :

ـ اسمع يا مؤمن .. ربـونا (رينـا) عزَّ وجـلَّ بيقول إيـه فى محكم تنزيله ..

....

....

....

ولأن شر البلية ما يضحك .. فقد فعلت !

(*) « الأهالى » فى ٣٠ نوفمبر ١٩٨٣.

احنا بتوع الجزائر

أكره السفر ، ربما لأنى فلاح قرارى ، أى مزروع فى أرضه ، أو هى مـزروعـة فى قلبـه لـذلـك يـرفض أن يغـادرهـا أو تغـادره ، رغم سيـاط الجلادين ، ومطاردة جباة الضرائب ، والخـراب الذى يحيط بـه من كل جانب ، ففيها عرقه ، وفيها حلمه ، وفيها كل ما يحب وما يعشق .

ولأننى كنت متعباً ، فقد قبلت دعوة اتحاد الكتاب والأدباء العرب ، لحضور مؤتمرهم الرابع عشر ومهرجان الشعر السادس عشر فى الجـزائر العاصمة ، لأرى البلد الذى كانت ثورته مصدر توهج مشاعرنا حين كـان العمر حلماً ، واتحسس باليد مثوى الشهداء ، ومدارج البطولة ، لأقابـل « جميلة بـوحريـد » ، وأقبل قبـر « هوارى بـومـدين » ، وأستعيـد عشـرة الماضى الجميل ، حين كـان العرب عـربـاً وكـان الوطن وطنـاً . . وكان الناس ناساً . .

(*) الأهالى ٣١ مارس ١٩٨٤

في مطار القاهرة حدث ما توقعت صاح ميكروفون صالة السفر باسمى الرباعى جاء كالعادة مخبر مهذب ليطلبنى لمراقب صالة الجوازات . سأقف أمامه قليلاً ليقودنى مخبر آخر إلى مكتب مباحث أمن الدولة بالمطار . يسألنى الضابط : أنت ليك ملف عندنا . .؟! أقول : ملفات . . تملأ صالة الجمرك . . وبطريقة ما قل ودل ، أروى له قصتى مع مباحث أمن الدولة ، التى بدأت منذ عشرين عاماً ، ولا تريد أن تنتهى وأسرد على سبيل التأكيد أسماء من مثلت بحضرتهم من رجال المباحث منذ كانت « عامة » إلى أن أصبحت « أمن دولة » من الوزير أبو باشا إلى عم بسيوني وعم سيد خضير من مخبرى معتقل القلعة الرهيب اغلق الله أبوابه بالضبة والمفتاح وجعل عاليه واطيه .

وفى هذه المرة ما كاد ضابط مباحث المطار يرانى حتى صاح : أنت بتاع سبتمبر ؟! أصبح وجهى مألوفاً للضابط فمنذ عام ١٩٨٢ ، وكلما سافرت ، يقودنى إليه الكمبيوتر الذى يحفظ أسماء الممنوعين من السفر والممنوعين من العودة . أما السبب فلأننى من « بتوع سبتمبر » أى الذين اعتقلهم الرئيس الراحل بقرارات ١٩٨١ الشهيرة وكنت أظن أن سبتمبر مضى وانتهى أمره واطمئن نفسى فى كل مرة سافرت فيها بعده بأننى لن أواجه أى عراقيل فى المطار فسيادة القانون بجلالة قدره فى صفى ، والنائب العام لم يصدر قراراً بمنعى من السفر ، والوزير « أبو باشا » يؤكد دائماً أن حالة الطوارىء لا تطبق على الإطلاق ، والحكومة تتحدانا كل صباح أن نثبت أن حالة الطوارىء المستمرة تستخدم لشىء غير الزينة والترفيه عن المواطنين ، فإذا بسبتمبر مستمر فى قوائم الممنوعين من السفر ، وإذا بحالة الطوارىء فى مطار القاهرة جد لا هزل ، وإذا بالعدل فى بلدنا ـ كالعادة ـ لابس طرابيش ، وإذا بى أفكر جاداً فى أن أغير بيان

المهنة فى جواز سفرى من « صحفى » إلى « بتاع سبتمبر » لأوفر على سلطات المطار مشقة البحث عني والنداء على اسمى الرباعى .

ببعض الاتصالات التليفونية حُلَّت المشكلة ، وسلمنى الضابط جواز سفرى مصحوباً بابتسامة قانونية مهذبة وحين أصبحت فوق سحاب الوطن ، تأملت ملامحه وهى تغيب بنظرة شوق : تذكرت ليالى المعتقل فى سنوات ما بعد الهزيمة ، حين كنت استلقى فى الممر ، اتأمل السماء عبر سطح السجن المسقوف بقضبان حديدية متقاطعة كقفص الحيوانات واحلم بطائرة تزور بى منازل الأهل واحضان الأصدقاء ،وأحسد العصافير الكثيرة ، التى كانت تتقافز فى شباك زنزانتى كل صباح وتمرق بين الحدود والقيود لأن أحداً ـ لحسن الحظ ـ لم يضف إسمها لقوائم المعتقلين أو الممنوعين من السفر أو العودة .

فى تلك اللحظة كانت « **رضوى عاشور** » تتحدث مع « **فريدة النقاش** » عن العصفور الذى رسمه ابنها « **تميم** » لأبيه ، وعرفت لأول مرة وأنا اتأمل الألوان الزاهية التى رسم بها « تميم » عصفوره أن « **مريد البرغوثى** » هو أحد المدعوين مثلنا للمؤتمر ، وأنه سيطير من بودابست حيث يقيم ليلتقى بزوجته فى الجزائر : فى بلد لا هى بلده ولا هى بلدها فهو فلسطينى ممنوع من دخول القاهرة وهى مصرية لا تمكنها ظروف عملها ـ كاستاذة جامعية ـ من الاقامة الدائمة فى بودابست .

ويوم كان الزمن سنوات ما بعد الهزيمة لمع اسم « **رضوى عاشور** » على مسرح الحياة الأدبية وكنت سجيناً أتأمل العصافير المتقافزة واحلم بالطيران فوق السحاب واتابع ابداعاتها القصصية والنقدية الأولى معجباً على نحو ما بأن الوطن رغم الهزيمة ، ما يزال يلد المواهب وبأن جيلاً

مقتحماً ومتحدياً ينبت بين حطام الآمال المحترقة ، وذات صباح جاءني زواري برسالة تضامن من « رضوى » التي لم أكن أعرفها ولم تكن تعرفني ، فتوهجت في الروح مشاعر كادت رتابة السجن أن تقتلها فقد كان الزمن أيامها ضيقاً . . وكان بخيلاً بمشاعر المودة لكثيرين في مثل حالي . .

وحين طرت من القفص ، وجدت « رضوى عاشور » قد طارت لامريكا لتكمل دراستها وتعد اطروحتها للدكتوراة عن أدب الزنوج . كانت قد ذهبت تتضامن مع المقهورين في نصف الكرة الآخر وعادت بعدها لتتزوج من الشاعر الفلسطيني « مريد البرغوثي » بعد قصة جميلة وما أظنها قد ترددت لحظتها أمام قرارها بأن ترتبط بفلسطيني : مهاجر بلا وطن ولا أنصار ، ولأن الزمن كان زمن القصص الرديئة فقد جاء يوم من نوفمبر ١٩٧٧ طار فيه « أنور السادات » إلى القدس المحتلة فلم يجد اسمه بين قوائم الممنوعين من الدخول في مطار اللد وابتسمت « جولدا مائير » في وجهه وقالت : كنت أنتظر هذا اليوم من زمن طويل . وقال غفر الله : جئت لأخفف المعاناة عن الفلسطينيين . اما « رضوى » و « مريد » اللذان كانا ينتظران ـ ومنذ زمن طويل أيضاً ـ يوماً آخر تماماً ، فقد هاجمت الشرطة شقتهما الصغيرة بحي المهندسين بالقاهرة وعبثوا بالأوراق والأشعار والخطابات ودروس طلاب الجامعة ، وأخذوا الشاعر الفلسطيني ووضعوه في طائرة لم تتوقف إلاّ في مطار بودابست واضافوا اسمه واسماء آلاف آخرين من الفلسطينيين إلى قوائم الممنوعين من العودة بينما فتحت قاعة كبار الزوار لمناحم بيجين و « عيزرا فايتسمان » و « الياهو بن اليسار » وهكذا اختلطت الأوراق ولم يعد أحد يفرق بين « أحمد » و « الحاج أحمد » وأصبح « مريد البرغوثي» واحداً من « بتوع نوفمبر » !

ولا بد أنهم ـ فى الجزائر ـ عرفوا أننا نحن الأدباء العرب حزانى حتى النخاع ، لذلك اختاروا لنا فندقاً وحيداً بعيداً على شاطىء البحر ، بينه وبين العاصمة سكة سفر . وبدت الجزائر خضراء وبيضاء كالفرح . تربتها حمراء كما يليق ببلد روت الدماء أرضه . هواؤها نقى كالاستشهاد . وكان مريد ينتظر فى بهو الاستقبال ، وفى ثوان كانت « رضوى » فى أحضانه ، واستدرت استقبل أحضاناً من كل فج عربى ، ودهشت لأن ضحكاتنا العالية ملأت المكان ، وفيما بعد ، ذهلنا لأننا عشنا أسبوعاً كاملاً نضحك ، ونحمد الله لأن الضحك لم يوضع فى قوائم الممنوعين من السفر أو العودة ، ونقول بعد كل ضحكة شأن من يستكثر الفرح على نفسه : اللهم اجعله خيراً .

كان الفندق كبيت جحا ، أو كأحوال الأمة ، فهو فسيح ضخم ، متعدد الأجنحة والأبهاء ، لذلك كنا نتوه فيه ، ونخطىء الطريق إلى غرفاتنا ، ونظل نلف وندور ونصعد وننزل فنجد أنفسنا مرة أخرى فى بهو الاستقبال . وكنا نقول هذا هو باب الحرب الذى افضى إلى باب السلام . . وهذا هو باب الانتصار الذى قاد للهزيمة .

ونقول : حين تقترب الطائرة من أى مطار يقول الطيار عادة للركاب : اربطوا الأحزمة، أما الطيارون العرب ، فما يكاد الواحد منهم يقترب من مطار بلده حتى يخاطب الركاب قائلاً : اربطوا الألسنة !

وما حدث هو أن المؤتمر لم يربط لسانه ، وكان الشعراء هم أطول الناس لساناً ، وفى الأمسية الشعرية الوحيدة التى عقدها المؤتمر من أربع أمسيات انهال الشعراء على الحكومات العربية ، بمعاول قوافيهم وتفعيلاتهم ، وفرشوا ملاءة الشعر للأنظمة ، وعيروها بالوكسات التى

تعيشها من المحيط إلى الخليج ، ودعوا الله أن يوقف نموّها ويقصر أعمارها ، ويبتليها بكل المصائب .

وجاء الرد خالصاً ، وبطريق غير مباشر ، ففى فجر اليوم التالى دق المنظمون أبواب غرف الشعراء فأيقظوهم وأقلقوا منامنا ، لكن الشعراء لم يتذمروا ، فهم راحلون إلى وهران ليلتقوا بجماهيرهم ، ويسلقوا الأنظمة بقصائدهم ويشنفوا آذانهم برنين التصفيق وآهات الاعجاب ، ولذلك تحملوا بصبر كل متاعب الرحلة . ساعة بالسيارة إلى المطار . وساعتين فى انتظار الطائرة . وساعة طيران إلى وهران أما المفاجأة فهى انهم لم يجدوا أحداً فى انتظارهم ، أو غرفة فى فندق تستضيفهم ، وهكذا قضوا النهار هائمين على وجوههم فى شوارع وهران ، ومع ذلك لم يفقدوا صمودهم ، وعند الغروب ، توجهوا إلى القاعة التى سيلتقون فيها بجماهيرهم ليمسحوا بتصفيقها تعب النهار ، وهم يأملون فى لحظات راحة يغيرون فيها ملابس السفر بأزياء الشعر ، ويسترجعون نصوص القصائد ، ويسلكون حناجرهم ، ويضبطون ايقاع الالقاء . وكانت الكارثة أنهم وجدوا القاعة ولم يجدوا الجمهور . ففى هذه اللحظة الشعرية التعيسة للغاية ، كان أهالى الجزائر جميعهم من وهران إلى تلمسان ، يجلسون أمام شاشات التليفزيون ليتابعوا مباراة كرة القدم بين الجزائر وغانا .

وقبل أن يفيق الشعراء من الذهول ، جاء من يقول لهم أن آخر طائرة تغادر وهران إلى الجزائر العاصمة ، ستقلع بعد دقائق ، وأن الطائرة التالية لها لن تقلع قبل أيام . وفى ثوان ، ودون أى اتفاق مسبق بينهم ، اندفع الشعراء جميعاً وفى نفس واحد ، يعدون فى شوارع وهران الخالية ،

ليدركوا الطائرة قبل أن تتضاعف الكوارث ، وفى أيديهم مخالى الشعر وأزياء الإلقاء . وكان حماسهم للجرى عنيفاً رغم تعب النهار ، وكأن الجمهور كان يطاردهم أو يطردهم ، وهكذا اختلطت حقائبهم وكسرت مناظيرهم الطبية ، واختلط الشعر التقليدى بالشعر الحر ، ولهث بعضهم وتقطعت أنفاسه الشعرية وغير الشعرية ، فجلسوا على أرصفة المدينة ، وهم فى غاية التعاسة وسوء الحال ، يشحذون مواصلة تنقلهم إلى المطار ولو بكل قوافى العربية ، فلم ينجدهم أحد فالكل مشغول فى الماتش ، بل ان طابور الجرى الشعرى نفسه ، تنازل بكل فروسية عن الذين تخلفوا عنه ، فلم يتوقف عن العدو .

وهكذا اقترحنا تغيير العنوان إلى مهرجان الجرى ـ وليس الشعر ـ السادس عشر ، وقضينا ليلة كاملة نشنع على الشعراء ، ونتشفى فيهم ، ونعلن أن زمانهم قد ولى ، وبضاعتهم قد بارت ، فقد غضبت عليهم الأنظمة ، وطردتهم من فردوسها ، واستبدلت الأستاد بسوق عكاظ ، والقدم بالقلم ، وصنعت من لاعبى الكرة نجوماً وكواكب وشعراء ، فبهم تستطيع أن تلعب برؤوسنا ، أما الشعراء فلا أحد يضمن ما يمكن أن يقولونه إذا صعدوا على منصة ، وواجهوا جمهوراً من الغاضبين والممرورين والذين سدت فى وجوههم أبواب الأمل .

وحين خرجت المظاهرات فى انحاء متفرقة من الأمة ، تعبر عن سعادتها بالانتصار فى موقعة غانا لكرة القدم ، صاح الروائى الفلسطينى رشاد أبو شاور وهو يشير إلى شعرائنا التعساء قائلاً :

ـ امة لا توحدها إلاّ المساخر !

. . . .

وكـانت القصاصـة الفلسطينيـة « ليانـه بدر » ، هي آخـر من عـرف بالمسخرة التى حدثت لبتوع وهران . وقد روينا لها الواقعة على مائدة الافطار فى الصباح التالى ، فلم يقلل الضحك من شهيتها ، وواصلت ـ لدهشتنا ـ تناول طعامها ، وهو السلوك الـذى كنا نؤنبهـا عليه كـل صباح : فهى لا تحضر جلسـة واحـدة من جلسـات المؤتمـر ، ولم تشــارك فى أي عمـل من أعماله ، اللهم إلاَّ تناول الوجبات الثلاث على حسابه ، وهو مـا اعتبرنـاه انتهازية ، ولما اعتذرت « ليانه » بانها تعد كتاباً عن « معتقل انصار » وتقضى اليوم فى البحث عن المقيمين فى الجـزائر ممن كـانوا معتقلين بـين أسواره ، لتستمع إلى شهاداتهم عما جرى وما يزال يجـرى . لم يغير ذلـك من تقييمنا لسلوكها ، فاعتبرناه « انتهازية رائعة » ، واضفنا ه إلى مصكوكات الأمة من المصـطلحات الشبيهـة ، كالسـلام العادل والصلح المشـرف . . والحقـوق المشروعة . . كأن هناك حقوقاً غير مشروعة !

وانتقلت « ليانه بدر » فجأة من الضحك على جائزة العدو السريع التى منحها المؤتمر للشعـراء ، والسخريـة من انتهازيتنـا التى ليست رائعة ، الى رواية قصة خروجها من بيـروت الى دمشق فى زمن الاجتياح الاسـرائيلى ، وهكذا مات الضحك على شفاهنا وفى قلبها . . .

. . تابعت القصة محاولاً أن اغيب عن بعض فصولها حتى اتخفف من تركيز الأحـزان فى فمى . وكانت زخـات من مطر الصبـاح تغسل واجهـة الفندق الزجاجية التى كنا نجلس خلفها . وحين عدت من شرودى كانت « ليانه » تـروى بالتفصيـل محاولاتهـا المضنية لاستـرداد مخطوطـات قصصها واوراقها المكتوبة التى تركتها خلفها فى بيـروت . . وحين لاحـظت دهشتى قالت :

ـ قد تكون اوراقاً لا قيمة لها . . ولكنها أوراقى الخاصة .

وحين انتقلنا من المطعم لقاعة الشاى . كانت ليانه تروى لفريدة النقاش ، رحلتها الى الضفة الغربية لتشهد زفاف ابن خالتها ، ولترى اسرتها بعد سنوات طويلة من الفراق ، كَبُر الصغار وشاخَ الكبار . . لكنها لم تتأمل ملامحهم كما يجب ، قضت الأسبوع تتنقل بين مكاتب سلطات الاحتلال الاسرائيلى ، لتنجز اوراق دخولها ، ثم اوراق خروجها ، وحين غادرت الضفة ، اكتشفت انها لم تشهد الفرح ، ولم تحفظ حتى ملامح الأطفال الجدد الذين انضموا الى الأسرة ، لذلك فى سنوات الاحتلال والبعاد ، هاجمت ليانة كل المطارت العربية سواء كانت محتلة أو مستقلة ، واكدت لنا أن اسمها موضوع فى قائمة « بتوع حزيران » .

ووجدتنى وحيداً مع يعقوب ، المناضل الفلسطينى الذى قضى خمسة عشر عاماً فى سجون الاسرائيليين ، وأفرج عنه قبل شهور ، ليقيم فى هذا الفندق البعيد الوحيد فى اقصى اطراف الأمة ، كان فى الثامنة عشرة حين قبضوا عليه ، أما الآن ، فقد جاوز الثلاثين ، انتقل من الصبا إلى الكهولة دون شباب ، وكان متخماً بقصص عن اضرابات عن الطعام ، استمرت الى اكثر من اربعين يوماً ، ولم تتوقف طيلة خمسة عشر عاماً . قال : ليت الصحف العربية منحتنا ما منحته لبوبى ساندز ورفاقه من اهتمام. واضاف : ارجو الا اثقل عليك ، ولكنى اعتبر قضية المسجونين السياسيين فى الأرض المحتلة قضيتى . . فهم عمرى ، وهناك من بينهم عدد من المصريين من اهالى سيناء ، لهم مشكلة ، فالأجهزة المصرية المعنية لا تعترف بهم ، ولذلك لم تقم بمبادلتهم فى عمليات التبادل التى جرت قبل ذلك بين

اسرى ، وجثث الاسرائيليين ، والسجناء المصريين ، فهل تستطيعون أن تفعلوا لهم شيئاً قبل أن ينساهم الجميع ؟! . .

سألته عن الأسماء قطب طويلاً ، ثم قال ببسمة اعتذار :

ـ آسف . . أنت تعرف ما يصنعه السجن بالذاكرة ! . .

فكرت فى انهم هناك فى تلك السجون البعيدة ، يتأملون الطائرات ويراقبون العصافير وينتظرون رسالة تضامن !

. . . .

وجاء الوقت الذى كان لا بد لنا فيه أن نعود إلى القاهرة ، وودعت رضوى زوجها ، وبلل مطر الصباح عناقهما ، وانقذتنا عضويتنا فى المؤتمر من اجراءات مطار الجزائر المعقدة ، لكن حظنا السىء شاء أن نصل إلى سماء القاهرة ، فى ذلك اليوم الذى خنقها فيه الغبار ، وهكذا لم يطلب منا الطيار ربط الأحزمة ، ولا الألسنة ، ولكنه قادنا إلى مطار الأقصر ، وبعد ساعتين قضيناهما فى الطائرة ، نتمتع بالاستمتاع إلى أزيز محركها الشاعرى وهو يلتهم خلايا عقولنا ، اعتذر قائدها لمسافرى القاهرة ، وقال أنه سيتوجه بمن بقى من الركاب إلى محطته الأخيرة فى جدة أما نحن فقد سلمنا بالعدد لمندوب شركة مصر للطيران ، واعلن أننا سنظل فى ضيافتها على نفقة شركة الطيران الجزائرية حتى نصل إلى القاهرة !

وهكذا وجدنا أنفسنا كالأيتام على مائدة اللئام ، فقد هرب منا مندوب شركة مصر للطيران ، بعد أن تسلمنا بالعدد ، وحشرونا فى صالة ضيقة بها جهازى تكييف معطلان ، وأربع مراوح فى السقف تعطل منها اثنان ، واغلقوا علينا الأبواب ، وبعد ساعتين احتشدت الصالة بمائة راكب آخرين ، اتضح لنا أنهم كانوا معتقلين على طائرتهم القادمة من كراتشى

ثم دبى ومنها إلى القاهرة فلندن ، منذ ساعات ، ولما كدنا نختنق من القيظ والغبار ، قام كهربائى مصرى قادم من دبى فأخرج مفكاً وأخذ يصلح مفاتيح مراوح السقف ، ولدهشتنا فقد تحركت ، وسألنا عن مدير المطار فلم نجده ، وطلبنا شاياً أو مشروباً مثلجاً فلم يسأل فينا أحد ، وتصاعد بكاء الأطفال ، وبدت ملامح الأعياء على الطاعنين فى السن ، وهكذا قام شاب هندى متمرد ، فخطب فينا معلناً أن شركات الطيران جميعها بنت كلب ، وأن همها هو قبض ثمن التذاكر ، وأننا إذا لم نتمرد فسنظل فى هذه الحظيرة إلى ما شاء الله . . واندفع يدق أبواب الصالة المغلقة ، وبعد ساعة من الرزع والصياح ، ظهر مندوب شركة مصر للطيران ، فوقع على تعهد بأن الركاب فى ضيافته ، وحجزت سلطات المطار جوازات سفر « بتوع كراتشى » وقادهم مندوب الشركة إلى أحد فنادق الأقصر ليستريحوا حتى الصباح .

ولأننا لم نتمرد ، فقد جاء واحد وسأل : انتوا ايه ؟! قلنا فى نفس واحد : احنا بتوع الجزائر ، فطمأننا بأننا سنسافر الليلة إلى القاهرة وابتسم فى وجوهنا ومضى ، ومضت ساعات دون أن نسافر أو نأكل أو نستريح ، وكل نصف ساعة يطل واحد ليسألنا فنقول : احنا بتوع الجزائر . . وهمس الشاعر الكويتى خالد سعود الزيد فى أذنى : أنت فى بلدك . . فأين نفوذك ؟ . . قلت له : هنا لا نفوذ لى ، فأنا مسجل فى القوائم باعتبارى من بتوع سبتمبر ، ومعك جواز سفر كويتى يفتح فى بلدنا المضياف مغلق الأبواب ، لكنه عاد بعد قليل بخفى حنين ، فقد سألوه : أنت بتاع ايه ؟ . فقال : بتاع الجزائر . . فوعدوه خيراً واغلقوا الأبواب.

وكما حدث مع الشعراء تماماً فقد لعب المسئولون فى مطار الأقصر

برؤوسنا كرة القدم . . مندوب شركة مصر للطيران سلمنا لطبيب الحجر الصحى ، الذى خرج ليفاجئنا بانا قادمون من بلد موبوء . . وانه لن يسمح لنا بالخروج من المطار ، إلاّ إذا كانت معنا البطاقات الدولية بأننا طعمنا ضد الكوليرا ، وانكر أربعة اطباء مصريين قدموا معنا من الجزائر التى يعملون بها ، علمهم بوجود أية اوبئة هناك . وقال قائد طائرة كراتشى : ان هذه البطاقات لم يعد معمولاً بها فى مطارات العالم . واعتذر ضباط الجمرك بأنهم لا يستطيعون السماح لنا بالخروج من المطار إلاّ إذا وافق الطبيب ووقع مندوب مصر للطيران على اقرار بأننا فى ضيافته ، وظهر المندوب واختفى الطبيب ، ثم اختفى الاثنان وظهر ضابط الجمرك . . وبدا الركاب الذين صحبونا يتحدثون عن المطار والشركة والضباط ، ومصر وبلاويها وتصرفات أهلها ، ومطار الأقصر الذى لا يختلف عن حظيرة حيوانات ، وفارت دماؤنا ونحن نسمع تعليقاتهم ، وبحثت عن أحد من الذين لم يكفوا طوال سنوات عن الحديث عن سمعة مصر ، ولم يتوقفوا يوماً عن اتهامنا بأننا نشوهها بما نكتب وما نقول فى الداخل والخارج ، فلم أجد ، ودهشت ، لذلك التغنى الغريب بمصر على شاشات التليفزيون كل صباح ومساء ، وتلك البلادة الحقيقية تجاه ما يسىء إلى سمعتها !

وهكذا تقدمنا ـ فريدة ورضوى وانا ـ لنغامر ببدء التمرد ، ولنضيف أسماءنا إلى قائمة بتوع الجزائر ، فضلاً عن قائمة بتوع سبتمبر ، وليكن ما يكون ، وبدأنا الرزع على الأبواب ومضت ساعة من المناقشات والمشاحنات ، واشتبكت فريدة مع طبيب الحجر الصحى فى مناقشة حادة ، جرى على أثرها ليشكوها بتهمة الاعتداء على موظف حكومى اثناء اداثه لوظيفته ، وتحلقنا جميعاً حولها نطلب الاستماع إلى أقوالنا فى

محضر رسمى ، وغابوا بها قليلاً لتقابل مسؤولاً فى المطار ، عادت بعدها لتقول أن الطبيب ما زال يصر على أن الجزائر موبوءة ، وعلى حجزنا فى الحجر الصحى .

لم يكن أحد قد عرف بعد أننا صحفيون ، أو اننا معارضون ، كنا نتصرف حتى تلك اللحظة باعتبارنا مواطنين لا يملكون قلماً ولا لساناً ، ولكنهم فقط يطلبون حقاً ، ويغارون على سمعة وطنهم ، أما وقد تعقد الموقف ، فقد أخطرناهم بالحقيقة ، وساعتها فقط حلت كل المشاكل . .

استقبلنا المقدم فكرى عامر مدير أمن الجوازات بمطار الأقصر ، واعتذر عما جرى بالارتباك الذى احدثته العاصفة ، إذ حملت إلى المدينة الصغيرة ومطارها القديم الفاً وخمسمائة راكب ، واستدعى مندوب شركة مصر للطيران ، ولم يتركنا إلاّ بعد أن وجد لبتوع الجزائر اسرة ينامون عليها ، وجررنا اقدامنا المنهكة ، نتجول فى شوارع الأقصر وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحاً ، وكان « سيف » الطفل الجزائرى الرضيع ، قد استيقظ بمرح ، وكانت أمه توصينى بألا أنسى اسمه فى مقالى . . وكنا منهكين للغاية ، واستيقظ مدير الفندق ليسأل قافلتنا المغبرة المشعثة المجهدة :

ـ انتوا ايه ؟!

وفى نفس واحد قلنا :

ـ احنا بتوع الجزائر .

(*) « الأهالى » فى ٣١ مارس ١٩٨٤

كلمات حب للأفوكاتو حسن سبانخ

لو كنت أفوكاتيا لما غضبت لأن جدول نقابتي يضم زميلاً اسمه « حسن عبد الرحيم » وشهرته « حسن سبانخ » ، ولما سارعت اتنصل منه ومن اسمه ، ولما استنكرت أقواله وأفعاله ، بل لاحببته ولحاولت أن أفهمه ، فهو ليس مجرد أفوكاتو من عشرات الآلاف من الأفوكاتية ، الذين نراهم كل صباح ، يسرحون بين النيابات والمحاكم والمكاتب ، لكنه رمز فلسفة واختيار ، والرموز لا تشطب من جداول النقابات لأنها ليست ملكاً لأى نقابة ، ولأنها ـ مع كل الاحترام ـ أكبر وأشمل وأهم من أى نقابة .

وليس مفيداً فى شىء أن ندفع عن حسن سبانخ تهمة اعترف بها هو نفسه ، واستنكرها الأفوكاتية الذين اقتحم مهنتهم ، فهو الذى قال ـ بعضمة لسانه ـ أنه نصاب . . أما بقية الجملة المفيدة ، فهى أنه نصاب فى عالم من الحرامية ، والحرامى يسرق عرق الناس ، ويسرق قوتهم ، ويمص دماءهم ، أما حسن سبانخ فغاية ما يفعله هو أن ينصب على زبون فى خمسين جنيهاً وقد لا يفعلها إذا تيقن أن الزبون سيضار من نصبه .

وقيمة « حسن سبانخ » الكبرى أنه واحد من عشرات الملايين من السمك الصغير الذى يزحم الوطن ويملأ المعمورة منذ فجر التاريخ ، يجاهد من أجل أن يعيش فى بحر الحيتان الكبيرة التى لا تتورع عن فعل شىء لأنها تملك كل شىء : النظام والقانون والسلطة والجاه والمال وكلاب الحراسة التى تعقر كل من يحمل فى رأسه أفكاراً ، وتملك شركات التصدير والاستيراد والمفارخ ومعامل البيض ، واليخوت والبلاجات الخاصة ، أما الشىء الذى لا تملكه فهو الضمير . وإزاء هذا النظام المتكامل من القهر ، يقرر « حسن سبانخ » أن يلاعب الحيتان فى كل محيط : في المحكمة وفى السجن ، فى القصور وفى الموانىء، فى المستشفيات وفى مكاتب المأذونين ، فى المطابع التى تزور كل شىء : النقود والأفكار وقسائم الزواج . وهو يلعب بانهماك واستمتاع لأنه يمارس فناً يحبه ويعشقه ويبدع فيه، وهو لا يعرف متى تتوقف اللعبة ، لأنه لا يعرف متى تكف الحيتان عن اكل الأسماك الصغيرة ولا متى يكف الحرامية عن مص دماء الناس .

أما أداة اللعبة فهى القانون ، الذى ينظم العلاقات الاجتماعية فى بلد اختلت فيه كل العلاقات ، لذلك فإن نصوصه ـ القانون ـ معقدة ، وبنوده متناقضة وقراراته لا رأس لها ولا رجلين ، وثغراته لا أول لها ولا آخر ، فالنص يؤثم ، والواقع يبيح ويشجع ، وكل الشهود يمكن أن يكذبوا ، وكل المستندات يمكن تزويرها ، وكل المجرمين يمكن تبرئتهم ، ويمكن ايضاً ادانتهم على ما لم يرتكبوا من وقائع ، لأنهم ارتكبوا من النوع نفسه الكثير بلا ضمير ولا عقوبة .

تلك هى لعبة « حسن سبانخ » التى يلعبها باقتدار وعظمة ووعى بما فعل ، فهو لا يسعى لمكسب شخصى ولا يريد أن يكون حوتاً فى بحر

الحيتان ، لكنه يلعب باسم كل الأسماك الصغيرة فى بحر العالم والوطن الملىء بالحيتان ، وينتصر بذكائها الفطرى ، وخيرها الطبيعى ولا يهمه بعد ذلك المجهود الضخم ، أن يكسب لنفسه شيئاً ، فمطالبه أصلاً ، ـ كمطالب كل الأسماك الصغيرة ـ بسيطة وأولية . لكنه فنان ، أو فيلسوف ، يهوى اللعبة لذاتها ، ويمارسها لحسابنا ، نحن الأسماك الصغيرة الكثيرة الشاردة مثله فى بحر الحيتان والحرامية ، يكشف لنا قوانينها لنضحك منها وعليها ، ومنهم وعليهم بعد أن بكينا منها وعليها حتى لم تعد ثم من الدموع بواق .

ولو كنت افوكاتيا لاعترفت لحسن سبانخ بمزايا اخلاقية كثيرة منها أنه رجل غير طماع ، فهو لا يطلب من الدنيا إلاّ شيئاً واحداً يبدو بسيطاً جداً ، ومتوفراً تماماً . هو أن «يعيش حياته الطبيعية» وهو مطلب لا يمكن أن يغضب أحد إلاّ إذا كان يرضيه أن يعيش « حسن سبانخ » فى مسكن شعبى تحيط به مياه المجارى وتلال القمامة ، وأن يعجز عن شراء دراجة لابنه ، وعن سداد أقساط الثلاجة والبوتاجاز ، وعن تدبير نفقات اجراء عملية تزيل اللحمية الزائدة فى أنف زوجته التى تحرمه من النوم منذ خمسة عشر عاماً ، وأن تعجز شقيقة زوجته عن العثور على شقة تزف فيها إلى قرينها فيمارسان حياتهما الطبيعية ، بدلاً من أن يفعلا ذلك فى مكتب الافوكاتو حسن ، الذى تعمل وقرينها معه ، وتظل الشقيقة جزءاً من هموم حسن، لأنها تشاركه وزوجته وابنه شقتهم الضيقة ، بعد أن عز عليها العثور على شقة رغم أن قرينها قضى أربع سنوات يعمل فى السعودية حتى ساح نافوخه .

ويقرر « حسن سبانخ » أن يعود إلى تكتيكه القديم فى الدفاع ، الذى يضمن له أن يكسب قضية موكله تاجر العملات الأجنبية ، فيحصل على

مائتى جنيه هى اتعابه يسدد منها اقساط الثلاجـة والبوتـاجاز ومقـدم اجراء العملية لزوجته ، وينفذ وعـده لابنه فيشتـرى له دراجـة ، وهكذا يستفـز المحكمة . . ينادى بأعلى صوته فى حرمها إذا كـان فى هذه القـاعة احـد لا يتعامل بالعملة الأجنبية فليرفع يـده ، ويصمت الجميع ، فـالقانـون يؤثم والواقع يبيح ، ولأن كثيراً من المظاليم يدخلون السجن، وكثير من المجرمين يظلون أحراراً خارج جدرانه فإن الحكم يصدر بحبس « حسن سبانخ » لمدة شهر ، لأنه تطاول على المحكمة ، وتبرئة موكله تاجر العملات الذى يمارس اثماً يشترك فيه الجميع ، لذلك لم يعد اثماً !

ولأن السجن جزء من عالم الحيتان والأسماك ، فإن قوانينه هى قوانين العالم نفسه متجبرون وأذلاء . . أقوياء وضعفاء . حيتان كبيرة ومتوحشة ، وأسماك صغيرة مسكينة وإذا كان منطقياً أن يعجز « حسن سبانخ » عن أن يعيش حياته الطبيعية وهو (حر) فهو عاجز عن ذلك أيضاً وهو سجـين ، فعشرات السمك الصغير ، تتزاحم كل صباح أمام دورة مياه واحدة ، أما اللوكس فهو محجوز للحوتين الكبيرين فى السجن وفى المجتمع وفى الـوطن وفى الأمة وفى المعمورة : « سليم باشا أبو الخير » : جلاد الزمن القـديم ، ومركز القوة وهو حاكم ، ومركزها وهو سجين ، مربى الكلاب لتنهش لحم كـل معارض للنـظام . كلاب تشم رائحـة الأفكار وهى تعبـر بين خـلايا الـرأس ، فتنطلق فـور شم الرائحـة لتنهش . حتى أنه هـو نفسه ـ سليم ـ مدربها وصاحبها نسى مرة ، ففكر أمام كلابه ، فأسرعت تنهشه !

الشريك الثانى فى دورة المياه اللوكس ، هو الحوت الآخر : « حسونـة محرم » ، جلاد ينهش باسنان نفسه لا بأسنان كلابه ، من القصعة يحملهـا فـوق كتفه ويصعـد بها السقـالات بدأ امـا الآن فقد تحـولت القصعـة إلى

شركات استيراد وتصدير يملكها ، وأخرى يفضها حتى لا يدفع ضرائبها ، أما الجمارك فهو ملكها كذلك الحشيش (ضبط بجملين فكم جملاً لم يضبط لا هو ولا حشيشه) . وعلى عكس ما كان متوقعاً فإن حياة « حسونة محرم » لم تنته حين حكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة ٩٩ سنة ، بالعكس ، إنه يعيشها بشكل طبيعى تماماً ، ففى زنزانته تليفون وتليفزيون وسخان وتكييف وبانيو ، وبلاج وبار وجوزه وحشيش ونسوان ، وهو يستطيع أن يمنح لمن يشاء من المساجين إذن حرية لساعات أو لأيام وأن يستصدر عفواً صحياً عن صديقه اللدود ومنافسه وحبيبه فى الوقت نفسه ، الجلاد الكبير سليم أبو الخير أو أبو الكلاب الذى يعيش هو الآخر حياته الطبيعية ، يقضى حاجته فى حمام لوكس ، ويحول زنزانته إلى مكتب فخم أنيق فيه كل شيء .

الحيتان أحرار فى السجن ، وأحرار خارجه ، أما السمك الصغير فهو سجين فى السجن ، وسجين خارجه ، لذلك يقود « حسن سبانخ » المساجين معلناً التمرد ، مطالباً بتطبيق المادة رقم كذا من الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، التى تبيح له قضاء الحاجة ، لكنه يكتشف أن مطلباً بسيطاً كهذا لا بد وأن يمر على ١٥٠٠ حيوان ، حتى يتكرم أحدهم وينظر إليه بعين العطف ، لذلك يبدأ اللعبة فوراً ، ويبدأها مع الحيتان وبالحيتان ، ويا أيها السمك الصغير الجالس فى السينما ، تعالوا نضحك ونلهو بعالمنا المأساة وفى عالمنا الملهاة ، مع ذلك المتقمص العظيم : عادل إمام ، فما كان ممكناً أن يتخلق « حسن سبانخ » إلاَّ إذا تقمصه عادل إمام ، وما كان ممكناً أن يفهم وأن يحب ، إلاَّ إذا تقمصه فنان يملك تلك الدرجة المرهفة من الحساسية والفهم ، فمعه تضحك البسمة فى عمق الجرح ، وتقهقه الدموع على أبواب العين !

اللعبة أيها السمك الصغير ، هى ضرب الجلادين بالحرامية ، هؤلاء الأعداء الأصدقاء ، الذين يتنافسون ويتوحدون على شيء واحد : هو نهش لحمنا الغض ، ويبيعون لنا مع الكرابيج والبيض الممشش، ألفاظ لم تعنيهم ولم يصدقوا فيها يوماً : الوطن لـذى زعموا حبـه ، والشعب الذى ادعـوا الدفاع عن مصالحه ، ويصرخ القاضى الوقور محتجاً : امال لما كلهم وطنيين وبيحبوا مصر وبيعملوا عشانها. . مين بقى المسؤول عن الخراب اللى احنا عايشين فيه ؟!

سؤال لم يجب عليـه أحد ، لأن حسن سبـانخ ، الصعلوك العـظيم ، الفيلسوف المفكر ، كان قد انتهى إلـى الاقتناع بأن أى محاولة لفهم ما يجرى على ضوء قوانين العلم ، هى محاولة غير مجدية ، لذلك قرر أن يطبق عدله هو ، عدل السمك الصغير فى بحر الحيتان المتوحشة ، والمنطق بسيط : ما أكثر الجرائم التى ارتكبها « سليم أبو الخير » ، ولم يعاقب عليها ، فماذا لو عوقب على جريمة لم يرتكبها بالتحديد ، ولكنه ارتكب من أمثالها الكثـير ، فلماذا لا يتهم بأنه هو الذى دبر قضية الجملين المحملين بالحشيش لحسونة محرم . أما الدافع فسهل، تتقدم زوجة « حسونة محرم » ، وتتهم « سليم أبو الخير » بأنه راودها عن نفسها ، فلما تمنعت عليه ، دبر لزوجها التهمة التى سجنته ٩٩ عاماً ، وهكذا يخرج حسونة من السجن ، وتضاف لعقوبة سليم أبو الخير سنوات اخرى ، ستنتهى بالعفو الصحى ، ويا أيها العفو الصحى - كم من الجرائم ترتكب باسمك كما قال « حسن سبانخ » :

صحيح أن « حسونة » لم يتزوج ، ولكن هذه عقبة حلهـا بسيط ، فما أكثر الوثائق المزورة والأقوال المزورة والشعارات المزورة ، فلمـاذا لا تكون هناك عقود زواج مزورة ، وعصمت - شقيقة زوجة « حسن سبانخ » - هى المرشحة لاداء دور زوجة « حسونة محرم » ، وهكذا يزور عقـد زواج يعود

تاريخه إلى عشر سنوات ، وتؤدى عصمت الدور بتمكن ، ويصدر الحكم ببراءة « حسونة محرم » زوج « الشريفة عصمت عبد الحميد » ، وتضاف إلى عقوبة « سليم أبو الخير » خمس سنوات أخرى ، ويتحقق العدل الذى اختلت موازينه ، فالافراج عن « حسونة » تحصيل حاصل ، لأنه كان داخل الأسوار حراً يفعل ما يشاء ، وعقوبة « سليم » على ما لم يرتكب تحصيل حاصل ، لأنه حر فى السجن ، ولأن ما لم يعاقب عليه كثير ، هذا إذا كان قد عوقب أصلاً ، أما عصمت ، فسوف تحصل على أربعة آلاف جنيه ، تدفعها لحوت آخر ، خلواً لشقة تزف فيها إلى قرينها وتعيش حياتها الطبيعية ، وتترك منزل حسن سبانخ ، فيتحقق حلمه البسيط هو الآخر : أن يعيش حياته الطبيعية !

وليس من طبائع الأشياء أن يترك الحيتان اسماكهم الصغيرة تعيش حياتها الطبيعية ، لذلك يرفض « حسونة محرم » أن يطلق « عصمت » ، فقد أعجبته واشتهاها ، كما يشتهون كل لحومنا ، وإن كنا لا نشتهى لحومهم ، وهكذا ينهزم « حسن سبانخ » فى يوم انتصاره العظيم ويختل ميزان العدل الذى سعى جاهداً لكى يتحقق ، ولأنه ليس نصاباً ، ولا يريد أكثر من أن يعيش ويعيش الناس حياتهم الطبيعية ، فهو يرفض كل اغراءات « حسونة محرم » المالية ، لكى تظل عصمت فى عصمته ، ويسعى لاعادتها لقرينها ، ويقاتل فى سبيل ذلك ، فهو ينصب ليقيم ميزان العدل المختل . .

ولأنه يؤمن أن الحمق هو أن تواجه الحيتان وحيداً ،ويؤمن بأن النزال لا بد وأن يكون بنفس الأسلحة ، ولا يتخلى لحظة واحدة ، وهو يلعب ويلهو عن حلمه فى العدل ، فإنه ينغمس فى فبركة قضية جديدة لحسونة محرم ، تنتهى بالقبض عليه بتهمة تزوير عملة ، لكى يساومه ـ وقد عاد إلى

لسجن ـ على تطليق عصمت ، مقابل تبرئته من الحكم الجديد ، ويضطر « حسونة » للاذعان ، وينغمس « حسن سبانخ » كالعادة فى اعداد المستندات المزورة فأنت لا تستطيع أن تحصل على العدل إلاَّ إذا زورت لأن المزورين يملأون عالم الحيتان الذى تعيش فيه !

ولأن اللعبة مستمرة ، ولأن « سليم أبو الخير » ، صاحب الكلاب ، هو شماعة أخطاء « حسونة محرم » صاحب البيض الذى جعل البلد كلها تمشش، يثبت « حسن سبانخ » للمحكمة ، أن صاحب الكلاب ، هو الذى لفق لصاحب البيض الممشش تهمة تزوير العملات انتقاماً منه ، فيحصل « حسونة » على حكم البراءة الثانى ، ويعاقب « سليم » على جريمة لم يرتكبها ، ولم يعاقب على كثير من أمثالها ارتكبه من قبل .

أما والعدل فى بحر الحيتان والأسماك الصغيرة عسير ، بل مستحيل ، فإن « حسن سبانخ » يهزم للمرة الثانية ، فى يوم انتصاره العظيم ، حين يقف « سليم أبو الخير » ، ليعترف بأنه ارتكب حقاً جريمة تزييف النقود المنسوبة إليه ، وليعلن أمام المحكمة أن شريكه فى كل ما فعل هو حسن سبانخ نفسه، وحين يسأله القاضى عن شاهد ، يقف جسونة محرم ليكون هذا الشاهد ، وهكذا اتحد الحوتان الكبيران ضد السمكة الصغيرة ، ويدخل « حسن سبانخ » السجن من جديد ، ليبدأ اللعبة ـ أيضاً من جديد ، وهو لا يعرف متى تنتهى ، لأنه لا يعرف متى تكف الحيتان عن أكل الأسماك الصغيرة ، ولا متى يكف الحرامية عن مص دماء الناس . .

. . . . . .

. . . . . .

لو كنت أفوكاتيا . . لاقترحت أن تمنح نقابة المحامين حسن سبانخ

عضوية شرفية، لبحثه الدءوب عن العدل ، وسعيه المستبسل لكى تستقيم الحياة للناس ، لرفضه الشجاع للقهر والكذب فى كل صوره وأشكاله ، لدقاعه المتوهج بالحب عن الانسان ، وحنوه على جراحه ، وحدبه على آلامه التى لا تطاق !

لو كنت أفوكاتياً ، لشعرت بالفخر ، لأننى انتمى لوطن يضم كل هذه المواهب المتألقة : عادل إمام ورأفت الميهى واسعاد يونس ويسرا وحسين الشربينى وصلاح نظمى وعلى الشريف وحمدى يوسف ويوسف شاهين ، ولشعرت بالاعتزاز لأنهم يفكرون فى السمك الصغير ، فى سينما لا تهتم إلاّ بالحيتان !

أما وأنا ـ مثلهم ـ أنتمى لعالم السمك الصغير ، فكل ما استطيعه أن أقبل جبين كل منهم حباً ، وأن أنحنى لكل منهم احتراماً !

(*) « الأهالى » فى ٤ إبريل ١٩٨٤ .

بغلة السلطان

لا أذكر كيف تكونت لدى عادة الاستماع إلى خطب الرؤساء ثم عادة مشاهدتها ، ثم عادة اقتناء الكتب التى تضم نصوصها وقراءتها بين الحين والآخر ، فأنا انتمى لجيل لم تكن الخطابة ـ السياسية وغير السياسية ـ من الأنواع الأدبية الشائعة حوله ، كما كان الحال فى الجيل السابق ، فقد دهم الراديو جيلنا ، ثم اقتحمه التليفزيون . . وحاصره ضيق الوقت . . وضيق الصدر ، ولم يعد فيه مكان لشىء شاعرى سواء كان خطبة . . أو حتى قبلة !!

وكان عبد الناصر هو خطيب جيلنا الوحيد ، وقد أصبح كذلك بعد خطبة تأميم قناة السويس الشهيرة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، أما قبل ذلك فلم تلفت خطبة الأنظار ، بل إن جيل ساسة ما قبل يوليو ، كان يسخر من خطب « محمد نجيب » ، ومن خطب « عبد الناصر » الأولى ، وكان نجيب قد تحدث مرة ، مبرراً قراراً أصدرته حكومة الثورة ، بتخفيض وزن الرغيف عدة جرامات ، فقال ما معناه : أنها لا تزيد على وزن لقمة ترمونها

للقطط وأنتم تأكلون !

وفى خطب عبد الناصر الأولى ، ومعظمها مرتجل ، كان يكرر بين كل سطرين كلمات « العزة . . والكرامة » حتى أصبحت مثل « لقمة القطة » موضوعاً لتشهير ساسة العصر السابق على الثورة ، بهؤلاء الضباط الذين لا يتقنون الخطابة ، ولا يعرفون كيف يزخرفون الكلام ، وحين أطلق أحد العمال الرصاص على عبد الناصر ، وهو يخطب فى ميدان المنشية بالاسكندرية عام ١٩٥٤ ، واصل خطابه بتلقائية ، واندفع يطالب الناس ، الذين ازعجتهم الطلقات فتدافعوا للخروج من السرادق ، بأن يظل كل منهم فى مكانه ، وكان من بين ما قاله كلماته الشهيرة : إذا قتلوا جمال عبد الناصر ، فكلكم جمال عبد الناصر ، فقد زرعت فيكم العزة والكرامة . . وهى من العبارات « العفوية » التى استخدمت أيامها ـ وما زالت تستخدم حتى الآن ـ للقول بأن عبد الناصر ، كان يحتقر الشعب ، ويمن عليه ، بأنه هو الذى خلق عزته ، ومنحه كرامته !

ومع أن هذا التفسير للعبارة ، فيه كثير من الترصد ضد عبد الناصر إلاَّ أن هذا لا ينفى ، أنها واحدة من العبارات التى تفلت نتيجة لمخاطر الارتجال التى يعرف كل من مارس الخطابة أنها أقسى ما يواجهه الرؤساء حين يخطبون ، فكلامهم ليس ككلام كل الناس ، يمكن التجاوز عن بعض عباراته ، ووقوعهم فى خطأ سياسى ، نتيجة للإرتجال لا يحملهم مسؤولية شخصية، لكنه يحمل الوطن مسؤوليات ، وربما يقوده إلى مأزق ، لذلك يطالب كثيرون ، بأن تكون خطب الرؤساء مكتوبة ، وإلاَّ يخرجوا عن نصوصها وهم يتلونها ، ويطالبون بألاَّ ينفردوا بكتابتها ، أو بتحديد أفكارها ، لأنهم لا يتكلمون باسمهم ولكن باسم الدولة ، وحين كان الملك

هو الدولـة ، قيل : كـلام الملوك . . ملوك الكلام ، فـالملك لا يرجـع فى كلامه ، لأن معنى ذلك أنه لا يحسب ما يقول ، أو أنه لا يستطيع أن ينفذه وهمـا وضعان لا يليقان بالملوك ، أمـا ونحن نعيش فى عصر ، أصبح فيـه ـ حتى الملوك ـ يحكمـون من خلال مؤسسـات ، فلا يجـوز للرؤسـاء ، أن يعرضوا أنفسهم وشعوبهم لمخاطـر الارتجال ، ولا يحق لهم أن يعبـروا عن آرائهم الخاصة ، حين يتحدثون للناس ، فـما يذيعـونه ، ينبغى أن يكـون خلاصة رأى واتجاه المؤسسات التى يحكمون من خلالها ، إذا كان لها رأى ، أو كان الرؤساء ممن يعتدون بآرائها !

على أن هذا الوضع « الصحيح » سوف يحـرم المحكومـين من معرفـة الطريقة التى ينـظر بها حكـامهم للمسائـل ، فالارتجـال ، نوع من فلتـات اللسان ، وفى علـم النفس الحديث ، مـدرسة تعتمـد على هـذه الفلتات ، وعــلى ردود الأفعـال العفــويـة ، لكى تقيس القيم الخلقيــة ، الفردية والاجتماعية للناس ، لأن فلتات اللسـان ، تعبير عن الـلاشعور ، أو هى تعبـير عن حقيقة الانسـان التى يخفيها الكـلام المنمق ، أو المصاغ سلفـاً ، وحين يواجه الرؤساء شعوبهم بكلام مكتوب ، أى محسوب ، يحرمونهم من معرفتهم على حقيقتهم ، فـالكلام المكتـوب ، يخضع للمـراجعة ، مـرة ، ومرتين ، وهو أشبه بالقناع ، لا نستطيــع أن نعــرف منه الملامح الحقيقية لقائله ، ثم إن هذا القائل ، ليس هو الرئيس نفســه ، ولكنه الـذى صاغ الخطاب ، وهو فى النهاية ، فرد آخر ، وقد تكون وراءه مؤسسة أخرى . . أو مؤسسات . . وقد لا تكون !

. . . ويوم مات عبد الناصر ، كان من بين ما قلته ، وأنا اتنبأ بما سوف يختفى فى مصر باختفائه :

.. وسوف نحرم من الخطب الطويلة ، فلست أظن أن أحداً يستطيع أن يخطب ساعة أو ساعتين .. كما كان يفعل !!

.. وبدأ « السادات » عهده بخطب قصيرة ، لا تزيد عن نصف ساعة ، ثم أصبحت الخطب الطويلة من مراسم عهده ، وكان أطولها هو آخرها ، وهى تلك التى ألقاها بين حملة سبتمبر وحادث المنصة ، وكانت أكثرها اضطراباً فى الأفكار ، وعصبية فى النبرات ، وخضوعاً لمخاطر الارتجال ، ولعله كان اكثر حكام مصر ، فى كل تاريخها مكتوب ثرثرة فيما يفيد ولا يفيد ، لذلك أضاف لخطبه الوفيرة ، كماً هائلاً من الأحاديث الصحفية .. والذكريات الشخصية . وانشأ مجلات وصحف ، مثل اكتوبر ومايو ، لكى يشبع جوعه للكلام ورغبته الدفينة فى أن يكون نجماً ، وأن يظل موضوعاً لاهتمام الناس ، ولم يرد صحفياً أجنبياً ، وأحيا تقاليد بعضها ملوكى ، كالاحتفال بعيد ميلاده ، ونقل تقاليع بعضها أمريكانى ، كأحاديث الرئيس الأمريكى الراحل روزفلت ، المشهورة بأحاديث المدفأة ، التى كان السادات يستوحى شكلها ، فيما يذيعه للناس فى أحاديث عيد ميلاده عبر وسيط هو السيدة همت مصطفى !

وكنت مغرماً بسماع خطب السادات المرتجلة ، وما زلت مغرماً بقراءة خطبة سعياً لفهم شخصيته الغريبة المليئة بالتناقضات ، والحافلة بالأعاجيب ، فقد كان الرجل ، غفر الله لنا وله ، يعيش أسير وهم رابطة صناع الطغاة الذين صوروا له ، أو ظاهروا ادعاءه بأنه صاحب رسالة ، وأنه فلتة من فلتات التاريخ ، وأنه يعلّم الشعب وان كل ما يقوله ، هو حكمة مصفاة ، وفلسفة عميقة ، وكلام يصلح للبقاء منارة للأجيال القادمة ، ونبراساً للمستقبل ، لذلك كان كثير الكلام ، وكان يروى الواقعة الواحدة ، اكثر من عشر مرات ، فتأتى فى كل مرة مختلفة عن سابقاتها ،

ومختلفة عن الحقائق التى رواها غيره من شهودها ، وكان اكثر الرؤساء ، الذين فلت لسانهم ، بعبارات ذات دلالة على تفكيره ، وعلى طريقة تناوله للأمور ، ومن مصطلحات عصره الشهيرة التى لم ينسها الناس بعد : ديمقراطية الأنياب والأظافر . . والعصر . والفرم . . وعبارته الغريبة « البلد بقى لها سعر » ، وياء الملكية التى كان يصف بها كل شيء « شعبى » و « جيشى » و « ولادى » و « مجلس الشعب بتاعى » . .

ومع أنه كان اكثر حكام مصر كلاماً عن الديمقراطية ، وادلالاً على الناس بأنه أغلق المعتقلات ـ كأن فتحها هو القاعدة ـ وسمح بحرية الرأى ، إلاّ أنه لم يقصر يوماً فى وصف الذين يعارضونه بأنهم حاقدون ومشككون ومبلبلون وعملاء ، ولم يحدث يوماً ان اعترف هو أو صحافته ، برأى معارض ، أو قبلوا به ، أو بقائله ، وكان حديثه عن الحقد كما رصد د. فؤاد زكريا ذات مرة ، مليئاً بالحقد ، وكانت بعض فلتات لسانه ، تحدث مشكلات ، ومنها أنه خطب مرة فقال عن المحامى الديمقراطى المعروف أحمد نبيل الهلالى .

ـ اعمل ايه . . إذا كنت كل ما أحبسه . . القضا يفرج عنه . .

وأذيعت الكلمة ، ثم تنبه البعض إلى أثرها السيء لدى القضاة ، لأنها صريحة فى الاعتراض على أحكامه ، وفى التدخل فى سلطته ، فحذفوها من الشريط ، وأذيع الخطاب دونها ، لكنها كانت كافية للتدليل على نظرة السادات الحقيقية ، للديمقراطية ، واحترامه الفعلى للقضاء ، وقبوله المدعى للمعارضة ، التى كشفت فلتة « الرمى زى الكلاب » ـ فى أحد خطب سبتمبر ـ عما كان يحمله لها من تشف وحقد !

ولست أدرى هل هو من حسن الحظ أم من سوئه ، أن الرئيس

مبارك ، يعتمد أساساً على الخطب المكتوبة ، وأن ارتجاله ما زال محدوداً ، لم تنتج عنه حتى الآن آثاراً ضارة ، ومن أفضاله التى ينبغى أن تذكر ، فتشكر ، أنه قد نقى الخطب السياسية من كثير من الألفاظ المبتذلة ، التى اقحمها السادات عليها ، فهو أقل عصبية ، واكثر عقلانية ، وهو يقود لسانه ، وليس العكس ، لكن ذلك ربما يحرم كثيرين مثلى ، من متعة اكتشاف الأفكار الحقيقية للرئيس ، بعيداً عن النص المكتوب ، الذى روجع أكثر من مرة ، فى بلد لا يستطيع أحد أن يفهم بالدقة ما يجرى ، وما سيجرى فيه ، إلاّ إذا فهم كيف يفكر رئيسه ، ومن هم حول الرئيس فرغم كل ما يقال عن حكم المؤسسات والقيادة الجماعية ، فما زال الرئيس ، هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة !!

وبحثاً عن ذلك ، سمعت خطاب مبارك الأخير ثلاث مرات ، ورغم أن الخطاب من حيث التوقيت هام ، باعتباره أول خطاب يلقيه الرئيس على أثر أحداث الحملة الانتخابية ، ووقائع الأحد الأسود ٢٧ مايو (١٩٨٤)، إلاّ أننى لم أجد ما كنت أبحث عنه ، صحيح أنه تضمن أفكاراً سياسية ، تستحق التعليق ، والاتفاق والخلاف ، لكنه لم يتضمن عبارة تضىء لى محاولتى لفهم الطريقة التى يفكر بها حسنى مبارك ، اللهم إلاّ عبارة واحدة وردت ضمن مشهد لا أظنه جديداً على المصريين ، أو جديداً على قاعة مجلس الشعب .

وكان الرئيس يقول : « . . وقد بدا للبعض أن يقترحوا أن أتخلى عن رئاسة الحزب الوطنى . . وعندئذٍ يكونون على استعداد لمبايعتى رئيساً مدى الحياة ، وفات هؤلاء ، اننى لا أنشد تلك البيعة ولا أقبلها » . . بعد هذه الفقرة ، صفق الأعضاء ، ولم أستطع أن أفهم مغزى تصفيقهم ، هل هو

تأييد للتجديد ، أم تأييد لعزوف الرئيس عن هذا العرض ، ورفضه له ، لكن الرئيس واصل الحديث ، معبراً عن اعتقاده بأن رئاسة الدولة ينبغى أن تكون موقوتة لا مؤبدة ، وإيمانه بأن رئاسة أى شخص للدولة يجب ألا تتجاوز مدتين متتاليتين ، وأضاف « ويسعدنى أن أكون أول من ينطبق عليه هذا الحكم من رؤساء مصر ، وسوف اتشاور معكم فى الوقت المناسب فى أسلوب تحقيق ذلك » !

فى تلك اللحظة ، تكرر مشهد يحفظه المصريون المعاصرون جميعاً ، لأن ما حدث ، هو طبعته الثالثة ، فقد قال عبد الناصر كلاماً مشابهاً ذات يوم ، وقاله السادات ذات خطبة من خطبه الكثيرة ، وها هو مبارك يقوله ، وفى المرات الثلاث ، خرج من المستمعين ـ وهم دائماً نواب الشعب الذين انتخبهم فى انتخابات توصف دائماً بأنها أول انتخابات حرة ونزيهة ـ من يصرخ بتشنج مقاطعاً الرئيس فى شجاعة :

ـ . . مدى الحياة يا ريس . . مدى الحياة يا ريس ! !

. . والناس يذكرون أن السادات الحّ كثيراً ، وفى الفوران العاطفى الذى أعقب انفراده بالسلطة فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، على أنه لن يجدد مدة رئاسته بعد السنوات الست الأولى ، وقطع على نفسه عهداً بذلك ، طالب بالنص عليه فى الدستور ، وبعد أسابيع صمت السادات ولم يعد يؤكد أنه لن يجدد ، وصدر الدستور ، فإذا به يتضمن نصاً يجيز له التجديد لمرة أخرى ، وما أن قاربت المدة الأولى على الانتهاء ، حتى كانت تمثيلية ديل البغلة الشهيرة ، إذ وقف الشيخ « **أحمد حسن الباقورى** » ، يتحدث أمام السادات ، وأمام الناس ـ فى أحد المؤتمرات العامة ، أظنه المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى ـ ليرجوه أن يقبل تجديد مدة رياسته ويرجوه الا

يقبل من ينافسه فى انتخابات الرئاسة حتى لا يختلف الناس حول « الامام » فيصيبه نتيجة للمعركة الانتخابية ما ينتقص من قدره ، والأئمة فى رأى الشيخ ، كالرؤساء ، لا يجوز الخلاف حولهم ، وحتى بغلة السلطان ، لا يجوز أن تكون بلا ذيل ، لأن ذلك ينتقص قدره ، وهكذا افتى الشيخ بأن يكون الرئيس ـ كالإمام ـ مرشحاً وحيداً وخالداً على بغلة من ذوات الذيول !

وحين اقتربت المدّة الثانية من رئاسة السادات عن الانتهاء ، افتعل أسباباً ومبررات لتعديل الدستور ، كان منها النص على تشكيل الأحزاب ، وإضافة فصل عن سلطة الصحافة وعن مجلس الشورى ، وتحويل الشريعة الإسلامية من مصدر رئيسى للتشريع إلى « المصدر الرئيسى » له ، أما هدفه الفعلى ، فكان تغيير المادة المتعلقة بمدة الرئاسة ، فإذا بالمدتين ، تصبحان مدداً بلا انتهاء ، وإذا ببغلة السلطان تقتحم مواد الدستور ، وإذا بقضاء الله يسبق تدبير البشر ، فيرحل السادات فى مشهد مأسوى ، دون أن يكمل مدته الثانية ، أو يركب بغلة لها ذيل !

والعجيب أن حزب بغلة السلطان ، ما زال يملك أنصاراً ، رغم كل ما عانيناه من عذاب بسببه ، لذلك فوجئت حقيقة ، حين قاطع أحد النواب الذين أتت بهم الانتخابات الحرة النزيهة ، الرئيس مبارك ، معترضاً على قراره بعدم تجديد ترشيح نفسه للرئاسة ، بعد مدته الحالية التى تنتهى عام ١٩٨٦ ، وعلى تفكيره فى تعديل الدستور ، مطالباً إياه بأن يظل رئيساً مدى الحياة ، ودهشت أكثر لأن الرئيس اعترض على اعتراض النائب ، فلم يلقنه درساً فى الديمقراطية ، كما أراد الرئيس ، أن يلقن حزب الوفد ، الذى ينسب إليه الاقتراح الخاص بأن يترك الرئيس الحزب الوطنى ، فيبايعه الوفد

رئيساً مدى الحياة ، بل اعترض عليه ، بسبب آخر تماماً ، وهو استغلال صحف المعارضة ، لموقف النائب ، وتحويله إلى « مانشيت » !!

. . وهكذا تناقض المنطق الديمقراطى « الذى ساق به الرئيس رده على . اقتراح حزب الوفد غير الديمقراطى ، مع المنطق الذى رد به على معارضة حزب بغلة السلطان غير الديمقراطى أيضاً . . وبدلاً من أن ينقد الرئيس نائب الحزب الوطنى ، نقدنا نحن ، الذين لا ناقة لنا فى الموضوع . . ولا جمل ولا بغلة !!

(*) « الأهالى » ١٤٣ فى ٤ يوليو ١٩٨٤ .

أضغاث أحزان

مـا حدث تحـديداً هـو أننى كنت أمارس عـادة رديئـة ، فشلت فى أن التخلص منها رغم محاولاتى الصادقة على مدى العمر . غادرت مكتبى بعـد يوم لم أضع فيه القلم إلاَّ لأشعل سيجارة من أخرى ، أو أحسو رشفة قهوة تتلو أخرى ، وقبل أن أغادره بقليل جاءنى صديق بكنـز كنت أجرى وراءه منذ أسابيع : حيثيات الحكم فى قضية الجهاد . تصفحتها بسرعة وأنا أعبر الطريق . تفادانى قائد سيارة بمهارة . صرخ بعصبية : ـ فوقوا بقى يا ولاد الكلب !

. . . .

أطبقت الحيثيات فتصاعدت من بين دفتيها صرخـات المعذبـين وعواء الكلاب وأنين الجرحى ، تدلت من حـوافها المضمـومة أطـراف السياط ، أحسست لزوجة الدم فى أصابعى التى تحملها وحين ضممتهـا إلى صدرى مستنى رجفة كهرباء ، فارتجف قلبى وخاف .

ألقيت حقيبتى المتخمة بالأوراق والصحف على أول مقعد صـادفنى فى

بهو منزلى . فتحت الراديو لأسمع آخر الأنباء ، ضبطت التليفزيون على القناة الأولى لأشاهد نشرة التاسعة ، جلست إلى المائدة لآكل شيئاً غير القهوة والسجائر ، رصصت الأطباق فى نصف دائرة حول حيثيات الحكم التى أعطيتها عيونى المجهدة . إحدى أذناى كانت مع التليفزيون . وكانت الثانية مع الراديو . تحدث أحدهما عن دول الساحل الأفريقى التى تعانى من موجة جفاف أتت على الأخضر واليابس ، وشردت عشرين مليوناً من الأفارقة بعد أن شح الزرع ، والضرع . . وقال الآخر أن عدة آلاف من أطنان المعونة قد وصلت إلى معسكر كوريم للاغاثة ، الذى يضم مائة ألف لاجىء أثيوبى ، لكن ذلك لم يوقف الكارثة ، مات ٢٠٪ من الأطفال بسبب الجوع والبرد . . والبقية فى حياتكم !

على الشاشة وضعوا ملعقة من حساء المعونة على شفتى طفل فلم يجد انفاساً تعينه على ابتلاع الطعام . فى اللحظة ذاتها كانوا يضربون واحداً بالسياط على الصفحة ٣٨٥ من حيثيات الجهاد . انبعث صوت صراخه مرعوباً كأنه يستنجد بى ، أبعدت وجهى عن الحيثيات خائفاً . عبارات تقارير الطب الشرعى باردة كخطب المسؤولين ومقالات المنافقين ، وكلمات الحب الكاذبة : تهتك بعضلات الاليتين ورضوض بعظام الحوض وكسر بعظمة الفخذ اليمنى ، حدثت من اصطدام أجسام صلبة بجسد المتهم ، مضى عليها شهور .

طال السوط أطراف أصابعى التى كانت تحمل اللقمة ، تركتها لأقلب الصفحة : كانت محتشدة بالكلاب وبالسباب وتهشيم الضلوع وتكسير العظام والكى بالنيران . شممت رائحة لحم يحترق . عافت نفسى قطعة من اللحم كنت قد استبدلتها باللقمة . شوش الصراخ المنبعث من الحيثيات

على أغنية كان الراديو يذيعها .

نقل الراديو عن متحدث باسم الأمم المتحدة قوله أن عشرة آلاف افريقى يموتون يومياً من الجوع ، وقال أن مئات الآلاف من الجائعين فى اثيوبيا ينتظرهم الموت إذا لم تصلهم الامدادات السريعة ، وأضاف : انهم يموتون بأسلوب واحد . . غيبوبة تعقبها رجفة شديدة ثم الموت . .

رحل الأطفال الذين كانوا يغنون على الشاشة إحدى اغنيات عيد الطفولة ليتركوها لمذيعة حملت الميكرفون ووراءها الكاميرا إلى مستشفى للأطفال . اقتربت من طفل نحيف هزيل (خيل إلى أنه هرب من معسكر كوريم) سألته :

ـ عندك ايه يا حبيبى ؟

بعد تلعثم قليل . . قال :

ـ عندى انيميا حادة . .

وضعت المذيعة يدها على كتفه . . ادارته لتلتقط الكاميرا وجهه الأصفر المهزول . قالت وكأنها تعرض نسناساً فى قفص القرود وعلى وجهها ابتسامة بلهاء :

ـ شفتم يا أطفال . . أهو ده نتيجة اللى ما بيسمعش كلام بابا وماما . . وياكل كويس . . ويشرب كوباية اللبن الصبح !!

دق جرس الباب . كنت أعلم أنه هو فذلك موعده . تجاهلت الدق فتواصل . فتحت الباب وأمرى لله . كان يقف وعلى شفتيه ابتسامة تجارية ، هى أكثر ما يستفزنى . وكان قسط اللبن يستقر بين أقدامه قلت :

ـ مش انت اللى بتبيع الكيلو بـ ٨٥ قرش . . احنا بناخده من زميلك بـ ٦٥ قرش .

ـ يا بيه دا حرامى . . والله العظيم بيغشه بميه !

حين عدت إلى مكانى من المائدة : كانت صفحات من الحيثيات قد تحركت ، نسيت الصفحة التى توقفت عندها ، فلا فارق بين واحدة وأخرى ، اختلط صراخ الصفحات بمذاق الطعام الذى أصبح خلاً . احتل المعذبون مائدتى . جلسوا فى صحونى . مدوا إلى أذرعتهم المكسورة ، وآذانهم المسكونة بفاحش السباب ، ولحاهم المخضبة بالدم ، ووجوههم التى خمشتها الكلاب ، ولحمهم المشوى . . . . .

لحظتها حدث ما كنت أخشاه ، وأهرب من ذكراه عشرين عاماً طويلة . أخفيه فى ابتسامتى ، وأطويه فى شرودى ، وجدت نفسى بينهم ومثلهم على مائدتى وبين صحونى ، كان الفصل خريفاً كهذا من عام كهذا رقمه ١٩٦٦ . عارياً كنت ومصلوباً إلى مشجب حديدى فى الزنزانة رقم ٣ بمعتقل القلعة . وكنت خجلاناً من عريى . نزفت عرقى كله فى وهج كشاف ضخم سلطوه طوال الليل على عينى المجهدتين . بين الحين والآخر كانوا يطلقوننى . يعصبون عينى . يسوقوننى بالعصى تنهال على كل مكان من جسدى الذى لم يكن قد عرف الألم بعد. يسحلوننى ، يمسحون بى بلاط المعتقل من شماله إلى جنوبه ، ومن مشرقه إلى مغربه .

تتبعثر على البلاط ، الكتب التى قرأتها ، والأفكار التى عرفتها ، والأحلام التى أتوق إليها ، وأبيات الشعر التى ترنمت بها . يسيل الدم من احتكاك جسدى بالبلاط ، لكن الألم من القلب جاء . نزف فى صمت كبرياء شاب ريفى يخجل أن يقول آه ، ويتعالى أن يتسول شيئاً ولو كان ماء الحياة . يعيدوننى إلى صليبى . عطشاناً كنت وخائفاً لكننى لم أبك . كان الصراخ ينبعث من كل الزنازين فاتوهم فيه ـ وأنا معلق وفى شبه غيبوبة ـ صراخ أبى وأمى وأخى الصغير والأطفال

الذين لهوت معهم فى حوارى قريتى ، والفتيات اللواتى احببتهن والتلاميذ الذين صادقتهم ، وخالاتى وعماتى وجدتى التى ماتت. أدركنى الجفاف فاشتهيت قطرة ماء ولو كان الثمن ما بقى من العمر . عند العصر دخل الرائد « عاصم الوكيل » الزنزانة . فى يده زجاجة كوكا كولا يتناثر رذاذ الثلج على مسطحها . قال :

ـ ما رأيك فى الكرافته التى البسها ؟

ـ مش حلوة !

ـ ليه ؟

ـ رأيى كده !

ضربنى بحافة الزجاجة اسفل ذقنى وأصل الضرب بقوة حتى كان يخلع فكى ، مدببة كانت فتحة الزجاجة. لم أحس بالألم. انعشنى ملمسها البارد وملأت رائحتها الشهية خياشيمى . استرددت بعضاً من وعيى الغائب نتيجة لضرباته . قال :

ـ تعرف أنا رايح فين ؟

ـ .... ؟

ـ رايح السينما مع بنت زى القمر . . ارجع الاقيك اتكلمت يا ابن القحبة !

تذكرت وجه أمى الوضىء ، وهى تستيقظ كل فجر لتتوضأ وتصلى . سمعت فى الصمت الذى أعقب رحيله، صوت دعائها الخاشع فى السحر : يا رب يبارك فى عافيتك يا صلاح يا ابن بطنى ويكفيك شر سكتك .

كان « عاصم الوكيل » قد القى بما تبقى من زجاجة الكوكا كولا على أرض الزنزانة ، فسال على الأرض . اشتهيت أن يطلقوا قيودى لحظة لأمسح بلسانى المشقق بلاط الزنزانة ، تاهت الفكرة فى غيبوبة العذاب .

حين تنبهت كان زمن لا أدريه قد مر . مصلوباً كنت على مشجبى وكشاف فى عينى والمكان بطاح مكة . كانوا قد جاءوا برجل أسود حبشى . طرحوه على ظهره على مرمى البصر من جسدى المعلق . على صدره صخرة ضخمة تفح حرارة وتتصاعد منها رائحة اللحم المشوى . فى مواجهته كان الرائد « زكريا عمار » يجلس تحت مظلة تقيه القيظ وكان يحتسى زجاجة كوكاكولا مثلجة ويهتف : كوكاكولا هى الأصل . كف عن الهتاف لحظة . قال للرجل الحبشى الراقد تحت الصخرة :

ـ لا تزال هكذا (ثم أشار إلى وقال) : أو هكذا . . حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

قلت : عرفتك . . انت بلال بن رباح . . فماذا أوقعك فى يد الرائد زكريا . . قال : هذا سيدى الرائد أمية بن خلف سيد بنى جمح وأنا مولى من مواليهم . أحدٌ . . أحدٌ . قلت : إذا كان هذا أمية بن خلف ، فأنت إذن بلال بن سبارتاكوس . قال : يجوز .

اختلطت الأزمان وتداخلت الأيام فلم أعد اعرف لاى زمان تنتمى . عطشاناً كنت ، وكان « زكريا بن خلف » ، يروى رمال الصحراء بصناديق الشويبس ، ويقول :

ـ مات ياسر . . وماتت سمية وستموتون جميعاً لأنكم حمقى .

. . . .

إذن المؤذن على مئذنة جامع « محمد على » . . قلت : ستصلى أمى الفجر الآن وتدعو الله كعادتها أن يقينى شر السكك . وقال الرائد زكريا بن خلف : عن اذنكم . . سأصلى الفجر حاضراً خلف الامام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأُطْعِم القططة فقد أوصانا الرسول بذلك ، وقد دخلت

امرأة النار في قطة حبستها وأجاعتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض .

قبل أن يعود ، كانوا قد زحموا الزنزانة بأقوام بلا عدد . وكان ضابط الجوازات قد جلس على بابها ليتأكد من أن أحداً من الوافدين الجدد ليس مسجلاً في قوائم الارهاب الدولى . جاءوا بدميتروف وفوتشيك و « محمد عثمان » و « اسماعيل الفيومى » و « محمد عواد » و « شهدى عطية » . . قلت له : كنت أود أن احتضنك يا عم شهدى ، ولكنك ترى الحال . قال : ولا يهمك شدة وتزول . وجاءوا بعدد من الرهبان . سألهم ضابط الجوازات عن تأشيرة الدخول بريبة قالوا: ولكن الامبرطور « دقلديانوس » سحبها منا قبل أن يقدمنا طعاماً للأسود بيوم واحد ، بناء على نصيحة كبير أطبائه، فقد خشى أن تؤثر المواد الكيماوية التى تستخدم فى صنعها على امعاء الأسود الرفيعة . . انزلونى من فوق صليبى . جاء الطبيب . . كشف على . نظر إلى « المقدم فتحى قته » وقال :

ـ قلبه جامد ويحتمل . توكلوا على الله وواصلوا عملكم !

كانت شقتى قد ازدحمت بالضيوف وكانوا جميعاً يتوجعون على مائدتى وبين أطباقى . وكنت قد أشعلت سيجارة ، لكنهم رفضوا التدخين . وكانت مذيعة وضيئة البسمة تقول على شاشة القناة الأولى : أن الامريكيين قد احتفلوا بعيد الشكر . واستهلكوا فى يوم واحد ٨٠ مليون ديك رومى . وان اكثر من ٢٠٠٠٠ طن من اللحوم قد القيت فى اليوم التالى فى صناديق القمامة فى انحاء الولايات المتحدة . . وقال تقرير لاذاعة واشنطن العربية أنه من المتوقع أن تستفحل المجاعة فى أثيوبيا وتشاد وكينيا والنيجر والسنغال ومالى وموريتانيا ، طرقت جسد الراديو بأصابعى قلت بصوت عال لكى

تسمعنى المذيعة فى واشنطن :

ـ هل من بين هؤلاء الموتى الأحباش ، أحد ينتمى لعائلة بلال بن رباح الحبشى مولى أمية بن خلف . لم ترد على واشنطن .

. . . . . .

انقطع التيار الكهربائى فجأة . . صمت الراديو والتليفزيون وسكت انين ضيوفى ، لكن المائدة كانت مغمورة بالدم . ارتجفت خوفاً فى الظلام . اشعلت شمعة ، حملت حيثيات الحكم على صدرى فابتل دماً كوى أضلعى . وأنا فى طريقى إلى الشرفة ألقيت نظرة عابرة إلى حمامى . . كان يجلس هناك بجوار البانيو . . هادئاً يشرب كأساً من العرقى ويدخن سيجاراً . اقتربت منه مرتعباً ومعى ضيوفى . وقفنا على باب الحمام

ـ ألا تعرفوننى ؟ . أنا وجيه انطاكلى من المكتب الثانى السورى . منذ ربع قرن وأنا اجلس بجوار البانيو . أنا رحالة عالمى ، آلف العالم لكى ابحث عن بانيو لأجلس بجواره . هذه هوايتى الوحيدة ، منحتها عمرى وأنا أعرف كل ما يستجد من مكتشفات فى عالم البانيو لذلك اصبحت موديلاً شهيراً لكل اعلانات البانيو . الم ترنى وأنا أطالبك بأن تنسف حمامك القديم . أنا عبد المأمور . قالوا لى أن فرج الله الحلو شيوعى خطر وملحد . قبضت عليه . ضربته . قال لى أنه مريض بالقلب . لم أصدقه . كلهم ملاحدة كاذبون ويقولون هذا . ضربته . وضعت فيشة الكهرباء فى جسده . مات . دفناه فى مزرعة الضابط سامى جمعة . بعد أيام نبشت الكلاب المكان . ذهبنا فى الليل لننقله إلى مكان آمن . شربنا العرقى بوفرة لنتغلب على الظلام والبرد والخوف ، حفرنا . أخرجناه . غمرنا جثته

بالنوشادر لكى لا نشم الرائحة . نشرته بيدى هاتين بالمنشار عشر قطع وضعته فى أكياس بلاستيك . أخذناه إلى منزلى بجوار غوطة دمشق . سددت فتحة البانيو بالاسمنت . افرغت فيه جمدانه حامض كبريتيك مركز . مايه نار يعنى ، القيت بالقطع العشر فى البانيو . غطيته بباب قديم . ظللت ثلاثة أيام بجواره اقلبه بين الحين والآخر . أتابع الأذرع وهى تذوب والأخفاذ وهى تذوى ، ظلت رأسه وحدها عصية على الذوبان . وكانت عيونه سابحة تنظر إلىّ لم تذب إلاّ فى غروب اليوم الثالث . لم يبق منه سوى رغوة . . كشطتها بكوز ، والقيتها فى حفرة أمام باب منزلى ، من يومها وأنا أعيش بجوار البانيوهات اتجول وراءها فى أرجاء المعمورة ، أنا أعشقها كما تعشق الكتب وعيون النساء وأرض الوطن وصدر أمك ، لا تؤاخذنى ، انتهزت فرصة الظلام ، وتسللت إلى شقتك ، سأشرب هذا الكأس من العرقى ، ثم أواصل العمل .

كنت مذهولاً تماماً . . حين قام بهدوء ووقار . تناول كوزاً من مكان ما بالحمام . . كشط به شيئاً من سطح البانيو الفارغ من أى شىء . . تقدمنى إلى الشرفة ، نظرنا معاً إلى الطريق المضىء المزدحم بالناس والزغاريد والسيارات الفارهة وثغاء التليفزيون ، ظل يتأمل فى الناس السارحين فى الطريق ، لحظة ، قبل أن يندفع بعصبية ليلقى بمحتويات كوزة الفارغ فوق رؤوس السابلة ، ثم يعود إلى البانيو ، ومنه إلى الشرفة ، وأنا استحثه . ازدحمت الشرفة بضيوفى ، أحاطوا به مثلى يستحثونه . شاهدت بلال بن رباح وشهدى عطية ومحمد عواد وسبارتاكوس ، يتابعون وجيه انطاكلى وهو يلقى حامضه فى الطريق بحماس ، ولا أذكر لحظتها ، هل أنا الذى قلت ، أم هو الذى قال ، أم أن امى التى كانت تتوشح ببياض وتصلى خلف سمية

ـ أم عمار بن ياسر ـ هى التى قطعت صلاتها فقالت، أم اننا جميعاً كنا نقول ، أم أن صوتاً فى الطريق هو الذى كان يصرخ فى جنون متتابع :

ـ فوقوا . . يا ولاد الكلب !

(*) « الأهالى » العدد ١٦٦ فى ١٢ ديسمبر ١٩٨٤ .

محطة الهلباوى

فى شهر واحد قدم د.عبد العظيم رمضان ، استقالته من التجمع مرتين ، ونشرها ثلاث مرات ، وفى المرتين كرر اسباباً وأضاف الفاظاً وغير أفكاراً ، واستحدث مواقفاً . وفى هذا وذاك ، أصبحت حالة الدكتور رمضان « فرجه » تعرض فى وقت واحد ، فى دارين من دور العرض الحكومية ، غير ما يستجد ـ هما « اكتوبر » و « اخبار اليوم » ـ لتثير العطف لا الغضب ، والسخرية لا التفكير، والتسلية لا الحوار !

ومن حق الناس علينا أن نسليهم بألاعيب الدكتور رمضان ، الذى استقال من التجمع وهو ليس عضواً به (!!) وبرر استقالته بأنه يدافع عن منظمة التحرير الفلسطينية مع أنها تقاطع كتبه وتستنكر كل كتاباته ومواقفه والذى اختار أن يدافع عن اليسار الحقيقى ضد اليسار الجامد ، فى صحف عريقة فى يمينيتها (!!)، واتهمنا بالارهاب الفكرى فى صحف فاشستية ، أيدت بالذراع والباع كل إهدار للحريات (!!) وقال إننا نتجاوز أدب الحوار ، بينما اعتبر اتهامه لنا بالعمالة للسوفيت نوعاً من الأدب الرفيع الذى

يليق بأساتذة الجامعة والمفكرين (!!).

أما ما يدعو للسخرية حقاً ، فهو أن « الدكتور رمضان » ، أنهى استقالته الأولى ، التى نشرتها مجلة « اكتوبر » فى ٣ فبراير ، بأنه سينتقل « للقتال » تحت لواء الحزب الوطنى ، بعد أن اكتشف « أنه كان يقاتل معركة هذا الحزب خلال السنوات السابقة من خارج أسواره » ، وبعد أن اتضح له ، أن يؤيد كل سياساته الخارجية والعربية والداخلية، من معركة السلام إلى معركة العراق وايران ، ومن الانفتاح الانتاجى ، إلى الديمقراطية السليمة ، وبعد أن تبين له أنه « من الأفضل أن يحارب المفكر من حصن حزبى ، يتفق معه فى كثير من آرائه السياسية الاجتماعية » ، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع نشر الدكتور رمضان استقالته الثانية [اكتوبر واخبار اليوم ٢٣ فبراير ١٩٨٥] ، فإذا به يعلن فى نهايتها أنه سيبقى مستقلاً فى خدمة جماهيرنا الكادحة ، فيسحب دون تفسير كل تأييده لسياسات الحزب الوطنى ، ويعدل عن « القتال » من داخل حصونه ، ويكتفى بالاستقالة من التجمع الذى ليس عضواً به ، إلى التجمع الذى كان دائماً ينتمى إليه : تجمع انيس منصور وصلاح منتصر وابراهيم سعدة وموسى صبرى ، والمرحوم أنور السادات !

والشيء الوحيد الذى يغرى بالفرجة على حالة الدكتور رمضان . . هو أنه نموذج لنمط من المثقفين يفهمون الثقافة والفكر ، على أنها لسان ذرب ، وقلم سيال ، وعقل يملك مهارة الاحتيال على الحق ليصبح باطلاً ، وعلى الأسود ليجعله ابيضاً ، يلعبون بالأفكار ، ويضحكون على الذقون ، ويسربلون أدنا الأغراض ، بأنبل الشعارات ، ومعظم هؤلاء للأسف الشديد ـ من أصوال إجتماعية متواضعة ، نحتوا ـ بأظافرهم ـ فى الصخر ،

طريقاً صعباً ودامياً ليصعدوا من أسفل الهرم الاجتماعى إلى حيث يصبحون أقرب ما يكونون إلى القمة . . وحين يجدون أنفسهم هناك ، تأسرهم اضواء الكاميرات ، ويفقدون تقدير أنفسهم ، فيستكثرون ما وصلوا إليه ، ويعضون عليه بالنواجذ حتى لا يضيع ، ويتملكهم رعب السقوط إلى القاع الذى صعدوا منه ، وتصطك أوصالهم واسنانهم فرقاً من أعباء الانتماء للفقراء الذين كانوا منهم يوماً ، ورعباً من السجون والفصل والتجميد ، فيتطوعون لتبرير كل ما يفعله السادة ويقنعون أنفسهم أن الثقافة حرفة ، كالحدادة والسباكة والنجارة ، وكما أنه ليس من حق الحرفى أن يرفض عملاً اعتراضاً على رب العمل ، فليس من حق المثقف أن يضن بحرفته على أى نظام حكم ، وبذلك يصبحون بعضاً من حاشية السلطان .

وهؤلاء المثقفون الحرفيون ، يعيشون بضمير قلق ، ووجدان سقيم ، فهم يهاجمون ـ دون اقتناع ـ ما يؤمنون أنه صواب ، ويدافعون ـ دون اخلاص ـ عما يوقنون أنه الباطل ، وهم ممزقون بين ولائهم لذواتهم التى لا يعبدون سواها ، واحساسهم الزرى بالعار لأنهم اعجز وأجبن من أن يضحوا دفاعاً عما يؤمنون فى أعماقهم ، بأنه الحق والعدل ، وهم يغطون أنفسهم أمام أنفسهم بمبالغة فى الاعتزاز بالكرامة ، التى يمرغونها بالالتحاق والارتزاق ، والفخر بالمكانة التى يمنحونها لأنفسهم دون اعتراف من أحد . . والتى صنعوها على حساب كل ما هو قيمة حقيقية ، تمنح الكرامة والمكانة ، وهم يكرهون المخلصين والمضحين ، ومن يملكون جسارة ركل القمة التى يلهثون هم للوصول إليها ، ويتنازلون حتى الركوع للبقاء عليها ، ويحقدون عليهم ، لأنهم يكشفونهم أمام الآخرين ، ويعرونهم أمام أنفسهم ، ولأنهم رمز لذلك الجزء الذى يرفض أن يموت من ضميرهم الذى قتلوه !

وحين يقع أحد هؤلاء فى خطيئة كبرى ، مما يعز على الناس نسيانها أو غفرانها ، يندفع بالفعل ورد الفعل ، للوقوع فيما هو اقدح منها . . ويعز عليه التراجع عن الخطأ ، لأنه اعجز من تحمل اعباء الصواب . . فيعيش حياة معذبة ، كتلك التى عاشها المرحوم « **ابراهيم الهلباوى** » ، ابرز اعلام هذا النموذج .

ولست آدرى لماذا يقترن اسم « **د . عبد العظيم رمضان** » فى وعيى باسم « **ابراهيم الهلباوى** »، ربما لأن الرجلين بدءا البداية نفسها ، ووصلا إلى الشهرة نفسها ، وارتكبا الخطيئة ذاتها . فقد عاش « **الهلباوى** » نصف قرن ينحت فى الصخر . . حتى تحول من فلاح ـ كان مقدراً له ، أن يظل يرعى الماشية ، فى قريته الصغيرة بالبحيرة ـ إلى أعظم المحامين فى عصره ، فذاع صيته ، ونبه ذكره ، وجرى اسمه على ألسنة الناس ، مجرى الأمثال ونحت «**عبد العظيم رمضان** » فى صخر متشابه ، وإن كان أقل صلابة ، حتى صعد من عامل بهيئة النقل العام إلى استاذ جامعى ، وبدلاً من أن يصبح ناظراً لأحد محطات الأتوبيس ، اصبح عميداً لأحد كليات الجامعة ، وذلك هو الفصل الواحد السعيد فى حياة الرجلين !

وفى حياتهما معاً ـ بعد هذا ـ مثال احتذياه ، أو قلداه ، أو نافساه ، دون أن يملكا كل صفاته أو ظروفه ، فقد كان «**الهلباوى** » يعتبر نفسه فرس رهان مع « **سعد زغلول** »، زميله فى الأزهر وفى تحرير الوقائع المصرية ، وفى التلمذة على « **الأفغانى** » و « **محمد عبده** »، وظل « **عبد العظيم رمضان** » فى أعماقه يطمح للمكانة التى حققها استاذه ومكتشفه والمشرف على رسالته للماجستير « الدكتور محمد أنيس » . وكان ـ فى أواسط الستينات ـ أستاذاً جامعياً لامعاً قريباً من سلطة اتخاذ القرار ، وكان يدرس فى المعاهد الاشتراكية ، ويكتب فى الصحف ، ويخوض المعارك الفكرية

والسياسية ، وينشىء مراكز البحث ويشرف عليها . . وكان إنتماء «عبد العظيم رمضان» للطبقات العاملة ، واشراف «محمد انيس» على رسالته هو سبب الاحتفاء المبالغ فيه بالرسالة التى انهاها صاحبها ، حين كان الغناء للعمال والفلاحين فى الاذاعة والتليفزيون والصحف من طقوس الحكم الناصرى ، وهكذا وجد «د. رمضان» نفسه ظلاً أمام كاميرات القمة وهو ما يزال فى سفحها ، فارتدى بسرعة رداء الاشتراكية الذى كان ـ آنذاك ـ شرطاً للصعود ، وبالغ فى تقييمه لإنجازات ثورة يوليو ، بما لم يفعله أكثر المتشددين لها حماساً، حتى أنه اعلن فى كتاب له، أن انتصار مجلس قيادة الثورة على خصومه فى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤ كان دليلاً على أن البروليتاريا قد صرعت البرجوازية الكبيرة (!!) وشهد فيه أنه عاش «التحولات الديمقراطية والاشتراكية العظيمة التى احدثتها ثورة يوليو فى تربة البلاد الاجتماعية والاقتصادية» ، وهى شهادة سحبها الدكتور بعد ان انتهى العهد ، وانقلب عليه ورثته ، ولم تعد ترجى منه فائدة فى الصعود لقمة أو للبقاء تحت الأضواء فأصبحت شتائمه المفضلة للناس ، أنهم من عملاء العهد الناصرى ومن صبية مراكز القوى ! أما ابحاثه الأكاديمية ، التى تلت انقلاب الأوضاع ، وابرزها كتابه سقوط الألهة، فقد اكدت أنه شهد ديكتاتورية عظيمة ، وعاش اشتراكية مزيفة ، ولم ير أى انتصار.

وهكذا اختار «عبد العظيم رمضان» . . وقد فقد فرصة للمعان فى العهد الناصرى بعد افول نجمه، أن يترك طريق «محمد أنيس» ليسير على درب «ابراهيم الهلباوى» ، وكان «الهلباوى» فى ذلك الحين (١٩٠٦) حزيناً لأن منافسه «سعد زغلول» ـ قد أصبح بحكم مصاهرته لرئيس الوزراء المرضى عنه من الاحتلال مصطفى فهمى باشا ـ وزيراً . . وحين استدعى ليكون مدعياً عاماً فى محاكمة فلاحى دنشواى ، وجدها فرصة

ليرضى عنه من يملكون تسكين الناس فى القمة ، فتحمس للمهمة ، واعطاها كل جهده ، وسخر لها مواهبه القانونية ، وكل ذلاقة لسانه ، وفصيح بيانه ، ووقف بجسارة لم يغفرها له التاريخ أمام محكمة عسكرية بريطانية ليطالب باعدام فلاحى دنشواى باعتبارهم « عصابة من البلطجية قتلت جندياً من جنود بريطانيا العظمى التى حرر احتلالها مصر ورقاها وعلمها مبادىء الواجبات الاجتماعية والحقوق المدنية » . .

وكان « **عبد العظيم رمضان** » يسعى منذ منتصف السبعينات لكى يرث الدور الذى توقف أستاذه « **الدكتور أنيس** » مختاراً عن القيام به ، ويحاول أن يشق لنفسه طريقاً متميزاً وسط ظروف معقدة ، فالحواشى التى تحيط بالسادات كثيرة والأماكن فى الحاشية مشغولة بالكامل ، وهو لا يريد أن يخلع رداء اليسار ليتميز به بين الحاشية ويتيه به بين الناس ، وحين جاءت زيارة القدس ، ظنها الرجل فرصته ـ كما ظن « **الهلباوى** » أن شنق فلاحى دنشواى هو العمل الذى يرضى به الاحتلال والوطنيين . . لأنه ترضية لا قيمة لها حالت بين اتخاذ اجراءات أشد ـ أليس الدفاع عن السلام وزيارة القدس ، أمر يرضى السادات واليسار ويكفل للانسان أن يكون يسارياً وحكومياً فى آن واحد . .

وكانت تلك هى بداية الخطيئة الكبرى ، التى عز على « **عبد العظيم رمضان** » أن يتخلى عنها ، فاوقف حياته من يومها للدعاية لكامب ديفيد وللدعوة للتنازل امام اسرائيل ، وللدفاع عن السلام الامريكانى .

وما زلت أذكر يوماً من خريف ١٩٧٥ ، اطلعنى فيه د. رمضان ، على مقال كان قد جاء به لينشره فى جريدة « الجمهورية » ـ ولم أكن قد فصلت من عملى فيها بعد ـ وتلطف فطلب رأيى فيه ، فوجدته تأييداً غير مشروط أو

متحفظ لاتفاقية الفصل الثانى بين القوات التى وقعت فى اغسطس ١٩٧٥، وتبريراً لما تتضمنه من تنازلات ، اكد كل المراقبين فيما بعد ، انها كانت الطريق الذى قاد السادات لكامب ديفيد ، فقلت له دهشاً :

ـ ولكن الاتفاقية صريحة فى انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، وبتوقيعها بعد فتح قناة السويس ، تكون كل أوراق الضغط التى حصلت عليها مصر بحرب اكتوبر قد تبددت ، وهذا يضع المفاوض المصرى والعربى فى مأزق إذا ما انعقد المؤتمر الدولى . .

وحين وجدته مصراً على النشر قلت فى محاولة أخيرة :

ـ هب ان رأيك صحيحاً . . فلماذا لا تنتظر قليلاً حتى تنكشف الأمور . . إنك لست كاتباً سياسياً ، ولست حاكماً ينبغى عليه أن يصدر القرار ، والذين يؤيدون الاتفاقية كثيرون ، فلماذا تضفى عليها مباركة يسارية ليست فى حاجة إليها !

وذهلت حقاً حين قال لى :

ـ إن علينا نحن اليساريين ألاَّ نترك اليمين ينفرد بتأييد السادات حتى لا يشده إليه ، وينبغى أن نسنده لنجذبه إلى صفوفنا !

أدركت ـ بأسى شديد ـ أن الأمر عند « عبد العظيم رمضان » لم يعد أمر مبادىء ومواقف ، ولكنه مسألة صراع على الجلوس على حجر الذين يحكمون ، وتنافس على تأييدهم أياً كان ما يفعلون ولأن السادات كان ايامها ـ فى حاجة إلى تأييد يسارى يواجه به المعارضة العربية والمصرية الواسعة لطريقة استثماره السياسى لثمار نصر اكتوبر ، فقد نشر مقال عبد العظيم رمضان ، وأشير إليه للمرة الأولى فى الصفحة الأولى ، تلك كانت بداية مأساة عبد العظيم رمضان ، حتى أنه تزعم اثناء مفاوضات تشكيل التجمع كمنبر فى عام ١٩٧٦، الدعوة لقصره على الماركسيين

وحدهم ، وطرد الناصريين منه ، لأن السادات آنذاك ، كان يعتبر أن مكان الناصريين هو حزبه ، وأن الذين لا ينضمون إليه ، أو يرفضهم هو ، عملاء لمراكز القوى ينبغي حرمانهم من النشاط السياسي وكان يظن أن حزباً ماركسياً سوف يؤيد خطواته وسياسته ، وفي العام التالي مباشرة ، اندفع عبد العظيم رمضان ، يؤيد دون حرص ، زيارة القدس ، وكل ما تلاها من خطوات . وبينما كان كثيرون ـ حتى في صفوف ادارة السادات ومن قيادات حزبه ـ يتحفظون على ما يفعل ، وينفضون عن تأييده ، وقد اكتشفوا أنه في كل خطوة ، يتنازل دون مكاسب ، فقد تنازل في كامب ديفيد عن نصف ما قاله في الكنيست ، وتنازل في اتفاقية الصلح المنفرد مع اسرائيل عن نصف ما وقع عليه في كامب ديفيد ، فقد ظل « عبد العظيم رمضان » مؤيداً خالداً لا يتبدل ولا يتغير !

وكما حدث مع « الهلباوى » تماماً حين انتهت مرافعته البليغة ضد فلاحي دنشواى ، إلى هبوطه من القمة إلى السفح ، وضياع ما بنى من مجد ، فحمل ـ على امتداد ثلاثين عاماً تلت ذلك ـ لعنة ما فعل ، فقد خسر «عبد العظيم رمضان » كل ما حققه وهو يحفر الصخر لكي يصعد من أسفل السلم الاجتماعي إلى قمته ، واجهضت احلامه الطموح : قاطعت الدول العربية كتبه ، ورفضت المجلات والصحف العربية مقالاته الغزيرة ، وامتنعت دور النشر العربية عن طبع كتبه ، بل ان مجلة «المصور» الحكومية اضطرت لعدم النشر له ، حتى لا تمنع من دخول الأسواق العربية وادانته منظمة التحرير الفلسطينية واعلن اليسار ـ استنكاره لما يكتب وما يفعل ، ففقد الريش اليسارى الذى كان يظن أنه سيعطيه ماكنة متميزة في الحاشية ، ووجد نفسه محاصراً ومحسوراً في مجلة « اكتوبر » ، الممنوعة أصلاً من دخول الدول العربية ، لمواقف رئيس تحريرها السابق « أنيس منصور » . في تلك

السنوات ، كان التجمع فى طليعة القوى الوطنية المصرية التى عارضت زيارة القدس وكل ما تلاها وترتب عليها ، وكان« السادات » يشن عليه الحملات الدعائية والبوليسية ويصادر صحفه ويعتقل قادته وشبابه وصحفييه فلم يتذكر « عبد العظيم رمضان » أنه عضو به ، ولم تدفعه ديمقراطيته للمطالبة بحق المعارضين لكامب ديفيد فى أن يشرحوا وجهة نظرهم للرأى العام ، ولم يعترض على حوار « السادات » معهم بالفاظ تخرج عن أدب الحوار ، مثل الرزالات والسخافات ، والمرميين زى الكلاب فى السجون ، ولم يعترض على الاستفتاءات المزورة ، أو القضايا الملفقة ، أو الأدب الراقى الذى كان يصف المعارضين فى مجلس الشعب بأنهم بلابيص ولم يدخل التجمع لكى يناقش زملائه فى موقفهم ، ثم يلتزم - كأقلية - برأى الأغلبية ، ولكنه كان يؤيد ما يقوله « السادات » فى صحفه . . وعلى أرضه . . ويعتبر نفسه عضواً عندنا .

وليست الاستقالة التى قدمها عبد العظيم رمضان ، سوى عرض من أعراض حالته ، التى تفاقمت ، ولذلك فهى مليئة بالأكاذيب الضخمة :

فليس صحيحاً أن منظمة التحرير الفلسطينية قد عارضت الانسحاب من معرض القاهرة الدولى السابع عشر للكتاب بسبب مشاركة اسرائيل فيه ، أو طالبت بالاكتفاء بمقاطعة الجناح الاسرائيلى ، ولكن الصحيح أن المنظمة رأت أن تشترك فى المعرض لتواجه الجناح الاسرائيلى ليعرف الاسرائيليون من خلال وجودها إلى أين تتجه مشاعر الشعب المصرى ، ليعرفوا أن وجود فلسطين هو الطبيعى ووجود اسرائيل هو غير الطبيعى . وهو موقف يخص المنظمة ، لكنه لا ينسحب على القوى الوطنية المصرية التى أقرت المنظمة بحقها فى أن تتخذ ما تشاء من مواقف ، خاصة وأن رفض

وجود اسرائيل فى مصر ، ليس قضية فلسطينية ، ولكنه قضية مصرية اساساً ، فلنا أرض ما زالت محتلة وقد شارك « نبيل شعت » عضو المجلس الثورى لفتح والمجلس الوطنى الفلسطينى ـ فى الاجتماعات التى عقدها المثقفون المصريون للتداول حول الموقف من مشاركة اسرائيل فى معرض الكتاب ، ولم يقل بما قال به الدكتور « رمضان » ، الذى نعلم أنه لا علاقة له بالمنظمة ولا حق له بالحديث باسمها ، وقد قال فيها قبل ذلك ما قاله مالك فى الخمر !

وليس صحيحاً أن الدكتور رمضان ، قد اختلف مع التجمع فى طريقة حل قضية الشرق الأوسط ، وظل متبنياً لموقفه الاجتماعى فنحن من جانب ، لم نعرف له موقفاً يعارض به الانفتاح الاستهلاكى أو التبعية الاقتصادية للغرب ، أو المناورات المشتركة معه ، أو اهدار الحريات العامة ، أو سيطرة الطفيلية على الاقتصاد ، أو تدهور معيشة الطبقات الشعبية ، ونحن من جانب آخر ، لا نعتقد أن هناك فصلاً بين الجانب السياسي والاجتماعى فى برنامج أى حزب ،لذلك فنحن نناضل ضد التبعية والفساد والطفيلية فى وقت واحد ولسبب واحد !

وليس صحيحاً أن موقفنا من حل قضية الشرق الأوسط ، هو موقف أممى ، فلسنا حزباً ماركسياً كما كان يريد لنا سعادته . ولكننا تحالف يسارى سياسى . يلتقى على برنامج سياسى وليس على موقف ايديولوجى ، ومطالبتنا بمؤتمر دولى لحل قضية الشرق الأوسط. ليس موقفاً أممياً ، بل هو موقف المنظمة والأردن والسعودية وتونس وليبيا وسوريا ومبارك واسامة الباز والشاذلى القليبى وأوروبا الغربية وهو موقف لا يعارضه سوى أربعة : ريجان وبيريز وعبد العظيم رمضان وموسى صبرى وهو موقف ينطلق من ملاحظة

يعـرفها اغبى تـلاميذ د. رمضـان ، فمحاولـة الحل فى اطـار مثلث كـامب ديفيد ، يعنى أن يظل العرب بين فكى كماشة ذات مصالح واحـدة ، وها نحن بعد ثمانى سنوات من الزيارة المقدسة التى ايدها سيادته ، نقف محلك سر ، فلا اسرائيل اعترفت بـالمنظمـة ، ولا امريكـا قبلت بحقوق الشعب الفلسطينى.

وليس صحيحاً أن موقف التجمع من الدعوة لمقاطعة اسرائيل ورفض كل اشكال التطبيع معها ، هو تطبيق لموقفـه الأممى ، وإلاَّ كان كـل الذين اتخذوا هذا الموقف أمميين . ولكانت كل اطراف الجبهة الـواسعة التى تبنت مـوقف رفض مشاركـة اسرائيـل فى معرض الكتـاب الأخير أمميـون ، وهو مـوقف تبناه : رؤسـاء احزاب الـوفد والعمـل والتجمع والأمـة والأخـوان المسلمين والناصريين والمـاركسيين وممثلين لنـوادى هيئات التـدريس ولدور النشر ولنقابات العمال وللنقابات المهنية ، وفنانين كان منهم نور الشـريف وفردوس عبد الحميد ومحمد وفيق وصـلاح السعدنى وعـلى الحجار وفـاروق الشرنوبى وعزة بلبع . . فهل كل هؤلاء عملاء لدول الرفض وذيول لجبهـة الصمود والتصدى . . وهـل الاشتراك فى مؤتمـر ووترجيت هـو الوطنيـة ، والاحتجـاج على وجـود اسرائيـل قبل أن تعيـد ـ على الأقـل طابـا . . هو العمالة ؟

ويبقى بعد هذا كله ، أن نقول للدكتور رمضان ، أن استقالته الوهمية من التجمع ، تقدم فى ثناياها وبين سطورها موقفاً خلاصته أنه يتبنى التفسير الاسرائيلى لكامب ديفيد ، فهو يؤيد فيها بوضوح وصراحـة ـ بل وقـاحة ـ الحل فى الاطار الاسرائيلى الامريكى وحده ، ويدعو لقبـول التنازلات التى يفرضها هذا الحل ، ويفسر عودة العلاقات بين مصر والأردن ، والاتفـاق

الأردنى الاسرائيلى على أنها جميعاً خطوات على طريق حل القضيـة فى اطار الحل الامبريالى ، على عكس ما يعلنه المشاركون فى هذه الاتفاقات ، وهو يعلن أن الصراع بين الأقطار العربية هو صراع بين قوميات ، ومعنى هذا أن كل منها يبحث عن مصـالحه ، وأن عـلى مصر أن تبحث عن مصالحهـا ، وبهـذا يعود لتـأييـد الصلح المنفـرد ، ويـدعـو الآخـرين للسـير عـلى ذات الطريق ، فيكشف عن أن عروبته زائفة ، كما أن تمحكه فى منظمة التحرير زائف ، وادعاؤه اليسارية هو « ريش على ما فيش » !

أما وهذا هو جوهر مواقف وتاريخ عبد العظيم رمضان فليس من حقه أن يغضب لأننا سميناه « ذى القفه » ، فهو رجـل أعجز من أن يعتـذر عما وقـع فيه من أخـطاء وخطايـا ، وكلما حـاول أن يخـرج من حفـرة وقـع فى دحديرة ، لذلك امتـلأت قفته بأفكار متناقضة ومضحكة ، ونحن نعتذر عن دعوته لاستلهام سخرية عبد الله النديم فى اطلاق الأسـماء عليه ، فـالنديم رجل متشدد ، وحين اتخذ الخديو توفيق موقفاً مشابهـاً لمواقف عبـد العظيم رمضان ، وايد الحل الإمبريالى ، قاد النديم مظاهرات تهتف :

يا توفيق يا وش القملة . . من قال لك تعمل دى العملة .

ولم يكن النديم صبياً من صبيان التجمع ، ولا بلطجيا من بلطجيته ، ولا مرتاداً لحانات الدرجة الثالثة ، ولا لحانات وتـرجيت الراقيـة ، ولكنه كـان أديباً عـظيـماً ، وابنـاً مخلصـاً للشعب ، وكـان يعـرف أن القملة بـلا ملامح ، وبلا طعم ، وبلا موقف ولذلك اطلق اسمها على الخديو توفيق ولم ينس أن يعتذر لها عن الاساءة !

أمـا صبيان التجمـع فهم فخورون بشتـائم الدكتـور رمضان ، لأنهم تجنبوا عاراً ، لم يتجنه ، وحاز أحدهم شرفاً لم يحزه فكان أول مواطن توجه

إليه فى بلدة تهمة القيام بعمل عدائى ضد « اسرائيل الصديقة » ، اما بلطجية التجمع وفتواته الذين كانوا يتظاهرون ضد وجود اسرائيل فى معرض الكتاب هذا العام ، فهم يبعثون بتحياتهم واعتذارهم للدكتور رمضان لأنهم اساءوا لأصدقائه الاسرائيليين ، وهم يقرأون فى زنازينهم محاولة المرحوم ابراهيم الهلباوى المعذبة طوال أربعين عاماً لكى ينسى الناس ما فعله يوم دنشواى ، لكنهم ـ رغم طيبتهم ـ لم يغفروا . . ولم ينسو . .

. . . . .

أطال الله عمر استاذنا يحيى حقى الذي قال :

ـ إن الذكرى الواحدة الباقية للهلباوى تسمعها من كمسارى الأتوبيس فى خط المنيل وهو يعدد المحطات فيقول :

ـ محطة الجراج . . محطة الهلباوى !

(*) « الأهالى » ـ العدد ١٧٧ ـ فى ٢٧ فبراير ١٩٨٥ .

باقة ورد على قبر أمي

قاومت طويلاً رغبتى فى أن أكتب عن أمى ، وكم من مرة قضيت ليلة بطولها أمام أوراقى اكتب وأمزق ، ثم أعيد كتابة ما مزقته ، وتمزيق ما كتبته ، لاكتشف ـ بعد طول العناء أننى لا أستطيع أن أكتب عنها وأننى أعجز من أن أكتب عن سواها ، فينجلى الصباح ، عن ليلة مسهدة ، بلا حصاد !

. . . . .

ومع أننى اعتذر عن فشلى كل مرة ، بحرصى على ألا اشغل الناس بما يعنينى وحدى، إلاّ أننى لم أقتنع مرة، بأنها موضوع لا يشغل سواى، فلم تكن تتميز بشىء تتفرد به عن أمهات ابناء جيلى ، ولذلك رأيتها دائماً فى أمهات أصدقائى ، ورأيتهن فيها ، ورأيت تنويعات على شخصيتها فى قصص وروايات قرأتها ، وفى أفلام ومسرحيات شاهدتها ، وفيما تلوته من أشعار ، وترنمت به من أغان ، حتى بدت لى ملمحاً من ملامح الزمان والمكان الثابتة ، التى لا يحلقها القدم ، ولا يجسر البلى

على أن ينسج فوقها خيوط العنكبوت ، كصفو السماء ، وإيقاع المطر وألق الندى . . كالأهرام والنيل وانفاس الصبح واخضرار الحقول . .

وكانت قد توارت في الظل منذ غادرت طفولتي ، وطرت من تحت جناحيها ، استقبل صباى وشبابي ، في العالم الفسيح الذى لا تحده حدود. ومع أننا لم نعد نتكلم اللغة نفسها ، أو نهتم بالأشياء ذاتها ، ورغم الهجر والتنائى ، فقد ظللت ـ واخوتى ـ عالمها الذى لا عالم لها سواه ، نلف حتى تدْمى منا الأقدام والقلوب ، ونعود ، فإذا بها ثابتة في المكان وفي الزمان ، كالنخلة الطويلة في باحة دارنا ، والجميزة الضخمة على رأس حقلنا ، وإذا بحضنها وسيع كالربيع دافىء كيوم غادرناه !

. . . . . .

وكثيراً ما كنت ألمح في عمق عيونها الجميلة ، نظرة حنين لذلك الماضى الجميل ، حين كانت كل عالمى ، وكنت أعلل نفسى دائماً ، بأن يوماً ما سوف يأتى لا محالة ، افرغ فيه كل ما يشغلنى ، أسند رأسى المثقل بما يعانى على صدرها ، اغسل الهم والحزن وقاتم الذكريات ، أعود طفلاً يجرى ويمرح ويطارد النحل ويصطاد الفراشات ، ويتلقى رخات المطر بفمه المفتوح ، ويسرق البلح من نخلة الجيران ، فإذا ما اصفرت الشمس ، أعود إليها بعد رحلة النهار المنهكة ، تشعل قوالح الذرة في شلية من الفخار ، تشوى حَبّات البطاطا أو كيزان الذرة ، اسمع أهازيجها الحزينة وهى تغنى ، أو حكاياتها الساذجة وهى تروى . أشعر أننى آمن بلا خوف . يضحك القمر وتلعب النجوم وتبتسم الغمازتان على وجه أمى ، وعلى وجه الدنيا . . أنام قبل أن ينضج الطعام على النار !

كزرقاء اليمامة كانت تلمح عكارة الهم في عمق عيونى ، وهى على

مسيرة أيام. وحين انتقلت ـ وقد تعدت الخمسين ـ لتقيم فى القاهرة ، كنت أقول لها دائماً :

ـ سأفرغ يوماً لك . أزور بك أهل البيت كما تريدين . نقرأ الفاتحة للحسين الشهيد . نمسح باب أم هاشم . نزور ستنا سكينة وسيدنا الامام الشافعى . ثم نذهب معاً للسينما يا أمى .

تضحك ضحكة خجلى . تقول :

ـ سيمة ايه يا واد يا مفضوح . . خلى السيما للى زيك !

وما حدث هو أنها قضت معظم سنوات عمرها الأخيرة ، تزورنى من سجن لآخر . عرفت محطة باب اللوق . وحفظت خط حلوان واستطاعت أن تفرق بين الليمان وسجن المزرعة ، هى التى لم تغادر قريتنا نصف قرن ، فإذا ما لقيتنى توشحت بالصمت . . وتركتنى لغيرها من الزائرين ، لكننى كنت أشعر طوال الوقت بأن عينيها تشربانى ، فإذا ما التقت نظراتنا ، قاومت عيونها سؤالى الملح عن أحوالها وحين أترجم نظرتى إلى كلام تقول باقتضاب :

ـ احنا كويسين قوى . خلى بالك انت على نفسك !

وكنت واثقاً أن هموماً كثيرة تقض مضجعها ، كان على رأسها قلقها على ، لكنها لم تضعف يوماً ، ولم تشعرنى لحظة أن مئونتى ـ مادية أو نفسية ـ قد ثقلت عليها ، وتحملت ظروفها ـ وكانت دائماً عسيرة ـ ببسالة عرفتها فيها على مدى العمر ، فقد كانت صوانة الصبر ، وصوانة للسر كانت ، بل أنها لم تعاتبنى يوماً لأننى لم أقابل الحب بالحب ، فقد كانت عفيفة لا تطلب ، حيية لا تحرِج ، ولا تجرَح ، وكانت كاظمة للغيظ،وشامخة الكبرياء كانت. (آه . . ما أقسى كلمة كانت ! !) لذلك كانت تقتل فى عيونها نظرة العتاب على ، لا لأننى قصرت فى حقها ، بل لأننى شغلت حتى عن أن أترك لها

فرصة لتعنى بى ، وتسمع شكاتى وأناتى !!

كانت امرأة واجب : مع الفجر تصحو . توقظنى دقات قبقابها على البلاط وهى ذاهبة لتتوضأ فتصلى . أغفو لأصحو على دعائها لى ولأخوتى . يعطر الصوت أنفاس السحر . فى قراره بحّة فيها توسل كريم وخشوع ذو كبرياء ، ولهفة فيها انفه ، كما يليق بعبد يثق بأن له رصيداً عند ربه تقول :

ـ يا رب . . بحق جاه حبيبك محمد . . ما تسمعنى فيهم سوء وتحبب فيهم خلقك ، وتوقف لهم ولاد الحلال ، وتجعل يومى قبل يومهم !

وحين يخفت الصوت لتبدأ تسابيحها ، أعود فأغفو إلى أن أشعر بملمس كفها الدافىء ، وهى تحبك الغطاء حولى ، إلى أن يستقر على جبهتى لحظات تقرأ خلالها شيئاً من الأدعية ، تبدأ بعدها يوماً من العمل الشاق ، كانت تستعذبه وتسعى إليه ، وتبذله راضية لبيتنا الواسع ـ وكان من بيوت الريف القديمة التى تضم الأصول والفروع ـ وللآخرين ، بلا دعوة ، ودون أن تنتظر كلمة شكر : تعجن وتخبز وتكنس وتطهو وتطعم الدجاج وتشرف على حلب المواشى وتغسل الملابس وتنقى الغلة وتفرط الذرة ، وتصنع الجبن وتقشط الزبدة وتسيح السمن وتجمع البيض ، وتسعى لتزوج العزاب من شبان العائلة ، وتزغرد فى الأفراح ، وتنوح فى المآتم ، فإذا ما جلسنا لطعام ، لم تجلس معنا على مائدة أو طبلية ، ولم تأكل إلاّ ما يتبقى من طعام بعد أن نشبع !

وقد ظلت منذ تعلمت المشى ، إلى أن ماتت ، تقف على قدميها : تبحث دائماً عن شىء تفعله ، إن لم يكن لنفسها فللآخرين . ترفض أن تستريح أو حتى أن تمرض . وحين تجاوزت الستين ، قاومت بشدة محاولتى لمنعها من تكرار نزول سلم العمارة العالى خوفاً على صحتها . كانت مملكتها

قد تقلصت إلى شقة ضيقة ، وتفرق الأحباب كل فى طريق ، فضاقت بها ، وأصبحت تمضي معظم أوقاتها تتفقد الجمعيات الاستهلاكية ، وتقف فى طوابيرها ، وتختار صديقاتها من المترددات عليها ، وتعود بحصيلة من حكايات ترويها لى وهى سعيدة ، واسمعها معجباً بتعليقاتها ، مذهولاً لوعيها الفطرى ، هى التى لم تدخل مدرسة ولم تقرأ كتاباً ، أو تكتب خطاباً ، فإذا ما حاولت أن ا أدفع الحديث ، إلى ما يقترب من السياسة ، مستثمراً تعليقاتها العفوية ، زاغت وغيرت أفكارها ، فقد كانت تعتقد أن السياسة هى التى تحبسنى . وحين قيل لها ان اسمى ينشر فى الصحف ، احتفظت بأول جريدة نشرت اسمى سنوات طويلة ، لكنها فقدت حماسها لما اكتب ، حين عرفت أننى أدخل السجن بسببه ، فكانت كلما رأتنى اقرأ أو أكتب تقول :

- يا ابنى بلاش تمقق عينيك . . ما بلاش القراية دى اللى بيحبسوك عشانها . .

. . . . . .

وكنت أضحك من قلبى ، لكنها لم تر فيما تقول شيئاً يبعث على ضحك ، ومع ذلك ، فلا أذكر أنها ضغطت علىّ يوماً ، أو ابتزت عاطفتى يوماً ، لكى امتنع عن شيء اريده ، أو لكى افعل شيئاً لا أريده ، وكانت هى التى علمتنى القراءة ، وإلى حد ما السياسة . فقد كانت تعود كل أربعاء من سوق القرية ، وقد اشترت كتيبات صفراء ، زهيدة الثمن ، بعضها فى سيرة الرسول ، وبعضها فى سير الصحابة والمجاهدين ، فتدفعها إلىّ وأنا طفل لم يتقن القراءة بعد، فأقرأها لها بين صلاة العصر ، وصلاة المغرب ، وكانت تنصت بشوق يدفعنى لاتقان القراءة ، وتشرح لى أحياناً ما يغمض على مستعينة ببعض ما تحفظه عن واعظات المآتم ، ثم أصبحت أشرح لها ،

وبقى من كتب ذلك الزمان البعيد ، سطور لم تغادر العقل أو القلب ، لعلها كانت ذات أثر فى دفعى إلى ما اخترت من طريق . حين قال النبى لعمه أبو طالب : والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أتـرك هذا الأمر ، ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه . يوم نام على ابن أبى طالب فى فراش النبى ليفتديه . يوم رفض محمد بن أبى بكر الصديق ، أن يحنث ببيعته لعلى ، وقتله معاوية بن جديج ، ووضع جثته فى جـوف حمار ، وأشعـل فيها النـار . يوم قـال بلال الحبشى ، والحجر على صدره : أحد . . أحد !!

. . . .

وكلما أطلّ على فجر وأنا يقظان سمعت دقات قبقابها : أتأمل النور يولد من قلب العتمـة ، كالبسمـة على شفتيهـا . يزدحم مسـطح السماء فـوقى بصوت دعائها الخاشع ، تتداخل الذكريات والأصوات والأيام .

اتأمل نـوافذ البيـوت المغلقة فى العمـارات الطويلة حـولى . لا بد أن امهـات كثيـرات تفعلن ـ الآن ـ مـا ظلت تفعله اربعـين عـاماً طــويلة . تستيقظن مع مولد النور ، والكل نيـام . تتوضـأن وتصلين ، وتدعـين الله بخشوع ، ألا يسمعن عن أولادهن كلمة تسيئهن فيهم ، وأن يجعل يومهن قبل يومهم . تحكمن الغـطاء حول الـرضيع والصبى والـطفل والشـاب ، وحتى حـول المتـزوج وأم الأولاد ، تشعلن المـواقـد ، وتعـددن الافـطار ، وتكنسن الدار ، تطفن بالأسواق وتتشعلقن فى الاتوبيسات ، تسهرن حين المرض ، وتقلقن حين السفر ، وتدخن طوال اليوم ـ العمر ، تحلبن الأيام السوداء ، لكى يظل الموقد فى المطبخ مشتعلاً ، والاناء ملآناً ، ولكى يكبر الأولاد ، فيعـوضون الشقـاء . . آنذاك تمتن فى دعـة وسكون ، كـما ماتت أمى .

هذا نوع غـريب من العظمـة ، لا يدرك مـداها الحقيقى أحـد ، ولا يتوقف أحد امامه ليفسره ، أو يفسر به كنهنا كشعب ، وطبيعتنا كـوطن ، لأن الناس تفهم العظمة باعتبارها خوارق الأعمال والصفات ، فلا يتوقفون أمام أنماط منها ، عاشوا معها تحت سقف واحد ، فرأوا بطولتها وهى تتخلق ضمن تفصيـلات حياة كـل يوم ، وعـاينـوا تضحيـاتهـا خـطوة فخـطوة ، واستمـرأوا عطاءهـا غير المشـروط أو المتردد ، حتى أصبـح ذلـك عـادة لا تستحق الوقوف عندها ، أو الاشادة بها ، أو تفسير دلالتها الغريبة ، فقـد أصبحت شيئاً عاديـاً ، كالشمس والقمر ، كالنيـل والأهرام ، واخضـرار الحقول !

ولعلى لم أدرك ذلك كله إلّا حين ماتت أمى فجأة ، قبل أن يأتى الزمان الجميل ، الذى كنت أنتظره ، لأعنى بها ، واسمع شكواها ، وأطوف بهـا مزارات الأولياء . كانت قد خرجت فى الصباح رغم معارضتى ، قلت : يا حاجة انت عيانة . استريحى النهاردة وحناكل أى حاجة . قالت : أنا رايحة للدكتور . وحين عدت فى الليل ـ بعد طواف يوم شاق ـ دخلت حجرتها . كانت بين اليقظة والمنام . جلست إلى جوارها على السرير . أحطت كتفيها بـذراعى . قلت : كل ده انفلونـزا يا حـاجة . . إنتى لازم عـايزة تشـوفى معزتك عندنا .

كانت عيناى آنذاك ، كما كان يحدث فى الماضى الجميل ، مغروستان فى عينيها ، لكن الكارثـة كانت تـطل : انتشر الاصفرار فى بيـاض العينين . التهب الكبـد الذى قـاوم الدنيـا سنـوات لا عـد لهـا ، آن لـه أن يعتـرف بالمرض ، وأن يعنـو للضعف . هاجمت الصفـراء المرأة التى عـاشت تزرع الخضرة وتربى الفراشات والـطيور ، وتبـذر الحب والحب ، وتزوج الأبنـاء

والبنات، وآن أن تروح فى غيبوبة، وهى تقف - كالجبل الأشم - على قدميها . . وحين كف قلبها - بعد عشرة أيام - عن الخفقان . كشفت الملاءة عن وجهها . كان ساكناً ، هادئاً ، كصفحة النهر . قبلت جبينها . حملت جسدها مع المرضين إلى عربة المستشفى . دفعت العربة وحيداً فى ابهائها . كففت عن مصادرة دموعى . فى غرفة الموتى ، رفعت جثتها إلى المنضدة . وأنا أغادر الغرفة - وعلى يدى آخر مسة من الجسد الذى احتضننى أربعين عاماً - ألقيت نظرة على منضدة مجاورة ، تحمل طفلة صغيرة لم تتجاوز الثامنة . عدت ببصرى إلى أمى ، اكتشفت لحظتها أن شعرها الناعم السبط الجميل ، كشعر جارتها التى لم تتجاوز الثامنة ، أسود كالليل الذى تركتنى أنوء تحت ردائه .

. . . . .

أصبحت يتيماً فى الأربعين . فهمت لحظتها مغزى دعائها بأن يجعل الله يومها قبل يومى ، وأدركت أنها لم تتوار يوماً فى ظلال عمرى ، وأنها كانت دائماً هناك : سبيل العطشان وواحة التائه وراحة المضنى بما يقاسى . رمز ثابت لأن الحب باق ، والعطاء باق ، والتضحية من أجل الآخرين ممكنة ، حتى لو لم يعترفوا بالجميل ! . علمٌ للوطن ونيشانٌ لحضارة الشعب .

وحين أنوء تحت أثقال الوحدة والخوف وأشعر باليتم ، أخرج عند الفجر إلى شرفتى ، أطل إلى السماء . أسمع صوت قبقابها ودعاءها . تتداخل الأصوت حولى . اسمع ذلك الذى تفعله الأمهات المصريات ، منذ سبعة آلاف سنة ولا يبدو أمام أحد عظيماً ، لأنه كالنيل والخضرة ونوار الحقول مظهر من مظاهر الطبيعة .

سادتى ، هل تأذنون أن أضع باقة ورد على قبر أمى ؟ ! !

(*) الأهالى - العدد ١٨١ فى ٢٧ مارس ١٩٨٥ .

كل الذى جرى

مع أن ما حدث كان بسيطاً تماماً ، إلاَّ أننى اكتشفت ـ بعد أن حدث ـ أنه لم يكن كذلك : ضل سائق التاكسى الطريق بين شارعين . هذا هو كل ما جرى . لكننا ـ أنا وهو ـ ضحكنا ، وكانت الدنيا حرا . ثم اكتشفنا ـ ونحن نضحك ـ أننا كنا فى الواقع نبكى . أدهشنا الاكتشاف حتى أننا انطلقنا نضحك. وكانت الدنيا حراً . قبلها بثوان قال السائق :

ـ يا باىء الحر . . الواحد الظاهر مخه ساح !

كان مخى قد ساح بالفعل ، انقضى يوم العمل ، وكما يحدث فى معظم أيام الأسبوع ، أو أيام السنة أو أيام العمر ، فقد كلت عيناى من القراءة ، والمتنى أصابعى من الكتابة . فكرت للمرة التاسعة عشرة بعد المليون الخامس عشر . . أن اعتزل الإثنتين :

« سياحة فى الفراغ السعيد ، هى ما ينبغى أن أفعله فيما بقى من العمر . تعبت كثيراً وعملت كثيراً وتحملت الهم طويلاً ، وآن أن تسيح بين الجزر ، وتدور بين الأفلاك ، وتطير بين النجوم ، وترفرف بجناحيك فوق

هذا العالم المجنون الذى ساح مخه كما ساح مخك ، حيث لا تفكير ولا عمل ولا قلق . ولك فى هؤلاء الرجال المحلقين دائماً بين مزارات الجمال أسوة حسنة . وليكن آخر ما تقرأ هو كتاب « كيف تصبح مليارديراً دون مجهود » . ولا بد أن هناك وسيلة ما ، تجعلك فى النهاية صاحب يخت كالمرحوم « أوناسيس » ، تتجول به بين جزرك المزروعة نخيلاً وأعناباً وفيها من كل الثمرات ، تستحم فى أنهار العسل واللبن ، تفطر فى لاس فيجاس ، وتتغدى فى بون ، وتتناول العشاء فى مونت كارلو . يقولون أن العرب قد استعادوا الأندلس « السلبية » فاحتلوا جزر الجنوب الأسبانى على شاطىء المتوسط . فهل ندرك جزيرة نشتريها لنعيش فيها ما بقى من العمر ، أم ينفد المعروض للبيع ، ونحرم من المشاركة فى بناء مجد الأمة » !!

ولأن النفس أمارة ـ أحياناً ـ بالسوء ، فقد وقفت ـ بلا إرادة تقريباً ـ امام جهاز التيكرز . قلت : نظرة أخيرة على آخر انباء العالم لن تضيف إلى كلالى ما لا يحتمل . ومن يدرى . لعلهم قد جددوا الاعلان عن بيع مزيد من جزر الجنوب الأسبانى ، فأدرك فرصة المشاركة فى بناء مجد الوطن قبل أن تضيع . دقات الجهاز الرتيبة تنقر رأسى المصدع . حروفه الكاتبة تخاطب عيوناً تنظر ولا ترى . من مدريد جاء الخبر ، وليس عن الجزر كان : تظاهر نصف مليون اسبانى احتجاجاً على زيارة ريجان ، وحرقوا دمية له فى ميدان عام ، وإعلنوا رفضهم لضم بلادهم لحلف الأطلنطى ولزرعها بالصواريخ النووية .

انتهى الخبر ، ولم يكف التيكرز عن الدق .

قالت نفسى الامارة ـ أحياناً ـ بالسوء : نظرة أخرى للخبر الذى يليه ، قد تأتيك بما تبحث عنه . من القاهرة طار الخبر واليها يعود : « احتشد

آلاف من المصريين الذين يقطنون فى أحد أحياء القاهرة الشعبية ، ليتفرجوا على تصوير مشهد من المسلسل الامريكى « سفينة الحب » فى حى خان الخليلى . وبذلت الشرطة المصرية جهداً خارقاً ، حتى لا يتسبب الزحام فى تعطيل التصوير . سيعرض البرنامج فى جميع محطات التليفزيون فى العالم . وتستعد وزارة السياحة المصرية ، لموسم سياحى نشط ، وتتوقع أن تغرى الحلقة مئات الآلاف من السائحين بزيارة مصر » .

. . . . .

عالم مجنون لا يكف عن التظاهر ضد مايستحق وحول ما لا يفيد . ولن أدهش غداً ، إذا ما نشرت صحيفة مصرية صورة مظاهرة خان الخليلى فى صدر صفحتها الأولى ، وتجاهلت خبر مظاهرة مدريد ، فهكذا يقضى شرف المهنة ، وهذا هو الانتماء الحقيقى للأمة . لذلك تستحق الصحف ألا تقرأ . وذات سحور من رمضان ـ من عام كعامنا هذا ـ خرجت من مقهى الفيشاوى ، لأجد نفسى أمام مظاهرة ضخمة ، كان قائدها شاباً مصرياً من النوع الذى تقابله فى كل مكان ، وقد حمله واحد من زملائه ، ليواجه حشداً يتبعه من الشبان ، وهو يجوب بهم الميدان بخطى بطيئة يهتف بقوة وحماس ، ويؤكد حداؤه بأن يشوح بيد واحدة ، مضمومة أحياناً كأنها تلاكم الهواء ، منبسطة احياناً كأنها تخاطب الفضاء ، أو بذراعين بأصابع نصف مضمومة ، يرتفع بهما فوق منكبيه ، ناظراً إلى أعلى كأنه للسماء يشكو . والحشد خلفه يردد الهتاف فى اندماج تام ، متصاعداً بالحماس إلى ذراه ، وبالغضب إلى منتهاه ، مرتفعاً بالشكوى من عمق الحزن فى قرار القلب إلى نقطة الاشتعال فى قمة الرأس ، عائداً بكل هذا التصعيد إلى قائد المظاهرة ، فيهتف من جديد ، ويواصل الحداء بدرجة أعلى من الحماس والغضب والحزن الكظيم .

وخلال اللحظات القليلة التى وقفت خلالها مذهولاً ، أتأمل ما يجرى ، قبل أن انضم إلى المظاهرة ، كان عشرات السائرين فى الميدان قد انضموا إليها ، وكان الجمود قد أصابنى ، كما أصاب ضابط سوارى يمتطى حصاناً ، ويقف إلى جوارى ، ينقل بصره بين المتظاهرين وبين جنوده ، حائراً ماذا يفعل . ذلك أن المظاهرة فى الواقع لم تكن تتكلم ومع أن قائدها ، كان يفتح فمه إلى منتهاه ، ويشوح بذراعيه حتى تطقطق عظام مفاصله ، ويلكم الهواء حتى يكاد يفقد توازنه ، ومع أن الحشد الذى يتبعه كان يفعل الشىء نفسه ، حتى تنفر عروق رقبتهم ، كأنهم يخاطبون البعيد . . البعيد . . إلاّ أن ذلك كله ، كان يحدث دون صوت !

ولعل الذى دفعنى للالتحاق بهم ، هو الذى دفع كل من رآهم لكى يفعل الشىء نفسه ، ومن المؤكد أن ضابط السوارى قد بذل مجهوداً ضخماً لكى لا ينزل عن صهوة حصانه ، ويتجاهل أصول الضبط والربط ، فيصرخ ويشكو ويزفر الغضب الكظيم . أدركت ـ كما أدرك الجميع لا شك ـ أن المسيرة دعوة مفتوحة وحرّة تماماً ، لمن يريد أن يحتج أو أن يغضب أو أن يسمع الذين اقفلت قلوبهم ، وأنه حر فى أن يختار ما يهتف ضده ، وأن يحتج على ما يقلقه ، وما حدث هو اننى فتحت فمى إلى منتهاه . صرخت كما يصرخون بلا صوت مسموع ، حتى نفرت عروق رقبتى . لكننى كنت أسمع نفسى ، كما يسمعون أنفسهم ، لأننى فى الواقع كنت أهتف فعلاً ضد الكذب والخداع والقهر والجوع ، وأكل السحت وكل شرور العالم . صرخت فى وجه الابتسامات المزيفة ، والقبلات الكاذبة ، وزحام الأتوبيس ، وصاحب العمارة التى اسكنها ، وتصريحات الرؤساء وصورهم التى تملأ صفحات الصحف وتؤخر عرض فيلم السهرة ، احتججت على ما يقولون من سخف ، وعلى سخف ما يعلق به الطبالون

علــى السخف الــذى يقــولــون . لعنت فقـر الــدم والبلهــارسيــا والانكلستـومـا والتهـاب الكبـد الـوبـائى وقـائـد الـطائـرة الـذى القى أول قنبلتين ذريتين على هيروشيما ونجازاكى . طالبت بحماس مجنون بهدم المعتقلات والسجون والزنازين الضيقة والكرابيج التى ينهش بها انسان لحم أخيه الانسان ، هتفت من كل قلبى : عاش كيلو اللحمة بجنيه ويسقط كل وزراء التموين .

وحين وصلت المظاهرة إلى مقام سيدنا الحسين ، كاد الشارع ينفجر بالناس ، ويشتعل بغضب الناس . لكنها توقفت هنـاك . احاطت بـالمقام تهتف . لم استمع ما كان يقوله جارى . لكننى اعلنت للإمام الشهيد ، أن خيـانة كـربلاء لم تكن آخـر الخيانـات ، وأن الغـدر يمـلأ العـالم وكـذلـك الكذب ، وأن الصحارى ما تزال ترتوى بالدماء ، وأن أسعار الرمال المسقية بدم الشهداء قد انخفضت فى البورصة بسبب كثرة المعروض للبيع منها فى السنـوات الأخيرة ، وأن صـديقاً لى ، ينـوى أن يستشهد فى سبيـل قضيـة العـرب الكبرى ، قـد أوصانى ، بتسليم رسـالة كتبهـا للشـاذلى القليبى ، ينصحه فيها بدعوة مؤتمر قمة عـربية لبحث مشكلة التـدهور المستمـر ، فى أسعار الدماء العربية فى بورصات العالم .

. . . . .

فى ذلك السحر البعيـد ، وحين انتهت المسيرة أخيراً ، اكتشفت أننى لست وحدى الذى أتصبت عـرقاً ، رغم نـدى الفجر الـذى كان يتسـاقط برداً ، لكن الذى ادهشنى ، أننى حين حدثت جارى ضاحكاً ، وجدت فى صوته بحة كالتى لحقت صوتى ، مع أننا لم نستخدم حنجرتينا طيلة الساعات التى استغرقتها المظاهرة .

أما فى هذه الظهيرة ، فقد كانت الدنيا حراً ، وكان مخى فى الواقع قد ساح ، لذلك لم أفكر فى أن اتوجه إلى الحسين لأشرب شاياً أخضر ، وأسمع بقية التفاصيل عن مظاهرة سفينة الحب ، ولم أجد صوتاً ، لأجيب سائق التاكسى ، الذى لهثت لألحق به ، حين سألنى عما إذا كان من الممكن الوصول من شارع شهاب ـ حيث تتوجه الراكبة التى سبقتنى ـ إلى شارع أحمد عرابى ، حيث أقصد . ثم اننى فى الحقيقة لم أكن أعرف . لكن السيدة التى كانت تجلس فى المقعد الخلفى ، قالت أنهما قريبتين .

وكنت لحظتها قد أدركت أن مشروعى لشراء جزيرة فى جنوب اسبانيا ممكن ، وأننى لست فى حاجة لسؤال أبطال سفينة الحب عن المعروض منها ، ولا إلى قراءة كتاب كيف تصبح مليارديراً فى أربعة شهور . فالتصريحات الرسمية ، اعلنت أن كل واحد حر فى أن يربح ما يشاء « بس يدفع حق الدولة » وها هى المدينة أمامى شاهداً على أن الربح ممكن ، والثراء سهل ، وإلاّ فما معنى هذه العمارات الشاهقة ، وما كل هذه اللافتات المضيئة ، وما هذا الزحام من اعلانات التليفزيون ، السعيدة دائماً ، المبتهجة باستمرار . المشكلة ـ كما تقول الحكومة ـ هى مشكلتى ، لا مشكلتها ، فلو لم أكن خائباً ، لوجدت ، ما أبيعه فى هذا السوق ، أما وقد انخفضت أسعار الاستشهاد فى بورصتى لوس انجلوس وحيفا ، فمن الحصافة البحث عن وجهة أخرى ، ومن الحمق أن يبيع الانسان إحدى كليتيه بعشرة آلاف جنيه لا تكفى لقضاء شهر فى جزيرة ، لا لشرائها ، ولا بد أن للضمائر الفاسدة ، سوقاً اكثر ربحاً من الفراخ الفاسدة ، ومن حسن الحظ أن ضميرك ـ ما زال صالحاً للإفساد ، ولن يعارض التلفزيون ـ فيما أرجو ـ من إذاعة إعلان لبيعه ، قد يتكلف كثيراً لكن الربح من ورائه مضمون ، فالمنافسة على الشراء بعد إذاعته ، ستشتد ، ثم إنه يتماشى مع سياسة

الدولة ، والنص سهل يمكن أن تكتبه الآن ، رغم سيحان دماغك ، ويا حبذا لو اذيع قبل عرض مسلسل رمضان ، وبعد الابتهالات الدينية : « ضمير عمره أربعين عاماً فى حالة صالحة للاستخدام . قادر على تبرير كل شيء . مستعد لإحالة الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، ولإثبات أن الشمس تشرق من الغرب . لبلب ومدقدق وابن حنت . يستطيع فى دقائق ، أن يثبت أن الخيانة بطولة ، وأن الاستشهاد حماقة ، وأن السرقة استثمار ، وأن التهريج جدية ، وأن الليلة عيد ع الدنيا سعيد ، وأن الفن مين انصفه إلاّ الفاروق وحماه ، وأن سينا رجعت « كاملة » لينا وطابا اليوم فى عيد ، وأن تمشية الحال تنطبق مع الشريعة ، ألا أونا ألادوا . . ألا تريه » . .

لا بد أننى سأجد ـ فى دقائق ـ مشترياً لحوحاً فى واحدة من هذه العمارات الضخمة التى تتكاثر كالأرانب على جوانب الشوارع كاشفة عما أداه هؤلاء المستثمرين العباقرة ، وما أضافوه إلى حضارتنا العريقة من أياد تستحق التقبيل . وهذا أقل ما سوف ينال يديّ من تكريم حين انتقل إلى صفوفهم ، أما اللعب بالنجوم والطيران فوق الرزاز ، والمرافىء والمطارات وسفن ـ وطائرات ـ الحب ، فلنؤجلها إلى حين حتى لا ينفجر القلب بالأحلام !

فى تلك اللحظة كانت السيدة التى تجلس فى المقعد الخلفى ، قد وصلت إلى مبتغاها فى شارع شهاب ، وكان السائق قد أكد بأن الحر قد سيَّح أمخاخ الناس ، واعترف لى فيما بعد ، أنه قال ذلك ، لأنه شاهدنى ـ أكلم نفسى دون أن أعى ، وقال أنه يكلم نفسه كثيراً ، حتى حين لا تكون الدنيا حراً . وكنا قد اختلفنا فى تحديد الطريق بين شارعى شهاب وأحمد عرابى ، واكتشفنا أن كلانا لا يعرفه ، وهكذا سار السائق كيفما اتفق ، ولا

ندرى كيف حدث ما حدث ، فمع أننا لم نكن قد سرنا اكثر من دقيقتين أو ثلاثة على الأكثر ، إلاَّ أننا وجدنا انفسنا فى آخر مكان يخطر على كلينا أن يجد نفسه فيه : اختفت ـ فجأة ـ العمارات الشاهقة التى كانت تحيط بنا ، واختفى ـ دون سابق انذار ـ اسفلت الطرق ، لتخوض السيارة فى شوارع من الطين ، وبين بيوت من الطين ، ليس فى أي من جدرانها قالب واحد من الطوب الأحمر ، طين حقيقى ، به آثار تبن ، وقليل من الجدران هى التى تصنع زوايا قائمة مع الأسقف ، لكنها تصنع منحنيات لا ترتفع عن متر والأبواب من الخشب أو حطب الذرة ، والنوافذ طاقات صغيرة مدورة ، والحوارى ضيقة ، ملتوية ، تلف كثعبان انهكه الحر ، والناس جالسون على أبواب البيوت : نسوان ليس بينهن ـ شكلاً أو موضوعاً ـ مدام أو هانم أو مدموازيل أو حتى بت . تنحنين على طشوت صغيرة تغسلن . اشياء ، المفروض أنها ملابس ، بسائل المفروض أنه ماء بصابون ، أو تخرطن ـ على طبالى خشبية ـ حشائش خضراء أشك فى أنها ملوخية . أكوام زبالة فى الأركان . ذباب شرس يحط على العيون . اقتحم سيارتنا المصفحة وأخذ يطن حراناً وضائقاً وقرفاناً . أطفال صغار يرتدون جلابيب قذرة وفى أيديهم لقيمات يعف عليها الذباب . دخان حطب يتصاعد من الأكواخ الطينية فينعقد فى الهواء الراكد كالسحاب الثابت . طلمبة ماء على رأس حارة ، وطفل يتبرز فى منحنى زقاق ، حارات تتلوى فتقود كل منها للأخرى . كلما سألنا واحد :

ـ فيه سكة للشارع العمومى ؟

أشار بيده دون كلام ، ولأن مخنا ـ كان قد ساح تماماً ، فقد التففنا يميناً وانحرفنا يساراً وانعطفنا شرقاً وتقدمنا غرباً ، فوجدنا انفسنا فى الأدغال نفسها . . الحوارى متشابهة والنسوان متشابهات والأطفال أيضاً ، ومن

الصعب تمييز الذبابة عن الأخرى . هذه البنت التى تنظف زجاجة اللمبة نمرة (٥) هل هى التى سألناها منذ ثوان فأشارت يميناً، أم التى سألناها بنت أخرى وحارة ثانية ؟ . . وهذا الكلب الأجرب الذى لم يعن بأن يحول رقدته حين أدركته سيارتنا ، هل غير مكانه أم نحن الذين عدنا من حيث أتينا ؟ . . حدش شاف الشارع العمومى اللى كنا فيه من دقيقتين ياولاد الحلال ؟ ويقول السائق : مش دى الدبانة اللى قابلتنا من شويه ؟! ونبدأ فى الضحك . تهنا فى قلب المدينة الضخمة . ضاع الطريق ، والناس صامتون مع أن الهم زاعق فى الوجوه . من المؤكد أننا قريبين من الشارع وبالتحديد خلفه وإلاَّ ما استطعنا أن نرى البنايات الضخمة ، ولكن كيف نخرج من قلب الرمال المتحركة ؟ وإلى أين ينتهى بنا هذا التيه الذى لا أول له ولا آخر ؟ . . لا شرطى مرور ولا عسكرى داورية ، ولا مكتب تموين ولا ايريال تليفزيون ، فأين بتوع الانضباط يا جدع ؟ المصيبة أننا قد نخرج من هنا فنجد أنفسنا فى جنوب افريقيا . وقد نسيت الباسبور فى البيت ؟

انحرفنا يميناً فضحكنا ، وضحكنا بعد أن انعطفنا يساراً . فى كل الاتجاهات ضحكنا واكتشفنا أن فى عمق الضحكات دموع فضحكنا ، وبدا أن العمارات فى بلد غير البلد ، وقال السائق : يكونش دا السراب اللى بيقولوا عليه . . الواحد مخه ساح .

قريبة هى الجزيرة التى ابحث عنها ، وليست فى جنوب اسبانيا ، لذلك يستحق ما يجرى أن أبكى فى عمق الضحكات ، والزمن ثلاثة دقائق زمنية لا ضوئية . فألف لعنة على الكذب الذى يحتل الشوارع الأمامية ، يصرخ فى المذياع ، ويرقص على الشاشة ، ويبيع السراب ، ويتجاهل الهم الزاعق خلفه ، يأكل ـ إذا أكل ـ فضلاته ، فهل يشبه السائق الذى يصحبنى ذلك

الشاب الذى انضممت ذات سحر لمظاهرة كان يقودها فى ميدان الحسين ، تزعق بلا صوت ، وتلاكم الهواء وتشكو وتستغيث ، أم أن تلك هى بعض علامات انصهار الدماغ ؟ . .

. . . .

حين وصلنا أخيراً إلى الشارع الأمامى ، خطر لى فجأة ، أن أسأل عن آخر اسعار دماء الشهداء فى بورصة ليفربول . قلت للسائق :

ـ ممكن توديني سيدنا الحسين ؟!!

ادار مقود السيارة دون أن يتكلم !

(*) « الأهالى » ـ العدد ١٨٨ فى ١٥ مايو ١٩٨٥ .

الغول

لا أحد يدرى هل هو من حسن الحظ أم من سوئه أن العرب المشتغلين بالسياسة ـ حاكمين كانوا أم معارضين ـ يعتبرون الصيف موسم اجازات يستجم فيه الجميع ، ذلك لأن تموز ـ كما يقول اخواننا العراقيون ـ ينشف الميّة في الكوز ، لذلك يهرب المسؤولون العرب الى شواطىء البحار العربية ، أو إلى جزر المحيطات الكونية ولتظل المشاكل نائمة وليلعن الله من يوقظها قبل الخريف أو حتى بعده !

وفى الصيف ينخفض توزيع الصحف والكتب والمجلات ويقل الاستماع إلى الاذاعات ، وتعرض المسارح أسوأ ما لديها أو أخف ما عندها ويتردد المنتجون فى عرض أفلامهم الجديدة لأن الناس تريد أن تستريح من التفكير . وفيه يطمئن الوزراء على مقاعدهم لأن التعديل الوزارى لا يحدث عادة قبل الخريف أو بعد الربيع لهذا تقل تصريحاتهم أو تنعدم فيريحون السنتهم وضمائرهم من الكذب وفيه ينفض النواب لا إلى دوائرهم بل إلى قصورهم وفيلاتهم ، وفيه يهرب الفقراء من زحام الشقق أو الحجرات

الضيقة ومن رطوبة الجو الخانقة إلى الشوارع والطرقات ، ويبحثون عن مساحة خضرة يستلقون عليها ، وعن مسطح فضاء ، يسرحون فيه بابصارهم ، يعدون النجوم ويحلمون بالغد السعيد الذى لا يأتى ، ويشكون لله ، لا لأن الشكوى لغيره مذلة فحسب ولكن - أيضاً - لأنها بلا جدوى !

. . . .

وهكذا اصبحت القاعدة أن صيف العرب - عادة - حار جغرافياً وبارد للغاية سياسياً ولأن لكل قاعدة استثناء فإن مناخ القاهرة الآن يبدو قيظاً مركباً لذلك تستنزف الرطوبة العرق ويستنفد ما يجرى على مسرح السياسية الصبر : ازدحمت العاصمة بالبشر وناطحات السحاب وانعقدت فى سمائها الهموم والمشاكل .

جدول اعمال الصيف المصرى مشحون بما هو قائم وما هو قادم وبما أعلن وما يزال فى طى الكتمان التوافق العربى - العربى يبدو سراباً والانسجام المصرى يبدو حلماً مستعصياً وقد عاد عصمت عبد المجيد من رحلته الأوروبية التى شملت الغرب والشرق ولا بد أنه سيسافر أو يلتقى بآخرين من دبلوماسيى العالم وانعقدت قمة مبارك - حسين التى كففت عن احصائها لأنها تكررت حتى أصبحت كمسلسلات التليفزيون . . . و « مورفى » قادم فمن يزغرد فى المطار لحظة وصوله ؟ والقوائم باسماء الفلسطينيين المعتدلين المتفهمين العاقلين تنتقل بين القاهرة وتونس وعمان وواشنطن وتل أبيب مرفقة بالصور الفوتوغرافية وببيانات المخابرات الكونية لضمان ألا يكون بينهم - لا سمح الله - إرهابى يطالب بدولة فلسطينية والعياذ بالله أو وحش يتصور أن له حقوقاً مشروعة فى « أرض المعاد » .

وسوف يأتى « مورفى » بالقطع مرة ومرتين ثم أن القمة العربية قد تنعقد

نهاية هذا الشهر فى الدار البيضاء . وسيظهر « النجم الساطع » مرة أخرى على طريق « القاهرة ـ الاسكندرية » الصحراوى ، ستغلق الحكومة كالعادة الطريق اسبوعاً أو نصف اسبوع حتى تنتهى القوات المسلحة المصرية من تدريباتها المشتركة مع القوات المسلحة لأمريكا الصديق « الخاص والحميم » لحكوماتنا الوطنية والمستقلة مع أن الصديق « الحميم » لم يدفع دولار ولم يحل مشكلة فما أهون الحب من طرف واحد . . وما أقسى دلال المعبود وما أشهى جبروت الحبيب !

وكان البطيخ الأحمر قد اختفى فى بداية الصيف وارتفع سعر الدولار إلى ١٥٠ قرشاً واكتشف جارى بأسى بالغ أنه يتقاضى مرتباً شهرياً يوازى ثمن خمسين كيلو جراماً من خوخ العريش الحلو المسكر وقال لى حين أموت سوف أترك لبناتى ثروة من نوى الخوخ اختزنه فى سندرة شقتى فقد زارنى هاتف فى المنام انبأنى أن التقدم التكنولوجى سوف يجعل من الممكن فى المستقبل تحويل نوى الخوخ إلى خشب تصنع منه افخر الموبيليات . .

وسألته : وهل هناك أمل فى أن تتقدم التكنولوجيا بحيث تصنع الموبيليات من بذر البطيخ لأننى اتقاضى فى الشهر سبعون بطيخة ؟

وحين بدأ يشرح لى نظريته فى ضرورة أن استبدل مرتبى بحيث أصرفه خوخاً لا بطيخاً قطع حوارنا صراخ يملأ الشارع هاتفاً بعصبية مجنونة :

ـ الغول . . الغول . .

ومضى وقت قصير قبل أن نفهم أن « غول الارهاب الدينى » قد انطلق من القفص وأنه يتجول فى الشوارع حراً طليقاً ولما كنا مواطنين مسالمين لا نحب المتفجرات ونكره مشاهد الدماء ونحب أن ننام آمنين فقد انطلقنا نلهث فى الطابور نهتف مع الهاتفين واكتشفنا أن حولنا آلاف الحناجر

تصرخ ، وآلاف الأقلام تكتب وأن الكل خائف من الغول وقال جاري بأسى :

ـ نسيت أن اغلق سندرق على ثروق من نوى الخوخ . . .وأخشى أن يسرقها لص . . أو أن يفجرها إرهابى

حدثته عن الأمن الذى نعيش فى ظله والأمان الذى نستروح نسماته وطمأنته بأن صديقى وزير الداخلية يحشو جيبه ومكتبه بكل قضايا الارهاب وأن هناك فرقة خاصة تحيط به لتحميه من النشالين حتى لا ينشل أحدهم القضايا من جيبه ويطلع عليها وقلت له : انهم سيقبضون على « الغول » قبل أن ينبلج الصبح ، وبذلك يتهيأ المناخ للعمل والانتاج فتتقدم التكنولوجيا وينخفض ثمن حجرة النوم إلى خمسة آلاف جنيه فقط بسبب استخدام نوى الخوخ فى صنع الأخشاب وقد تنخفض إلى ثلاثة آلاف إذا نجحت تجارب تصنيعه من بذر البطيخ . .

وكان الصراخ ما زال يملأ الدنيا حولنا حين جلسنا على الرصيف نجفف عرقنا لحظتها فقط وجدت الغيلان أمامى فى ايديهم مطاوى وسكاكين مشرعة وكانوا يضحكون ويقهقهون على عكس ما وصفتهم به البيانات الرسمية ودهشت لأن وجوههم بشوشة ولأنهم لا يعرقون مثلنا ولأنهم لا يجلسون على الرصيف بل يحتلون اقفاص الفاكهة ولمحت رزاز الثلج على حباتها فازداد احساسى بتشقق لسانى الذى هتف باسم « الغول » ودهشت اكثر لأنهم كانوا يأكلون « الخوخ » ويرمون النوى فى الطريق .

نبهت صديقى لثروة النوى التى يلقونها . قلت ابشر يا عم اكتمل جهاز بناتك فتعال نزغرد ونغنى : يا الحنة . . يا الحنة يا قطر الندى .

قال فزعا : الغول أمامك فى اقفاص الفاكهة ، ازدردوا فى ساعة

مرتبى فى سنة فهيا ننادى صديقنا احمد رشدى ليقبض على الغول .

قلت : يبدو أن البيان الرسمى غير صحيح وأن الذى هرب ليس غولاً واحداً بل غيلان لا حصر لها وانظر حولك تجد لافتة تعلن عن رغيف جديد محمص، ومحمر، ومميز، وثمنه خمسة قروش. فارفع ذراعيك لأعلى حتى لا تصبك طلقاته ، وادع الله أن يجعل هذا البلد آمناً لتظل مساجده وكنائسه عامرة يذكر فيها اسمه جل جلاله قال إن الصحابى الجليل أبا ذر الغفارى هو الذى قال : عجبت لمن يبيت على الطوى ولا يخرج للناس شاهراً سيفه فازعق بكل حبال صوتك ، وقع الغول فى الشرك يا رشدى !

لكن رشدى كان يطارد الغول فى مكان بعيد . . بعيد . . سمعناه يهتف : حلق يا عسكرى كان العساكر مهزولون وظمأى مثلنا أما الذى جاء حين نادينا فهو الحاج عثمان أحمد عثمان زبيبة الصلاة تنور وجهه الوضىء هممت أن أناديه فهشنى جارى . قال :

افرنقعوا . . سنبنى هنا ناطحة سحاب تحتها مسجد وفوقها مسجد لذلك سنبيع الشقة منها بنصف مليون دولار فاحجز يا مسلم لابنتك شقة تقترب بها من السماء فيسمع الله دعاءها .

قلت : يا حاج عثمان هذا هو « الغول » الذى يبحث عنه صديقنا الوزير رشدى فاقبض عليه .

قال : هؤلاء يا اعمى عبيده الصالحين هاجروا من مصر فى زمن الشيوعية اللعين وفى عصر الديكتاتور المرحوم عبد الناصر الذى كان الناس فيه يسكنون بخمسة جنيهات ويأكلون بثلاثة ويعلمون أبناءهم بالمجان وفى الأرض المقدسة فتح الله عليهم فعادوا ليعمروا ما خرب فحولوا الأرض إلى جنة تنتج من كل الثمرات فكف عن الحقد والكراهية واشترى لأولادك كيلو

خوخ من سيناء واصنع من النوى مسبحة تذكر عليها اسم الله لعله يتوب عليك ويطهر من الحقد قلبك !

وحين عدنا إلى شرفة جارى لنستريح لحظة قبل أن نعود لنشترك فى الحملة القومية لمطاردة « غول الارهاب الدينى » تذكرت ليلة من خريف طرق فيها زوار الفجر مسكنى قال كبيرهم : هل أنت صلاح بتاع الفتنة الطائفية ؟ قلت : بل صلاح عيسى . قالوا مش مهم . وفى السجن وجدت مشايخ وقسساً وكُتّاباً ومفكرين وصحفيين وقادة نقابيين فادهشنى انتشار الفتنة إلى هذا الحد واعلن السادات بعد اسبوع أن الحكومة قد قبضت على « الغول » وأنه الآن فى القفص لكن « الغول » الحقيقى كان يسرح فى الطرقات ولم يكتشف الناس ذلك إلاّ بعد أن مات السادات على المنصة فإذا بالفتنة تختفى وإذا بالكل يهدأ ويتسامح بل ويتركون للحكم الجديد فرصة طويلة لكى تزيل آثار « الغول » الذى رحل ويمددون فى حبال الصبر !

ومرت الشهور والسنوات والناس هادئون وصامتون ومتسامحون يتبادلون القبلات حتى مع الحكومة ، ويحافظون على الاستقرار والاخضرار ، وأسعار الفاكهة ترتفع ، ورغيف الخبز يتحول من عادى إلى محسن ثم مميز ، والناس يبيتون على الطوى فلا يخرجون على الحكومة شاهرين سيوفهم ، ولا حتى السنتهم . والحكومة مستقرة لكنها مع ذلك خائفة . . . خائفة من اليسار ، ومن اليمين ، وخائفة من الأمريكان والاسرائيليين ، وخائفة من الناس اللى فوق ومن الناس اللى تحت وخائفة من نفسها وعلى نفسها لذلك فهى لا تتغير ولا تغير ، وتتحرك محلك سر كسحلفاة اجهدها الحر واتسع كما قال شيخنا الجبرتى ـ الخرق على الراتق ، وفشا الكلام فى المواقع ، وحين طال الصبر حتى كاد ينفذ ارتدى أصحاب

ناطحات السحاب ومزارع الفاكهة الكبيرة وتجار العملة والمقترضون من البنوك بلا ضمان ولا سداد والمقاولون بالاسلام وأصحاب شركات توظيف الأموال ومدمّري البيض الصالح للغذاء، جبباً وقفاطيناً وزخرفوا بالمسابح وخواتم الماس اصابعهم وانتشروا فى الأنحاء يعلنون أن الكفر ـ لا الفقر ـ قد عم البلاد وأصبح كالوباء فى نفوس العباد فأصبحوا يطمعون فى الدنيا التى لا تساوى جناح بعوضة ويحسدون الذين يملكون مع أن القرآن كما يفهمونه قد نزل خصيصاً لحماية ما يربحون .

آنذاك صرخ أحدهم : الغول . . فصرخ الناس جميعاً خلفه وانطلقوا فى الطرقات يبحثون عن الغول . . الجالس فى اقفاص الفاكهة وفى واجهات المحلات وفى اثمان شقق الناطحات وكانت اسرائيل فى ذلك الأسبوع قد اعلنت أن طابا جزء لا يتجزأ من ايلات وضمتها إلى المنطقة الحرة التى انشأتها طبقاً للاتفاق الاستراتيجى بين اسرائيل وأمريكا ، وفى الليلة العاشرة للبحث عن الغول اقام الاسرائيليون فى طابا مهرجاناً للبيرة استمر أربعة أيام بلياليها شربت فيه رمال الصحراء آلاف الأمتار المكعبة من البيرة المثلجة وفكرت فى أن دماء الشهداء التى شربتها الرمال فى ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ لا بد وأنها تحتج واقترحت على جارى أن نرسل برقية لوزير الداخلية ننبهه فيها لما يحدث فى طابا فقال إن الوزير مشغول الآن فى اجتماع هام للجنة السياسات يضع التفاصيل النهائية لقانون جديد يوقف تعيين خريجى الجامعات ويبيح انشاء شركات خاصة للنقل العام وأضاف ابشر سوف نجد مقعداً فى الاتوبيس فى خطوط أبو رجيلة بمبلغ تافه هو عشرون قرشاً ثم إن الغيلان قد اكلت الآن ما يوازى مرتبى طوال الخطة الخمسية من نوى خوخ العريش . . ومعنى هذا أننى سأجهز البنات الثلاث

فتعال نطارد الغول مع المطاردين .

. . . .

وكان الغروب قد أقبل يقطر سمرة هادئة . . والعصافير تعـود اسرابـاً وفى عيونها نظرة حزينة !

(*) « الأهالى » ـ العدد ١٩٧ فى ١٧ يوليو ١٩٨٥ .

وإن كان جرح قلبنا كل الجراح طابت

لم أكن أتوقع حين رن جرس التليفون ، أنه على الطرف الآخر من الخط ، فقد مضت ثلاث سنوات منذ سمعت صوته لآخر مرة .. ولم أكن أعرف - حين سمعت صوته يأتى من بعيد صائحاً « إزيك يا واد .. أنا نجم » أن هذه الكلمات القليلة ، سوف تفتح أبواباً أغلقتها داخل قلبى ، على ذكريات لا أريد لها أن تنسى ، وأحلام لم تلتهمها - بعد - نيران العمر ، وجراح تأبى أن تطيب ، وأفراح أدخرها للجفاف الزاحف على القلب بقسوة جلفة !

وبمجرد أن سمعت صوته العذب يأتى من بعيد ، حتى تهدمت حوائط حفرت أساسها فى عمق القلب ، وتفننت فى تشييدها بصبر ودأب ، حتى لا أشتاق لما فات ، إحتفاظاً بما بقى فى الروح من قدرة على الاشتياق لما سيأتى ..

وهكذا إنساب صوته إلى أذنى ، بينما إندفع - عبر الحواجز المحطمة - شلال من ضحكات وأنغام وفورات حماس، غيبوبة أول قبلة ، وقطوف أول

نشوة ، وحرقة أول دمعة ، وأريج الزهرة الأولى ، وساعـة أن قبلت جبين أبي الميت وأحضان أمي التي أهرب من الاشتياق إليها ، ولحظات العذاب الموشوم على القلب بمسامير محماه !

وكنت قـد سمعت بـه لأول مــرة ، منتصف ليلة حـارة من خــريف ١٩٦٨ : تأبطت ذراع صديقي القصاص « الشاب » ـ باعتبار ما كان ـ أحمد الخميسي (رد الله غربته) . قطعنا ممر عنبر ٣ بمعتقل طره السياسي كما كنا نفعل كل ليلة ، من بدايته حتى نهايته ، ومن نهايته إلى بـدايته ، نتحـدث بصـوت خفيض حتى لا نـوقظ المعتقلين النـائمـين في صفـين طـويلين من الزنازين يحيطان بالممر ، وكما كان يحدث كثيراً في جولاتنا الليلية ، هربت عيوني عبر قضبان القفص الحديدي التي تصنع سقف عنبـرنا ، تلعب مـع النجوم والقمر . وحين رأيت طائرة هناك في الفضاء البعيد ، تعلقت بها ، هربت من سجني ، تحررت من قهري ووحدتي في سـود الليالي . حـادثت طيوراً قابلتها في الفضاء ، وزرت أحباباً وقبلت صحاباً ، « . . . ومـريت على بيت الحبايب . . . أشكي إشتياقي وعذابي » !

. . . .

أيامها كان جرح هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، طرياً وعصيـاً على الالتئـام ـ ولم يـزل ـ وكان قـد شرخ القلب فتصـدع لـه حسـرات . . وفيـما بعـد كتبت « . . . أغتيل آلاف من الأبناء والأخوة والأزواج في وضح النهار . . شربت الرمال دماءهم بينما الفرِّيسيون يملأون الأرض فساداً . . مات أعز الأصدقاء ثمناً للحظات شبق لا معنى لها . . وضاعت مودات وذكريات وعرق مشترك في رمال الصحراء . . . وتبدد الصراخ في التيه » .

أما الميت الحي ، فكان جيلنا الذي عـاش يحلم بوطن يليق بتـاريخه ،

يشرب الناس فيه مياهاً نقية غير التى تشربها شقوق الأراضى ، ولا يقضون حاجتهم فى الخلاء ، ولا يحط الذباب على عيون أطفالهم الجميلة ولا تستذل الناس فيه حاجة ، أو يقهرهم نقص القوت على أن يفعلوا ما لا يريدون ، ولا يقيم بينهم « مندوب سام » فارح مثل « اللورد كرومر » ، فيكتب لحكومته تقريراً يحتج فيه عليها لأنها تسمح لمومسات بريطانيات بالعمل فى مصر ، فيبتذلن الجسد الانجليزى ، الذى ينبغى أن يتعالى ، فلا يسمح لأشياء مصرية ، بأن تطأه !

وكان جانباً من الحلم قد تحقق بفادح الثمن : جاء عبد الناصر ليكون تحدينا . . ويكون كبرياءنا ويكون غضبنا . . وربما لهذا السبب أحببناه ، وصبرنا على كثير من المكاره فى عهده . ولأن حلمنا كان أعمق من حبنا ، فقد عارضناه وخاصمناه . . ولدُّ بعضنا فى الخصومة ، لكننا لم نكرهه يوماً حتى ونحن فى زنازين عهده ، يضربنا الزبانية بالسياط ويسحلوننا على البلاط ، ويحاولون أن يذلوا كبرياءنا الرفيع . .

وفى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ جاءت الطائرات لتدك المعبد على رؤوسنا . . اقتحمت يد جلفة الصدر ، عصرت القلب بقسوة . خدشته بالأظافر الطويلة . وبدأ عبد الناصر وهو يلقى خطبة التنحى الشهيرة : أسداً جريحاً ضعيفاً فاقد الحيلة ، وطيراً مكسور الجناح ، فاستثار من الدموع أكثر مما استثار من الغضب ، أمَّا نحن فقد ندمنا لأننا لم نقاومه بصلابة أكثر دفاعاً عن أحلامنا ، أما هو فقد قال للفريق محمد فوزى ذات مرة :

ـ لقد كانت البيروقراطية العسكرية ، هى رأس السمكة الفاسدة التى اصطادتنا منها سنارة الامبريالية !

وبعد شهور وفى فبراير ١٩٦٨ ، توقف الترام الذى كنت أركبه فى ميدان « باب اللوق » ، بعد أن سدت أمامه الطريق مظاهرة من طلاب الجامعة تزدحم بأولاد وبنات كانوا لحماً طرياً حين قامت الثورة ، وكانوا يحرضون الناس على التظاهر معهم ، هاتفين « يسقط كل مصرى جبان » . ولا أدرى لماذا أحسست أننى شخصيا هو الجبان المقصود بالهتاف ، فغادرت مقعدى لأنضم إليهم . . وبعد أسابيع عدت إلى السجن الذى لم يكن قد مر عام على مغادرتى له . وعاد الحزن يعشش فى القلب . .

. . . .

حين عدت من جولتى فوق السحاب ، كان « أحمد الخميسى » يدندن بصوت جميل مطلع جنائزية لم أسمعها من قبل . غريبة كانت الكلمات . وجديداً كان اللحن . أما موضوع البكاء ، فهو « جيفارا » ، الذى كان قد استشهد فى شتاء ١٩٦٧ ، ترك الثورة الكوبية التى انتصرت وحكمت ، ليواصل القتال ضد القهر والاستذلال والجوع وكل عفن التاريخ ، فاصطاده الكلاب فى أحراش بوليفيا . وكان الشاعر يخبر « بتوع نضال آخر زمن فى العوامات » بالنبأ ، فقد :

مات المناضل المثال
يا ميت خسارة ع الرجال
مات الجدع فوق مدفعه جوه الغابات
جسد نضاله بمصرعه ، ومن سكات
لا طبالين يفرقعوا ولا إعلانات
ما رأيكم دام عزكم
يا أنتيكات
يا غرقانين

فـ المأكولات والملبوسات
يا دفيانين
ومولعين الدفايات .

ولعلى دهشت لأن الشاعر بدأ مرثيته بتقريع المعـزين ، لكننى دهشت أكثر لأن حزنه كان مختلفاً عن حزنى . كانت المرثية أشبه بنشيد يقطر حـزناً مصفى كقلب الأم فى يوم الثكل :

عينى عليه ساعة القضا
من غير رفاقه تودعه
يطلع أنينه للفضا
يزعق ولا مين يسمعه
يمكن صرخ من الألم
من لسعة النار فى الحشا
يمكن ضحك
أو ابتسم
أو ارتعش
أو انتشى
يمكن لفظ . . آخر نفس كلمة وداع
لجل الجياع .

وكان حزناً غاضباً كما ينبغى لدموع تذرف على رجل مثل « جيفـارا » هزتنا ميتته الرومانتيكية النبيلة حتى الأعماق . ربما لأننا عجزنا عن أن نكون كـما كـان ، أمـا وصيتـه التى كـان أحمـد الخميسى يتغنى بهـا فى تلك الليلة البعيدة ، فكانت .

يا شغالين
ومحرومين
يا مسلسلين
رجلين وراس
خلاص . . خلاص
مالكوش خلاص
غير بالبنادق والرصاص
دا منطق العصر السعيد
عصر الزنوج والأمريكان
الكلمة للنار والحديد
والعدل أخرس أو جبان
صرخة جيفارا يا عبيد
فى أي موطن أو مكان
ما فيش بديل
ما فيش مناص
ياتجهزوا . . جيش الخلاص
ياتقولوا ع العالم خلاص !

فيما بعد قال لى أحمد الخميسى ، أن كاتب القصيدة هو شاعر جديد اسمه « أحمد فؤاد نجم » وأن الذى لحنها ويغنيها شيخ ضرير اسمه « الشيخ إمام عيسى » . وقد عرفتهما فيما تلا ذلك من سنوات ، واستمعت اليهما، وأحببت دائماً غناءهما الشجى ، وقضيت ساعات طويلة معهما ، فى حجرة كالحة كانا ـ وما زالا ـ

يسكنانها فى حارة ضيقة من حارات الغورية هى « حارة خوش قدم » - وترجمتها « حارة قدم الخير » - وسجنت مع « نجم » مرتين ، وفتنت بشخصيته التي يندر أن تتكرر ، وحاولت دائماً أن أنفذ إلى هذا الشاعر الذى عرفه الناس لأول مرة وهو فى الأربعين - شاعراً كبيراً يدور فى فلك وحده ، بين كل شعراء العربية فى كل تاريخها .

إبن المستورين الذى هرب من المدارس ونام فى الأسواق وعلى حصر الجوامع ، واشتغل منشداً فى حلقات الذكر ، وكاتباً فى أورنس الانجليز فى منطقة القناة ، ودخل السجن بعد أن أضاع - باهماله - عهدة مصلحية ، وخرج منه ليلتقى - عام ١٩٦٢ - بمؤذن جامع الجمعية الشرعية، الشيخ الضرير « إمام عيسى » ، فيأتلفان بسرعة البرق . يؤلف « نجم » ويلحن « إمام » ، الذى كان من بين أفراد كورس الشيخ زكريا أحمد . يلفان الأسواق وحفلات الطهور وسبوع أولاد المعلمين وأعراس بناتهم ، بحيث كانا مرشحين - فى أحسن الأحوال - لكى ينضما إلى واحدة من فرق العوالم المنتشرة فى الريف والحضر ، يحييان الأفراح والليالى الملاح ، وفى العام السابق على الهزيمة مباشرة ، أصدر « أحمد فؤاد نجم » ديوانه الثانى عن « الأهلى والزمالك » !

وفجأة تقع الهزيمة ، فإذا بالصعلوك العظيم « أحمد فؤاد نجم » ، ينبت بين حطامها صحيحاً وعفياً وقوياً ونقياً ويقظ الضمير بدرجة لا توصف . وإذا بسنوات الصعلكة لم تضع هباء . سكن الشعب القلب . الشعب الحقيقى وليس ذلك الذى يتحدثون عنه فى الجرنان وتكتبون عنه الخطب التافهة ليلقيها المسؤولون فى الإذاعة . وإذا بالأقدام التى شققتها حصى الشوارع والجسد الذى افترش حصر الجوامع ، وتطوح فى حلقات الذكر ،

قد ملأ قلبه بغناء شجى وعذب وجميل كالنشوة البكر ، كان شعر نجم بسيطاً فى لغته ، حتى يخيل لكل انسان أنه يستطيع أن يكتب مثله ، وسرعان ما يكتشف أن وراء هذه البساطة فناً يتفجر بالجمال والجلال ، لأنه يستلهم كلام الناس فى عمق مشاعره ، وفن الشعب التلقائى الذى لم تدخله صنعه ، أو تزور مشاعره خديعة للنفس أو للآخرين ، لذلك ظل فن « نجم - إمام » حياً ككل الفنون الجميلة بسبع أرواح ، يعطيك نشوة مختلفة ، فى كل مرة تقرأه أو تسمعه .

أما الذى حدث لى فى تلك الليلة ، التى أسمعنى فيها « أحمد الخميسى » فن « أحمد فؤاد نجم » و « الشيخ إمام عيسى » لأول مرة ، فليس مما يسهل وصفه . أمواج من الماء الدافىء غسلت روحى . ذاب الحزن واليأس والفجيعة ، وأزهر النوار بين حطام الآمال المحترقة . ما زالت الحياة جميلة تستحق أن تعاش ، لم يعقم الوطن ولم تتحطم روحه ، وها هو ذا يغنى فى شعر « نجم » . يحزن حزن الرجال الأقوياء الذين يخجلون من مقولة : آه . ويخفون دموعهم لحظة الوجيعة . لذلك غنى « نجم » غناء مختلفاً ، عما غناه آخرون من جيلنا حين ادركتهم الهزيمة ، لم يتوقف طويلاً ليرثى العمر الجميل أو ليندب الذات إندفع يغنى بالسكين . يشهر العصا فى وجه الذين عجزوا عن صيانة الحلم ولم يدركوا مغزى الحب غير المحدود الذى منحه لهم الناس ، لأنه غناء الشعب الذى لم يهزم يوماً ، ولم يحن قامته ، وتحمل بصبر الجمال طوابيراً من الطغاة والغزاة ، ووجهه وضاء وثغره باسم !

وربما لولا هؤلاء الطلاب الصغار ، الذين صرخوا فى وجهى « يسقط كل مصرى جبان » ولولا هذه الليلة التى أسمعنى فيها « أحمد الخميسى » بكائية « أحمد فؤاد نجم » عن « جيفارا » ، لتغيرت أشياء كثيرة فى حياتى .

كانت الهزيمة تفح بخرها خارج الأسوار . وتوالت انباء الانهيارات . أدار كثيرون ظهورهم لأحلام الصبا . إنتشر الاكتئاب وسكن اليأس قلوباً كانت تملك جسارة لا تطاق . غاصت أقدام كثيرة فى الرمال المتحركة .

وسرعان ما عرفنا فى « طره » ، أن « نجم » و« الشيخ إمام » قد حلاَّ ضيفين على سجن القناطر الخيرية . وحمل لى زميل قادم من هناك ، تحية منهما ولم نكن قد التقينا بعد ، وكانت محاولات الافراج عنى قد توقفت ، وقال عبد الناصر للأستاذ خالد محيى الدين ، الذى كان يتوسط فى الأمر: لن يخرج من المعتقل وأنا حى ، وكررها مرة ثانية ، للزعيم الفلسطينى نايف حواتمه الذى حاول أن يستأنف المفاوضات فى الموضوع ، لكن دهشتى كانت أقل ، حين عرفت أنه قال نفس العبارات عن « نجم » و« إمام » وظل هذا الموقف غير المنطقى منا نحن الثلاثة ـ ولعله قد شمل آخرين ممن كانوا معتقلين فى الفترة نفسها ـ يعذبنى لسنوات طويلة ، ذلك أن عواطفى تجاهه لم تفتر ، رغم كل شىء . وحين مات ـ وأنا فى زنازينه ـ بكيته بدموع لم أشعر بطعمها مرة أخرى ، إلاَّ حين ماتت أمى !

وخرجنا من السجن ، ولم يتوقف « نجم » و« إمام » عن الغناء للشعب ، ولم يتاجرا بمعارضتهما لعبد الناصر حين أصبح التهجم عليه يفتح مغلق الأبواب ، وهو ما فعله كلاب لم يفتح أحدهم فمه فى عهد عبد الناصر بكلمة أو حتى همسة احتجاج ، وداعرون ساندوا كل ما اعتبروه بعد ذلك من خطاياه . وبعد شهور من الإفراج عنهما كانا يتوجهان إلى جموع الطلاب ، الذين اعتصموا فى نهاية عام ١٩٧١ ، فى ميدان التحرير ، لينضما اليهم ويغنيان لهم . . ثم ليصبحا ـ بعد ذلك ـ تعبيراً عن ضمير الشعب طوال عهد السادات ، يغنيان ويسجنان ويخرجان ويغنيان

ويسجنـان ، فى دورة لا تنتهى . . لم تغرهما كـاميـرات التليفـزيـون ، ولا مقالات الاشادة فى الصحف .

وفيـما بعـد وصف « نجم » نفسـه بـأنـه « فـاجـومى » ، وعرَّف « الفاجومى » بأنه ذلك النمط من البشر الذى لا يستطيع أحد تدجينه ، لأنه قادر دائماً على أن يمد رجليه فى وجوه السلاطـين ، ويحتفظ رغم كل المغريات بقدرته على أن يقول كلمة « لا » التى هى « شرف الانسان وقدس الكلمـات » وفخر بـأنه ظـل دائماً حصـاناً بـرياً لم يعتـل ظهـره فـارس ولا سلطان !

وقد دهشت حين قال لى نجم وهو يحدثنى تليفونياً من دمشق ، حيث يقيم الآن ، أنه كتب قصيدة بعنـوان « زيارة إلى ضـريح عبـد الناصر » ، وظللت أستمـع إليه وأكتب ، وأدركت وأنـا أقرأ القصيـدة ، وأحـاول أن ألتقط الخط الـذى يعالـج به « نجم » الكتـابة عن عبـد الناصر بعـد هـذه السنوات ، مدى عمق الشخصية الفاجومية التى ينسب نجم نفسه إليها ، فبعـد خمسة عشر عـاماً من وفـاته لم يبق من عبـد الناصر ، إلاَّ مـا يستحق الحب ، لأنـه كما يقـول « نجم » فى قصيدتـه الأخيرة ، كـان « فـاجـوميـا مثلنا » ، وجرؤ دائماً على أن يقول للكبار جداً لا . . أما بداية الزيارة التى قام بها نجم إلى ضريح عبدِ الناصر فتقول :

السكة مفروشة تيجان الفل والنرجس
والقبة صهوة فرس عليها الخضر بيبرْجِس
والمشربية عرايس بتبكى
والبكا مشروع
مين ده اللى نايم وساكت

والسكات مسموع
سيدنا الحسين ؟
واللا صلاح الدين
ولا الامام
دستور يا حراس المقام
واللا الكلام بالشكل ده ممنوع ؟
على العموم . . أنا مش ضليع فى علوم الانضباط
أبويا كان مسلم صحيح
وكان غبى
وكان يصلى ع النبى
عند الغضب والانبساط
أبويا كان فلاح تعيس
فى ليلة ضلمة خلفوه
وفى خرقة سوده لفلفوه
وفى عيشه غبرا طلعوه
ولصموه
وطلسموه
ودجنوه
وجهزوه
وجوزوه على عماه
فكان محير فى هواه
ما بين أمى وما بين الجاموسة
وكان يخاف يقتل ناموسة

وكان خجول . . خجول . . خجول
لكنه كان دايما يقول
استغفر الله العظيم من باب الاحتياط
أبويا طلعتوه حمار
فكان طبيعى بجيبنى جحش
لا أعرف نبى من اجنبى
ولا مين مجاش . . ولا فين ماراحش
موسى نبى
عيسى نبى
ويا قلبى صلى ع النبى
وكل وقت وله أدان
وكل عصر وله نبى
واحنا نبينا كده
من ضلعنا نابت
لا من سماهم وقع
ولا من مَرَهْ شابت
ولا إنخسف له القمر
ولا النجوم غابت
أيوه صعيدى وفهم
قام طلعه ظابط
ظبط على قدنا
وع المزاج ظابط
« فاجومى » من جنسنا

مالوش مره سابت
فلاح قليل الحيا
اذا الكلاب عادت
ولا يطاطيش للعدا
مهما السهام صابت
عمل حاجات معجزة
وحاجات كتير خابت
وعاش ومات وسطنا
على طبعنا ثابت
وإن كان جرح قلبنا
كل الجراح طابت
ولا يطولوه العدا مهما الأمور جابت

الف رحمة ونور على ذلك الزمان البعيد حين كانت المطاطية للعدا عاراً حتى متى يتحمل قلبنا المتخم بالأحزان كل ما رأيناه وعشناه ؟!

وانقطع الخط قبل أن يجيب الفاجومى أحمد فؤاد نجم عن السؤال .

(*) « الأهالى » - العدد ٢٥٠ - فى ٢٣ يوليو ١٩٨٦ .

كان صديقاً نبيلاً وإماماً

وكان مساء :

ما كدت أدلف من باب « الجراند أوتيل » ـ بطرابلس الغرب ـ وأتوجه إلى حيث كانوا يقفون ، حتى قال أحدهم مشيراً إلى رجل طويل القامة ، تلمع فى وجهه الأسمر ، عينان لوزيتان هادئتان ، شدتنى نظرتهما ـ للوهلة الأولى ـ إلى العمق فسبحت فى عكارة هم كظيم . . وقديم . قال القائل :

ـ تعرفان بعضكما طبعاً !

تصافحنا كما يفعل الذين يؤدون الواجب . عصتنى الذاكرة ، لكن القلب ـ كالعادة ـ لم يعصنى . خفق بالتذكار . فى أى مكان من هذا العالم الواسع التقينا من قبل ؟ . ما أن إنتهى صديقنا المشترك من نطق الاسمين ، حتى عاودنا المصافحة بحرارة تلقائية ، وجدتنى فى أحضانه كغريبين أجهدهما طول التجوال !

إذن فهذا هو « مُظفَّر النواب » : طائر السمان السائح بين المنافى . ينشد شعراً ويصور رسماً ويغنى لحناً . . من يعرف صورته كل ضباط

الجوازات فى موانىء الوطن . فى قائمة الممنوعين من الرحيل وضعوا إسمه . وفى قائمة الممنوعين من الدخول علقوا رسمه . الساخط . الرافض . صوت الحزن الذى كان . والتياع الفجيعة الكائنة . غضب الآتى . . إذ لا بد أن هناك آت !

سألته : أتقيم هنا فى طرابلس ؟. قال باقتضاب خافت : أحياناً . سألنى عن المدة التى سوف أبقاها . أجبته . . وأضفت مؤكداً : سنلتقى . بثقة قال : بالقطع .

. . . .

لكنه - فى اليومين التاليين - أختفى ، أو أنا الذى اختفيت فى قاعة الاجتماعات بالفندق حيث كانت اللجنة تعقد جلساتها . وجدتها فرصة ثمينة لكى أشرد بين الحين والآخر . وكنت قد قبلت دون تردد - على غير عادتى - دعوة للمشاركة فى لجنة تحضيرية تنعقد فى طرابلس الغرب ، للإعداد لندوة عن التاريخ العربى . لم يعد الحديث فى التاريخ معزّياً أو مُغرياً ، كما كان الحال فى الأيام الخوالى . أما لماذا سافرت، فلأننى - فى تلك الأيام من سبتمبر - كنت قد اختنقت برطوبة القاهرة . رطوبة فظة . تنزلق فى لزوجتها الأشياء . وتنمحى الحدود بين الصواب والخطأ . وبين الحق والباطل . وبين النور والديجور . كل شيء أصبح نصف نصف . نصف حق . ونصف باطل . نصف الصواب . ونصف الخطأ .

وكنت قد نذرت لله صوماً حين وجدتنى جالساً كالتمثال والتليفزيون يعرض صور لقاء « إفران » بين « الملك الحسن » و « شيمون بيريز » . . لكننى عدلت عن صيامى حين إتصل بى صديقى ليلة انتهاء قمة الاسكندرية بين الرئيس مبارك وشيمون بيريز . قال مشاغباً :

ـ مبروك يا عم . . انتـوا مش كنتم عاوزين المؤتمـر الدولى ؟ . . أهـو وصل .

قلت مراوغـاً : إحنا مين ؟ .

بعد ساعة ، انتهت المكالمة ، ولكن نسبة الرطوبـة واصلت الصعود . قلت لنفسى : تبرعنا بوجبة شهية من الآراء السياسية لأجهزة تسجيل زكى بدر ، نفعها الله بعلمنا ، وجعل كلامنا ـ وصمتنا ـ خفيفاً على قلب الوزير الرهيف !

ولما ظهرت صورة لقاء الاسكندرية ـ للمـرة الثانيـة ـ على الشـاشة فى نشرة أنباء قبل النوم . استفزتنى فأعطيتها ظهرى . فى تلك اللحظة هاجمنى فيلق من الثعالب الصغيرة المفسدة للكروم . نهشت إصبعى الذى إمتد يشير إلى الشاشة واندفعت ترقص على أنغام « بوب جاكسون » . ولما استيقظت كانت أشياء كثيرة فى الغرفة قد تحطمت . فمن أين يأتى الأطفال ـ أحياناً ـ بكل هذه القدرة العجيبة على ممارسة الشر المجرد ؟ وكيف يمكن الاطمئنان إلى المستقبل ، وهذا الجيـل الضائـع المحبط المقهور هـو وارثه الـوحيد ؟ . حملت حقيبتى ، واستقبلت بـاب المـطار وقـطرات من نـدى الفجـر تبلل وجهى . لو كان الفجر أكذوبة . . فما مبرر احتمال ظلام الليل !

ولا بد أن هذا الظلام انعكس على الوجوه التى شخبـطتها شـارداً عن مناقشات اللجنة ، فقد كـانت وجوهـاً كئيبة . اقتحم « الفـرزدق » خلايـا مخى . وقف على قمتها . أنشد متفاخراً :

أولئك أبائى فجئنى بمثلهم .

إذا ما جمعتنا يا « جرير » المجالس .

قال واحد من المتحدثين فى اللجنة مواصلاً النقاش : طظ .

قهقهت بلا فرح . وتنبهت أتابع المناقشة . لكنى لم أصمد إلاَّ ثوان !

. . . .

حدث ما توقعه ضابط الجوازات فى مطار أثينا . . فلم يسمح لى مطار طرابلس بالدخول وليس على جواز سفرى تأشيرة . زوغ مندوبو المراسم الذين كانوا مكلفين بانتظارنا أنا والدكتور « مروان فارس » - أستاذ الجامعة وأحد أقطاب الحركة الوطنية اللبنانية - فأخذنا نذرع صالة الترانزيت ، ونعد اللمبات فى سقفها . ونواصل الالحاح على طلب أرقام التليفونات القليلة التى نعرفها فى طرابلس . . ولا حياة لمن تطلب من تليفونات . قال مروان :

- لا بد أن يمنح الله العربى منا عمرين . . واحد يعيشه والثانى للانتظار .

أنذرت ضابط الجوازات الليبى بأن أمى قد لقنتنى بأن « من يخرج من داره . . يقل مقداره » ، وأن عليه - بناء على ذلك - أن يتركنى أدخل ، أو يدعنى أعود إلى بلدى على أول طائرة فنظر إلى فى صبر وقال :

- الله غالب !

تسابقت أنا ومروان فى نتف فروة الأمة . قال : هذه عبارة ليبية مشهورة معناها مفيش فايدة . قلت : لو عدت الآن إلى مطار القاهرة فسوف يصلع رأسى ، فالعادة أن القادم إلى هنا يمشط جيداً . أما العائد فإن مباحث أمن الدولة تشوطه إلى المخابرات الحربية ، وهذه تقذفه إلى المخابرات العامة ، التى تسدد به هدفاً فى مرمى المادة الثانية من الدستور وهى تنص على أن مصر جزء من الأمة العربية . قال : الحكومات العربية - والشهادة لله - حريصة على حدودها من خطر العرب الآخرين . وهذا هو المفهوم الرسمى للأمن القومى العربى . وأحمد ربك ، فقد كان أحد

أصدقائى فى الطائرة ، حين أصدرت المغرب قرارها بضرورة حصول العرب على تأشيرة دخول ، وطبقته لحظة صدوره . وقد دهشوا حين طالبوه بها ، فاعتذر بأن مكاتب التأشيرات فى السماء مغلقة للتحسينات . سألته : هل تعتقد أن شيمون بيريز قد حصل على تأشيرة دخول ؟. قال : للاسكندرية ؟!. قلت : بل للمغرب . قال : لا أظن !

. . . .

تجولت على شاطىء البحر وذراعى فى ذراع الكاتب والمناضل الفلسطينى « ناجى علوش » . قرأنا شعراً ، وتحدثنا عن فقه اللغة العربية . وسرحت معه فزرت مكتبة فى دمشق وتفقدتها . قال : المؤامرة منذ البداية قامت على أساس خروج مصر من المواجهة . حتى العدوان على بيت « القذافى » ومقر « ياسر عرفات » ، هو فى جانب منه ، إشارة إنذار لكل من يقيم فى مصر ، بأن تغيير الأوضاع أو السياسات الراهنة غير ممكن . وإعلان أمريكى واسرائيلى بأن الضرب سيكون شخصياً وفى غرف النوم !

حدثته عن المؤتمر الدولى فقال : يدهشنى أن نسعى نحن العرب بأنفسنا إلى المؤتمر الدولى . أتعرف ماذا يعنى ذلك . معناه أن نضغط على حلفائنا السوفييت ، ونجبرهم على الاعتراف باسرائيل وفتح باب هجرة اليهود السوفييت إليها . . والتوقف عن تزويدها بالأسلحة . . وهذه هى شروط اسرائيل لمشاركتهم فى المؤتمر . .

شردت مرة أخرى ولم أعلق . عند باب الفندق ، قابلنى « أمين الريحانى » . رحمه الله ـ قال لى : أنا الشرق . . عندى أفكار وعندى فلسفات . . فمن يأخذها ويعطينى دبابات وطيارات . . قلت له مواسياً : لله يحنِّن عليك !

. . . .

حاولت أن أحافظ على توازنى وأنا أجوس بين أكوام الزجاج والحجارة والأخشاب التى تناثرت فى أنحاء البيت الذى كان سكناً للعقيد القذافى بباب العزيزية بضواحى طرابلس . تحطمت النوافذ والأبواب وانقلبت قطع الأثاث ، واستقرت كتل الخرسانة فوق أسرة النوم ، أما كتب الأولاد وكراريس البنات فقد توزعت فى كل مكان . وقفنا فى شرفة غرفة نوم القذافى بالطابق الثانى . أشار مزافقنا إلى المكان الذى اسقطت فيه الطائرات الامريكية قنابلها على مسافة قريبة من البيت ، وتحدث عن تفريغ الهواء الذى حطم كل ما بالمنزل . سرقنى مشهد الشمس وهى تغرب عند حد الصحراء المحيطة بنا . صنعت من أشعتها الغاربة أرجوحة . خفتت أصوات بقية الزائرين . غادرت ارجوحتى لاهثاً وقد لسعتنى نسمة هواء بارد . وجدتنى وحيداً فى الشرفة ، وقد صمت كل شىء حولى . خفت . شملتنى رعدة . جريت . أدركتهم عند السيارة يبحثون عنى . قلت : كنت أبحث بين الأنقاض عن جوازات سفر الطيارين الامريكيين الذين قاموا بالغارة .. لاتأكد أنهم قد حصلوا على تأشيرة دخول !

لو كنت أعرف لحظتها ، لاحتفظت فى رأسى بصورة لبيت ياسر عرفات فى حمام الشط قبل أن يسووا به الأرض ، فاستكملت بذلك توثيق دفاع جيلنا أمام محكمة « حماية القيم من العيب » .

مرقت بنا السيارة من مطار تونس ، إلى « بوسعيد » فى ضواحى العاصمة لكى تقضى ساعات فى انتظار طائرة تقلنا إلى القاهرة . أشار صديقى إلى مجموعة من المبانى على شاطىء البحر . قال : هنا مقر المنظمة .. حيث يقيم الذين خرجوا من بيروت . وكان الشيخ « الطبلاوى » ساعتها يتلو فى مذياع السيارة قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ونريد أن

نمن علـى الـذين استضعفـوا فى الأرض ونجعلهم أئمـة . ونجـعلهـم الوارثين ﴾ .

بعدها بأسبوع . وقعت الغـارة الاسرائيليـة على حمـام الشط . أما فى ذلك المساء ، فقد وجدت « مظفر النواب » جالسـاً بجوارى عـلى مائـدة عشاء فى بيت السفير السورى بطرابلس . وكان يدندن بمقطع من قصيدة له يقول :

أين هُو وعد الذين استضعفوا فى الأرض
والركض إلى المِسْلخ يوميا
ألا أصرخ : يا رب التفت للناس
ما هاذي القيادات المنافيخ فراغاً
تشتكى من سوء هضم داخل المخ
وتجتر نياما ؟

. . . .

فى الصبح فتحت عينى على صـوت فـرقعـة . خـرجت إلى الشـرفـة مذعوراً . من يضمن لى أنهم لم يغيـروا مرة أخـرى على طـرابلس . كانت زخّـات المطر تتسـاقط بكثافـة ـ على إيقـاع الرعـد ـ فتغسل بيـوت المدينـة البيضـاء . لكنها مـا غسلت قلبى . زارنى « سليمـان خـاطـر » فى غـرفتى بالفندق . شرب معى قهوة الصباح . حدثنى عن وقفته فى الليالى المحـاقية فوق قمة التل ، يسمع عواء الذئاب وفحيح الأفاعى ، ويغنى « فى البحر لم فُتكم . . فى البر فتونى » . أما الراديو فكان أيامها يتحدث عن غارة حمـام الشط . « لم يعد للوطن حدود فى البحر أو فى البر أو فى الجـو ، واسألـونى أنـا ، فأنـا جندى حـدود » . سألتـه : لماذا لم تسمـح لهؤلاء الاسرائيليـين بالصعود إلى قمة التل ؟. قال : لم تكن معهم تأشيرة دخول .

« أما حين توقف صوت الرصاص ، فقد اعتلى « سليمان خاطر » قمة التل . حذر المذهولين فى السفح من السماح للعدو بالصعود . صرخ : يا أمباشي عطية . . اقفلوا سكة نويبع . . قول لحضرة الضابط يبلغ مصر تبعت تعزيزات . . اقفلوا سكة طابا . . هايجموا يا عطية ! » .

توقف المطر . لم أجد فى الغرفة إلاَّ فنجانه الفارغ ونظرته الحزينة . فكرت فى أن أطير إلى « أكياد » ، أطوف بالقبر . أصلى .

. . . .

مع مفتاح الغرفة ، سلمنى موظف الاستقبال رسالة غير موقعة ، تدعونى لاجتماع لجنة الصياغة فى الغرفة رقم ٧٤٧ . لعنتُ الندوة واللجنة . ماذا أصوغ وقد شردت فى نصف الجلسات ؟ .

حين صعدت وجدت مفاجأة . كانت الرسالة فى حقيقتها دعوة للعشاء من صاحب الغرفة الصحفى اللبنانى المعروف « وليد الحسينى » . وباكتمال المدعوين ، أصبحنا ممثلين لنصف دول الجامعة العربية : لبنانيان ، وكويتية ، وفلسطينى ، وثلاثة مصريين ، وسورى وجزائرى أما العراق فكان « مظفر النواب » نائبه .

أدار « وليد » شريطاً للفيديو ، سجله لسهرة فى منزله ببيروت ، ليسمعنى أغنية جديدة ، كتبها الشاعر اللبنانى الكبير « جورج جرداق » ولحنها وغناها الملحن اللبنانى « جورج عبدو » ، مطلعها : « أنا مصرية » . واقترح علىّ بحماس أن يسجل لى اللحن لأعرضه على أحد المطربين المصريين ليغنيه . مع إيقاع اللحن المرح ، إنتشر الفرح فى الغرفة . واندفع الجميع يغنون مع « جورج عبدو » : الذين يجلسون حوله داخل شريط الفيديو ، والذين يحيطون بى . والأغنية تتغزل فى الوطن الذى غادرته ،

يطاردني الملل . وتختنق انفاسي بالرطوبة ، وكل شيء نص .. نص .. أما هؤلاء الأصدقاء القادمون من مختلف أنحاء الوطن ، فهم يشتاقون إليه جميعاً . لذلك يغنون :

وتسباءلني هل تنسانى ؟ هل تذكر دوماً عنوانى ؟ .
أنا تحت ردائى قمران
وجمالى .. ليس له ثانى
أنا كل عصور الحب .. وكل عطور الشرق بأردانى
وبساط الريح على كفى
ومرايا السحر بأجفانى
أنا بنت للنيل وزهو الجبل
بكل جميل تلقانى
بقمر الليل وموج البحر
وشمس الصحرا ترانى
أنا لست إمرأة عادية .. أنا مصريه
كالأرض حَيِيَّه وبهيه
كالشمس قديمة وصبيه » .

ظللت طول الوقت أتأمل وجه « مظفر النواب » . أبحث فى ملامحه عن خطى الزمن . كان قد حدثنى فى الصباح عن سنوات طفولته الأولى فى بغداد . الكُتّابْ ، ولوح الأردواز وختم القرآن ، والسير فى مواكب الدموع يوم عاشوراء . وروى عن مطاردة كتاب التقارير وسياط الجلادين ، والركض إلى المسلخ يومياً . وصدود ضباط الجوازات فى الموانىء الصلدة . أما فى تلك اللحظة فكان شارداً يدندن شيئاً . وحين إنتهى جورج عبدو من

غنائه . ارتفع صوته الشجى يغنى آخر قصائده :

« دائماً القاك فى شارعنا الفرعى . . يا رب
تأوينى من الصيف العراقى بثوبيك
وتتلو صبر أيوب على وجهى
ولكنى مهووس غراما
ببيوت أذن الله بأن يذكر فيها
وكثيراً هيمتنى « ألم نشرح »
و « الضحى »
« يا أخت هارون » ولا أمك قد كانت بغيا « زكريا »
وسليمان بن خاطر
« كان صدِّيقاً نبياً »
وإماماً .

فى رحلة العودة كان « مظفر النواب » ما يزال يغنى فى رأسى

« قبِّل القبر بأكياد
فهذا الهرم الطفل
احتوى أسرار مصر كلها
وأقانيم خلود الروح
والطوفان والطود .
أما كان كليم الله فى رابية الطود
وناداه : سليمان بن خاطر
طهِّر البيت من الأرجاس
وانزل أرض مصر

حذِّر الأحزاب من دوامة السلطة
والنصفيَّة العاهر
بلِّغها بأن الله لا يقبل إلاَّ بالبواريد السلاما » .

في المطار مشَّطوني . اصطدمت يد الضابط ـ بعد أن إنتهى من تفتيش أمتعتي بشريط الكاسيت الذى سجلت عليه القصيدة ، قال : ما هذا ؟ . . بارود . قلت : أظنه كذلك .

. . . .

استقبلت ليل القاهـرة فى باحـة المطار . لم أجـد أحداً فى استقبـالى ، سوى « الفرزدق » صاح فى وجهى :
ـ أولئك آبائى فجئنى بمثلهم . . إذا ما جمعتنا يا « جرير » المجالس .
خلعت فردة حذائى ، واندفعت أطارده فى شارع المطار !

(*) الأهالى ٢٢ أكتوبر ١٩٨٦ .

سلطة بسكر

مع أن ما فهمته ساعتها من كلماته كان شيئاً مختلفاً تماماً عما قصده رئيسى - آنذاك - الأستاذ « محسن محمد » ؛ من تلك الكلمات ، إلاَّ أننى إعتبرته صاحب الاكتشاف ، ومبتدع المصطلح واحتفظت له سراً وغلناً ببراءة الاختراع فإذا قضت الضرورة بأن استشهد بالكلمات فى مناقشة مع الناس أو فى تعليق مع نفسى على ما أقرأ أو من اقابل ، نسبتها إليه فقلت بتوقير شديد وتقدير كبير شأن الذين يقدسون حقوق الملكية الأدبية والفنية :

- أصل فلان ده عنده على رأى : « محسن محمد » طاطش Touch يسارى !

ولم يحدث ولا مرة أن حاولت ترجمة الكلمة الانجليزية التى تعترض مسار الجملة لأن ذلك هو نص ما قاله لى يومها الأستاذ « محسن محمد » ولأن الأمانة العلمية وهى من فضائل القليلة لا تقضى فحسب بنسبة الفكرة إلى صاحبها بل تفترض أيضاً ألا تتغير كلمة واحدة من النص الذى قاله . .

والحقيقة أننى دهشت إلى درجة تقرب من الذهول لأن الرجل خيب كل

الظنون التى أوحت لى بأن اللقاء الأول بيننا سيكون عاصفاً وعلى العكس من ذلك فتح الأستاذ « محسن محمد » قلبه لى ، وفكر أمامى بصوت عال ، ودون حرج فى موضوعات لا أظن أنه كان وقتها ـ أو قبلها ـ قد تحدث فيها مع أحد غيرى . ومع أن هذا الموقف الذي لم اكن قد توقعته أو استعددت له قد أفسد المعدات التى كنت قد حشدتها ـ فى رأسى طبعاً ـ لمواجهة عنيفة معه ، فباخت حماستى إلاَّ أننى ما كدت اسمعه يتحدث إلى بجدية شديدة عن حكاية « التاتش Touch » اليسارى هذه حتى بذلت مجهوداً ضخماً لكى لا ينفجر توترى وخيبة أملى فى قهقهات من النوع المصرى المعروف فيتبادر إلى ذهنه أنه ـ أو كلامه ـ هدف القهقهة . إذ الواقع أن الأستاذ « محسن محمد » وربما على غير قصد منه ، كان قد شخص لى حالة شغلتنى طويلاً ، أيامها وبعدها ، ومنحنى اكتشافاً علمياً أجهدنى البحث عنه ، بالكلمات العابرة التى قالها والتى تتابعت على أثرها صور لأناس وأفكار وكتب ووقائع وسياسات تنتمى إلى هذه الدنيا الواسعة التى تسمى بدنيا الطاطش اليسارى !

أيامها ـ ربيع ١٩٧٥ لم يكن قد مضى على رئاسة الأستاذ « محسن محمد » لتحرير جريدة « الجمهورية » سوى شهور قليلة ومنذ الأسبوع الأول كان واضحاً أنه قد جاء بتكليف محدد ، هو أن ينفى من الجمهورية « وعنها » أية شبهة يسارية .

ولا أدرى هل هو من حسن الحظ أم من سوئه أننى كنت فى السجن حين أصدر الرئيس الراحل أنور السادات قراره بنقل الأستاذ « مصطفى بهجت بدوى » رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير ـ كاتباً بالأهرام ، وفكه بثلاثة هم المرحوم « عبد المنعم الصاوى » رئيساً لمجلس الادارة ، والأستاذ « محسن محمد » رئيساً للتحرير ، والأستاذ « إبراهيم الوردانى » مديراً

للتحرير . لكن وجودى فى السجن كان قد انقذنى من قرار آخر - صاحب هذه التغييرت - بتشتيت الكتاب اليساريين فى « الجمهورية » فنقل « حسين عبد الرزاق » و « فريدة النقاش » إلى « الأخبار » ، حيث لم يطلب أحد من ايهما، وحتى هذه اللحظة، أن يكتب حرفاً أو يقوم بعمل.ونقل الأستاذ «محمد عوده » روالمرحوم « عبد الحميد عبد النبي » إلى « روز اليوسف » وهى حركة غطيت - كالعادة بنقل اربعة من كتاب اليمين إلى « المصور » و « التعاون » مع ترقيتهم ، وإفساح الصفحات أمامهم ليبدو وكأن العدل يسود الديار الصحفية !

وحين اتصل بى مكتب الأستاذ « محسن محمد » فى منزلى - الذى لزمته حوالى شهر بعد الافراج عنى - يطلبنى للقاء معه ، استعددت لمواجهة شرسة . فقد كان واضحاً أن القرار العلنى بعدم تشتيتى كان مصحوباً بقرار سرّي بتجميدى . وهكذا حشوت رأسى بنصوص من الاعلان العالمى لحقوق الانسان وبنود من الدستور ، ومواد من قانون نقابة الصحفيين وعلى سبيل الاحتياط والاحراج - وبعض الكوسة المصرية الشهيرة - حفظت نصوصاً من خطب « أنور السادت » التى كانت تزدحم ايامها بتعهدات بعدم كبت الرأى أو اضطهاد الفكر ، وغيرها من « اسطوانات » الديمقراطية التى لا أظن أن هناك بلداً أسرف حكامه فى التغنى بها مثل مصر المحروسة بالأولياء ، وبالحرامية على رأى صديقى الشاعر أحمد فؤاد نجم ردّ الله غربته .

وبعد دقائق من دخولى مكتب الأستاذ « محسن محمد » كان السيناريو الذى رسمته لمقابلتنا قد باظ تماماً ، فقد استقبلنى ببشاشة ولم يعاتبنى لأننى لم أطلب لقاءه أو التعرف به فور خروجى من السجن ، بل اعتذر لى بزحمة العمل لأنه تأخر فى طلبى ، وفى تهنئتى بالافراج ، ثم اندفع فى حديث

طويل ،لم ينكر خلالـه أن هناك « نـاس وكتـارْ وكتـاب فوق حـاطين عينهم عليك » ولم أقاطعه حين واصل الحديث قائلاً ان « اللى راح قد راح ، وانتم مش فاهمين حاجة من اللى حاصل واللى حيحصل . . . عشان كـده لعبتوا غلط؟» ولم أعن بسؤاله عمن يقصدهم بضمير الجمع ، أو بـالاستدراك عليـه بأننا لم نكن نلعب سواء كان ذلك صحّاً أم غلطاً ، لأنه انتقل تلقائياً للحديث عن سلفه « مصطفى بهجت بدوى » فاعترف بفضائله الكثيـرة ، والمح إلى أنه أحد الذين يعنيهم بإشارته الى الـذين « لعبوا غلط » مشيراً من طرف خفى ، إلى مقالين أحدهما ـ وأقلهما أهمية لى ـ والآخـر للأستـاذ « مصطفى بهجت بدوى » أثار نشرهما ضجـة واسعة ، إذ كـانا من المحـاولات الأولى لمواجهة عواصف الهجوم على ذكرى الرئيس الراحل « جمال عبـد الناصر » وهى عواصف كانت ـ تتقدم أيامها جيوش الانفتاحيين الزاحفة !

وادهشنى أن يأتمننى الأستاذ « محسن محمد »، ولو من طرف خفى ، على اتجاهات الريح القادمة وان يطلعنى ـ ولو تلميحاً ـ على بعض المخبوء الذى يجرى فى الكواليس العليا . ومع أن ما قاله جاء تأكيداً على أن مصر الساداتية ستكون شيئاً مختلفاً تمـاماً عن مصر الناصرية ـ وهو ما اقلقنى بعض الشيء ـ إلاّ أننى منعت نفسى من الضحك إذ تصورت أن الـرئيس السادات ، الـذى كنت اضعه ـ أو بمعنى أدق أضع كلمات له ـ فى جيبى يـرد على مـا يقولـه الأستاذ « محسن محمد » صارخاً بكلمته المأثورة :

ـ ح افعصك يا محسن !

ولأن الأستاذ محسن ـ كما قد لا يعرف كثير من القراء ـ ينتمى إلى حزب اشجار الجميز ، فقد بدت لى محاولة فعصه باعثة على الضحك ـ أما هـو ، فكان يقول لى أنهم حين عرضوا عليه رئاسة تحرير « الجمهـورية » أجـرى

دراسة احصائية كشفت له أن متوسط جلوس رئيس تحريرها فى مكتبه ، لا تزيد عن ٢٣ شهراً ، ينتقل بعدها « زيكم » إلى « المخزن » لأن أصابع لاعب « الماريونيت » ، فى مسرح العرائس والصحافة الرسمية ، الذى يوزع المناصب والأدوار الصحفية ، لا تستطيع صبراً بعد هذه المدة !

وبعد هذه المقدمة انتقل الأستاذ « محسن محمد » للحديث عن التطويرات الكثيرة التى ادخلها على تبويب « الجمهورية » . وتفضل فسألنى عن رأيى فيها ، فقلت له ـ بصراحة كيدتنى دائماً مصاعب فى علاقاتى مع الناس ـ انها تبدو طريفة ولا بد أنها قد رفعت التوزيع (وهذا صحيح) ولكنها انتهت بجريدة كالماء القراح لا لون لها ولا طعم ولا رائحة فتقبل الملاحظة بصدر رحب ـ افتقده صاحبه فيما تلا ذلك من سنوات ـ وشكا من أن « الجمهورية » بعد عمليات « الاحلال والتجديد » قد فقدت عدداً من كتابها الذين كانوا يعطونها طعماً خاصاً ، وأن العدد القليل الباقى منهم آنذاك بها ، غير كاف حتى لا تفقد قارئها القديم مقابل ما اكتسبته من قراء جدد ، وأضاف أنه لهذا السبب قد طلب مقابلتى مع أن كثيرين قد حذروه ، من أننى مجنون ومندفع (ومخى شايط) لكنه يعتقد مع ذلك أن الخيط بيننا لا يجب أن ينقطع ، وأنه يستطيع أن يستفيد مما سماه تفضلاً « مواهبى » وان المهم الآن ، أن نتفق على قواعد اللعبة ، « عشان نلعب صح مش زى ما عمل مصطفى بهجت » .

واستفهمته بنظرة محايدة من عينى ، إذ كان الفضول قد تملكنى لمعرفة قوانين « العصر الجديد » فلم أشأ أن أقول ما يدل على موافقتى أو ما يحول دون معرفتى لما يجرى ، ورداً على نظرتى قال :

ـ باختصار . . احنا عايزين نخلى فى « الجمهورية » طاطش touch يسارى . .

وكان قد قال العبارة الأخيرة ، ويده فى الهواء ، مضمومة الأصابع ، تدور فى حركة دائرية كأنه كنفانى ماهر ، يمسك كوز العجين ويدور به على صينية فرن الكنافة ـ وحين لاحظ نظرتى البليدة ـ التى قاومت خلفها انفعالاتى حتى لا يدرك رد فعلى على ما يقول ـ غيَّر من طبيعة حركة يده المضمومة الأصابع ، ومن ايقاع هذه الحركة ، فبدا لى وكأنه قد انتقل فجأةً من حركة مَنْ يصنع كنافة ، إلى حركة من يضيف قليلاً جداً من الملح إلى طبق من الشوربة امامه وهو يقول بنفاد صبر .

ـ عارف يعنى إيه طاطش touch يسارى ؟!

وهربت من رغبتى العنيفة فى الضحك ، بمشاركته فى البحث عن ترجمة عربية للمصطلح الذى استخدمه . لكن ترجماتى الفصيحة مثل « لمسه » و « مسحه » لم تعجبه . وبدت متقعرة وقاصرة عن اداء المعنى الذى يقصده . وكان يواصل هز أصابعه المضمومة على ملاَّحة وهمية يهزها بحرص شديد ورفق بالغ ، فوق طبق شوربة غير موجود ، إذ لم يكن على المنضدة التى تفصل بيننا سوى بروفة لاحدى صفحات عدد « الجمهورية » الذى كان مقرراً أن يصدر فى اليوم التالى كانت قد أُدخلت إليه اثناء اجتماعنا ليقرأها قبل أن يأمر بطبعها . . لكنه نسيها اثناء استغراقه فى الحديث معى ، وأخذ يواصل هزّات يده ـ المضمومة على الملاَّحة الوهمية ـ بحرص فوقها ، وهو يقول لى نافد الصبر على عدم سرعة بدهيتى !

ـ طاطش touch يا أخى . . عايزين طاطش يسارى . . مش عارف يعنى إيه طاطش !

وكنت ـ بشكل تلقائى وغير مقصود ـ اتابع يده المضمومة بعينى ، فإذا

به حريص على الا يقوده الإلحاح فى البحث عن المعنى الذى يقصده إلى هز الملاحة الوهمية إلى أسفل بقوة تزيد من كمية « الطاطش » اليسارى التى يريدها. وبدا لى أن ضياع الترجمة التى يعنيها للطاطش يتعسه جداً وأنه يحاول تحميسى لمشاركته فى البحث ، دون أن يتحمس هو فيهز الملاحة بشدة فيزداد حجم الطاطش عما يريد ، وهو ما جعل قدرتى على التحكم فى ضحكاتى تكاد تنفد ، خاصة وأن الرئيس السادات كان لحظتها جالساً فى جيبى يقول بلهجته المميزة : حا افعصك يا محسن . . بينما هو يقول لى بنفاد صبر : طاطش يا أخى . . مش عارف يعنى أيه touch ؟!

وحتى نخرج كلانا من الورطة التى كنا فيها . . قلت له :

ـ حضرتك تقصد « شَعْرة » ؟!

فتنهّد براحة بالغة . . وشمله سرور غامر ، وقال فرحاً :

ـ عليك نور . . عايزين شَعْرة يسار !

ويبدو أن الأستاذ محسن ، رأى أن من واجبه ، وقد عبر المأزق ، ألا يتيح لى أية فرصة لاساءة الفهم ، فواصل الحديث قائلاً ، وهو يقارب بين سبّابته وإبهامه ، حتى كادا يتلامسان :

ـ يعنى طاطش صوغير قد كده !

كنت قد تأكدت تماماً من أن العهد قد أصبح بالفعل كنافة بالملح وسلطةْ بالسكّر ، وأدركت أن المطلوب منى ، هو أن انتمى إلى فرقة من كتّاب اليسار مهمتها رشّ شَعْره يسار على واجهة النظام الذى يتجه ـ آنذاك ـ بكل قوته . . يميناً :

« شعْرة يسار » لا تخيف جيوش الانفتاحيين الزاحفة ، تمثل بجثة عبد الناصر ، وتتمخط فى علم البلاد ، وتبيع استقلال الوطن بسعر الدولارات فى السوق السوداء ، ولكنها تكفى لطمأنة « أسيادهم » فى

واشنطن ، بأن فى مصر ديمقراطية ، وأن احداً لن يمس حرية رأس المال ، فى أن يربح كما يشاء ، ويخطف كما يريد ويبيع بالسعر الذى يشتهى !

« شعْرة يسار » توحى للفقراء بأن كل شىء على ما يرام ، وتهدىء من روعهم ، حتى لا يقودهم الرعب من أن يعجزوا يوماً عن ستر بناتهم ، أو شراء اكفانهم إذا ما حم القضاء ، إلى التظاهر والاضراب ، وغيرها من أشكال « قلة الحيا » و « الرزالات » .

« شَعْرة يسار » تمنح سمعتها الطيبة للنخاسين والقتلة والداعرين وسارقى الكُحل - والنوم - من العيون ، وباعة المبادىء على أرصفة المباغى ، وفى أيديهم مسابح ، وعلى جباههم « زبيبة صلاة » من أثر السجود على عتبة « البيت الأبيض » .

ورغم ادراكى لذلك جميعه ، فإننى كنت قد انغمست تماماً فى المحاورة ، وهكذا طلبت توضيحات عملية عن حجم الشِّعرة المطلوبة ، فقال الأستاذ محسن :

- اكتب اللى يعجبك بس مالكش دعوة بالقوتين الأعظم !

ادركت أنهم لا يريدون أى نقد للعلاقات المصرية الأمريكية ، ومعنى هذا طردى من صفحات السياسة العربية والدولية . .

هززت رأسى هزَّة بلا معنى . . قال :

- وكمان بلاش حكاية الصراع الطبقى . . والطبقات . . والكلام اياه !

قلت لنفسى : جميل . . معنى هذا إجلائى عن الكتابة فى صفحات السياسة الداخلية والمحليات . . وأضاف هو :

- وطبعاً أنت عارف موقف وزير الاعلام «يوسف السباعى» منك . .

فمالكش دعوة لا بالثقافة ولا بالفنون . . ولا بالإعلام .

قلت لنفسى : عظيم ها قد طردنا أيضاً من صفحات الثقافة والفنون والمنوعات !

تنهد براحة . . وقلت :

ـ يعنى باختصار عايزين طاطش يسارى فى صفحة الوفيات ! . . طيب م ـ ّ ر على كاتب ميت أحسن لك !

واندفعنا نضحك . .

وليس مهما ما حدث بعد ذلك ، لكن المهم أن « محسن محمد » كان قد دلنى على مصطلح يشخص حالة ليست نادرة ، فى كثير مما عاصرته من أحداث ، وما قرأت عنه من تواريخ ، وماقابلته من بشر ، هى حالة « الطاطش اليسارى » !

وفيما تلا ذلك من سنوات ، كنت اكتفى بتعليق صامت على كثير مما اسمع من تعليقات أو ما أقرأ من أفكار ، أو ما اتابع من سياسات ، تتقمص فيه كفى ، نفس الوضع الذى اتخذته كف الأستاذ «محسن محمد» فى ذلك اليوم البعيد ، وهو يهز ملاحته بحرص شديد فوق بروفة صفحة الجمهورية ، حتى لا يزيد « الطاطش » عن المطلوب . . بينما أنور السادات يصرخ فى جيبى :

ـ ها افعصك يا محسن !

(*) « الأهالى » ـ ٢٦ نوفمبر ١٩٨٦ .

أشواك في أحضان الحبايب

لا أذكر تحديداً متى دخل تقليد الاحتفال برأس السنة الجديدة ، ضمن طقوس عمرى ، ولكنى أذكر بدقة كيف خرج منها ، ولعلى ـ شأن كل الريفيين وأبناء القرى ـ قد اكتسبت عادة الاحتفال بهذه المناسبة ، من شلة الأصدقاء ، أبناء المدينة ، الذين عرفتهم فى مقتبل شبابى ، وكانت إحتفالات فقيرة ، فى طعامها وشرابها وفى لهوها ، نظل ندخر نفقاتها من المصروف القليل ، الذى كان يزودنا به آباؤنا ، ربما لكى نثبت لأنفسنا ، إننا أبناء ذوات ، أو خواجات ، وربما لكى نفتح فى قلوبنا المكدودة بالأحلام غير المحدودة وبالواقع الراكد الذى لا يتغير كما نهوى ، ثغرة للأمل ، بأن الدنيا تسير للامام ونلقى خلف ظهورنا بهموم العام الذى انقضى ، لنستقبل الدنيا بفرح مزيف .

وقد مضى الآن زمن طويل ، نسيت خلاله التاريخ الدقيق لآخر ضحكة إنطلقت من قلبى صافية بلا كدر ، وآخر دمعة حارة ذرفتها فغسلت روحى ، وما أكثر ندمى لأننى لم أسجل تاريخ تلك الأحداث الهامة ، لكى

أخرجها من قلبى فى ليالى الشتاء الواعر ، فأشم رائحتها ، وأتدفأ بملمسها ، وتنبسط فى ملمسها التجاعيد على قلبى وعلى جبينى !

أما أغرب احتفالات رأس السنة التى شهدتها ، فقد كان إستقبالنا للعام ١٩٦٧ ، فى الغرفة رقم ٦ بمعتقل طرة السياسى ، وكان قد مضى على إعتقالنا ثلاثة شهور ، عزلنا فيها عن العالم . لا رسائل ولا كتب ولا أنباء عن الأحباب الذين انتزعونا من بين أحضانهم . وفوجئت حين وجدت ترتيباً أعده المسؤولون على تنظيم أمور معيشتنا من زملائنا المعتقلين يجرى للاحتفال برأس السنة فى سرية تامة ، وفى ساعة التمام أغلقت الزنازين ، وفى التاسعة بدأ الاحتفال : عشاء من فول السجن المحسن ببعض الصلصة ، والعدس المصفًّى ، دون حصى لأول مرة ، وكنا خليطاً غريباً من اليساريين المصريين ، فيهم عمال ومهنيون وكتاب وصحفيون وشعراء ، وكانت التعاسة تحط على السجن فى الأعياد والمناسبات السارة ، ويوم فتحت عينى على أول تكبيرات لعيد الفطر تتصاعد من مذياع المعتقل ، غطيت وجهى بالبطانية ، جريت فى المكان إلى قريتى ، تذكرت دوّارنا ، وأبى يلبس الجلباب والبالطو ، ويتوجه إلى الجامع ليصلى ، ثم يعود ليستقبل المعيدين » !

أما فى تلك الليلة التى استقبلنا فيها رأس سنة ١٩٦٧ ، فقد قررنا أن نضحك بقرار إرادى ، وأن نبتهج بالعافية ، وأن نحطم أسوار السجن والقهر ، وأن نلقى الأحباب رغم القضبان ، فغنينا لـ« سيد درويش » و« زكريا أحمد » و« فيروز » ، وموّلنا « ناعسة الأجفان ضمينى . . ليل الشتا طويل . . ضمينى وانا أضمك . . ليل الشتا واعر » . وكان الغناء - فى الظاهر - مرحاً ومتفائلاً . . لكن شجنا خفياً كان يختبىء فى قرار اللحن . .

ولما كان بيننا شاعران ، هما « عبد الرحمن الابنودى » و « سيد حجاب » ، فقد وجدنا أنفسنا ننتقل من الترديد إلى التأليف . وحين تعانقت عقارب الساعة معلنة انتهاء عام وبداية آخر . اندفعنا نردد مطلعاً لا أدرى من منهما الذى ألّفه ، ومن بيننا الذى لحنه ، وما زلت أذكر كيف إندفعنا جميعاً نصيح فى نفس واحد ، وبايقاع راقص لاهث « بالحضن يا سبعة وستين . . وفى داهية يا ستة وستين » . لكننا أضفينا على اللحن كل ما فى قلوبنا من إحساس خفى بالتعاسة لأن أحلامنا التى كنا نظن ـ بسذاجة وإندفاع الشباب ـ إنها سهلة التحقيق ، ليست كذلك ، ولأننا اكتشفنا ربما لأول مرة ، أن امام تحقيقها محارق ومشانق وسجون ، وهكذا تصاعد أداؤنا للحن ، ليجمع بين النشيد والأغنية الراقصة ، والجنائزيات التى سكنت آذاناً ترعرع معظمها فى قرى تتوشح بالضحك والدموع .

ويوم أن إنتهى عام ١٩٦٧ ، إجتمع معظمنا فى بيت « عبد الرحمن الابنودى » لنستقبل العام التالى له ، فتذكرنا كل ما جرى فى العام الذى انقضى وخضنا بين أنقاض الأحلام التى أصبحت شوكاً ندوس عليه .

وبدلاً من أن نردد ، بالحضن يا ثمانية وستين . . وفى داهية يا سبعة وستين ، اسمعنا « الابنودى » أغنية جميلة ، كان قد ألفها لعبد الحليم حافظ فى تلك السنة ، تقول « حتى فى احضان الحبايب شوك يا قلبى » . وهى أغنية لا أدرى لماذا أربط بينها حتى الآن وبين تلك الأحضان التى إستقبلنا بها عام ١٩٦٧ ، فإذا بالأشواك تخترق القلب ، وتمص الدم من الشرايين وإذا بالفرحة العامرة تغادر الروح إلى غير عودة !

وكان محتماً ـ ليلة وداع ١٩٦٧ ـ أن يجرى ما جرى ، فقد سكرت

ـ غفر الله لى بعد أن تاب علىّ ـ فوقفت خطيباً بين الأصدقاء ، وبعد إستهلال لا يخلو من النفاق ، واجهتُنا ـ إذ الواقع إننى كنت أتحدث عن الجمع بما فيهم نفسى ـ بالحقيقة. وكان « الابنودى » يتردد أيامها بكثرة على السويس ، وفى الجلسة نفسها نقل عن صديقه « إبراهيم أبو العيون » فلاح منطقة الجناين بالسويس ، مشاعره ، حين يرى العلم الاسرائيلى يرفرف على ضفاف القناة ، ومن بينها قوله ، « كل ما شوف العلم يا أستاذ عبدو الرحمان . . أحس زى ما يكون سكينة بتغز فى قلبى » .

أكان ذلك هو الشوك الذى غزّ قلبى فى تلك الليلة ، البعيدة فدفعنى لتلك الحماقة التى ارتكبتها ، حين جابهتُنا بالحقيقة المرة فقلت خطيباً :

ـ يا أولاد الأفاعى . . وطنكم محتل . . والحذاء يصلح إذا لم تكف سكاكين المطابخ . . ولكنكم ترددون فى صلواتكم أن الخمر مفتاح الفرج ، وهو كذلك للمساكين ومكسورى الجناح وفاقدى الحيلة . .

ضحكوا وضحكت ، ضحكاً ممزوجاً بطعم الخل ، وكانت قبور الذين ماتوا فى حرب ١٩٦٧ ، قد بنيت فى قلبى ، وناوشنى إحساس مرير بالذنب ، لأننى أضحك (مع أننى كنت فى الواقع فى حالة هى مزيج الغضب العالى والحزن الممض) بينما شواهد قبورهم ، ترتفع على أسطح البيوت المجاورة !

منذ تلك الليلة ، خرج تقليد الاحتفال بليلة رأس السنة ، من طقوس عمرى .

سنوات كثيرة جاءت بعد ذلك ، إكتفيت فيها بقضاء الليلة فى منزلى ، أقرأ أو أكتب أو أشاهد التليفزيون ، وقضيت بعضاً منها فى السجن دون احتفال ، ولبيت أحياناً دعوات أصدقاء لاحتفالات بالمناسبة على سبيل الواجب فقط . وكما يحدث عادة فى النصف الثانى من ديسمبر من كل عام ،

يتصل بى من يقول لى :

ـ حتعمل إيه ليلة رأس السنة . . السنة دى ؟ . سألنى سائل منذ أسبوعين السؤال . وقبل أن أجيب بما لم أكن قد فكرت فيه ، يدخل عمر مرسى ـ وهو أحد شباب التجمع بالسيدة زينب ـ ليصيح .

ـ بلدوزرات شرطة المرافق هدّت العشش على السكان فى السيدة نفيسة .

وقبل أن يغادر الحجرة ، تدخل زميلتنا « أمل بيضون » ـ مواطنة الجنوب اللبنانى وزوجة زميلنا الشاعر حلمى سالم ـ وفى يدها قصاصة من جريدة ، تقول :

ـ فى خبر أن واحد لبنانى بيعرض ولاده للبيع . . يا ريت تنشروه .

اشيح بيدى . أوافق على نشر الخبر دون أن أقرأه ، ويقول لسانى : صباح الخير يا « أم رنيم » . أما قلبى الذى كان ينزف ، فكان يعاتبها فى صمت . إبعدى الأحزان عن قلبى يا « أم رنيم » فما فيه يكفيه .

ويدق التليفون ، ليقول قائل :

ـ قبضوا على « طاهر البدرى » و ٤٢ واحد فى قضية يسارية جديدة ! .

أتذكر الرجل العجوز الذى لم يتزوج ولم يهتم يوماً بأن يكون له بيت أو عمل منتظم ، ولم يكف يوماً عن الدفاع عما يعتقد أنه الصواب والتبشير به . وأراه فى سنة من السنوات ، شريكاً لى فى نوبتشية غسل القروانات التى نأكل فيها ، فيقسّم العمل بيننا بدقة وبعدل : يحكها بالرمل ، وأنا أصبنها ، ليشطفها هو بعدى بالماء . وكلما ناولته قروانة كلّت يدى من تصبينها ، يتحسسها ويقول :

ـ لا . . دى لسة مِزْلّيطة .

وأعاود التصبين ، فيعيد لى القروانة مصحوبة بنفس التعليق ، وتستمر

النوبتشية من بعد الغداء حتى قبيل العشاء ، ويتعشى الزملاء ، فنعاود الغسيل حتى منتصف الليل . وطوال الوقت وهو يناقشنى : يتحدث عن الأربعينات . إضرابات العمال . ومظاهرات الطلبة ، ينقسم ظهرى من الوقفة الطويلة فى البرد ، وتتكرمش يدى من طول غمسها بالمياه ، وتكل من تكرار غسل القروانات . . فيقول لى : « الرسول ع عليه الصلاة والسلام كان دايماً يقول :إن الله يحب إذاعمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ، وحين يحل موعد النوبتشية المشتركة الرابعة يكتشف « طاهر البدرى » إننى قد تقدمت بطلب حتى أزامل آخر غيره فى نوبتشيته . فيأخذ ذراعى فى ذراعه . . ونلف فى حوش السجن ، وبعد حديث ناعم طويل اكتشف هدفه من الحوار ، حين يسألنى فى طيبة ووداعة :

ـ اللا ما تعرفش يا زميل صلاح . الزملا ليه دايماً مش عايزين يشاركونى فى النوبتشية . . بيتهربوا منى ليه ؟

فانفجر ضاحكاً وأقول :

ـ أصلهم زملا مزليطين !

فهل كانت تلك آخر ضحكة عامرة بالفرح أطلقها من قلبى؟ . وكيف ستقضى ليلة رأس سنة ١٩٨٧ يا زميل طاهر ؟ وإلى متى يظل أصحاب الضمير ضيوفاً على السجون والمنافى ؟ ومتى نستقبل عاماً بلا جوع ولا فقر ولا تعاسة ولا بلدوزرات تهدم العشش وتقتل الأطفال ومتى لا تجد أم رنيم صورة لأب يبيع أطفاله تنتشر فى الجريدة كأنها بعض نبوءات العام الجديد ؟ وكيف حال « عريان نصيف » و « عبد الفتاح موافى » و « أحمد التونى » ، وبقية الرفاق الذين يقضون عقوبة السجن ، لأن لهم ضميراًيأبى عليهم أن يسكتوا على تعاسة الآخرين . وفى أي مكان من قلب الوطن يوجد الآن عم « مبارك عبده فضل » ، العجوز الصبى . المطارد دائماً ، المناضل أبداً ومتى

نقتلع الشـــوك من الأرض ، ومن أحضـان الحبـــاييب . . والسنـوات . . والمستقبل !

. . . .

ويعود السائل الملح يقول :

ـ حتحتفل برأس السنة إزاى ؟ .

واشرد بعيني بعيداً . فأجد زميلنا « مصباح قطب » جالساً على مكتبـه أمامى . . وجهه يقطر سمرة شاحبة ، وأتـذكر ذلـك الصباح المبكـر الذى دخلت « الأهـالى » لينخلع قلبى حين وجـدتـه يتقيـأ دمـاً . . ثم المستشفى والطحال المتضخم ودوالى المرىء ، وكل آثار البلهارسيا ، وبسمته الصبور وعبادته للعمل ،ويسـألني الدكتور « سمير عياد » : أنت خدت بلهارسيا قبل كده؟ .وإنكلستوما يا دكتور، ومن أمراض القهر عندى دستة ونصف ؟ فمتى نستقبل عاماً لا يرفرف فيه على النيل علم اسرائيل . . ولا يقول فيه قائل : أمريكا بتاكّلنا ما نقدرش نقولها لا .

ويسألنى السائل : حتحتفل إزاى برأس السنة ؟، أقـول بلا كـلام : سيطير قلبى الحزين إلى السجن ، يقبِّل الرفاق . يبوس على أيديهم . يقدم كيلو جبن أبيض لطاهر البدرى . بدلاً من جبنة السجن المتخشبة ـ من طول الحفظ فى الشرش المعتق ـ كان ينقعها بالأيام فى الماء ، وكل صباح يكتشف أن فأراً بشرياً قد قرض جانباً منها فى الليل فيصرخ :

ـ مين فيكوا يا زملا اللص المحترم إللى كل الجبنة بتاعتى . .

فنضحك .

سيرفرف قلبى عـلى بيوت عمـال السكة الحـديد . سيلعن الجـلادين الذين عذبوا ويعذبـون الناس فى السجـون والمقاهـر ، سيزور قبـر « زكى مراد » و « صلاح حسين » ، فيقـرأ الفاتحة ، يسأله كيف وجـد « شهدى

عطية » و « لويس إسحاق » و « ام صابر » والآخرين يسألـه خفاقاً أن يبلغ السلام ـ والسلام أمانة يا عم زكى ـ لسليمان خاطر .

سيـذهب قلبى إلى عشش زينهم التى حـطمتهـا البلدوزرات ، أنشـد قصيدة « صلاح جاهين » ، التى هزتنى ميتته المكتئبة ، هو التى غنت قلوبنا الخضراء أشجى أغانيها من كلماته ، يقول « قلبى المليان » لهؤلاء « اللى فى البيت الصفيح » .

افتحوا
صاحبكم الغايب ، رجع صحصحوا
صاحبك اتلطم كتير ،
اصفحوا .
يا ساكنين الصفيح ،
استبشروا وافرحوا .
أنا مانيش المسيح
عشان أقول لكم
طوبى لكم غلبكم
لكنى باحلف لكم
باحلف بكم وباقول :
الدنيا كدب فى كدب
وانتوا بصحيح
. . . . . .

ورغم كل شىء سأقول : بالحضن يا سبعة وثمانين . . وفى داهية يا ستة وثمانين . .

(*) « الأهالى » ـ ٢٧٣ ـ فى ٣١ ديسمبر ١٩٨٦ .

ملفات هيكل ومعارك قطع ذيول الأسود

لا شيء يدعو للدهشة فى ذلك الاجماع ـ الذى انتهت إليه كل الاستطلاعات والاستفتاءات ـ بأن كتاب « محمد حسنين هيكل » الأخير « ملفات السويس » هو كتاب عام ١٩٨٦ . .

والذين يريدون التهوين من قيمة هذا الحكم ، سوف يقولون إن هذا أول كتاب ينشر للأستاذ هيكل فى مصر منذ ١٢ عاماً كاملة . . وأن فصول النص العربى ، قد نشرت فى « الأهرام » ـ اعرق الصحف المصرية ـ فضلاً عن صحف عربية أخرى كثيرة ، فاجتذبت عيون الناس وسحرت عقولهم ـ وانتزعت منهم حكماً متعجلاً بأنه كتاب العام !!

لكن الشيء المؤكد هو أن « هيكل » كاتب لا يستطيع أن تتجاهل حرفاً واحداً مما يكتب ، إذ معنى ذلك أنك لا تريد أن تفهم ، أو أنك ـ ولا مؤاخذة ـ لا تفهم فعلاً . . وهو حكم يصبح نهائياً ـ أى غير قابل للنقض ـ إذا تجاهلت هذا الكتاب بالذات من كتبه ، لأنه كتاب عن السويس ١٩٥٦ ، أى عن عبد الناصر وهما موضوعان يحتدم الخلاف حولهما رغم

مرور ٣٠ سنة على « الواقعة » ورغم وفاة « البطل » منذ ١٧ عاماً . . وهـو خـلاف سيظل مستمـراً لسنوات طـويلة ، بين الـذين يرون أن السـويس وعبد الناصر معاً ، كانا فصلاً استثنائياً فى التاريخ العربى ، عاد هذا التاريخ بعدها - بسنوات - الى قواعده سالماً ، أو بمعنى ادق غير سالم ، فتعلم الحكمة وكف عن المشاغبة والتمرد على اسيادنا الامبرياليـين وارتضى كل مـا رفضه عبد الناصر فى تلك السنوات المجيدة. وبين الذين يرون أن « عبد الناصر » فصل طبيعى من التاريخ العربى ، ومحطة فى مسيرة طويلة إلى الأمام ، وأنه إذا كان التاريخ يسير - أحياناً - إلى الخلف فإن قانونه الصحيح ، هو « إلى الأمام سر » وإلى اليسار - وليس إلى اليمين - دُر !!

ومع أن « هيكل » لا يكف على امتداد صفحات الكتاب «٦١٢ صفحة غير ٣١٦ للوثائق » عن القول بتواضع استفزازى أنه مجرد صحفى وشاهد ، وليس مؤرخاً ، فان هذه الصفحات ذاتها تثبت العكس ، وتؤكد أنه الثلاثة معاً ، بل هو أربعة وربما خمسة لأنـه - أيضاً - محـامى وسياسى ، يكتب عن الماضى ، وعينه على الحاضر ، فحـين ذهب « هيكل » إلى لنـدن فى بدايـة ١٩٨٥ ، ليبحث مـع ممثل النـاشرين الـدوليين الـذين يملكون حقـوق نشر كتبه ، فكرته بأن يكون كتابه الجديد ، حول « الصراع على الشرق الأوسط وفيه » كان الناشر البريطانى هو الذى نبهه إلى أن هناك ٢٠ كتاباً على الأقل ستصدر فى الغرب خلال عام ١٩٨٦ ، بمناسبة مرور ٣٠ عامـاً على حـرب السويس ، وأنه لا يجوز أن يغيب عن هذه المناسبة ، وهو أحد شهود القصة الرئيسيين . .

وفى الصباح ، كان « هيكـل » قد جمـع بين الفكـرتين : فكـرة الناشر البريطانى بأن يكون مؤرخاً أو شاهـداً على حـادث أصبـح فعلاً مـاضياً أو

تاريخاً ، وفكرته هو : بأن يكون أيضاً سياسياً ، يكتب عن الماضى وعيونه على الحاضر . .

وهكذا وافق على أن يكتب عن السويس ١٩٥٦ ، بشرط أن يكتب عنها باعتبارها فصلاً من الصراع حول الشرق الأوسط وفيه ، وتحول الكتاب الواحد إلى ثلاثية ، ليس « ملفات السويس » سوى جزئها الأول أما الثانى فسيكون عن هزيمة ١٩٦٧ ، وسيكون الثالث عن حرب ١٩٧٣ وهى فى رأى هيكل آخر الفصول فى حرب الثلاثين سنة، المشتعلة حول الشرق الأوسط وفيه آخر الفصول فى حرب الثلاثين سنة ، المشتعلة حول الشرق الأوسط وفيه فبعدها بسنوات ـ كما يقول هيكل فى المقدمة ـ « بدا أن مرحلة بكاملها فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى نهايتها ، وأوشك الستار أن ينزل عليها ، ليرتفع على مرحلة جديدة ، لا أحد يعرف متى وأين وكيف كانت بدايتها » . .

ومع أن « هيكل » ـ على سبيل المكر السياسى ـ لا يقول لنا ـ بصراحة ـ متى بدأت هذه السنوات الثلاثين على وجه التحديد ، إلاَّ أن اكتشاف ذلك ليس صعباً أو عسيراً ، فأنت تستطيع أن تحسب تاريخ فتح الملف ، من تاريخ إغلاقه ، ومن مضمون أوراقه . . فقد بدأ هذا الصراع في وقت ما من السنوات الأخيرة فى الحرب العالمية الثانية ، حين ادركت الولايات المتحدة الامريكية الأهمية البالغة للشرق الأوسط فى الصراع الدولى ، وادركت أن الحرب قد حطمت القسم الأكبر من فتوة الامبراطوريات الاستعمارية القديمة التى كانت تتوارثه . وتنبهت للأهمية الخاصة للدور الذى تلعبه مصر بحكم أنها كانت ـ آنذاك ـ مركزاً لحركة قومية وطنية معادية للاستعمار ، تنتشر فى كل أقطار امتها العربية . . فدخلت ـ بكل

قوتها ـ حرب الصراع على وراثتنا ، من الملاّك القدامى : البريطانيون الذين يملكون مصر والعراق والأردن وفلسطين ، والفرنسيون الذين يملكون سوريا ولبنان والجزائر والمغرب ، والايطاليون الذين كانوا يملكون ليبيا ، باعتبارها ـ أى واشنطن ـ صاحبة الحق الاستعماري الشرعى ، فى وراثة معسكر الاستعمار القديم ، الذى وهن عظمه ، واشتعل رأسه شيبا !!

و « هيكل » السياسى ، هو الذى يومىء إليك من طرف خفى فى المقدمة ـ ثم بعد ذلك فى فصول الكتاب أو الملف ذاته ـ إلى أن حرب السنوات الثلاثين ، قد انتهت فى لحظة يلقى على ذاكرتك عبء اكتشافها لأنه يريد أن يكون عقلك مع خاتمة الثلاثية وأنت تقرأ كتابها الأول فالنهاية لا يمكن فهمها دون معرفة البداية والعكس صحيح .. ويوم يكتب « هيكل » آخر سطر فى ثلاثيته ، سنكتشف أن ملف هذه الحرب التى دارت على الشرق الأوسط وفيه ، قد اغلق فى اللحظة التى دخل فيها « كيسنجر » و « السادات » الى غرفة مغلقة فى قصر الطاهرة فى القاهرة ، وكان ذلك فى ٧ نوفمبر (ت ٢) ١٩٧٣ ... أى بعد ٣٢ يوماً من بدء حرب اكتوبر .. وما كاد ـ كيسنجر ـ يفتح حقيبته ، ليخرج ملف مفاوضاته مع « جولدا مائيرا » حول الفصل بين قوات الجيشين المصرى والاسرائيلى ، التى تداخلت عقب ثغرة الدفرسوار ـ حتى فوجىء ـ كما قال هو نفسه وبعظمة لسانه ـ برئيس اكبر دولة عربية جالساً على حجره ، ولا بد أنه قال له ما يلى : (مترجماً من الانجليزية الساداتية إلى العامية الساداتية أيضاً ، حال كون المتكلم جالساً على حجر المخاطَب) :

ـ ملفات إيه عم كيسنجر .. اقفل الشنطة يا راجل .. أنا مش حتكلم معك فى تفاصيل ، انت راجل استراتيجى .. وانا أيضاً .. يبقى

نتكلم tête a tête . . يعنى رأس استرتيجى برأس استراتيجى . . يكون فى علمك أن حرب اكتوبر دى آخر الحروب . . لأنى عايز سلام ، وعملية السلام لا تصلح إلاَّ بقيادة دولة عظمى واحدة هى امريكا . . لذلك حا اقطع لك رجل السوفيت لكى لا يبقى فى المنطقة عظمى سواك . . ومن الآن فصاعدا سَنُفَتِّح دماغنا فلا اشتراكية ولا حقد ولا اغلاق للأسواق أمام البضائع الامريكية ولا للحدود امام القوات الاطلنطية . . وإذا كنت يا استراتيجى تساعد اسرائيل ، لأنها ذيلك فى المنطقة فسوف تقارن غداً بين ذيلك الرفيع هذا ، وذيلك السمين الذى سنكونه . . ساعتها تقدر تهز ذيلك السمين فى الشرق الأوسط فتهد الكرملين على رأس كوسيجين وبريجنيف وبودجورنى . .

وقد ذهل كيسنجر ، فبعد ثلاثين سنة ظلت واشنطن خلالها ، طرفاً فى حرب ضروس من اجل وراثة الإمبراطوريات القديمة فى المنطقة ، حدث الذى ما كان يمكن لأحد أن يتصوره ، فسلمه رئيس اكبر دولة عربية ، البضاعة ، أو إعلان الوارثه ، حال كونه جالساً على ركبتيه جلسة استراتيجية . .

وهكذا توج النضال الامريكى للحصول على التركة ، وآن أن تستريح أرواح الرواد الأوائل من الضباط والجنود الأمريكيين الذين ظهروا فى شوارع مصر ، فى عام ١٩٤٣ ضمن قوات الحلفاء ، فوزعوا اللبان الامريكى على العامة ، ومرايا صغيرة ـ ذات اطارات من البلاستيك الذى كان أيامها اكتشافاً مثيراً ـ على سيدات الصالونات ، على سبيل اغراء المصريين ، بأن يقبلوا انتقالهم من الكفالة البريطانية . . إلى الكفالة الامريكية . . أما بعد شهور قليلة من جلوس « السادات » على « حجر

كيسنجر » ، فإن بحارة أول قطعة من الأسطول الامريكى زارت مصر فى مطلع عصر العلاقات الخاصة مع امريكا ، سوف يقدمون لكل من يقابلهم فى الموانى المصرية ، هدايا من شرائح الديكة الرومية المعلبة ، على سبيل التهنئة بالانتصار الامريكى فى الحرب التى بدأت باللبان ، وانتهت بالمدلبات !!

والفصل الأول من الثلاثية ، الذى نشره « هيكل » - فى طبعته العربية - بعنوان « ملفات السويس » هو الفصل الوحيد السعيد من الرواية كلها . . ذلك أن المشهد الختامى ، الذى يتضمن ذلك الجلوس الاستراتيجى على حجر كيسنجر - وان بدا مضحكاً- إلاّ أنه - أيضاً - يدعو للبكاء وللغضب . .

وهذا الفصل الأول السعيد الوحيد من القصة كلها ، هو الذى نشره « هيكل » فى طبعته الانجليزية - وقد اقتصرت على شهادته الشخصية عن الأحداث - بعنوان « السويس: قطع ذيل الأسد » إشارة إلى أن حرب ١٩٥٦ ، قد قطعت ذيل الأسد البريطانى وهو عنوان سأقترح على « هيكل » أن يتخذه - أيضاً - عنواناً للجزء الثانى من ثلاثيته ، الذى يصدر هذا العام ، عن حرب - أو هزيمة - ٥ يونيو ١٩٦٧ . . ففى تلك الحرب قطع - أيضاً - ذيل للأسد ، لكنه كان الأسد العربى . .

وإذا كان هيكل لن يعارضك إذا فهمت أن الأسد البريطانى ، الذى قطع ذيله فى حرب ١٩٥٦ ، هو « انتونى ايدن » الذى يبالغ كتابه كثيراً فى التركيز على شخصيته المهتزة ، الساعية إلى اثبات نفسها ، أمام تحدى صبا زوجته لشيخوخته ، مما دفعه لتصعيد الأحداث التى انتهت بحرب ١٩٥٦ فقطعت ذيله ، فان كثيرين لن يعارضوك ، إذا قلت أن عبد الناصر كان

الأسد العربى الذى قطع ذيله فى حرب ١٩٦٧ ، أو إذا اتخذت من مضمون المشهد الاستراتيجى الختامى لحرب السنوات الثلاثين ، عنواناً للجزء الأخير من ثلاثية هيكل ، فاطلقت عليه « تركيب ذيل عربى للأسد الامريكى » !!

أما وقد بـدأ عصر ما بعـد اغلاق ملف حـرب الثلاثين سنة ، عـلى الشرق الأوسط وفيه ، باعادة تقييم التاريخ ، فسادت رؤية رسمية ، تقول أن حرب ١٩٥٦ ، كانت هزيمة حولها الاعلام الناصرى إلى نصر ، وكانت نكسة لأن العهد كان عهد نكسات . . فقد كان طبيعياً أن يتقدم « هيكل » ليدافع وفى يده توكيل رسمى من عبد الناصر ، هو مستنسخات من وثائق العهد الرسمية ، بعضها بخط « عبد الناصر » والآخر بخط « الملك سعود » وكثـير منها يحمـل توقيعـات « ايـزنهاور » و « ايـدن » والسفـير المصـرى فى واشنطن ووكيل وزارة الداخلية للأمن العام وتقاريراً لوزير الخارجية المصرى أيامها للمرحوم الدكتور « محمود فوزى » ، فضـلاً عن مستندات امـريكية وانجليزية وفرنسية واسرائيلية ، حرص هيكل على أن يوثق بها دفاعه المقتدر عن حرب السويس ١٩٥٦ ، ليثبت أنها كانت انتصاراً ساحقاً لا فصلاً من نكسه ، وأنها كانت آخر المعارك فى عصر العمالقة . .

وهو بذلك لا يدافع ـ فقط ـ عن الأمة العربية التى لم تتوقف المحاولات المحمومة، لاقناعها بأنها لا تصلح إلاّ للتذيُّل والتبعية . .

ولا ينصف ـ فحسب ـ عبدالناصر الذى توقفت المدافع على جبهة حرب السنوات الثلاثين مع امريكا واسرائيل لتستدير إلى قبره تريد أن تحرمـه من كل فضل أو فضيلة . .

لكن « هيكل فوق هذا وذاك يدافع أيضاً عن تاريخه ، فيثبت أنه أوفى وأذكى مما توقع اكثر الناس معرفة بفضائله ومزاياه ، فالحمقى والأغبياء ـ من

الكتاب والسياسيين ـ هم الذين يتنكرون لتاريخ شاركوا فيه ، ومواقف اتخذوها ودافعوا عنها على امتداد ١٨ سنة وتلك آخر الصفات التى يمكن أن تنسبها للأستاذ « هيكل » مهما كانت خصومتك له . .

وكما يفعل المحامون المقتدرون ، فإن دفاع « هيكل » ـ الموثق بأكبر قدر من المستندات اتيح حتى الآن لكتاب آخر فى الموضوع نفسه ـ يقوم على منطق محبوك وقوى . . وبعقليته الهندسية المرتبة ، هاجم « هيكل » بوثائقه ومستنداته كل الجبهات التى شنت الحرب على ذكرى عبد الناصر ، وعلى طريقة ادارته للصراع الذى انتهى بحرب ١٩٥٦ فعبد الناصر ، ليس هو الذى استدعى امريكا للمنطقة ، وليس هو الذى استفزها بحماقاته وتوتره لكى تعاديه لأن الأطماع والخطط الامريكية لوراثة المنطقة والحلول محل الاستعمار القديم . . تسبق قيام الثورة بسنوات ، وكل ما فعله « عبد الناصر » وهو أنه قاد ثورة لا تريد شيئاً إلاَّ « العزة . . والكرامة »أى الاستقلال الوطنى والتنمية الاقتصادية . .

وعلى عكس ما يقوله اعداؤه، فقد كان « عبد الناصر » حسن الظن بالامريكيين لأنه كان يعرف الاستعمار القديم ، ولم يكن قد عرف بعد الاستعمار الجديد ، لذلك رحب بالاتصال بهم والحوار معهم وسعى للحصول على معونتهم لاقناع الانجليز والضغط عليهم للجلاء عن قاعدة قناة السويس ، وقد ساعدوه فعلاً . . ويكاد كتاب « هيكل » يكون أول مصدر يكشف عن الطريقة التى ادار بها عبد الناصر المفاوضات التى انتهت بتوقيع معاهدة ١٩٥٤ ، فهى مفاوضات بلا محاضر رسمية . .

لكن هذه المساعدات الامريكية ، سرعان ما كشفت عن أن هدفها هو تحويل الشرق الأوسط إلى حزام أمريكى يحيط بالاتحاد السوفيتى وأن تحقيق

« العزة » و « الكرامة » للمنطقة لا يعنيها فى شىء لأن استقلالها ينبغى ألا يحول بينها وبين المشاركة فى حلف « للدفاع عن الشرق الأوسط تحت المظلة الامريكية ، ولأن تنميتها الاقتصادية مشروطة بأن تسالم اسرائيل ، أى أن تقبل بها كدولة من دول المنطقة ، وتتعاون معها ، فالاستقلال والتنمية ، قوة لن تساعد أمريكا العرب على بلوغها ، إلاّ إذا اطمأنت انهم سيستخدمونها لصالحها وليس لصالحهم !!

وهكذا كان « عبد الناصر » فصلاً معارضاً لمخطط الصراع للاستيلاء على الشرق الأوسط ، وقطباً مقاوماً للمخططات الامريكية الرامية إلى وراثته ولم يكن ـ كما صوره خصومه ـ رجلا انفعالياً مفلوت الزمام ، يقرر ما لا يعرف ردود افعاله ، ويخطو على طريق لا يعرف شيئاً عن فخاخه والغامه . . فقبل الثورة وبعدها وقبل الأزمة واثناءها ، كان الزعيم الذى يليق بالزعامة يدرس ويناقش ويفهم ويحاور ، ويلعب أوراقه بذكاء واقتدار .

ولذلك التقى قبل أن يفاوض الانجليز بـ« نجيب الهلالى » ـ آخر رئيس وزراء مصرى فاوضهم قبل الثورة ـ وبوزير الخارجية الوفدى « محمد صلاح الدين » الذى قبل مبدأ الفصل بين قضية السودان والبدء بها ، قبل حل مشكلة الجلاء ، وقبل مبدأ استفتاء السودانيين على تقرير مصيرهم . . وحين وقعت الحرب بالفعل لم يفقد قدرته على السيطرة على نفسه أو على الأمور ، ورفض الانحياز إلى دعاة الاستشهاد فى لا قضية (وكان يمثلهم عبد الحكيم عامر) ودعاة الاستسلام بلا مقاومة (وكان يمثلهم صلاح سالم وعدد من باشوات العهد القديم حمل رسالتهم سليمان حافظ) . . ولكنه ملك قدرة الزعيم ورجل الدولة الذى يستطيع أن يدير الأزمات ، ليحقق نصراً يرجوه . . وقد حققه هذا النصر بالفعل . . قطع ذيل الأسد

البريطانى . . واعتزل بن جوريون السياسة وذهب إلى مستوطنه « سدبوكر » يرعى الغنم . . وسقطت الجمهورية الفرنسية الثالثة . . واسدل الستار على المعركة الأولى فى حرب الثلاثين سنة !!

وإذا كان لا يوجد ما يدعو للدهشة فى ذلك الاجماع على أن كتاب « ملفات السويس» هو كتاب عام ١٩٨٦ ، فإن الذى يثير الدهشة هو أن « هيكل » قادر على أن يكتب فى الموضوع الواحد مرات عديدة ومع ذلك يظل قادراً على أن يقدم فيه جديداً . . فبعض ما رواه فى هذا الجزء من ثلاثيته ، وما سوف يرويه فى الجزئين القادمين منها ، قد رواه من قبل فى كتب له ومقالات ، لكنه فى كل مرة يضيف جديداً فى المعلومات ، وفى التحليل وفى الاستنتاج . . وفى هذا الكتاب يضع « هيكل » كل النقاط على كل الحروف ، حول الدور الامريكى فى المنطقة ، خلال الحقبة التى انتهت بحرب ١٩٥٦ . . حين كانت الأطماع تختفى تحت السطح ، حتى نشأ بيننا - فيما بعد - من قال أنه لولا معارضة واشنطن للعدوان الثلاثى ، لما فشل ، ولحقق كل أهدافه وأن عبد الناصر قد جازاها بجزاء سنمار فتحداها ، وتطاول عليها مع أنها التى انتصرت له فى السويس . .

وسوف تدهش أيضاً ، لأن الوثائق قادت « هيكل» أحياناً مع أنه قادها كثيراً ، لذلك لا تجد هذه « الأمة العربية أو المصرية » - التى يجرى الصراع حولها وفيها - بالكثافة التى كان ينبغى أن تجدها فى كتاب مثل هذا . .

سوف تجد الزعيم كثيراً ، وسوف تقرأ عن الصراع بينه وبين انداده من عمالقة العصر ، أكثر من أى كتاب آخر ، ولكنك لن تجد دوراً أداه الذين تزعمهم ، ولأن هيكل ككل عمالقة الصحفيين حريص على أن ينفرد وألا يكرر ما قاله غيره ، فقد تجاهل الدور الذى لعبته حرب المقاومة التى نظمتها

المخابرات المصرية ، للضغط على المفاوض البريطانى خلال المفاوضات التى انتهت بتوقيع معاهدة ١٩٥٤ وبدت معركة المقاومة الشعبية فى بور سعيد مجرد خبر موجز يسوقه المؤلف دون تفاصيل . .

أما الذى سيدهشك أكثر ، فهو أن هيكل تجاهل حقائق كثيرة ، يعرفها بالقطع كان ينبغى أن تنشر فى هذا الفصل السعيد الوحيد من ثلاثيته ، ربما لأنه حرص على أن يتجاهل الأوضاع الداخلية ومسار الصراع على السلطة خلال تلك الحقبة مع أن هذه الحقائق هى التى ستتراكم بعد ذلك ، فتضع خاتمة الفصل الثانى من الثلاثية ، ومن أهمها : نشأة المؤسسة العسكرية وتراكم نفوذها، الذى انتهى بتكوين تلك البيروقراطية العسكرية التى قال عبد الناصر عنها للفريق محمد فوزى ، ذات يوم من عام ١٩٦٨ بأسى :

ـ لقد كانت البيروقراطية العسكرية هى رأس السنارة التى اصطادتنا بها الإمبريالية !!

فكما يولد الليل فى النهار كان قطع ذيل الأسد البريطانى فصلاً من ثلاثية قطع ذيل الأسد العربى !!

(*) « الأهالى » ـ العدد ٢٧٣ فى ٢٨ يناير ١٩٨٧ .

مزيكة بركات

قبل أى سلام ، وبدون أى كلام ، وحتى لا نختلف فتلعن سنسفيل جدودى. أؤكد لك أنه ليس لهذه القصة معنيان بل واحد ، وأن ظاهرها كباطنها . وأنها لا ترمز لشيء بتاتاً . تماماً كذلك التمثال الخشبى الضخم . . المهيب . . الذى صنعه صديقى الفنان « هجرس » ، واختار له اسماً فلسفياً عميقاً . . هو « سيزيف ١٩٧٠»، ثم كتب على نفسه إقراراً بأنه لا معنى له ، ووقعه ، وختمه بخاتم شعار الدولة .

ومع أننى أحد الشهود الذين تابعوا فصول المشكلة التى وقعت بين المقدم « عبد العال سلومة » ، والمثال « هجرس » حول « سيزيف ١٩٧٠»، إلاَّ أننى على سبيل القطع لم أشهد تلك المشاجرة التى وقعت بين مدام « الزا » وبين « بركات » لأننى لم أعرفهما أصلاً ، وفى الغالب ، فإن الذى رواها لى هو أحد ملوك الكلام المشهورين ، وهو نمط من الناس يملك تلك القدرة العجيبة على أن يمسك صرصور أذنك ، ويظل يتكلم فيك بالساعات، متنقلاً من حكاية لنكتة ، ومن غيبة لنميمة ، فلا يكف عن

الكلام ، ولا يترك لك فرصة إلاّ لمجرد الاستماع . . وهو ما أذهل صديقى القصاص « **إبراهيم اصلان** » ـ وربما لأنه من النوع الصامت النادر الكلام ـ فقال لى ونحن ننصرف يوماً من جلسة طويلة مع أحدهم ، وهو فى حالة انبهار كامل :

ـ دا موش بنى آدم يا أخى . . دا مَكْلَمة .

والشىء المؤكد ، هو أن الأزمة بين « **مدام إلزا** » و « **بركات** » قد حدثت قبل الخلاف بين « **هجرس** » و « **سلومة** » . إذ أذكر أننى رويتها لهجرس ذات أصيل ، لكنه لم يهتم بها ، إذ كان مشغولاً بوضع اللمسات الأخيرة لتمثاله ، فغيرت الحديث ، وعبرت عن إعجابى البالغ به ، لأنه استطاع ـ بعد شهرين من العمل الشاق ـ أن يحول جذع شجرة التوت الذى وجده ملقىً باهمال فى فناء المعتقل ، إلى تمثال جميل ضخم ، يزيد إرتفاعه على متر ونصف . .

والظاهر أن بنسيون « مدام إلزا » كان قد تحول إلى نوع خاص من «المَكْلَمة» فالعدد القليل من قاطنى حجراته المحدودة ، وموقعه المتميز فى أحد شوارع وسط القاهرة ، ثم ظرف المدام ، وشبابها الذى لم يكن قد ذبل تماماً ، سرعان ما أغرى سكانه ـ شبه الدائمين ـ على قضاء سهراتهم فى صالته الواسعة ، ذات الأسقف العالية ، خاصة وأن من بينهم من تحتم ظروفهم أو مناصبهم ، أن يرفهوا عن انفسهم بعيداً عن أعين المتطفلين .

وهكذا تحولت صالة البنسيون إلى كافتيريا مغلقة ، لها زبائنها الثابتون المتغيرون ، يدردشون ويأكلون ، ويشربون ، ويعزّون ، فإذا كان مزاج المدام معتدلاً عزفت لهم على البيانو العتيق ، الذى يستقر فى ركن الصالة ، الحاناً يونانية شعبية مرحة ، وتحدثت عن « ديمترى » الخائن الذى تنيّح ـ أى

مات ـ قبل الأوان ، وعن الولدين الخائبين اللذين رفضا أن يديرا التافرنا ـ أى المقهى ـ بعد وفاة الخائن ، فهاجرا واحداً إلى استراليا والثانى إلى كندا . وعن البنت « العبيط » التى ضحك عليها ولد المانى فتزوجها وطار بها إلى شتوتجارت . . وهى حكايات كانت المدام تستفيض فيها أحياناً بشكل مقصود ، إذا لم ترتح لنظرات وافد جديد ، لكى تنبهه إلى أنها أم وجدة . . فإذا لم يرتدع ، وانتقل من النظرات إلى الملامسات بشكل متعمد يبدو عفوياً . . رشقت فى عينيه نظرتها الزاجرة . . وقالت بلهجة ذات معنى :

ـ الويسكى تقيل قوى الليلة دى يامونشير !

. . . .

ويوم ظهر « بركات » فى البنسيون ، كان ذلك دليلاً على أن المدام قد تقدمت اكثر فى السن ، وعلى أن الأم الروماتيزم والنقرس ، قد قلّلت من قدرتها على العمل ، فاضطرت للاستعانة ببركات ، الذى كان « جرسونه فى التافرنا مع المتنيح ديمترى » . وبعد قليل ، أصبح « بركات » أهم شخصية فى البنسيون ، وجمع بين دور الخادم واختصاصات المدير العام ، وامتد نشاطه من تنظيف الغرف إلى شراء الطعام ، ومن مساعدة المدام فى المطبخ إلى محاسبة الزبائن . ومن التعامل مع قسم الشرطة ومفتشى الضرائب والسياحة ، إلى العزف على البيانو .

شيئان فقط رفضهما بركات بإصرار عجيب . الأول : أن يقوم بأى عمل فى أوقات الصلوات الخمس أو حين يكون مشغولاً بقراءة «دلائل الخيرات » عقب صلاة الفجر . والثانى : كل ما يتعلق بالخمر . . فهو لا يشتريها ولا يشربها ولا يحملها ولا يسقيها ويرفض حتى أن يغسل الأكواب الفارغة التى كانت تحتسى فيها . .

فيما عدا ذلك كان « بركات » شأن كثيرين من أولاد البلد ، يؤمن بأن أكل العيش يحب الخفّية ، وتفتيح المخ ، وتمشية الأمور ، لذلك أكتفى بأن يكون صالحاً فى ذاته ، دون أن يحتج على شيء من الفساد الذى يجرى حوله ، فإذا لم يكن فى العمل خطأ ـ أو خطيئة ـ ظاهرة ، قام به ، وبحماس . فكان يشترى الصودا والمزات ، ويعدها ويقدمها ويغسل أطباقها . وأحياناً كان يتابع بعينيه أوراق اللاعبين فى برتيته « بوكر » أو دور « برغوته » ، حتى تعلم ألعاب القمار من مجرد المشاهدة . وبذكائه الفطرى ، ومتابعته بشغف ودأب للمدام وهى تعزف على البيانو العتيق ، تعلم كيف يعزف السلم الموسيقى ، وأخذ يتدرب على أنغام يوقعها فى الفترات التى يخلو فيها البنسيون من سكانه . . فإذا ما سأله متطفل تفسيراً لهذه الأزدواجية فى سلوكه رد بهدوء : قالوا لجحا البلد بقت كلها خبيزة . . قال لهم مادام بعيد عن بيتى خلاص !

وعندما زادت الآم الروماتيزم والنقرس على المدام ، اهتمت اكثر بتدريب « بركات » حتى يتقن العزف على البيانو ، فيحل محلها فى تلك الأوقات العصيبة من السهرة ، حين يفقد « الويسكى الثقيل ، الرواد ، حرصهم على الهدوء ، فيتحدثون بصوت عال ، أو يتحركون بعنف ، أو يحدث بينهم خلاف حول الغش فى اللعب يتحول إلى خناقة ، يتبادلون فيها اللكمات والشلاليت ، وهى أمور كانت تزعج المدام بشكل مبالغ فيه ، وتصيبها بحالة من الهستيريا . . إذ كانت تخشى أن تقلق الجيران ، فيشكونها وهى « موش حِبّ البوليس ييجى هنا » ، لأن كثيراً مما كان يجرى فى البنسيون كان مخالفات صريحة للترخيص القانونى الذى منح لها بادارته كمكان للنوم ، وليس كمطعم وكافتيريا وبار وصالة للعب القمار !

أما حين تفشل الاحتياطيات الكثيرة التى تتخذها المدام للحيلولة دون

حدوث هذا المكروه ، فقد كانت تبادر مع أول كلمة ، وأول شلوت ، بفتح البيانو ، وعزف نغمات عالية الجرس ، لكى تغطى أصواتها على الخناقة ، وتوحى لمن هم فى الخارج ، أن قاطنى البنسيون يعيشون فى سعادة وبُلَهْنيه ، ويسودهم السلام والأمان ، وهو عزف يستمر حتى يتمكن بقية الرواد من ايقاف حرب الشلاليت واللكاكيم . وكان هذا أحد الاختصاصات التى أجبر النقرس المدام على التنازل عنها راضية لبركات . . وأداها هو بحماس شديد ولافت للنظر ، فإذا بدأت المعركة ، وقبل أن يستقر أول شلوت فى مرماه ، وقبل أن تنهى المدام صيحتها العصبية القلقة هاتفة فيه :

ـ بركات . . إمسكتوا موزيكا بسرعة يا بركات . . إمسكتوا موزيكا . .

يكون هو قد قفز فى نفس واحد إلى مقعد البيانو ، وفتح غطاءه بكف ، وبدأت الكف الثانية بشكل ميكانيكى العزف كيفما اتفق . . بينما تلمع عيناه اللوزيتين فى وجهه الأسمر ، كأنه يؤدى مهمة مقدسة . . وحين سألة متطفل يوماً ، عن سر حماسه الشديد للعزف . . قال بمصطلحات البنسيون :

ـ ريحة الخبيزة تقيله قوى الليلة دى يامونشير !

ولا بد أن « **هجرس** » كان قلقاً حين حكيت له الحكاية . . لذلك لم يُبدِ حماساً لها . وحدثنى عن شكه فى أن يسمح « **عبد العال سلومة** » بإخراج التمثال من المعتقل ، ليشترك به هجرس فى معرض كان موعده قد اقترب . . وأضاف إن « **سلومة** » قد نبهه إلى أن جذع الشجرة الذى صنع منه التمثال ، هو من الممتلكات الأميرية لوزارة الداخلية . . وهو ما يعنى أنه يريد الحصول على التمثال لنفسه ، ليزين به غرفته ، التى كانت تزدحم بتماثيل قبيحة فجة له ، ولكبار المسؤولين فى الدولة، صنعها مساجين

بؤساء . . وكان « هجرس » منزعجاً بشدة من فكرة عرض تمثاله فى غـرفة قائد معتقل ، بصرف النظر عن القبح الـذى كان منتشـراً فيها . . لـذلك انهمك فى دراسة اللوائح والقرارات ، واستطاع أن يثبت لسلومة أن صنع التمثال من خامة من الممتلكات الأميرية ، لا يعطيه حق الاستيلاء عليه ، وأن كل الذى فى سلطته هو أن يخصم ثمن الخامة من أمانات « **هجـرس** » المودعة فى خزينة السجن !

وكنت ساعتها أقول لهجرس ، أن « **بركات** » الذى قبل بحمـاس أن « يمستكوا مزيكا » بدلاً من المدام ، لم يجد فى سبب تافه مثل الأم النقرس فى أصابعها ، مبرراً لكى يحل محلها فى ملء كؤوس الخمر أو تقديمها أو غسلها فرفض ذلك بعناد . . وهو ما جعل المسألة موضوعاً يومياً للشجار والنقار بين الإثنين ، ينسحب « **بركات** » فى نهايته إلى المطبخ ، يجلس على مقعد ، ويبدأ فى قراءة « دلائل الخيرات » رافضاً الرد على أى استدعاء ، مكتفياً برفع صوته وهو يقرأ لكى يغطى على « برطمة » المدام وهى تلعن بالجريجى الفصيح بركات والذين وضعوا تقاويه !

لكن « **هجـرس** »هاجمنى بعنف ، وقـال أننى اعطيت « **سلـومة** » مبرر لـلاستيلاء عـلى التمثال ، حـين اخترت لـه هـذا الاسم الفلسفى المتقعـر « سيزيف ١٩٧٠» . ودافعت عن نفسى قائلاً أن التمثال يصور رجلاً يحمل بين كفيه المرفوعتين فوق رأسه حجراً فى وضع من يهم بالقائه على آخرين ، بينما نفرت عضلات ساقيه ، تمزق قيوداً كانت تغلله ، وأن هذا قد ذكـرنى بأسطورة « سيزيف » اليونانية القديمة ، الذى لعنته الآلهة ، وحكمت عليه بعذاب دائم ، يتمثل فى أن يصعد إلى قمة جبـل وهو يحمـل صخرة ثقيلة يلقيهـا من فوق القمـة ، ثم يعـود إلى السفـح ليحملهـا ويصعـد بهـا . .

وهكذا . . وقلت انى اضفت تاريخ السنة إلى الأسم ، لأن التمثال يوحى بأن « سيزيف » قرر بأن يتمرد على عـذابه ، وأن يحـطم اغلالـه ، ويلقى بالحجر فى وجه الذين يعذبونه ، وأنه لا علاقة للاسم برغبـة « سلومة » فى الاستيلاء على التمثـال . . وصاح « هجرس » فى وجهى قائـلاً أن سلومة استدعاه ، وأبلغه أن التمثال لن يخرج من المعتقل ، لأن له معنى باطناً غير معناه الظاهر ، ولأنه يهاجم الدولة وسياستها والمسؤولين ، بشكل رمزى . . وختم « سلومة » كلامه متسائلاً بلهجة خاصة « مين بقى سى زفت ١٩٧٠ اللى أنت عامل عليه التمثال يا أستاذ هجرس ؟!

. . . .

هونت الأمر على « هجرس » وأخذت أروى له ما حدث حين تفاقمت الخلافات بين « المدام » و « بركات » فقبلت اقتـراحاً تقـدم به أحـد أولاد الحلال ، باعتبـاره الحل الـوحيد للمشكلة . وهكذا فاجـأ الضيف الجديـد « بركات » وهـو يضع طبقـاً من السلاطـة أمامـه ، بتقديم سيجـارة إليه ، وبالإصرار على أن يشعلها له بنفسه ، ثم اردفعها بملبِّسة أخرجها من جيبه ، ناصحاً « بركات » بأن يضعها فى فمه اثناء تدخينه للسيجارة ، إذ أن هذه هى الطريقة الطبية الموصوفة للاقلاع عن التدخين .

ومع أن « بركات » شعر بأن مذاق الملبسة ليس مستساغاً ، وأن طعم السيجارة غير عادى ، إلاَّ أنه عجز عن مقاومة الحاح الضيف ، فقبـل على امتداد السهرة عطاياه من السجائر والملبس . ولم يتنبه لما حدث له ، الا حين وجد نفسه ، وبلا ارادة تقريباً ، جالساً ببلاهة على كرسى البيانو ، عاجـزاً عن التفكير ، لحظتها أشارت المدام إليه ، بأصابعها التى كانت قد ربطتهـا بشاش طبى لتتغلب على الام النقرس ، وقالت بتشف :

ـ يـا عبيـطة .. انتى مسكنى حشيش فى السجـايـر .. ومـلبس بالويسكى .. قومى بقه اغسلى الكاسات !

ولم يتحرك « بركات » . وظل جالساً على مقعد البيانو ، معلقاً ابتسامته البلهاء على وجهه الأسمر .. ومع أنه أدرك أن المقلب الذى شربه هو موضوع القفشات التى ظلوا يتبادلونها لمدة تزيد عن ساعتين بالجريجى والفرنساوى والانجليزى ، وتتلامس خلالها كؤوسهم فى صحة « بركات » و « دلائل الخيرات » إلاَّ أنه لم يفعل شيئاً . وفقط وحين تغير الموقف ، فتحولت القهقهات إلى شتائم ، والقفشات إلى صراخ ، وبدأ خلع الجاكتات والأحذية استعداداً للشجار ، تنبه « بركات » وانتشرت يقظة مفاجئة فى وجهه الأسمر .. وصرخت المدام بفزع : امسكتوا موزيكا يا «بركات » لكن « بركات » وقف بهدوء ووقار ، ليساعد المتشاجرين على اداء مهمتهم .. يناول هذا مقعداً .. ويناول الآخر فازه ، ويخلى المكان من قطع الأثاث على سبيل تهيئة الساحة للمعركة .. ومع أن المدام لم تكف عن مناشدته بعصبية بأن يمسكتوا المزيكا ، إلاَّ أنه لم يرد عليها إلاَّ بعد أن أيقن أن أحد لن يستطيع ايقاف المعركة فاندفع يقهقه بجنون .. وهو يقول :

ـ امسكتوا انتى شلوت يا مدام !!

. . . .

فى ذلك الصباح ، جاء « هجرس » ، ليصطحبنى قسراً إلى مكتب « عبد العال سلومة » فى الطريق قال لى بسرور بالغ ، أن زوجته ـ التى كانت تزوره الآن ـ قد قلبت الدنيا على رأس سلومة ، وأنها ارسلت برقيات لكل المسؤولين تحتج على اعتقال التمثال بتهمة معاداته لسياسة وخطره على الأمن العام . وقابلت وزير الداخلية ـ الذى ذهل من تصرفات « سلومة »

الغربية وأمر بالافراج فوراً عن التمثال . .

وكانت آثار الهزيمة واضحة على وجه « سلومة » الأحمر وهو يستقبلنا لكنه تماسك ، وناول « هجرس » ورقه ، طلب أن يكتب فيها ما أخذ يمليه عليه ، بلهجة أميرية جافة ، ونصه :

« أقر أنا الموقع على هذا أدناه ، المعتقل « محمد حسين هجرس » وصنعتى نحات تماثيل ، أن التمثال الذى صنعته من خشب الشجر ، عهده معتقل طره ، والمسدد ثمنه لخزينة المعتقل ، فى ١٢/١٢/١٩٧٠ لا يرمز إلى أى شىء ولا يتضمن أى مساس بسياسة الحكومة ، أو ازدراء باحدى هيئاتها ، ولا معنى له على الإطلاق !»

وبعد أن وقع « هجرس » على الاقرار ، تناول سلومة الورقة ، وكتب عليها بخط يده ، وبالحبر الأحمر .

« بمناظرة التمثال المذكور . . وجدناه مصنوعاً من الخشب بطول متر ونصف وعنوانه « سى زفت ١٩٧٠ ، وتأكدنا أنه لا يرمز لشىء ، ولا معنى له على الاطلاق ، ونسمح بخروج التمثال من المعتقل وتسليمه لزوجة المعتقل المذكور » .

ومهر « سلومة » تأشيرته بتوقيعه ، ثم بخاتم الدولة وسلمنا الورقة ، لكى يسمح الضابط المختص لنا بإخراج التمثال .

ولأول مرة منذ بدأت الأزمة ، استعاد « هجرس » مرحه ، إذ لم ينجح فقط فى الافراج عن « سى زفت ١٩٧٠ ، بل نجحت اللعبة التى اتفقنا عليها ، فحصلنا على الاقرار الذى أجبره « سلومة » على توقيعه ، واحتفظنا بتأشيرته العجيبة ، وكان من رأينا أنها وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ، ودخل « هجرس » إلى الزنزانة ، وهو يحرك ذراعيه فى الهواء كما لو كان يقود

أوركسترا . . والاقرار بين اطراف أصـابعه ، ولأول مـرة ، أدرك أنه كـان يسمعنى طوال الوقت ، إذ ما كدت أقول له معابثاً :

ـ انتى مسكتى موزيكا يا بركات . .

حتى رد علىّ قائلاً :

ـ لا . . دى سلومة اللى مسكتى شلوت !

واندفعنا نضحك !

(*) الأهالى ـ العدد ٢٧٨ ـ فى ٤ فبراير ١٩٨٧ .

شواهد على قبور المتذكرين العظام

فى رواية « نجيب محفوظ » الشهيرة « ثرثرة فوق النيل » سألت « سناء الرشيدى » شلة العوامة :

ـ ألا تخافون البوليس ؟

فأجاب « على السيد » :

ـ لأننا نخاف البوليس والجيش ، والانجليز والأميركان . . والظاهر والباطن ، فقد انتهى بنا الأمر إلى الا نخاف شيئاً !

ولا بد أن « على السيد » . ورفاقه من شلة المثرثرين فوق النيل ـ ليسوا عروبيين بالدرجة الكافية . . إذ الواقع أننا نحن العرب ، نخاف كل هذه الأشياء ، ونخاف معها ـ أو قبلها ـ أنفسنا . . وأحد الشواهد على ذلك ، هو حرب المذكرات السياسية الأهلية ، المستمرة والمشتعلة ، والتى أظن أنها لن تتوقف ، حتى لو انتهت حرب الخليج ، أو توحدت الأمة العربية ، وحتى لو عدنا نحن العرب لنصبح شيئاً له قيمة فى نظر العالم .

وأعجب ما فى حرب المذكرات ، أننا نشترك جميعاً فى تأجيجها دون أن

نشعر بأن هناك حرباً . . فلا غارات ولا صفارات انذار ولا اظلام دائم أو مؤقت ، فعلى عكس كل الحروب ، فإن حرب المذكرات مسلية ومشوقة ، تكشف الأسرار وتضيء المعميات ، وتفسر الألغاز ، والأهم من هذا وذاك ، أنها تمنحنا متعة التلصص على الذين كانوا يحكموننا ، ومعرفة المطوّى من اخبارهم ، والتلذذ بتتبع نقائصهم . . فنحن نفترض ـ عن حق ـ أن هؤلاء الحاكمين يتلصصون . . عادة ـ علينا ويتتبعون ـ دائماً خطانا ، ويستمتعون باستمرار ، بكشف الستار عن آرائنا الحقيقية فيهم . . ومع أننا نعترف عادة ، بأن هذا التلصص امر طبيعى ، وله مبرراته المشروعة ، إذ هو ـ طبقاً للتعبير المشهور ـ « الشيء لزوم الشيء » إلاَّ أن الاعتراف بذلك لا يتناقض مع رغبتنا المشروعة ، فى أن نتساوى بهم ، وأن نستمتع بما يستمتعون به ، فنطلع على خباياهم ، ونتقصى دخائلهم ، طبقاً لقول مشهور آخر ينص على : أن « كُلّه سلف ودين . . حتى التلصص على الآخرين »!

وكما أن افتتاح أية محطة تلفزيون عربية جديدة ، دون أن يكون على خريطة برامجها الثابتة ، مسلسل درامى يعقب نشرة أخبار المساء ، كفيل بشطبها من بين ازرار « الريموت كونترول » العربى ، فإن إصدار صحيفة عربية جديدة ، دون ان تشترك فى الحرب الأهلية بمسلسل من المذكرات السياسية ، قد أصبح دليلاً على نقص فى الحاسة الصحفية ، والتهاب فى الجيوب الأنفية ، حال بين محرريها وبين شم امزجة قراء العربية ، وهو امر ينتهى عادة بإغلاق المجلة ، وتسريحهم ليشموا النسيم على كوبرى قصر النيل ، أو على ضفاف السين ، حيث يصطدمون عادة بعربى يدفن رأسه بين صفحتى الجريدة المنافسة التى فازت بمسلسل المذكرات .

ومعنى هذا الشغف الزائد عن الحد بقراءة المذكرات السياسية هو أننا

ضائقون بهذه المصائب التى تنهال على رؤوسنا منذ عشرين عاماً ، وأننا نهرب منها ، فنتسلى عنها ، بادمان قراءة هذه المذكرات المسلسلات ، لعلها تعيننا على نسيان البلاء الذى يحيق بنا ، وكلنا أمل وشغف ، إننا سنصحو يوماً فإذا بهذا البلاء قد انتهى ، آنذاك يمكن أن نواصل تسلية انفسنا بقراءة مذكرات الذين كانوا يصنعونه . أما معناه الآخر ، فهو اننا لا نعرف ما يجرى حولنا ، أو حتى ما يجرى لنا إلاَّ بعد أن يمر على حدوثه سنوات ، فنحن كالأطرش فى الزفة ، يتراقص لا لأنه يسمع الموسيقى ولكن لأنه رأى آلات نحاسية وموسيقى نفخ فى مقدمة الموكب ، والذى يحدث عادة هو أننا نقرأ المذكرات السياسية ، بآذاننا لا بعيوننا فنكتشف أننا ـ لطرشنا ـ رقصنا فرحاً بينما كانت الموسيقى جنائزية ، وأننا زغردنا مع أن الذى يسير فى مقدمة الموكب ليس هودج العروسين ، ولكنه نعش المرحوم !. ولا بد أن ذلك يؤلمنا ، ولا بد أننا نستمتع بذلك الألم ونستعذبه ، وإلاَّ ما سعينا للاستزادة منه ، ولما واصلنا تحريض كل من كان مسؤولاً أو شبه مسؤول أو نصف مسؤول أو حتى غير مسؤول فى أى مساحة من نظامنا العربى ، على أن يكتب مذكراته ، لنشبع تلك الرغبة العارمة فى نفوسنا للبرهنة على أننا كنا مخدوعين ، أو مغفلين ، وهو المعنى البسيط الذى نطق به صديق لى من مدمنى متابعة مسلسلات المذكرات السياسية ، عندما سألته عن المتعة التى يجدها فى هذه الهواية فقد لمعت عيناه وهو يقول :

ـ يا أخى كل ما أقرأ مذكرات زى دى . . أتأكد أننى حمار . .

وهذا البحث عن دلائل وبراهين على أننا قد عشنا مرحلة كاملة من « الاستحمار » القومى » هو أحد أسباب الاقبال المنقطع النظير على قراءة ـ والتحريض على نشر ـ المذكرات السياسية ، وخاصة لدى الجيل العربى الذى عاش سنوات المد القومى ، وهتف « مصر والسودان لنا . . وانجلترا

أن امكنا » واقسم على استعادة لواء الاسكندرون السليب ، وعلى الوصول إلى تل أبيب وحلف برأس الأجداد ، أنه سيعيدها موحدة من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر ، فإذا به يعيش ليرى الأمور تتدهور بإيقاع سريع ، لخصه « غوار الطوشة » قائلاً للمرحوم الوالد بإيجاز بليغ : اليمن صبحت يمنين . . ولبنان أربعة . . والخير لقدام . . وإذا بأحلامه تتواضع فلا يكف ـ فـي أوقات فراغه من قراءة المذكرات السياسية ـ عن الدعاء لله ، أن يوفق الجيل القادم فيستطيع الحيلولة دون أن يتحول كل شارع عربى إلى دولة مستقلة لها علم ونشيد ومطار ، وصحف تنشر المذكرات وقنوات تلفزيون تذيع المسلسلات أما تل أبيب فلا لزوم لها ، ويكفى أن نستعيد القدس العربية حتى لو كانت تحت مظلة دولية . . وأى شىء أفضل من لا شىء . . فاللهم اجعل بيوت المحسنين عماراً ، وحنن اللهم قلب عبدك الصالح « رونالد ريجان » علينا . وحين سألت صديقى عن لواء الاسكندرونة السليب ، نفخ دخان نرجيلته فى وجهى ، وأشار بمبسمها إلى مذياع المقهى ، الذى كان . بالمصادفة المحضة ـ يذيع اغنية « أم كلثوم » الشهيرة « لسة فاكر . . كان زمان » ولما التفت كان قد زمّ شفتيه على المبسم واخفى صلعته بين صفحات مجلة عربية لا يجد محررها وقتاً لشم النسيم على كوبرى قصر النيل أو على ضفاف السين ! !

وهذه المسافة الشاسعة بين الحلم والواقع ، عذر ينبغى أن يدفعنا للتسامح مع ذلك السعى العربى الدؤوب للبحث عن ملامح « مرحلة الاستحمار القومى » ، فما دامت أحلامنا قد طاشت جميعها ، فخرجنا من المولد بلا حمص ، وعدنا بخفىّ حُنَيْنٌ ، أو بأيد فارغة ، أفرغ حتى من فؤاد أم موشى ديان ، فلا بد أن هناك سبباً ، ولا مفر من العثور عليه ، حتى لو كانت النتيجة هى إشعال حرب المذكرات الأهلية العروبية ، المسلسلة فى

صحفنا أو فى رقابنا ، وصحيح أن هذه الحرب ـ ككل الحروب ـ قد أدت إلى زيادة الطلب على العرض ، فرفعت الأسعار ، بينها تدهورت مواصفات السلعة وانحطت إلاّ أن ذلك لا يهم ، فالمهم أن نتأكد : هل كان هناك استحمار أم لم يكن ؟ . . وإذا كان . . فهل نحن الذين استحمرنا انفسنا بأنفسنا . . فخدعناها بأهداف لا نستحقها ، وأحلام لا نقدر على اعبائها ؟! أم أن هناك من استحمرنا فامتطى ظهورنا ، وأمسك لجامنا ، وأوهمنا ، أنه سيقودنا إلى أهدافنا ، وعندما انتهت الرحلة ، فوجئنا بالشيء المنطقى والطبيعى ، لقد استحمرنا فحققنا له أهدافه ، وأوصلناه إليها ، ولم يقدنا هو إلى أهدافنا ، لأنه ببساطة ـ ليس حماراً !

وأحد الأدلة الدامغة على أننا أمة سيئة الحظ ، أن المذكرات السياسية التى نلهث خلفها سرعان ما تحولت من وسيلة لإزاحة الغموض عن حقبة الاستحمار القومى ، إلى وسيلة لمزيد من الاستحمار ، وهكذا نزل ساحة حرب المذكرات ، كل من هب ودب ، وكل من هش ونش ، فأصبح للواقعة الواحدة ، ألف رواية ورواية ولكل رواية طبعتان ، أو ثلاث . . فتساوت الظلمات والنور ، والظل والحرور وأحمد والحاج أحمد . . وهؤلاء المتذكرون أصحاب الألف رواية ورواية للواقعة الواحدة ، يذكروننى بذلك الترزى النابغة ، الذى كان يحول جاكتة أبى القديمة إلى جاكتة جديدة لى بصفين ، ثم يصنع منها جاكت اسبور لأخى الأوسط ، وبعد عامين يحولها إلى بدلة ببنطلون قصير لأخى الأصغر ، وأخيراً ـ وليس آخراً ـ تتحول إلى حقيبة يتسوق بها أهل البيت ما يحتاجون ، وهذا لا يمنع أنهم كذابون غير موهوبين . . فمع أنهم متذكرون ، إلاّ أنهم ينسون كثيراً النصيحة العربية التى تقول « إذا كنت كذوباً . . فكن ذكوراً » وهذا بديهى ، لأنك تستطيع أن تعيد رواية الواقعة الحقيقية مليون مرة ، فلا تتناقض رواياتك ، أما

الواقعة المخترعة ، فيجب أن تحفظها ، حتى لا تؤلفها كل مرة بشكل مختلف فتكشف كذبك ، لكن هؤلاء المتذكرين العظام المحترفين لا يهتمون ـ عادة ـ بحفظ الطبعات المختلفة والمتوالية لذكرياتهم ، فتتعدد وتتناقض رواياتهم للحدث الواحد بجسارة يحسدون عليها ولسان حالهم يقول عنا :

ـ ناس عايزة تثبت لنفسها أنها كانت حميرا . . يبقى استحمارها حلالا !

والواحد منا يقبل عادة على قراءة المذكرات السياسية ، لكى يبرهن لنفسه أنه ـ كحمار الحكيم توما ـ جاهل بسيط ، أى جاهل يعلم أنه جاهل ، ولكن هؤلاء المتذكرين العظام ، الذين لا يتمتعون بصفات الكذوب الموهوب ، يبرهنون له على أنه جاهل مركب ، أى جاهل يجهل أنه جاهل . . وهو ما أزعج صديقى مدمن قراءة المذكرات الذى قال لى يوماً فى حالة من الانهيار الكامل :

ـ إننى أقرأ هذه المذكرات ، لكى اكتشف كيف استحمرونى . . فإذا بى اكتشف أنهم يواصلون استحمارى . . ومعنى هذا أننى حمار أسّ اثنين !

وما زلت أذكر ليلة ليلاء ، أسود من قرن الخروب ، قضيتها مع مسؤول كبير سابق ، فى يدى مسجل صغير ، وفى رأسى مشروع بحديث صحفى مسلسل ، يضغط على كل الأزرار ، فيضىء كل الأسرار ، وينقذنى وزملائى المحررين من شم النسيم على كوبرى قصر النيل . . فالرجل مسؤول سابق بالتأكيد ، بدليل خلو الكشك الخشبى على باب منزله من شرطى الحراسة ، والحديقة ، المهملة وتأجيره لسفرجى سقانى البارد والفاتر والساخن فى أقل من نصف ساعة ، يعود بعدها إلى عمله الأصلى فى المحل الشهير الذى لم يهتم بأن يخفى شارته من فوق صديريته .

ولا بد أن فلاش كاميرا زميلى المصور ، قد أعاد إلى ذاكرة المسؤول السابق ذكريات المجد الذى ولّى،وكرسى السلطة الذى تهشمت قوائمه ، وتلك هى فرصتى للحصول على النصر الصحفى المدوى . . لكن الحديث امتدت حباله ، فإذا بالرجل المخرف يحدثنى عن رؤيته الشاملة لحل مشاكل الأمة ، ومشروعه للخروج بها من محنتها ، وكلما حثثته للعودة إلى الماضى ، أصر على أن يشرح مشروعه لصنع المستقبل ، وخجلت أن أقول له ، أنه لو كان لديه مشروع يصلح لصنع شىء ، لما انتهى به ـ وبنا ـ الحال إلى ما نحن عليه . . وحاولت أن أنشط ما ظننته كسلاً فى ذاكرته ، فنقلت إليه كل ما قرأته عنه فى مذكرات الآخرين ، من مواقف وما نسب إليه من تصرفات تاريخية فى بعض الأزمات القومية الكبرى ؛ وسألته استيضاحاً وتفصيلاً وعندها فقط ، اكتشفت أنه مشغول بصنع المستقبل ، لأنه لم يكن يصنع شيئاً فى الماضى ، وأنه مسؤول لا يجوز أن يسأل عن حاجة ، وتأكد لى أن رأسه محشوة بقطن طبى ، ناصع البياض ، وأن جمجمته مغلقة على الهواء ولا شىء سواه ، وقد ظل يستمع باهتمام شديد لأقوالى ، وعلى وجهه علامات ذهول ابله . . ثم قال لى وهو يشد على يدى مودعاً فى امتنان ظاهر : أنا متشكر قوى على المعلومات التاريخية العظيمة دى . . وسألنى زميلى المصور وهو يدير موتور سيارته : على المجلة ؟! . . فقلت له : لا . . على كوبرى قصر النيل !

ولعل المشكلة الحقيقية تكمن فى احساسنا الداخلى نحن العرب ، بأننا المسؤولون الرئيسيون عما جرى لنا ولأمتنا ولأحلامنا وآمالنا ، فلا أحد يستطيع أن يستحمرك إلاَّ إذا كنت ـ ولا مؤاخذة ـ مؤهلاً للاستحمار ، لذلك فإن البحث عن أدلة وشواهد على ذلك ، هو فى الواقع نوع من ايلام النفس المقصود ، ومن عمليات التكفير عن الخطأ بالتطهر من الخطيئة . .

والاعتماد على المذكرات السياسية وحدها فى العثور على شواهد ما جرى ، لن ينتهى إلاَّ باستحمار مركب ، فنحن العرب ـ كما قال على السيد ـ نخاف من البوليس والجيش والانجليز والأميركان والظاهر والباطن ، لذلك انتهى بنا الأمر إلى أن نخاف أنفسنا ، فلم نعرف أدب السيرة الذاتية ، أو المذكرات كما عرفه غيرنا : ادب يقدم الحقيقة كاملة وعارية ، وليرض من يرض وليكره من يكره ، وليخبط المعترض دماغه فى الحائط فهو حر لأنها دماغه .

ولأننا لم ندرك أن هذا الأدب بمعناه الحقيقى ، لم يظهر بعد على خريطة أدبيات لغتنا ، فقد وقعنا بين براثن هؤلاء المتذكرين المحترفين ، الكاذبين غير الموهوبين ، فاستحمرونا للمرة الثانية ، فليس ما يكتبونه مذكرات ، وهو غالباً ليس حقائق ، لكنه مذكرة قانونية أعدها محام شاطر متخصص فى الأفراج عن المجرمين المضبوطين بالجرم المشهود بالطعن فى الاجراءات ، وهدف هذه المذكرة ، هو اقناعك بأن صاحب المذكرات هو وحده الذى لم يستحمرك ، وهو وحده البرىء من مسؤولية اغتيال احلامك ، وهو ـ فقط لا غير ـ الذى كان من موقعه فى السلطة ، يناضل من اجلك ، ويدافع عن قضاياك بشجاعة وصلابة ، وصحيح أنه كان شريكاً فى السلطة ، لكنه لم يكن شريكاً فى تجاوزاتها ، لأنه ديمقراطى ومعارض ، بدليل أنه قال للرئيس بتاريخ ٣١ فبراير « شباط » سنة كذا وستين ، أو كذا وسبعين ، كلاماً عنيفاً ، لا يشهد عليه أحد ، لأن كل الوقائع التى من هذا النوع لا شهود عليها ، إلاَّ فى المقابر ، فاستنطق شواهد القبور إن استطعت فإن لم تستطع فصدق صاحب المذكرات وامرك لله !

وهكذا يتكشف لك وجه آخر من وجوه ظاهرة الاستحمار القومى ، هو

ذلك العدد الكبير من المسؤولين العرب اللى مش مسؤولين عن حاجة ، فهم غير مسؤولين عن قراراتهم لأنهم نفذوها لكنهم لم يتخذوها ، أو يستشاروا فى اصدارها ، وهم غير مسؤولين عن أنفسهم بدليل انهم عاجزون عن الدفاع بجسارة عن سياساتهم ، وعن سلوكهم العام ، وهم أصلاً ليسوا بشراً مثلنا بل آلهة ، ولذلك لا يعترفون بأنهم اخطأوا ولا يجسرون على الاشارة إلى سوء تصرفهم أو سوء تقديرهم ، إلى غير ذلك من النواقص ، التى نقع فيها نحن البشر الرعايا ، إذ معنى ذلك أننا يمكن أن نصبح ذات يوم مسؤولين مثلهم وهو امر غير وارد فى عقلهم الباطن !

وقبل نصف قرن دهش الناس لأن طه حسين كتب سيرته الذاتية ، فتحدث بصراحة مؤلمة عن الفقر والعجز وتدافع اخوته على صحون الطعام والتهامهم لنصيبه ، واستغلالهم لعجزه ، واعترف بأن أباه كان يكذب ، وأن أخاه الأكبر استرد ذلك المنظار الأسود ذا الاطار الذهبى الذى أهداه له ليخفى به عاهته بخلاً واستنذالاً ، وان أبا طرطور ذلك الطيف الذى كان يحمل للمراهقين من طلاب الأزهر خيالات الجوع الجنسى قد زاره فى ذلك الربع الفقير ، الذى كان يسكنه . وكانت صراحة « الأيام » المذهلة أحد أهم المبررات لتلك الشهرة المدوية التى حققتها وحققها صاحبها ، وبعد خمس سنوات أو أكثر على وفاته كتبت أرملته « سوزان طه حسين » كتابها النادر المثال ، الذى لم يهتم به أحد كما ينبغى « معك » فإذا بنا أمام وجه آخر ، تكتمل به بعض ملامح الرجل : موجات الاكتئاب التى كانت تحيق به ، وذلك الجو الفرنسى الذى جعل بيته جزيرة أوروبية ، وإن كان اسمها عربياً متقعراً هو « رامتان » لحظات الضعف ولحظات القوة . . وذات مرة كتب الدكاترة زكى مبارك يقول إنه أحب فى المنصورة فتاة اسمها سعاد ،

وكتب لها خطابات قال انها لو نشرتها لكانت فضيحة تميد لها رواسى الجبال . . ومن سوء الحظ إنها لم تفعل ، ومن سوء الحظ ـ أيضاً ـ أن معظم الذين يكتبون المذكرات السياسية ، يخفون نصف الحقائق ، ويغيرون النصف الآخر ، لأنهم لا يريدون لنا أن نعرف الحقائق ، ولا أن نكتشف أسباب وظواهر هذا الاستحمار القومى الذى يؤلمنا ، والذى نسعى للتطهر منه ، حتى نعرف هل نحن الذين استحمرنا انفسنا ، بأنفسنا ، أم أن هناك من استحمرنا ، بل يريدون فقط أن يدافعوا عن أنفسهم ، وأن يبرروا مواقفهم وأن يحملوا الموتى الذين رحلوا إلى قبورهم دون أن يتركوا مذكرات مسؤولية الذي جرى والذى يجرى .

ولو أن تلك البنت المنصورية المسماة سعاد ، نشرت الرسائل ألتى كتبها لها الدكاترة زكى مبارك ، لما كانت هناك فضيحة تميد لها رواسى الجبال ، فقد كتب جان جاك روسو اعترافاته صريحة وفاضحة وعارية وبأدق التفاصيل ، فأصبحت مصدراً للدراسات التاريخية والسيكلوجية والأدبية ، وعاشت ومات الذين اعتبروها أدباً خارجاً عن الحدود ، ولو أن المتذكرين العظام ، تعاملوا مع أنفسهم باعتبارهم بشراً لا آلهة ، وتعاملوا معنا باعتبارنا مساوين لهم بحكم أننا جميعاً أولاد تسعة ، لاعترفوا بما جرى كما جرى ، ولكفوا عن ذلك الاصرار على استحمارنا ، وذلك الحرص على التنصل من أية مسؤولية ، والهرب من أية مساءلة ، ولملكوا شجاعة الدفاع عن أخطائهم ، وعن قراراتهم ، ولقدموا أنفسهم إلينا كما هم ، بشر يصيبون ويخطئون ، وينتصرون وينهزمون ، فيهم ـ كما فينا جميعاً ـ قوة وضعف ، وصلابة ونذالة ، لهم مباذلهم ، ولهم فضائلهم . . أما ومعظمهم لم يفعل ذلك حتى الآن ، فليعذرونا ، إذا ما كتب التاريخ غداً على شواهد

قبورهم « فـلان. . كذاب غير موهوب ، استحمرنا لمدة عشر سنوات . . .
ولمساحة الف صفحة » !

(*) « الوطن » الكويتية فى ١٦ فبراير ١٩٨٧ .

تعليقات اللورد كرومر على معلقات سى عبده الحامولى

كان « اللورد اوف كرومر » استعمارياً قارحاً من النوع الذى ينبغى ألا ننساه .. فإذا كانت الذكرى تنفع المؤمنين ، فهى تنفع أكثر العرب .. وصحيح أن قرناً قد مضى منذ عرفنا جناب اللورد لأول مرة .. إلَّا أن الاستعمار ذاته لم يمض .. فهو قد خرج من الباب ليعود من النافذة .. وإذا لم تصدقنى فافتح نافذة فى قلب جارك [وقد تفضل مثلى أن تفتحها فى قلب جارتك] أو فى قلبك أنت نفسك .. وانظر منها ، وسوف تجد فخامة اللورد جالساً بعنجهية فوق الحجاب الحاجز بين البطين الأيمن .. والأذين الأيمن - لأن فخامته باعتباره استعمارياً لا يمكن أن يكون يسارياً - يضع ساقاً فوق أخرى .. وينفخ دخان البايب السكسونى فى وجهك المستقل حديثاً .. باعتبارك مواطناً من دول عدم الانحياز لأى شىء حتى لنفسها !

وذات يوم قال اللورد القارح ، بتواضع قارح ، انه يستطيع أن يحكم مصر - وهى واكبر شقيقاتها العربيات آنذاك كما هى إلى اليوم - بخمسين جندياً انجليزياً فقط لا غير ، بشرط أن تواصل جريدة « المقطم » الصدور .

وقياساً على ذلك فلا بد أن فخامته كان قادراً على حكم الشقيقة « جيبوتى » بكف عسكرى انجليزى ، وسطرين فحسب من اعلانات « المقطم » المبوبة . . وقد لفتت هذه العبارة التافهة نظر باحث اكاديمى احمق ، فاستشهد بها على مدى التأثير الواسع الطيف للصحافة على عقول الناس ، لأنها تكفى أى مستعمر مستورد أو محلى مؤونة الحراسة، وميزانية البص والتجسس ، أما المعنى الحقيقى للعبارة القارحة التى قالها فخامة اللورد القارح ، فهى أننا نحن العرب فى رأيه كائنات منقادة طيِّعة ، تجمعنا صفارة وتفرقنا عصا ، أو أننا ببغاوات عقولنا فى آذاننا، أو فى عيوننا وربما فى مكان آخر ، لا تسمح الرقابة بتسميته . لذلك لا تتطلب السيطرة علينا سوى صحيفة كاذبة ، وثلة كتاب محليين بلا ضمير ، وفصيلة من الجنود المستوردين بلا رسوم جمركية ، يشهرون بنادقهم فى وجوهنا ، حتى لا نزوِّغ من القراءة . أو نهرب من الاطلاع والثقافة ، فيضمنون أن نقرأ « المقطم » بكل توقير واحترام، ونضرب تعظيم سلام لأفكاره ، وخلاصتها : أننا بلاد متخلفة ، لا تستطيع شيئاً ، ولا تجيد إلاَّ زراعة الحقول ، أو رعى الابل ، وبناء عليه فإن من مصلحتنا أن نسترشد بدول عظمى تلبس البرنيطة ، وتعرف التكنولوجيا ، ففى اصابعها التكنولوجية الكريمة خاتم سليمان ، الذى يحول القطن الذى تنتجه حقولنا إلى ملابس ، والصوف الذى نجزه من فوق نوقنا إلى بنطلونات ، وبذلك نتقدم ونتحضر ، ونسعد بقراءة « المقطم » ورؤية طلعة صاحب الفخامة « اللورد كرومر » .

وربما فى ذلك اليوم نفسه ، أو فى يوم قبله أو بعده ، قال اللورد القارح ، بفخر قارح ، أنه طوال عمله مندوباً سامياً ومعتمداً بريطانياً ومهندساً استعمارياً فى مصر ـ وقد استمر يقوم بذلك ربع قرن بالتمام

والكمال ـ لم يسمح لأية مومسة انجليزيـة بأن تمـارس نشاطهـا على ضفتى النيل . وهو تقليد الح جنابه ـ فى خطاب سرى كتبـه آنذاك ـ عـلى وزارتى الخارجية والمستعمرات ، بأن تعمل على تعميمه فى كل ممتلكات التاج ، التى كانت الشمس آنذاك لا تغيب عنها . .

والغريب أن صديقى الباحث الأكاديمى الأحمق ، قد استدل من تلك النصيحـة الكرومـرية ، أن اللورد كـان رجل أخـلاق حميـدة ، من النـوع البيورتانى المتطهر ، المتزمت ، وأنه ـ جعل الله الجنة مثواه ـ كان حريصاً على اخلاقنا نحن رعـاياه ، فـأراد أن يحصننا ضـد شهوات الجسـد ، وأن يسد أمامنا سبل الغواية ، أما الذين يعرفون اللورد ، فيؤكدون أن حيثيات هذا الخـطاب السرى ، تعـود إلى أن فخامتـه ، كان يحتقـر نوعنـا ، وجنسنـا ، ويعتبرنا كائنات أقل من مستواه ، ومستوى مومساته المتفوق لأن الذى يجرى فى عروقنا ليس دماء زرقاء بل حمراء وربما بيضاء أو هى ميـاه ملوثة بـطمى النيل ، وبذرّات رمال الصحراء ، ولذلك فنحن لا نستحق شرف مضاجعة المومسات الانجليزيات ، العفيفات ، النبيلات ، الشريفات ، وإلا اهتزت هيبة الامبراطورية فى عيوننا ، فنتبسط فى التعامل مع رموزها ، ونضرب عن قـراءة جناب « المقـطم » . . وبدلاً من أن نضـرب تعظيم سـلام لفخامـة اللورد ، قد نتوقح فنُلعِب له الوسطى !

وحيث أنه من الناحية المنطقية المحضة والمجردة ـ أى المنزوعة السلاح ـ لا يوجد ما يحول دون أن يكون جناب اللورد القـارح رجلاً خفيف الـظل وابن نكتة انجلوسكسونية ، حتى لو كانت درجة حرارتها قـريبة من درجـة حرارة ليلة الاحتفال بعيد زواجك الحادى عشر ، فلا بأس من رواية تعليق فخامته الرسمى على معلقة . . أو أغنية « سى عبده الحامولى » خاصة وأن

هذا التعليق السكسونى قد اذيع لأول مرة ، فى ليلة زفاف ، وهى مناسبة استثنائية ترتفع فيها درجة الحرارة لأسباب لا داعى لذكرها لأنها فى حكم العلم العام .

وحتى لا يلتبس الأمر على احد ، فإن جناب اللورد ، لم يكن عريس تلك الليلة ، بل كان ضيف الشرف إلى الحفل الكبير الذى أقامه أحد وزراء ذلك العهد ، بزفاف ابنه إلى ابنة زميل له ، ولأسباب سياسية وفولكلورية ، تواضع اللورد ، فقبل الدعوة ، واصطحب حاشيته التى جلست جميعها فى صدر المجلس ـ خلفه ، ما عدا واحداً اجلسه اللورد فى جيبه هو سعادة « المقطم ». وكما هو متوقع أحاط الوزراء والوجهاء بضيف الشرف ، وعاملوه ـ وفى مقدمتهم أصحاب الحفل ـ بالإكرام الذى يليق بممثل دولة الاحتلال ومُشكِّل الوزارات ، وكان من بين طقوس ذلك الاكرام ، احتلال « سى عبده الحامولى » ـ أشهر مطربى زمانه ـ وبطانته وتخته للزاوية المواجهة لمنصة الشرف التى كان يجلس عليها اللورد وبطانته .

ومع أن اللورد وتخته تخففوا من قُبَّعاتهم ، إلاَّ أن بقية المدعوين وفى مقدمتهم « سى عبده » ذات نفسه ، لم يخلعوا طرابيشهم على سبيل الاحترام الواجب فى حضرة ممثل الاحتلال . وفى الوقت المناسب ، هز المطرب الشهير رأسه ، لقائد تخته ، القانونجى ـ الذى لا يبارى ـ محمد العقاد ، فبدأ العزف ، وتنحنح « سى عبده » مسلكاً حنجرته ، ثم هز رأسه طالباً إعادة المذهب ، مرة . . ثم أخرى . . فثالثة ورابعة وعاشرة حتى سخن ، فانطلق صوته الجميل يغنى دور « هاتوا لى حبيبى » .

ومع أن الزمن انتقل من بداية المساء إلى الليل ، ومنه إلى منتصفه ، وكسر المنتصف إلى ما بعده ، إلاَّ أن « سى عبده » لم ينتقل من فوق كرسيه

ولا من مذهب الدور ، فظل يزخرف فى المطلع بكل المقامات ، من النهاوند إلى الحجاز كار ، ومن البياتى إلى السيكا ، ومنذ بداية السهرة إلى مطلع الفجر . وسخن « سى عبده الحامولى » . . وأخذ يعيد ويعيد فلا يزيد .

فكل الذى يريده هو « هاتوا لى حبيبى » . .

وكل الذى يقوله هو « هاتوا لى حبيبى » . . ولا بد أنه كان مأزوماً فى تلك الليلة، ولا بد أن حبيبه وزوجته ثم مطلقته القوية النافرة . . « الست المظ » كانت قد هجرته ، أوصدته . . وهو أمر لم يكن يهم اللورد الذى ادرك بعد قليل ـ أو بمعنى أدق بعد كثير ـ أنه وقع فى فخ ، فلا « سى عبده » يغير ما يقول ، ولا جنابه فاهم ما هو يقول ، والمصيبة أنه أيضاً عاجز عن الانصراف قبل نهاية الدور ، لأن ذلك لا يليق بأدبه الأنجلو ـ سكسونى الرفيع ، ولا ينسجم مع الدور الحضارى الذى ندبته الامبراطورية لكى يعلمه لهؤلاء الفلاحين الأجلاف ومنه أصول الاتيكيت . . وآداب السلوك ، خاصة وأنهم جميعاً كانوا يجلسون وقد فغروا أفواههم فى حالة وَجْد وانسجام تامين ، مع هذا المطلع الأسود ، الذى علق عليه المستر HAMOLY الملعون ، كأنه اسطوانة مشروخة تلبس طربوشاً . .

وكان الكيل قد فاض وزاد ، والليل قد انقضى أو كاد ، والأسد البريطانى قد ضاق بطول الجلسة على ذيله ، ووجه اللورد يحتقن مع كل إعادة ، حين فعل الوزير المضيف ما ظنه أصول الاتيكيت ، فاستأذن فخامة اللورد هامساً أن يسمح له بترجمة ما يغنيه سى عبده ، وأعطاه اللورد أذنه الامبراطورية التى كانت ـ كوجهة كله وربما امكنه أخرى من جسده الملظلظ ـ قد تحولت من لون الكبدة الطازجة إلى لون الكبدة المشوية ، ولم يُفاجأ اللورد حين لم تَزِد الترجمة الكاملة والأمينة والحرفية لكل الذى قيل

منذ بداية السهرة عن ثلاث كلمات هى « هاتوا . . لى حبيبى » همس بها الوزير المترجم ثم ظل منحنياً فى انتظار أية توضيحات أخرى قد يطلبها جنابه ، ولكنه دهش لأن الوزير المضيف لم يدرك المأزق الذى وقع فيه ، ووجدها فرصة للتعليق على معلقات « سى عبده » فأشار إلى وزيره ، الذى انحنى مسروراً ، وقدم أذنه إلى فم جناب اللورد ، فإذا به يتخلى عن أدبه السكسونى وبروده البريطانى . . ويقول فى غيظ كظيم مهموس مشيراً إلى سى عبده :

ـ ولماذا لا ترسل عطوفتك أحد خدمك لكى يأتى لابن الكلب هذا بحبيبته حتى اذهب إلى فراشى وأنام !

أما أنا فقد ضحكت شامتاً لأن « سى عبده الحامولى » قد أغاظ اللورد القارح ، وأخرجه عن بروده السكسونى ، وأجبره على أن يسمع جملته المكررة الكسولة الخالية من أى معنى تقريباً ، من مغرب الشمس إلى مشرقها ، وبذلك انتقم لنا من اولئك الاستعماريين القارحين الذين يفعلون الشيء نفسه ، ويكررون الكلام ذاته ، فى كتبهم ومراجعهم وفى محاضراتهم ودروسهم ، وفى خطب وخطط ساستهم ، وهمسات مسؤوليهم ، ومناوراتهم المشتركة ، ومفاوضاتهم السوداء ، ذلك أن فكرتهم الثابتة التى لا تتغير هى أن الله قد خلقهم من صلصال أحمر جميل ، وخلقنا من طين أسود ، فنحن بحكم الخَلْق ـ والخِلْقة ـ أقل منهم شأناً وأدنى منهم مرتبة ، ونحن أغبى ، ونحن أكسل ، ونحن لا نستحق إلّا شرف خدمتهم ، أما أن نطلب المساواة بهم ، فهذه قلة أدب وتطاول ، فمكانتنا الثابتة على خريطة المعمورة ، وخريطة التاريخ ، هو أننا الضد الذى خلقه الله ، لكى يظهر تميزهم ، فنحن الغباء الذى به يعرف ذكاؤهم وعبقريتهم ، ونحن الكسل الذى يبرهن على نشاطهم ، ونحن التابعون الذين خلقوا خصيصاً

للاستماع إلى رسالتهم الربانية والانقياد لها ، وضرب تعظيم سلام لكل ما يقولون .

هذا كلام سمعناه طويلاً من جناب اللورد القارح ، وطبقه علينا اتباعه القارحين كثيراً ، وكرروه بكل النغمات من البياتى إلى الفوكس تروت ومن الحجاز كار إلى الروك والرول والديسكو والبلاء الأزرق ، حتى أماتونا مللاً ، لذلك يستحق سى عبده الحامولى ، أن نضرب له تعظيم سلام ، فقد حارب اللورد الممل بسلاح الملل ، وأثبت له أننا اكثر إملالاً وسخفاً وتكراراً منه ، ومن الذين وضعوا تقاويه ، ووضع تقاويهم . ولو كنت من ذلك الوزير الراحل ـ والعياذ بالله ـ لرددت على عبارة اللورد بقولى :

ـ ولماذا لا تحل قراحتك ـ وهى لقب توقير بديل للقب فخامتك ، والاثنان على وزن واحد وهو فعالتك ـ عن سمائنا وتكفينا عنجهيتك المملة ؟

ولكننا نظلم اللورد إذا لم نقدر الظروف الصعبة الذى وضعه فيه « سى عبده » ، الذى كشف فى تلك الليلة الليلاء عن رجل عظيم الكسل ، عبقرى البلادة ، أبى ـ حال كونه رجلاً مبدئياً صلباً ـ أن يتنازل عن مطلبه ، وواصل ببسالة إلحاحه على الجالسين لكى يأتوا له بحبيبه ، فتعاطفوا معه بكل جوارحهم ، فلم يغادر ـ أو يغادروا ـ مقاعدهم ، ومع أن بعض المزايدين والمبلبلين زعموا أن ذلك الاهتزاز الخفيف فى جسد سى عبده اثناء النضال ، دليل على عدم ثبات مواقفه ، إلاَّ أن السبب الحقيقى لهذا الاهتزاز أن الرجل كان يشعر بآلام شديدة ، فى ذلك الجزء غير العظمى من الجسم البشرى الذى يؤلم الإنسان ، إذا ما ظل جالساً لمدة طويلة على مبدئه ، وهى ظاهرة تسجلها الأبحاث العلمية المحترمة ، حتى إن آخر

تقارير منظمة الصحة العالمية تقول إن ٩٠٪ من مناضلى العالم الثالث مصابون بداء البواسير بسبب طول الجلوس على مبادئهم ، شفاهم الله ، وعافانا من ذلك .

ومما يؤكد هذا التفسير ، أن التجريد من السلاح كان مدرسة منتشرة آنذاك فى الفنون التشكيلية والموسيقى « التشكيكية » وهو ما يقطع بأن سى عبده الحامولى كان يغنى أغنية رمزية لها معنى آخر غير معناها الظاهر ، فقد يكون الحبيب الذى ناشد الناس ليلتها أن يأتوه به ، هو السودان الذى فصم الاحتلال البريطانى ـ أيامها ـ وحدته مع مصر . . وقد يكون استقلال مصر الذى كان قد ضاع فى هزيمة التل الكبير . ولعل هذا المعنى الرمزى هو الذى استفز اللورد كرومر . . وهو تفسير يدعمه ذلك الفيلم السينمائى الذى انتج عن حياة عبده الحامولى ، وصنع منه بطلاً جماهيرياً ومناضلاً وطنياً ضد الاستعمار البريطانى ، ومقاتلاً ديمقراطياً ضد طغيان الخديوى اسماعيل ، ولا يقلل من قيمة الاستشهاد بهذا الفيلم ، إن مؤلفه ومخرجه وجميع أبطاله مصابون بداء البواسير طبقاً للوارد فى تقارير منظمة الصحة العالمية !

والواقع أن انتقال سى عبده الحامولى من البياتى إلى الحجاز كار ، ومن مقام السيكا إلى مقام الرصد ، هو التنوع الطبيعى ، والتطور التلقائى ، الذى حول مطلع « هاتوا لى حبيبى » إلى معلقة ، ثم إلى سبع معلقات ، ومع الزمن أصبح يتكرر بالفاظ مختلفة ، وتناسل ، حتى أصبحت المعلقة الواحدة ١٨٠ مليون معلقة ، تتضمن أشعاراً وأغنيات ومقالات وخطباً سياسية ، وبلاغات رقم واحد واثنين وديشليون ، خلاصتها جميعها « هاتوا لى حبيبى » . وهو ما يجعل هذه المعلقة التاريخية أكثر الأغنيات صلاحية لكى تكون نشيداً قومياً للدولة العربية التى ستتوحد سياسياً، وهى الخطوة

المنطقية التى تتلو عثورنا على النشيد القومى الضائع ، الذى لم يكن ينقصنا لإعلان الدولة سواه ، بعد أن وحدت بيننا الاصابة بالبواسير القومية، وقد ذهب اللورد كرومر ، وجاء اللورد ريجان ، وما زال سى عبده جالساً على كرسيه فى الشرق الأوسط ، يموِّل ويغنى ويناشد ، ويهز زرّ الطربوش ، ولا يغير من جلسته إلاَّ إذا زادت أوجاع مقعدته ، أما معلقة « هاتوا لى حبيبى » فقد انتقلت من جدران قصر الدوبارة ـ المقر الرسمى للورد كرومر ـ إلى جدران « دوانج ستريت » ثم إلى حائط البيت الأبيض وظلت نسخة منها طوال الوقت تحتل جدران حائط المبكى .. والأسلاك الشائكة التى تحيط بالمخيمات !

وحتى الآن ، فإن المعلقة تذاع بكل اللهجات العربية ، وتكتب بكل أنواع الخطوط من الكوفى إلى النسخ إلى الثلث ، وسى عبده ينتقل من الحجاز كار الذى لا تستطيبه إذن اللورد ، إلى البياتى الذى يهز قلب الحجر ، وفى الجعبة بعد ذلك النهاوند السريع الطلقات ، فالنضال لا بد أن يستمر حتى يرق قلب سيدنا ريجان ، فيعيد الحبيب الضائع إلى أحضان سى عبده الجالس على كرسيه ، لأن الثبات على المبدأ وعلى الكرسى ، مطلوب ، فطويل البال هو الذى يبلغ الأمل ، ومدمن القرع لا بد أن يَلجِا . . فأعد يا سى عبده. . والنبى كمان . . فليس وراءنا ما يشغلنا ، ونحن معك قاعدون لفجر اليوم . . وفجر الغد، وفجر القرن القادم وحتى تقوم الساعة ، أما لو أصيب سى محمد العقاد بداء النقرس فى اصابعه من طول عزفه على القانون الدولى، وتقاسيمه على قرارات الأمم المتحدة ، فذلك هو الخطر الذى ينبغى الحذر منه كل الحذر ، فطبقاً لما ورد فى وثائق وزارة الخارجية البريطانية عن وقائع تلك الليلة الليلاء التى غنى فيها « سى عبده الحامولى » لأول مرة معلقة « هاتوا لى حبيبى » فإن جناب اللورد ، اردف

تلك الكلمات الحكيمة البليغة ، التى قالها لسعادة الباشا الوزير ، بأن قام فجأة ، لينصرف ، وقامت معه وخلفه بطانتـه ، لكن « سى عبده » الـذى كان فى غاية الانسجام ، واصل غناء معلقته ، أما سى محمد العقاد ، فقد تنبه لما جرى ، فقرر أن يقوم بالواجب الذى تفرضه أصـول الاتيكيت عند انصراف أحد كبار الضيوف ، فانتصب واقفاً ، ورفع كفه إلى جبهته ضارباً تعظيم سلام لجناب اللورد ، ولم يتنبـه فى عجلته وارتباكه ، إلى أن اصبعه الأوسط المغلف ـ شأن كل العازفين على القانون ـ بظرف معدنى ، كان قد نفر إلى الأمام من بين بقية اصابع الكف ، بعـد أن ظل عـلى هذا الـوضع طوال الليل ، ولم تحدد الوثيقة البريطانية ، الجهة التى كان يتجه إليها هـذا الأصبع المعدنى النـافر فى كف سى محمـد العقاد ، إذ ربمـا كان مـوجهاً إلى جنـاب اللورد . . وقد يكـون متجهاً إلى سى عبـده ذات نفسـه وربمـا إلى الاثنين معاً .

والله أعلم .

(*) الوطن ـ الكويتية فى ٢٣ فبراير ١٩٨٧ .

صديقي مدير عام

فى ذلك الصباح كان قد مضى على جلوس صديقى محمد عبد الرسول على مقعده كمـدير عـام لتلك المؤسسة شبـه الحكوميـة عدة شهور. انهمك خلالها فى تنـظيم شئونها المختلـة وتطويـر ادائها المتـدهور وضبط جهـازها الادارى المتهرىء. فاختفى من منـزله وغـاب عن المقهى. وحوّل مكتبه إلى مسكن أقام فيه ، ولم نعد نرى وجهـه البيروقـراطى الكريم إلاّ عـلى سبيل الاستثناء. فإذا تصادف وكان تليفونه غير مشغول فإنه هو نفسه يكون مشغولاً عن الحديث معك بالحوار مع آخرين يجلسون فى مكتبه عن اشياء لا تعرفها لذلك يحاورك بعقل غائب وذهن شارد. فإذا حدثتـه مثلاً عن القـرار ٢٤٢ الخاص بأزمـة الشرق الأوسط حـدّثك بحمـاس عن القانـون ٤٨ الخاص بتسـويات الـرسوب الـوظيفى وصرف عـلاوتين لحملة الشهـادة الابتدائيـة القديمة ممن لم يحصلوا عـلى ثلاث درجـات خلال ثـلاثين سنـة من الخدمـة المتصلة وإذا أشرت إلي أن « جولد برج » مندوب امريكا فى الأمم المتحدة قد تمسك بعناد أثناء المشاورات التى سبقت اصدار القرار ٢٤٢ على أن يسمى

ما حدث فى ٥ يونيو حزيران ١٩٦٧ « النزاع » وليس « العدوان » رد عليك بحماس :

ـ زى الدبابة بترمى فى الساعة ٢٠ الف فرخ ٧٠ × ١٠٠ لونين مرة واحدة !

وبعد مجهود تكتشف انك بينما تتحدث عن المستر جولد برج فإن المدير العام يحدثك عن المطبعة الهايدلبرج التى كانت الحكومة الهولندية قد اهدتها للمؤسسة التى شاء سوء حظنا نحن أصدقاؤه بأن يجعله مديراً عاماً لها !

وهكذا أصبح منطقياً فى المرات النادرة التى يظهر فيها المدير العام مقبلاً على جلستنا فى المقهى، أن نسرع قبل وصوله فنكوم المناقشات الفلسفية والسياسية والأدبية والتاريخية مع قشر اللب والفول السودانى وأعقاب اللفائف وأغطية زجاجات المرطبات ونلقى بها جانباً. إذ كان ظهوره مؤشراً على أن الجلسة ستتحول من سمر فى السياسة والفلسفة ومناظرة فى أحوال الأمة والكون، إلى جلسة نميمة بيروقراطية من الدرجة العاشرة، بعد أن كفَّ سيادة المدير العام أيامها عن قراءة الصحف ومتابعة ما يجرى فى الدنيا. وتفرغ للنهوض بالمؤسسة المتدهورة من جانب ولمواجهة الدسائس والمؤامرات والمقالب التى تستهدف المقعد الذى جلس عليه من الجانب الآخر. وهما موضوعان كان لا يكف عن الحديث فيهما حتى وهو يتناول طبقه المفضل « المكرونة بالصلصة » ولا يتحدث فى غيرهما سواء كان يأكل أم لا . .

شيئان فقط كانا يعينانه ويعيناننا على تحمل حالة الإدارة العامة التى اصابته وأصابتنا فى مقتل :

الأول : تاريخى تربوى أحالنا فيه صديقنا إلى عشرين عاماً مضت حين اكتشف ونحن فى مقتبل الشباب كتاباً عنوانه «قصيدة تربوية» يضم خلاصة

لتجربة قام بها تربوى سوفيتى كبير اسمه « ماكارنكو » استطاع خلالها أن يحول مجموعة من الأحداث المشردين الذين لا يصلحون لشىء إلى كائنات سوية عن طريق العمل إذ لم يغرق نفسه أو يغرقهم فى البحث عن عقدهم النفسية أو تحليل مركبات النقص التى تتحكم فى شخصياتهم ولكنه فتح أمامهم سبل تحقيق ذواتهم عن طريق العمل. وبعد مجهود شاق نجحت هذه التجربة البيدجواجية فإذا بمواهب هؤلاء المشردين المدفونة تتكشف، وإذا بقدراتهم المخبوءة تنطلق وإذا بهم يتحولون من أحداث مشردين إلى مواطنين صالحين اسوياء يقتحمون الحياة بشجاعة وصلابة ويساهمون فى تغييرها نحو الأفضل وبعد أن كانوا مرشحين فى أحسن الأحوال لمكانة بارزة فى عصابات السرقة والقتل. أصبحوا من الصُنّاع المهرة. وأكمل بعضهم دراسته ليصبح من كبار المهندسين وتقدم اخرون فكان منهم شعراء ومؤلفين ومخترعين .

أما أخطر ما فعلوه أنهم قلبوا رأس صديقنا محمد عبد الرسول فإذا به يشترى بكل قرش يصل إلى يده نسخاً من الكتاب ليوزعها على من يعرفهم وإذا به يقترض منا نقوداً فيعيدها إلينا على شكل نسخ من مجلدات قصيدة ماكارنكو التربوية الثلاثة وإذا به يضيف إلى الشروط الباهظة لاستمرار صداقته أن نقرأ هذا الكتاب بالذات دون كل الكتب، وأن نتحاور معاً حوله وأن نعترف بأنه أفضل الكتب التى انتجتها المطبعة منذ عصر « جوتنبرج » وإلاَّ كان معنى ذلك أننا لا نستطعم الكتب ولا نفرق بين الغث والثمين منها ، ولا نستحق الجلوس على مقهى « ايزافيتش » واكل « عيش السراى » طبقه المفضل فى تلك السنوات البعيدة .

ومع أن تطورات الأحداث ومحن العمر التى تلت ذلك كانت قد أنستنا جميعاً حكاية « مكارنكو » هذه، إلاَّ أننا اكتشفنا أنها ـ شأن معظم الأفكار

المتسلطة كانت ما تـزال تعشش فى رأس صديقنـا فكان أول مـا فعله حين صدر قرار تعيينه مديراً عاماً لتلك المؤسسة، هو أن أخرج ما تبقى لديـه من نسخ الكتاب،ونفخ عنها التراب وأعاد قراءتها.وعاد ليناظرنا بسـطورها كلما ضبطناه متلبساً بالحالة البيروقراطية. ويوم خلط ـ وهو شارد الذهن فى المكائد والفخاخ التى تحيط بالمقعد الذى يجلس عليه بين القرار ٢٤٢ والقانون ٤٨ ـ شددنا عليه المَسْخَرة واقترحنا بمنتهى الجدية أن نشترك فى التوقيع على طلب رسمى نقـدمه بـاسم الأمة العـربية إلى مجلس الأمن ونـطالب فيـه بتـطبيق القانون ٤٨ على أزمة الشرق الأوسط وتسوية حالة الأمة باعتبارها فى حالة رسوب وظيفى دائم إذ لم تحصل على أية علاوة سواء فى حـالة الهـزيمة أو فى حالة النصر.وعلى عكس كل الأمم فإن الحرب الوحيدة التى نجحت فيها قد انتهت بإنقاص علاواتها الدورية وزيادة مديونيتها الخـارجية . . لكنـه شأن مديرى العموم ـ تعالى فوق عبثنا . . وواصل المناظرة بجدية تامة، مذكراً إيّانا بعبارة كانت من محفوظات جيلنا وردت أيضاً فى كتاب « مكارنكـو » ولكن على شكل سؤال نصه :

ـ إذا كان العمل قد حول القرد كما يقول دارون فى نظريته إلى إنسان، فما الذى يمكن أن يتحول إليه الانسان بالعمل ؟

واستمراراً لحالة العبث التى كانت قد تلبستنا قلت: يرجع قرد تانى. وقال صديق آخر: أو يبقى جولد برج أو «هايلد برج». أما هو فقال بجدية كاملة: يبقى « سوبرمان » يعنى انسان « مثالى » .

ولم أكن ـ منذ البداية ـ بعيداً عن ادراك أن صديقنا ما يزال يعيش فى أوهام صبانا الأول. يوم كنا نتخيـل أن احلامنـا بسيطة ومنـطقية ويسيرة التحقيق، ونتصور أن الناس من حولنا والعالم المحيط بنا، يمكن تغييرهما بسهولة تامة . .

فالمنطقى الا يندم على الحياة احد وأن تصبح الدنيا جنة وأن يعيش الناس متساوين، وأن يسود العدل ارجاء الديار وانحاء المعمورة، والبسيط أن يقاتل الناس من اجل ذلك وأن يخرجوا من قواقع الذات وشرانق المصلحة الفردية ليزحفوا على العالم فيعدلوا ميزان عدالته المختل وذلك كما وقع فى وهمنا آنذاك ممكن جداً .

فقد كنا نحن أنفسنا ناساً من الناس فينا ما فيهم من انانية وفردية وكسل وتَنْبَلة واستغراق فى توافه الأمور فأخذنا أنفسنا بنوع من الجدّ يخلو من كل هزل ويصل إلى حد الصرامة .

فى الصباح نعمل ـ كطابور النمل أو سرب النحل ـ فى دواوين حكومية أو ورش حرفية أو مكاتب أهلية .

وندرس فى المساء كصبية الكتاتيب بمعاهد ليلية : طلبة منتسبون للجامعات قطعت ظروف حياتهم الشاقة اضطراد حياتهم الدراسية، فتحملوا ـ وهم نبت غض ـ مسؤولية أسرة مات عائلها فجأة ليدفعوا عنها غوائل الجوع ويستروا لحم اخواتهم البنات وحملة بكالوريوس فى الهندسة أو الطب أو العلوم البحتة يريدون أن يدرسوا الاجتماع أو الأدب أو الحقوق. فى الليل كنا كفئران الكتب، نقرأ صحفاً محلية ومجلات مستوردة وكتباً صفراء الورق ومجلدات استعرناها من مكتبات عمومية أو من اصدقاء يعيرون الكتاب طبقاً لجدول زمنى، للتنسيق بين طابور الراغبين فى قراءته .

وبكل قوة الشباب واندفاعه، امتلأت قلوبنا حتى الحافة بتعاسة الآخرين فخفقت بالرغبة فى افتداء الذين لا يجدون القوت ومن يفتقدون الحرية والباحثين عن الكرامة فاستهنا بالمخاطر والمصاعب وأخذنا نعقد اجتماعات سرية فى غرف مغلقة تختنق بسحائب الدخان ونطبع منشورات

ضد الحكومة. ونوزعها دون أن نأخذ مأخذ الجد المعتقلات التى كانت فى تلك السنوات . كما هى الآن ـ ذات أبواب مفتوحة فى اتجاه واحد هو الدخول. وكنا نتوهم أن الناس ستتغير بسرعة وإننا سنعيش حتى نرى العدل والحرية والكرامة ترفرف فى أرجاء الوطن وأنحاء الأمة وأركان المعورة. ثم اكتشفنا بأسى غير قليل أنه لا يكفى أن تكون أحلامنا بسيطة ومنطقية ومعقولة لكى تتحقق. وأن الطرق مليئة بفخاخ الضعف الانسانى وأشواك العادة والتقليد ومتاريس الأطماع وعبادة الذات، وأن الوحش قديم والانسان حديث، وأن ملايين القبور تضم أجساداً لرجال حلموا نفس احلامنا فماتوا دون أن يتحقق إلاَّ القليل مما كانوا به يحلمون ، وان هناك فارقاً بين الأحلام والأوهام وبين طموحات الثوّار وتخيلات السذج والبلهاء . . وانه إذا كان العمل قد حول القردة إلى انسان ـ كما اكتشف دارون ـ فان تحول الانسان بالعمل إلى سوبرمان ليس معادلة حسابية تتحقق فى لحظة، ولكنها تتطلب عمراً من مكابدة العناء مع النفس ومع الآخرين، فالقرد لم يتحول إلى إنسان إلاَّ عبر عشرات القرون كما تشهد بذلك حفريات ما قبل التاريخ. ثم إن قرون القهر والاستغلال والاستبداد كانت منذ ذلك الحين قد شوهت انسانية هذا الانسان. ولم يكن من الخطأ أن نفترض أن السياط التى حفرت ندوبها على أجسادنا وقلوبنا وأرواحنا، وصنعت منا ما لا نعرفه على وجه التحديد قد طالت آخرين ممن يحيطون بنا، يتزاحمون بالأقدام والمناكب والأظافر من اجل مقعد فى أتوبيس، أو موقع فى طابور جمعية تبيع فراخاً مدعومة، أو موطأ لقدم على درجة من درجات سلم الصعود إلى القمة فيدوسون رؤوس الآخرين أو يدوس الآخرون رءوسهم، ويدوس الجميع ـ فى كل الأحوال ـ قلوبهم التى ربما خفقت يوماً بالرغبة فى افتداء الناس وبالحنو على تعاستهم . . .

وكان هذا التحول ـ من معانقة الحلم إلى مكابدة الواقع ـ واحداً من أقسى

التجارب التى عانينا منها فى مقتبل سنوات الشباب. وقد حفر بصماته قوية على أرواحنا التى افتقدت قبل الأوان كثيراً من المرح والبهجة والتفاؤل. لذلك أدهشنا حماس صديقنا المدير العام انه يستطيع أن يصنع شيئاً فى تلك المؤسسة ـ التى كان قد خاض نضالاً شرساً ضد اشكال من الفساد كانت تعشش فى حناياها ـ انتهى باختياره مديراً عاماً لها لكى يصلح احوالها المنهارة واعتبرنا هذا الحماس لوناً من التصابى أو نكوصاً إلى ايام الصبا الذى ولت أيامه .

وذات يوم ذكّرته دون مناسبة ظاهرة بأنه كتب شعراً رقيقاً فى فتيات لو عرف الناس ما آلت إليه أحوالهن لشجّوا رأسه بأبيات شعره . . وحين أفاض فى سرد المؤامرات التى احاطت به من كل جانب من المفسدين الذين تصدى لهم، ومن اجهزة الأمن التى كانت تحتفظ بملفات كاملة لأحلامه الطائشة فى أن يستقيم ميزان العدل فى هذه الدنيا، ومن الناس أنفسهم الذين كانوا قد فقدوا عبر سنوات الانفتاح والانفضاح كل ثقة فى اصلاح احوال أى شيء وتدافعوا يبحثون لأنفسهم بالذراع والباع، عن موطأ قدم فى سوق الفساد .

. . فى تلك الليلة تشعَّب الحديث فى المقهى . . فتحدث واحد عن أستاذ الجامعة الذى التقى به « يوسف ادريس » ذات صباح ، نازلاً من الأتوبيس يسُبّ ويلعن بكل اللغات . . وقد تحطم منظاره الطبى . . وملأت الكدمات وجهه . وتمزق قميصه . . ومن بين زحام الأتوبيس الذى انفلت منه بصعوبة . . قذفت يد مجهولة بحقيبة أوراقه الجامعية فبطحت رأسه ، وتطايرت أوراقها حوله . . وكان الأستاذ الجامعى قد لاحظ أن رجلاً أكرش قبيح الخلقة ، قد اتخذ من الزحام مبرراً ليلتصق بجسد فتاة صغيرة ،

أعيتها الحيل فى الهروب من مضايقاته ، ولكنه واصل متابعتها دون كلل . ودهش الأستاذ الجامعى لأن جميع الذين كانوا حوله فى الأتوبيس ، كانوا يتابعون فى صمت ولا مبالاة ما يجرى . . ومع ذلك تجاهلوا نظرات الاستغاثة والغضب الكظيم والدموع التى توشك أن تنسكب فى عيون الفتاة ، وهى تحاول عبثاً الهرب من ملاحقات الرجل الدميم . . آنذاك صرخ فى الرجل مؤنباً . . وفى الناس محتجاً . . وبعد قليل وجد نفسه ملقى على الرصيف . . ولحقته حقيبة أوراقه فبطحت رأسه . .

لكن صديقنا المدير العام . . لم يجد فى هذا الحديث ما يهمه . . فسحب كتاب « مكارنكو » ـ الذى كان يتوسط مائدة المقهى أمامنا ـ وغرق بين دفتيه . . وأشك أنه سمعنى حين قلت :

ـ إنها حقاً « قصيدة تربوية » . . لك !!

أما الشيء الثانى الذى كان يعيننا على تحمل حالة الإدارة العامة التى أصابت صديقنا « محمد عبد الرسول » فكان إصراره ، على أن يؤكد دائماً أن « تقارير الرأى العام » التى وصلته ، صريحة الدلالة على أن العاملين بالمؤسسة ، والمستفيدين من خدماتها ، راضون عنه ، سعداءبه ، مبسوطون من إدارته ، رغم أن كثيرين منهم كانوا يستفيدون استفادة مباشرة من حالة الفوضى التى كانت سائدة قبل توليه لمنصبه ، وأنهم ـ فضلاً عن هذا ـ متضامنون معه فى التصدى للعواصف والأعاصير التى لا تكف عن الاحاطة بالكرسى ، والتى كثيراً ما كادت تقتلع قوائمه ، وتوشك أن تطير بصديقنا لتزرعه إلى جوارنا ، وتستبدل بمقعد الادارة العامة مقعداً على مقهى « سوق الحميدية » الذى كنا نقضى به أوقات فراغنا ، ليطلب طبقه المفضل « مكرونة بالصلصة » .

. . وفى ذلك الصباح . . كان صديقنا المدير العام قد بدأ عمله كالعادة مبكراً جداً . . فوصل إلى مكتبه قبل أن يصل أى عامل بالمؤسسة . . ليجد على سطحه تلا من الأوراق انهمك فى فحصها وتصريف ما بها من أمور ، حتى لا تتعطل مصالح الناس ، ولا يختل دولاب العمل ، ثم أنه ـ وهذا المهم ـ كان حريصاً على أن يضرب للآخرين مثلاً فى عبادة العمل ، وان يكون لهم قدوة فى الاهتمام بمصالح الناس ، وأن يؤكد صحة ما ذهب إليه صديقه « ماكارنكو » من أن العمل الذى حول القردة إلى انسان ، يمكن أن يحول الانسان إلى « سوبرمان » .

وكان العمل قد استغرقه تماماً ، حتى أنه لم يتنبه لذلك العدد القليل من معاونيه ، الذين جاءوا ـ كالعادة ـ متأخرين ، يتثاءبون ويفركون أعيناً يملؤها النعاس والعماص، فرد تحيتهم بغمغمة دون أن يرفع عن الأوراق رأسه، أو يلق بالاً لثغائهم وهم يطلبون أكواب الشاى وساندويتشات الفول، ويثرثرون مع زملائهم فى المكتب المواجه له . . ولم يدهش « الأستاذ عطية» ـ سكرتيره الخاص ـ حين وجد المدير العام قد وصل إلى مكتبه قبله ، ولم يعتبر رده على تحية الصباح دون أن يرفع عن الأوراق رأسه ، نفوراً منه ، أو ازوراراً عنه ، أو تأنيباً له ، فقد كان ذلك جمعية قد أصبح من الأمور العادية ، وهكذا تركه منكباً على أوراقه ، وانتقل إلى مكتب مقابل ، شرب فيه الشاى ، وأكل الساندويتش ، ومسح حذاءه ، وقرأ الصحف ، وحين وجد أن الواجب يقتضى منه أن يطل على المدير العام ، دخل غرفته ، فإذا به ما زال يدفس بين الأوراق رأسه . . فوقف فى مواجهة مكتبه ، يرتب الأوراق ، ويتناول كل ورقة ينتهى المدير من فحصها ليعيدها إلى ملفها ، ويعلق أحياناً على بعض تأشيراته ، والمدير العام يرد مغمغماً ، أو بكلمات قليلة ، دون أن يرفع عن الأوراق عينه .

ورأى « الأستاذ عطية » أن يقطع فترات الصمت ، بقصيدة لم تكن جديدة على أذن المدير العام ، لذلك لم يعن كثيراً بالاستماع إلى بدايتها ، ولم يرفع رأسه من بين الأوراق :

- يا سلام يا استاذ محمد / إيه النشاط والحيوية دى ؟ / دا أنت قدوة / ومثال / ربنا يديم عليك الصحة / ويكتر من أمثالك / دى الناس فى المؤسسة بتدعى لك كل ساعة / دول بيحبوك موت / بصراحة كده اللى قبلك دول ماكانوش مديرين / والله ودينى وما أعبد / لو فيه كام واحد زيك في البلد كانت أحواله اتصلحت .

.. فى هذا المقطع الأخير بالذات من قصيدة المدح التى تعود « الأستاذ عطية » أن يلقيها على مسامعه كل صباح ، وجد صديقنا المدير العام فى ذلك الصباح جديداً على سمعه .. فهناك كلام عن أحوال البلد التى يمكن أن تنصلح .. وإذن فإن هناك وعياً جديداً بدأ يتسرب إلى نفوس العاملين معه فى المؤسسة .. ومدركاً لرسالته التى يتحمل فى سبيلها كل هذا الجهد .. لحظتها خفف من تركيزه فى الأوراق التى أمامه ، وافتر ثغره عن ابتسامة رضى ، وهم بأن يرفع وجهه المبتسم ليواجه سكرتيره فيحاوره حول هذه الفكرة الجديدة العميقة .. وكان « الأستاذ عطية » يواصل الكوبليه الثانى من قصيدته قائلاً :

- البلد دى يا أستاذ عايزه ناس قدوه من أمثالك / ناس قلوبها عليها ناس حياتها الشغل .

.. وفى تلك اللحظة على وجه التحديد .. التى كان لسان الأستاذ

عطية ينطق فيها حرب اللام ، رفـع المديـر العام رأسـه المبتسم ، فإذا بـه يباغت بلسان سكرتيره ، ينطق الحرف الأخير ، ثم يمتد خارج فمه ، مرتفعاً إلى أعلى بينها حواجبه ترقص فى جبهته ، سخرية مما يقول هـو ، وتكذيباً للبيان الذى يدلى به ، واستهزاءً من جدية المدير العام ، الذى يريد أن يحول الانسان إلى سوبـرمان دون مناسبة . . وإذ أدرك صـديقى المديـر العام أن سكرتيره الشاعر المنافق كان طوال الوقت يُلَعِّب له حواجبه ويخرج لسـانه لقـدوة سعادتـه ، اندفـع يجرى وراءه فى طـرقات المؤسسـة ، ويسبه بكـل اللغات من لغة القرود . . إلى لغة السوبرمان !

. . . .

وحين ظهر المدير العام فى تلك الليلة ، وعلى غـير انتظار فى المقهى ، فـروى ما جـرى من الأستاذ عـطية ، ضحكنـا حتى كدنـا نختنق من كثرة الضحـك . . أما هـو فكان يحمـل مضبطة كـاملة دون فيها أقـوال الأستاذ عطية ، ووضع شرطة مائلة لتدل على لحـظات الصمت ، التى استنتج أن الملعون كان خلالها يُخرج لسانه ويُلعِّب حواجبه . . وعندما سألته ضاحكـاً عن سبب اهتمامه بتدقيق وتحديد مواضع لحظات ترقيص الحواجب وتلعيب اللسان . . قال :

ـ أصل العكروت ده . . هو مصدر كل تقارير الرأى العـام اللى كنت باعتمد عليها فى قياس نجاح التجربة !

ساعتها أشرت إلى النادل قائلاً :

ـ واحد « ماكرونكو » بالصلصة للأستاذ محمد يا بيومى !

. . . .

فى شهر مايو ١٩٨٤ ، جاء عدد من انصار النائبة نـوال عامـر إلى مقر

المؤسسة ، ليطلبوا وضع لافتات للدعاية الانتخابية الخاصة بها على مبناها ، ويقترحون الاستفادة بعملائها وعمالها في الدعاية لمرشحة الحزب الحاكم . . فرفض المدير العام ، وعنفهم وقال إنه يدير مؤسسة للخدمة العامة ليس من شأنها أن تقوم بدعاية انتخابية لهذا أو ذاك . وفي نهاية عام ١٩٨٥ ، أصدرت وزيرة الشؤون الاجتماعية الدكتورة أمال عثمان ، قراراً بحل مجلس ادارة المؤسسة ، وتعيين مجلس إدارة جديد لها ، كان من بين اعضائه النائبة نوال عامر . . وفي بداية عام ١٩٨٦ أصدر هذا المجلس قراراً بمنح المدير العام محمد عبد الرسول اجازة مفتوحة ومنذ شهور صدر قرار بفصله .

(*) «الأهالي» ـ العدد ٢٨٤ من ١٨ مارس ١٩٨٧ .

النفير هنكر يقابل المليارديرعثمان

من المؤكد أن هناك صفات خاصة جداً يحتاجها الانسان لكى يكون مرشحاً فى أية انتخابات ولما كانت الانتخابات من أصول العصر ، ومن سمات الحضارة ومن التقاليد الراسخة للقرون من الخامس عشر إلى العشرين ، فضلاً عما قد يستجد فليس مستحيلاً أن تداهم الواحد منا فجأة ، وعلى غير انتظار أو استعداد ، فيجد نفسه فى تلك الحالة الانسانية الشديدة الخصوصية المسماة بحالة « الترشيح » وهو احتمال شبه مؤكد فى امتنا العربية الواحدة ، ذات الرسالة الخالدة ، حيث يسودها اعتقاد بأن الانتخابات شيء ضرورى جداً ، لكسر الملل الذى يشعر به المحكومون ، حين يرون الأوضاع ثابتة والمشاكل قائمة ، والوجوه التى تظهر عادة فى نشرات أخبار التلفزيون كالأحداث التى ترويها مسلسلاته ، لا تتغير !

ولا بد أن هذا الشعور بالزهق والقرف ينتقل أيضاً إلى الحاكمين فيملون شعوبهم ، لأنها هى الأخرى ثابتة فى مقاعدها أمام التلفزيون تستمع للخطباء أنفسهم وللخطب ذاتها ، وللوعود ذات نفسها التى لم تتحقق منذ

بدأ البث التلفزيونى فلا تغير من جلستها ولا تخل بتتابع تثاؤبها مرة كل ثلاث دقائق وهو الشيء الوحيد الذى لم تبرمج عليه مسبقاً ، كما هى مبرمجة على مواضع التصفيق الحاد ، واطلاق الزغاريد الملعلعة وهز الوسط عند اللزوم .

وهذا التثاؤب اللعين هو الذى يدفع اجهزة البص والتجسس إلى محاولة تأكيد نظريتها الثابتة ، بأن الشعوب كائنات ماكرة تتظاهر بغير ما تبطن ، بدليل تثاؤبها ذى الإيقاع الثابت فى مواجهة السادة المحترمين ، الذين يظهرون عادة فى نشرات الأخبار على قناة التلفزيون الرئيسية مما يعنى أنهم مملون . . وقد وجد البصاص الاليكترونى أن بصمات التثاؤبة الأولى ، تتطابق مع بصمات اغنية « يا ظالمنى » ، أما الثانية فقد تطابقت موجاتها الصوتية مع موجات « اعطنى حريتى . . اطلق يديا » ، وهى من القصائد المكدرة للراحة العمومية . . أما ذلك التثاؤب الأخير ، الذى تفغر الجماهير اثناءه افواهها ، ثم يقول اها ثم أواها ، وتختمه بشخير تدمع معه عيناها . . فإن رادار البص على الجماهير ـ الذى هو ذاته شاشة القناة الرئيسية فى التلفزيون ـ قد ترجمه إلى عبارة « حلوا عن سمانا » وليس بعد هذا دليل على أن هذه الجماهير بنت الستين فى سبعين ، كائنات ناكرة للجميل . . لا يصلح حالها إلاّ ضرب الوطا . . ولا تستحق من مسؤولى الأمن العام إلاّ صك القفا !

فى هذه اللحظة على وجه التحديد يظهر مستشار سياسى ذكى ، يضع عادة بين شفتيه سيجاراً فاخراً ـ وهو أحد الشروط العربية المعروفة لكى يكون الانسان محللاً سياسياً ـ . وبعد ساعتين من المقدمات التى لا أهمية لها يصل إلى مربط الفرس ، وهو أن العلاقات السياسية بين الدول

وبعضها وبين الشعوب وحكامها ، أقرب ما تكون إلى علاقات الزواج . . فيها اقبال وإدبار وكر وفر ، وشوق وملل وقبلات وصفعات ، وهى نظرية يعود الفضل فى اكتشافها إلى المرحوم أنور السادات ، الذى كان يتحدث ذات احتفال باليوم العالمى للمرأة عن تعثر وجمود فى المفاوضات بين مصر واسرائيل ، فأكد أن الأزمة مؤقتة وأن السلام والعدل قادمان ، وخاطب شهود الاحتفال ـ وكن كوكبة من رائدات الحركة النسائية ، متسائلاً :

ـ مش الواحدة منكم ساعات « تِعَتْرس » مع جوزها أو « يعترس » معاها . . وبعد شوية يروقوا . ويَضحكوا؟! . . أهو أنا و «بيجين» دلوقتى مِعَتْرسين مع بعض !

واستناداً إلى ذلك الذى اسلفناه ـ هكذا يقول المحلل أبو سيجار ـ فإن الوضع الحالى على صعيد الجبهة الداخلية ، يتميز بحالة من « العترسة المتبادلة » تتمثل فى ثبات العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، فالأولون يتعترسون على شاشة التلفزيون فيؤخرون عرض الحلقات الجديدة من المسلسل . . والآخرون يتعترسون أمام تلك الشاشة ، ويتثاءبون وينشدون فى سرهم النشيد القومى العربى الجديد « حِلّوا عن سمانا » وهى حالة لا تستدعى كما يقترح رجال البص . ضرب الوطا أو صك القفا . . بل تتطلب كما يقول المستشار أبو سيجار مجرد شىء مثير يعيد الحرارة إلى هذه العلاقة التى قتلتها العادة والتكرار ـ وهو أمر لا يمكن تحقيقه علمياً دون some salt and pepper and democracy يعنى قليلاً من الملح والفلفل والديمقراطية !

آنذاك يهرش المستشار السياسى صلعته ويهتف كارشميدس :

ـ وجدتها . .

فلا تكون تلك التي وجدها هي صلعته ، بل فكرة قرعاء اخرى ، هي اجراء الانتخابات حالاً بالاً . . تطبيقاً لشعار عليَّ وعلى اعدائي . . يا رب .

والعيب الوحيد في هذا الاقتراح الأقرع ، هو النتائج التي تترتب عليه، فبينما المواطن العربي منا ، يسير في حاله ، ويفكر غالباً في ارتكاب جريمة أمن دولة من أي نوع ، يفاجأ عادة بكارثة تهبط على إمّ رأسه ، على شكل قرار تلفزيوني باجراء انتخابات من أي نوع ، ومع أنه يكون على ثقة كاملة ، بأن الهدف من هذا القرار هو صرفه عن التفكير الأحمق في ارتكاب جريمة أمن دولة ، الذي يشكل هو في ذاته « أي مجرد التفكير » جريمة أمن دولة عليا ، وتخفيف حالة التعترس ، التي تجعله يتثاءب تلقائياً ، عندما تبدأ نشرة الأخبار في التلفزيون ، بحيث ينتقل تلقائياً ، وبارادته الحرة ، من التفكير في ارتكاب جناية أمن دولة ، الى التفكير في ارتكاب جريمة آداب عامة « وهو تفكير لا يعاقب عليه القانون العربي ، بعكس غيره من أنواع التفكير » . ورغم علم المواطن منا مسبقاً ، بأن هذه الانتخابات من أي نوع ، ستنتهي بتجديد الثقة في نشرات اخبار التلفزيون على القناتين الأولى والثانية ، إلا أن إقدامه سرعان ما تتعثر في هذا القرار ذي الجاذبية المغناطيسية العالية في وطننا العربي قرار اجراء أية انتخابات على سبيل السمك . . لبن . . ديمقراطية وليس تمر هندي !

ولأنه لا شيء مضمون في هذه الدنيا العربية الواسعة، فليس مستحيلاً أن يجد الواحد منا نفسه ذات انتخابات وقد أصبح ـ لأي سبب أو بدون ابداء الأسباب ـ مرشحا . . وهي حالة يصعب اكتشاف العوامل التي تدفع انساناً بالغاً عاقلاً رشيداً ، متزناً ، للتورط فيها . . أما غير هؤلاء فدوافعهم بسيطة ، وسهلة ومباشرة . . وإلى حد ما

عمليّة . . فهم يستطيعون بالفطرة وبالتجربة ، وبدون سيجار التحليل ، إدراك أن الأمر كله لعبة لكسر الملل ، وأن الحال بعد الانتخابات سيكون هو ذاته قبلها . . لذلك ينغمس بعضهم فى حالة الترشيح ، لأنه لا يجوز أن يصادف الانسان ملعباً فى الطريق دون أن يقذف كرة أوحتى طوبة. فقد يصادفه الحظ الحسن ، فيسدد هدفاً ، فإن طاش فهو لم يخسر شيئاً ، كذلك الأعور الذى ضربوه على عينه فضحك قائلاً : خسرانه . . خسرانه ! .

وعندما سألت صديقى خبير الانتخابات بدهشة تفسيراً لذلك الزحام الذى دفع ٩٣ مرشحاً ، بالتمام والكمال الى التنافس على مقعد واحد فى احدى دوائر القاهرة ، ذات انتخابات ، رفع حاجب الفلسفة ـ وهو عادة الحاجب الأيسر بحكم أن الفلسفة فرع من علوم « العترسة » فى رأى دائرة البص القومية فى الجامعة العربية ـ وقال ان القانون يمنح المرشحين الذين يعملون فى دواوين الحكومة أو القطاع العام ، الحق فى الحصول على اجازة مدفوعة الأجر لمدة ٤٥ يوماً يتفرغون خلالها للدعاية الانتخابية ، وازاء ضآلة الضمان النقدى الذى يدفعه المرشح ، فإن بعض هؤلاء يحسب الفارق بين راتب الشهر ونصف الشهر ، وبين الضمان النقدى، فيفكر على النحو التالى : رجل يتقاضى مائة جنيه « هى اجر الشهر ونصف الشهر » دون عمل ، يدفع منها عشرين « هي الضمان » مقابل عدم قيامه بهذا العمل . . فما مكسبه أو خسارته ؟!! وحلّ هذه المسألة الحسابية البسيطة تنتهى بهذا المواطن غالباً إلى أن يصبح مرشحاً مضمون الفوز باجازة بمرتب كامل . . وهو لا يسمح لحالته الجديدة تلك بأن تعكر صفو اجازته ، التى اخذها ليرتاح ، وليس لكى يمارس تلك الطقوس الغريبة ، التى يمارسها المرشحون عادة . . وتعليقاً على ذلك فإن صديقى خبير الانتخابات نزل

بحاجب الفلسفة إلى مكانه ليتحول بذلك إلى وضع عدم الانحياز ، ويقول :

ـ هذا النمط من المرشحين الفائزين مقدماً بالاجازة هو نموذج دال على مدى الحماقات التى يدفع الملل المواطنين لارتكابها . . إذ المؤكد أنه زهق من روتينية العمل ومن وجه رئيسه ، فقرر أن يستمتع بملل الجلوس إلى زوجته !!

ولا جدال فى أن دوافع عم « ابراهيم هَنْكَر » ـ وهو خفير بسيط فى هيئة قناة السويس ـ لترشيح نفسه ضد الملياردير المتعدد المواهب « عثمان أحمد عثمان » تدعو للتأمل ، فلا شك أن عم « هَنْكَر » يعلم جيداً أن فوزه فى الانتخابات على شخصية عالمية مثل « عثمان أحمد عثمان » أمر مستحيل بكل المقاييس ، وسلوك لا يقل حماقة عن سلوك تلك النملة اللعوب التى القت قفازها فى وجه الفيل ودعته للمبارزة . . ومع ذلك اقبل على حماقته بثبات يدعو للإعجاب ، فما كاد الملياردير يتقدم بأوراق ترشيحه ، فى أول لحظة يفتح فيها باب التقدم بها ، فى مظاهرة قوة ، استهدفت قطع الطريق على من تسول له نفسه التقدم لمنافسته ، حتى كان « عم هنكر » يتقدم هو الآخر بأوراقه ، وبينما الناس يضحكون على ما فعل ويدقون كفاً بكف ، ويتبادلون النبأ ، كان رجال عثمان ـ بناء على تعليمات عثمانية سريعة ـ يبحثون عنه فى كل أنحاء الدائرة لأن سعادة الملياردير يطلب مقابلته . ودهشوا لأنهم ـ بعد البحث الطويل ـ قد وجدوه فى المكان الذى لم يتصوروا أن يجدوا فيه مرشحاً . . كان جالساً امام دركه بالشركة ، واضعاً ساقاً على أخرى ، يشد انفاس نرجيلته فى عظمة ، نافخاً دخانها فى وجه رجال الملياردير ، الذين كان أحدهم يحمل صندوق سيجار أخضر وصل تواً بالطائرة . . لزوم المليارديرية .

وبمنتهى التثاقل ، انهى عم « هنكر » تدخين نرجيلته وصاح فى زوجته ـ التى تقطن فى كوخ مواجه للدرك ـ طالباً أن تغير له ماء « الجوزة » حتى يخطف رجله فيقابل « سى عثمان » ويتفاوض معه فى حكاية « الاستنخاب » ثم يعود لاستكمال المزاج !.

ـ « ولا شك أن الملياردير عثمان كان على حق فى انزعاجه » .

هذا ما قاله صديقى الخبير الانتخابى وقد رفع كلا الحاجبين ـ مما يدل على أنه قد انتقل من وضع عدم الانحياز إلى وضع الحياد الايجابى ـ فلا شيء مضمون فى هذا العالم العربى الواسع ، المتقلب المزاج ، الذى لا تعرف فيه جيداً ، من مع ماذا . . ولماذا ؟ . . وقد تأتى الطوبة فى المعطوبة ، ويعملها الناخبون ـ وهم جزء من تلك الشعوب التى هى عادة أولاد ستين فى سبعين فينتخبون « هنكر » ويسقطون « عثمان » على سبيل التنكيت أو التبكيت ، أو لمجرد أن اسمه الغريب قد اعجبهم ، أو تطبيقاً لنظرية « التغيير من اجل التغيير » وقد يفعلها واحد أو اكثر من اللاعبين على القمة على سبيل شد الأذن ، ثم ان « هنكر » فى الواقع قد كسر حاجز الخوف والهيبة ، وسيشجع ذلك ، آخرين على أن يفعلوا مثله ، فيطمحون لمنافسة الملياردير ، وكأن الحكاية ديمقراطية فعلاً ، وحتى لو لم يحدث ذلك كله ، فيكفى أن يقال أن « عثمان » يخوض المعركة ضد « هنكر » ليكون ذلك اهانة ديمقراطية لا يمحوها إلاّ مسح « هنكر » من قوائم المرشحين واعطاؤه رمز « الاستيكه » !.

وهكذا دخل « هنكر » استراحة الملياردير عثمان معززاً مكرماً ، وجلس معه شخصياً ، وتفاوضا سوياً مقدار ساعة انتهت بأن كتب « هنكر » تنازلاً عن ترشيح نفسه ، وتسلم سبعمائة جنيه ، شوهد بعدها وهو يخرج من باب الاستراحة ، وعلى وجهه فرحة ديمقراطية غامرة !!.

وعمليـة « هنكر » هـذه ، واحدة من العمليـات الانتخابيـة الشـائعـة فالهناكرة قوم ديمقراطيون ، يحترمون الديمقراطية ، ويعرفون أنها تتكون من كلمتين « ديمو » بمعنى « الشعب » و « قراط » بمعنى الحكم ، فمعناها الحرفى هو « حكم الشعب » أما معناها الاصطلاحى فهو « حكم الشعب للشعب وبالشعب » ، أما معناها العربى ، فهو « تجديد الثقـة » و « تكرار البيعـة » بنسبة ٩٩,٩٩٪ وهى النسبة التى تم برمجة الكمبيوتر الـديمقراطى العـربى عليها ، باعتبارها النسبة التى تحوزها سيدتنا أمريكا من أوراق اللعبة .

أما والأمر كذلك ، فـإن « عم هنكر » يفضـل أن يحصل عـلى « حقه ناشف » ، أى بشكل مادى ، يمكن تحسسه ، وليس على شكل وعود مبثوثة تليفزيونياً على الهواء مباشرة ، ولا بد أنه سأل نفسه :

ـ تفتكر يا واد يا « هنكر » عم عثمان ح يزود دخـل الفرد الـواحد فى الدائرة ٧٠٠ جنيه فى الدورة البرلمانية ؟!

ولما أجابتـه نفسه : « مش معقـول » ، توكـل على الله وبـدأ عمليتـه الجريئة !

ولا شك أن هناك دوافع ارقى وأقل مدعاة للفكـاهة لـدى هذا النمط البالغ العاقل ، الرشيد ، المتزن من المواطنين العرب ، الذى يضع نفسه فى مأزق الترشيح ، منها أن الواحد منهم مهموم بمشاكل الكون وهموم الأمة ، ومشغـول بنكبة ١٩٤٨ ، ونكسـة ١٩٦٧ ، وخيبـة كـامب ديفيـد ، وتلوث البحر فى « كامب شيزار » ، وسوء الحال فى المعسكر ـ أو الأسطبل ـ العربى والمؤكد أنه نوع من المرشحين حسن النية إلى الدرجة التى يتخيـل معها أن قرار اجراء الانتخابات يستهدف شيئاً آخر ، غير كسر حالة الملل المشتـرك الذى تعانيه الأنظمـة من شعوبهـا ، والشعوب من انـظمتها ، ويتـوهم أنه فرصة لكى يطرح على الناس ويناقشهم فى مشروعه لإعـادة بنـاء المستقبـل

العربى ، الذى سيكون مشرقاً ـ باذن الله ـ بعد نقطة . . أو نقطتين . . وقد تساوى النقطة شهراً . . وقد تساوى قرناً ، فعلم ذلك عند قراءة الفنجان وضاربى الرمل ، ومنا نحن العرب ـ أولاً ـ عميدهم الانترناسيونالى الأستاذ « الألوسى» ، نفعنا الله ببلورته السحرية ، ولا حرم العرب من مفخرة ـ أو مبخرة ـ المكانة الدولية التى يحتلها ، وفينا نحن العرب ـ ثانياً ـ ممثلهم الشرعى الوحيد ، الشيخ أحمد الصباحى رئيس حزب الأمة المصرى ، ورمزه الانتخابى « الكف » !

ولأن الحَذَرْ لا يمنع قدراً ، فإن يقين هؤلاء السادة المهمومين بمستقبل الأمة ، بأن الانتخابات هى مجرد « سولت انديبير اند ديمقراسي » لا يحول بينهم وبين الاستجابة لاغراء جاذبية هذا القرار المفاجىء باجرائها . . فيقنعون أنفسهم بأن خوضهم لها ، سيقرب فجر الأمة بعد أن طال الظلام ، فيشرق مستقبلها بعد نقطتين : نقطة الانتخابات ونقطة الفوز فيها ببركات بلورة « الالوسى » وكف « الصباحى » .

ويدون وعى تقريباً . . وخطوة بعد أخرى ، يتحولون إلى الحالة الترشيحية ، فيكتشفون أنها تتطلب صفات خاصة جداً ، من بينها :

ـ كف قوية تحتمل الف ضغطة فى الساعة ، وهو معدل مصافحات المرشح المتوسط الشعبية لناخبيه !

ـ معدة تحتمل الف مشروب فى اليوم بين غازى وطبيعى ، وساخن وبارد ومعقم ومزود بالاشعاعات لزوم الاكرام المتبادل بين الطرفين .

ـ مائة ابتسامة مستوردة ليبش بها سيادة المرشح فى وجه كل صاحب بطاقة انتخابية . . على أن تكون من ذلك النوع الذى تصرفه التليفزيونات العربية لمذيعاتها لكى تظهرن بها اثناء اذاعة نشرات « الأخبار السيئة » .

- أقدام وسيقان ومفاصل ، واجزاء أخرى - تتحمل كثرة القيام والقعود والمشى والوقوف والانحناء والاستقامة ، واقتحام الزحام والتسلل منه .

- أذن تتحمل ضجيج المواكب . . وهتافات الحناجر ودقات الطبول ، ولجاج العسس والبصاصين ، وتجيد الاستماع الطويل دون أن تفهم شيئاً !

- حنجرة تقوى على الكلام المتواصل حتى تبح دون أن تقول شيئاً !

والغريب أن هذا المرشح المستقبلى التعيس الحظ ، لا يكتشف الا يوم الانتخاب ، أن نصف هؤلاء الذين صافحهم وشاربهم ، وقام لهم ، وقعد ، وابتسم ، ومشى ، وسمع ، وتكلم ، ليست لديهم بطاقات انتخابية . . وان نصف النصف الباقى ، قد اضاعوا هذه البطاقات يأساً من أن تضيف شيئاً لما هو قائم ، كما أن التقاليد العربية قد جرت على عدم الاعتداد بأولئك الذين يدلون بأصواتهم يوم الانتخابات ، اكتفاء بأصوات الموتى والمهاجرين ، والمنفيين نفياً مؤبداً ، لذلك يقضون يوم الانتخابات ، فى الاستعداد للعودة إلى مكانهم الثابت أمام التليفزيون ، لكى يستمعوا إلى موافقتهم على تجديد الثقة . . وتكرار البيعة ! . .

وبالمناسبة : بينما كان عم « ابراهيم هنكر » يقف امام الاستراحة ، يحصى النقود التى تسلمها مقابل توقيعه على تنازل عن ترشيحه ضد الملياردير عثمان . . هجم عليه مجهولون ، وخطفوا الجنيهات السبعمائة . وما زال البحث جارياً عنهم بمعرفة رجال الشرطة ، عيون العدالة التى لا تنام ، لذلك لا ننام نحن أيضاً !

(*) « الوطن » - الكويتية فى ٣٠ مارس ١٩٨٧ .

ثلاثية عبد الحليم
عدوية / كنكوت

عندما مات عبد الحليم حافظ ـ فى مثل هذه الأيام منذ عشر سنوات ـ كنت هارباً من رجال الشرطة ، الذين كانوا يجدّون فى إثرى ، باعتبارى من المحرضين على انتفاضة الطعام الشهيرة فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ . وكان الطواف بين المخابىء قد انتهى بى إلى شقة بأحد الأحياء الشعبية ، سمعت وأنا أجلس وراء سجاف نافذتها ـ التى تطل على الشارع ـ الفتيات وربات البيوت ، وهن تتبادلن النبأ ، وتتناقلن تفاصيل رحلة المرض الأخيرة ، وتمارسن هواية النميمة على المرحوم ، ثم تعلقن على هذا جميعه ، بسذاجة بنات البلد التى تهز القلب ،وكانت وَصْلة التعليقات تنتهى عادة بأن تقول واحدة ـ هى الست أم عدالات ـ للأخرى :

ـ يا اختى . . أهو ارتاح م الدنيا وبلاويها . . وحياتك تبعتى لى المَيْشَر . . وتجيبى لى علبتين صلصة وانتى راجعة من السوق !

ساعتها قلت : ربنا ينوَّر عليكِ يا ست « أم عدالات » . . فهذه هى الترجمة الدقيقة ـ لأنها العملية ـ التى كنت ابحث عنها لعبارة الفيلسوف

الفرنسى الشهير « فولتير » التى تنص على ان « هناك مـلايين من النـاس فى القبور كان يُظن أنه لا يمكن الاستغناء عنهم » . وماذا يكون « الاستغناء » إذا لم يكن هـذا الحس العملى فى تنـاول وتـداول عبـارات وأدوات المـوت والحياة . . فمهما كـان الميت عزيـزاً والحزن غـلّاباً ، فـإن الحياة لا بـد أن تمضى . . لذلك لا بد أن تقول : ارتاح . وقد تضيـف : واراح . . فذلك هو جزء من عملية استمرار الحياة . . وشعارها . . الثرثـرة . . والمبشرة !

وليس مهماً الآن أين قرأت الست « أم عدالات » اعمال مدرسة التنوير الفرنسية ، ومن بينها اعمال فولتير . . ومن ضمنها تلك العبارة الحمقـاء ، التى نقلها إلى كاتب كبير ، لا يقل حماقة عن كلينا ـ أنـا والعبارة ـ أما المهم حقـاً ، فهو أنها عبـارة تعزيـة ، أى عبارة وظيفتهـا أن تخفف عنـك عبء الحزن ، وأن تقلل من شعورك بالخسارة ، وأن تستدرجك إلى التسليم بمـا لحقـك من مصائب ، والاستسـلام لها . . بـل واكتشاف الجـانب السعيـد فيها . ومعظم عبارات العزاء تتضمن معـانى حمقاء ، سـواء كانت قـائلتها الست « عدالات » أو كان قائلها المرحوم فولتير ، أو كان وزراء الخارجيـة العـرب ، الذين تـدافع معـظمهم ذات يوم فى بـداية السبعينـات إلى منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ليقولوا بألفاظ مختلفة هذه العبارات التعزوية البلهاء :

ـ الحمد لله لأن طائرات اسرائيل العسكرية قد أغارت على مطار مدنى هو مطار بيروت . . فأتاحت لنا هذه الفرصة السعيدة ، لكى نثبت للضمير العالمى انها دولة مغتصبة ومعتدية . . ساعتهـا اكدت « الست عـدالات » ـ التى كانت تشهد الجلسة بصفة مراقب ـ سعادتها تلك بزغرودة طويلة لها ذيل ، انسحب على أثرها « الضمير العالمى » من الجلسة احتجاجاً ، وقال لأول من صادفه :

ـ شوها العمى . . مين خَبَّرهم إن بلّدى اتباتات !!

ولا بد أن هذا « الضمير العالمى » يؤيدنى ضد هؤلاء الحمقى الذين يكتبون الآن وقبل الآن فيقولون ان موت عبد الحليم حافظ قد برّأه من تهمة ظلت عقدة أربعة أو خمسة مطربين ممن ظهروا معه أو بعده منهم : محرم فؤاد وماهر العطار ومحمد رشدى وواحد اسمه عبد اللطيف التلبانى . . ثم انضم إليهم فيما بعد « هانى شاكر » . وقد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله عقب وفاة عبد الحليم حافظ ، مع أنهم ما يزالون يغنون فى أعراس الأمة وحفلات الوطن ، وكباريهات اصدقائنا فى دول حلف الأطلنطى « وهى من دول عدم الانحياز » . وهم لا يرتكبون هذا الغناء لأن الناس تطرب لهم . . ولكن لأن الناس تسعد حين ترد على غنائهم قائلة : يا أهل المغنى . . دماغنا وجعنا . . دقيقة سكوت لله .

والمشكلة أن هذا الكلام الأحمق ، بدلاً من أن يرتدى ثوب الست عدالات ، يرتدى احياناً ثوب النظريات ، فقد قيل أن أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وعبد الوهاب، عقبات فى سبيل تطور الأغنية العربية ، وبعقلية فوائد ضرب مطار بيروت أضافوا : إن وجود موهبة نادرة أو فذّة فى جيل من الأجيال يجعلها اشبه بالقطب المغناطيسى الضخم ، الذى لا يستطيع أحد أن يفلت من مجاله ، فيكرره أو يقلده أو يتأثر به، وبالتالى تفتقد الفنون التنوع المطلوب ، وتقف عن التطور . . وهو كلام يستحق زغرودة تأييد لها ذيل من الست عدالات ، ارفع خلالها رأسى إلى السماء داعياً الله ان يقصف عمر الذى قاله . فقد ماتت أم كلثوم ومات عبد الحليم حافظ ، فلا تقدمت الأغنية ، ولا هى تطورت ولا هى تنوعت ، فلا هىّ اطربتنا ولا هى كفتنا شرها ، وتركتنا نطرب بأثر رجعى ، كما تفخر بأثر رجعى ، حتى أن صديقاً لى أحمق، قد

أرسل آخر طبعة من بطاقة زيارته وقد كتب عليها « فلان الفلانى - عربى - قوة دولية سادسة سابقاً» وقد اعدتها إليه بالبريد بعد أن أضفت إليها : « اسطول سادس حالياً » !

وإذا كان الملحن « محمد الموجى » يرى أن غاية ما تصلح له كل الأصوات التى خلفت عبد الحليم حافظ ، هو أن تجتمع فى فرقة كورال متوسط الأداء ، فإن قضية تعويض ترفعها اذنى امام محكمة العدل الدولية مضمونة الكسب ، خاصة ولدى مستمسكات لا تثبت أن اسرائيل دولة مغتصبة وعدوانية فحسب ، بل وتثبت أيضاً أن دائرة البص القومية فى الجامعة العربية تستخدم هؤلاء المطربين لارهابنا ، حتى ننام وهم يغنون ، فلا نتعاطى تلك الأفكار الشريرة ، التى يحظرها قانون تنظيم الأسرة وقانون أمن الدولة !

والشىء الذى لا يمكن انكاره ، هو اننا نحن العرب ، لم نعد نجد الصوت الجميل الذى نتوحد فيه وحوله ، فقد أصبح عدد المطربين كعدد الوزراء كعدد مشروعات التسوية : كثيراً وقليل الجدوى . وذات يوم فى الستينات غنت « أم كلثوم » قصيدة « أبى فراس الحمدانى » الشهيرة « اراك عصى الدمع شيمتك الصبر »، وفيها بيت يقول : « إن مت ظمآناً فلا نزل القطر ». . ابت الأذن الاشتراكية لأستاذنا المرحوم « سامى داود » - وكان مذيعاً وصحفياً وكاتباً وسميعاً وملكاً من ملوك الكلام - أن تستسيغه . . لأنه يتضمن دعوة صريحة للانانية والفردية والتضحية بمصالح الجموع فى سبيل مصلحة الفرد . . وبهذا المعنى كتب مقالاً طويلاً عريضاً هاجم فيه « أم كلثوم » و« أبى فراس الحمدانى »، والعصرين العباسى الأول والثانى والرجعية العربية . . والصهيونية . . والرئيس الأميركى « جون كنيدى » وزوجته . . وبعد أيام من هذا الهجوم الكاسح خرجت جريدة « الأهرام »

بجلالة قدرها ، بافتتاحية غير موقعة ـ قيل إن الذى كتبها هو « **محمد حسنين هيكل** » ذات نفسه ـ ترد على « **سامى داود** » فتقول إن « **أم كلثوم** » هى أحد معالم القومية العربية ، وان العرب يتوحدون فى الاستماع إلى صوتها فى الخميس الأول من كل شهر ، من المحيط إلى الخليج . . ويبدو أن الملح فى اشتراكية « **سامى داود** » كان زائداً بعض الشىء ، لذلك بدت قومية « **الأهرام** » دلعة . . أما اليوم فقد عُوفينا . . وشُفينا ، فلا « **أم كلثوم** » عندنا . . ولا اشتراكية . . ولا يحزنون . . أى ولا قومية عربية بعد أن أصبح « كله . . على كله . . واما تشوفه قل له » !

أما وقد رأيتك ـ يا عزيزى القارىء ـ فلا بد أن أقول لك . فهذا هو ما كلفنى به الفيلسوف كُلِّ الاحترام « أحمد عدوية » خليفة . « **عبد الحليم حافظ** » ، والتطور والتنوع الذى كان مطلوباً من « **عبد الحليم** » أن يموت لكى يفسح له الطريق . وكما يولد الحى من الميت ، ويولد الميت من الحى ، فقد ولد « **أحمد عدوية** » فى حياة « **عبد الحليم حافظ** » وانتشر وهو فى سنوات تألقه الأخيرة ، بل واستطاع فى عام ١٩٧٥ أن يهزمه فى دورى بيع الاسطوانات ، فارتفعت مبيعات مطرب « السح الدح امبو » عن زميله العندليب الأسمر بنسبة تزيد على ٢٥٪ . . وهكذا تقدم « **عدوية** » من فرد من أفراد الكورس يجلس فى الصف الأخير ، إلى مطرب من مطربى الصف الأول بسهولة تامة لم يتنبه أحد لدلالتها .

وذات يوم كدت أموت من الغيظ وانفجر من الضحك ، عندما صادفت زميلاً صحفياً يجلس فى أحد الأماكن العامة فقدم لى فتاة كانت تجلس معه قائلاً :

ـ الانسة فلانة . . الخطيبة السابقة لأحمد عدوية !

أما الغيظ فلأننى لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة ، أن « عدوية » شىء هام إلى الدرجة التى تجعل انساناً يتمسك بهذه الصلة الواهية به ، أما الضحك ، فقد تخلصت منه بسرعة إذ ما كاد الزميل ينطق باسمى ، حتى تطوعت بوظيفة تلائم المقام قائلاً :

ـ الخطيب السابق لجامع الامام الليثى !

سرعان ما اكتشف جهلى بما آلت إليه الأحوال على جبهة الغناء، بسبب انشغالى التافه بما يجرى على جبهة السياسة ، فقد أصبح « عدوية » فارس الأوان ، ومُغَنِّى الزمان ، وفشل كل الذين لم يعجبهم ذلك ، فى أن يجدوا حائطاً على سطح هذا الكوكب العربى العجيب ، لا يختبىء وراءه « عدوية » فقد انتشر الرجل كألاعيب الساسة ونفاق الصحف وأكاذيب العشاق وعيون البصاصين ، وفَحَّ فى كل مكان ككيسنجر وكالجوع الجنسى ، وكالفقر وكفوائض النفط . . يتصاعد صوته من المسجلات الكهربائية فى الشوارع والدكاكين والبيوت . . فى الزبدانى كما فى الحمرا . . وينقنق فى شارع الرشيد كما ينقنق فى حارة السد الجوانى . .

وبفضل المسجلات حطم الفارس « عدوية » الحصار الإعلامى الذى فرضته عليه محطات اذاعات عربية تحذلقت لجان النصوص فيها ، فوصفت كلمات أغانيه بتدنى المعانى . وابتذال العبارات . . وخنوثة الأداء ، وكان الدكتور « مصطفى محمود » قد وصف صوته مرة بأنه أشبه بفحيح ذكر البط الذى ينادى انثاه للمضاجعة . . أما « نجيب محفوظ » فقد أشار أمامى مرة ، إلى الأصول التاريخية للأغنية التى اشتهر بها عدوية وطار بها صيته ، وهى اغنية « السح . . الدح . . امبو . . إدِّى الواد لأبوه » فقال ان المطلع من تأليف أحد مجاذيب الحسين ، كان يقف فى الشوارع ويعرِّى سوءته وينشده . . لذلك دهشت جداً عندما سمعت ـ أثناء زيارتى لقطر عربى

اشتراكى - صوت « عدوية » يقتحم اذنى من اذاعته الرسمية ، لكن دهشتى تحولت إلى ذهول ، عندما قدم لى مسؤول اعلامى أحمق ، آخر تفسير كان يمكن أن أتصوره لاذاعـة اغانى « عدوية » من اذاعته « التقدمية » فى الوقت الذى تمنع فيه اذاعة القاهرة « التخلفية » . . اذاعتها . . فقد قال :

- انهم يضطهدونه لأنه اشتراكى . . ألا يقول « يا عينى الوله بيعيط . . الـواد عطشـان . . اسقوه » «!!» . . ألم تسمـع اغنيته التى تحلل الصراع « الطبقى » تحليلاً علمياً سليماً . . إذ يقول مطلعها « حبة فـوق . . وحبّة تحت»! . ومن يـومها قـررت أن أضيف الأعمال الكـاملة للريس « بيـرة » - مؤلف اشهر اغانى عدوية - الى مكتبتى حتى لا يفوتنى ذلك التطور الكيفى الكبير الذى حدث فى الفكر الاشتراكى العربى الذى هو نـابع من بيئتنـا ، وليس مستورداً كغيره من الاشتراكيات . .

ولأن الأيام دول . . والدنيا يوم لك . . ويوم عليك . . والفصل الأخير من قصتك . . هو الفصل الأول من قصة غيرك . . فقد كـان منطقيـاً أن يكـون « أحمد عـدوية » هـو خليفة « **عبد الحليم حافظ** » ، وأن يهـزمه فى السنوات الأخيرة من عمـره ، فيفوز عليـه فى دورى بيع الاسـطوانات . . فـالدنيـا كانت تتـطور . ولكن بالمقلوب . . وتتقـدم ولكن إلى الخلف . . وكانت تتموع ولا تتنوع . .

وقد انتشر « **عبد الحليم حـافظ** » . . ولمع . . واحتـل اذاننا وقلوبنـا ، لأنه كان تعبيراً عن مرحلة الأحلام فى حياة الأمة . . التى كانت تنتقل من مجتمع العشيرة إلى مجتمع الوطن ، ومن روح القبيلة إلى روح الأمة ، وتفتح صـدرها للدنيـا ، فتنشىء المصانـع ، وتجيِّش الجيوش ، وتبنى المـدارس ، وتقتحم العالم الواسع بقلب شاعر وعزيمة مقاتل ، وعواطف محب جسور ،

تحلم بالشَّعْر الحرير الذى يهفهف على الخدود ويعود فيطير ، وبتماثيل على الترعة واوبرا ، وتردح للاستعمار هاتفة : قلنا حنبنى . . وادى احنا بنينا السد العالى . . يا استعمار بنيناه بايدينا السد العالى . .

تلك هى موجة الرومانسية الثانية التى ورثت رومانسية العشرينات والثلاثينيات ، وفى الموجة الأولى غنى « عبد الوهاب » اجمل غزليات شوقى بالفصحى والعامية من « جبل التوباد » إلى « يا جارة الوادى » ومن « فى الليل لما خلى » إلى « النيل نجاشى » . وفى المرتين كانت هناك ثورة : ١٩١٨ فى مكة و ١٩١٩ فى القاهرة و ١٩٢٠ فى دمشق وبغداد . . « الأمير فيصل » و « سعد زغلول » و « إبراهيم هنانو » و « عمر المختار » الذى زرعوا رفاته فى الرمال لواء ، يستنهض الوادى صباح مساء . . كان هناك طموح قومى ، أى حلم ، لذلك اصبح للحياة معنى يجمع تفاصيلها العادية والمكررة ، فى شىء مجرد ، وشاعرى ، يمكن أن تغنى له ، فيخفق قلبك ، لذلك ازدحمت خريطة الأمة بالغناء على كل الأغصان : تألق القدماء ، وازهرت شتلات كانت كامنة فى بطن الوطن : « شوقى » و « حافظ » و « جبران » و« بشارة الخورى » و « طه حسين » و « العقاد » و « المازنى » و « مارون عبود » و « الآنسة مى » و « يوسف وهبى » و « روزا اليوسف » و « عزيزة امير » والأخوين « بدر وابراهيم لاما » .

وكان « عبد الناصر » هو أول رئيس عربى ، يستقبل ضيوفه الرسميين ، فى مكتبه الرسمى ، ويظهر معهم فى صورة رسمية وهو يرتدى قميصاً بنصف كم ، مفتوح الصدر . لاردنجوت ولا فراك ولا اسموكنج ولا طربوش ولا رباطة رقبة ، ولا هباب ازرق . كانت الأمة تحطم الشكلى وغير الجوهرى من تقاليدها ومراسمها ، وبهذه الصورة حسم « عبد الناصر »

معركة فكرية مضحكة ثارت فى عشرينات القرن بين انصار الطربوش والمدافعين عن القبعة . . فخلال سنوات قليلة ، اغلقت مصانع الطرابيش ابوابها . . وتدهورت محلات كيها واصلاحها ، التى لم يكن يخلو منها شارع . . ولم يبق منها سوى محل واحد ،ما زال قائماً حتى الآن ـ فى مدخل شارع الغورية ـ صمد فى المعركة ضد الزمن ، ليخدم القليلين الذين صمدوا فيها ، وكان من بينهم « **عبد الناصر افندى حسين** » ، والد « **جمال عبد الناصر** » ، الذى تمسك بارتداء الطربوش حتى وفاته فى نهاية الستينيات . . أما رباط الرقبة . . فلا بد أن عبد الناصر قد قال :

ـ يعنى احنا ناقصين اربطة فى الرقبة ؟!

وهكذا جاء « **عبد الحليم حافظ** » ليعبر عن جيل كان يحلم بفك الرقبة ، ويفتح صدره للدنيا ، وعن امة قررت أن تحلم وأن تتحدى الكبار وان تتحدى نفسها ، فتحقق احلامها . . لم يعد المحبوب مجهولاً يختبىء وراء شجاف نافذة ، أو خلف جدران منزل ، أقصى ما يمكن رؤيته منه هو عيناه ، وهى موضوع الغزل الرئيسى فى اغنيات الموجة الأولى من الرومانسية العربية . . فقد خرجت المرأة إلى المدارس والمصانع والمكاتب والطرقات ، وأصبح ممكناً رؤيتها كلها والحديث معها ، وهكذا تحول المحبوب من مجهول الى معلوم ، يمكن التغزل فى عيونه . . وفى شعره الحرير وقامته الهيفاء وأفكاره الأشد هيافة !

واعجاب « **عبد الحليم حافظ** » المبالغ فيه بـ « **أحمد عدوية** » ـ وقد عبر عنه فى أحاديث صحفية واذاعية كثيرة فى السنوات الأخيرة من عمره ـ لغز يحير بعض المؤرخين وهو لايقل غموضاً وإثارة عن ذلك اللغز الذى لم يحله أحد حتى الآن وهو : لماذا اختار « **عبد الناصر** » « **أنور السادات** » دون كل زملائه اعضاء مجلس قيادة الثورة الآخرين لخلافته؟! ، والإجابة فى الحالتين

واحدة وواضحة وليست فى حاجة إلى ذكاء كبير لاكتشافها، لقد فعل الرجلان ذلك لأنهما يعلمان أننا سنقارن بين كل منهما، وخليفته ويعلمان أن المقارنة ستنتهى بأن نترحم عليهما ونتسامح مع اخطائهما، وهو ما كانت امى رحمها الله تعبر عنه حين اختلف معها، فتدق على صدرها وترد على فلسفتى الفارغة قائلة :

ـ يا ناكرة خيرى . . بكره تعرفى زمنى ومَن زمن غيرى !

. . . .

ولأنه ليس من الحصافة فى شىء أن يقاوم الانسان التيار فقد وجدت نفسى ذات عام أغير موقفى الغنائى فاتحول من « الحليمزم » إلى « العدويزم » واتوقف عن سماع « عبد الحليم حافظ » لأسمع « أحمد عدوية». وسرعان ما اكتشفت أن نقاد الأدب كعلماء الاجتماع قوم متزمتون وثقيلو الظل، لذلك يلوون شفاههم اشمئزازاً إذا ما سمعوا عدوية ويتحدثون عن التجربة المعاشة وخصوصية التجربة وتفرد القاموس الشعرى، وينتهون من ذلك بطرد « عدويه » من فردوسهم المعقد بدعوى أن أغانيه كلام فارغ . . مع أن « عدوية » لا يقصد لهذا كله، ولا تهمه ذاتية التجربة . . ولا المعاشة ولا البغاشة . . وبسبب هذا الضيق فى الأفق فإن أحداً لم يفسر لنا لماذا انضم كل الناس لحزب « عدوية » يرددون أغانيه أو الأغانى التى تؤلف وتلحن وتغنى على منوال مدرسته، وهى اغنيات أصبح « عدوية » رمزها، لكنه ليس صاحبها كلها، والمشترك الأعظم فيها هو انها تتحدث عن « الطشت » الذى خاطب البنت فطالبها بأن تقوم لتستحم، وعن الواد التقيل الذى جننها رغم بالها الطويل، ومع أنه ـ أى هذا الطشت ـ يعجبها، وعن الحياة البَمْبِيَّة وهو بجانبها وهى بجواره، وعن تلك العتبة القزاز التى يتلوها السلم النايلون .

هنا تكمن قيمة « عدوية » ومدرسته . .

إنه مجدد فى اللغة وفى الصور ، وفى التراكيب وإذا كان « ابن مالك » ـ رحمه الله ونفعنا بعلمه ـ قد بدأ الفيته النحوية الشهيرة بقوله : « كلامنا لفظ مفيد كاستقم . حرف ثم اسم ثم فعل الكلم » ، فإن « الفية ابن عدوية » الغنائية تعارض ذلك ومطلعها يقول « كلامنا لفظ غير مفيد ككله على كله . . واحنا اللى دهنا الهوا دوكو والفِلّة في الفانلة . . . وزحما يا دنيا زحمة » .

لغة « بن عدوية » رمز للفراغ أجروميتها اللغوية تقوم على قاعدة استخدام الحروف الأبجدية استخداماً عشوائياً غير عاقل فتضع أى حروف بجوار بعضها لتنتج عنها كلمة تأخذ معناها من أنها لا معنى لها ، ومن المؤكد أننا إذا طبقنا منهج الوضيعين المناطقة على الأعمال الكاملة لمدرسة « بن عدوية » فاعتبرنا الفلسفة مجرد تحليل الفاظ ، فسوف ندخل نحن وهو مستشفى المجاذيب ، لكن الرجل يكره لنا ـ كما تكره لنا مدرسته ـ ان نتفلسف لا بمنهج الوضعيين المناطقة ، ولا بالمنهج الأرسطى لعنه الله ، ولا بمنهج الدياليكتيكيين المتهمين فى دينهم والعياذ بالله ، إنه ـ عدوية ـ يرى أن العقل هو مصدر كل الشرور فى العالم ، وان أصحاب العقول فى جحيم وقد جاء خصيصاً لكى يرحم هذه الأمة العربية التعيسة من شقاء أن يكون لها عقل .

ولأن الفن سلعة فإن عدوية يغنى دائماً فى ظروف التفاريح . . فى عرس أو كباريه . . أو جلسة فرفشة ، إنه يغنى لناس مكدودين ، يسعون فى مناكبها طوال النهار ، يكسبون ويُهلِّبون لديهم تلك الموهبة التى لا يملكها الكسالى والخاملون وناقصو الذكاء من أمثالنا : موهبة تحويل التراب إلى ذهب ، بدهن الهواء دوكو أو بيع الترمواى لصعيدى ساذج ، أو تهريب صفقة

دواجن فاسدة ، أو مُطَعَّمة بالاشعاع النووى على سبيل التقدم التكنولوجى والدخول العربى فى العصر النووى ، هؤلاء هم الوسطاء والسماسرة وتجار الشنطة ، القادرون على دهن الهواء بالدوكو وغسيل الماء، وتعبئة الشمس ، فى زجاجات، ووصف كامب ديفيد بأنها سلام عادل ومشرف. وهم يكسبون كثيراً لدرجة انهم يكسلون عن عدِّ نقودهم، فيبذرونها بلا رقيب أو حسيب ، إلَّا جدنا الكبير خوفو ، الذى ثبت فى العام التالى لوفاة « عبد الحليم حافظ » أنه استعان بمهندسين يهود فى بناء هرمه ، مما يؤكد أنه من مؤيدى كامب ديفيد. وهم يكرهون كل أنواع العقل عقلهم وعقلنا ايضاً ، ذلك الذى قد يوسوس لنا أن نحاسبهم لذلك يصدرون لنا فقيههم ، « ابن عدوية » لكى يثقفنا فيقول لنا بالفم المليان : « الحياة بقى لونها بمبى . . وأنا جنبك وانت جنبى . . » ويحاول اقناعنا بأن « الجو بديع . . والدنيا ربيع » لذلك فمن المنطقى أن يطالبنا بأن « نقفل له على كل المواضيع » .

وهذه المواضيع المطلوب التقفيل عليها ، هى همنا الثقيل : الأمة التى اصبحت شظايا . . والأحلام التى انهارت والطموحات التى توارت ، لذلك اراح عبد الحليم حافظ نفسه ، ومات قبل أن ينتهى عصر أحمد عدوية ليبدأ عصر كتكوت الأمير . . ولو أنه قد عاش عامين ، لشهد ذلك الموكب العربى الذى يشد الرحال كل عام مرتين إلى البيت الأبيض الاميركى ليقف فى وقار شديد يليق بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة . . فينغى :

ـ السح الدح امبو . . الواد عطشان اسقوه !

(*) الوطن فى ٦ ابريل ١٩٨٧ .

الثبات على المبدأ

حذّرنى صديقى من مصير الجاحظ الذى مات فى دكان ورّاق ، كان ـ كعادته ـ قد استأجره ليقرأ كل ما به من مخطوطات . وفى الليل اغلق ابوابه عليه ، وانهمك فى القراءة حتى نام . ولا بد أنه تحرك وهو نائم ، فقذف بذراعه أو قدمه رفوف الكتب دون أن يشعر ، فانهارت اكوامها فوقه وهو نائم . . وكتمت انفاسه . . وكان سبب هذه النبوءة السوداء ، هو اننى جمعت مما يعرضه بائع الصحف ، نسخة واحدة من كل ما صدر فى ذلك اليوم من كتب وصحف ومجلات . وكومتها على رف يعلو مكتبى . . ما كاد صديقى يقترب منه ، حتى اهتز واختل استقراره ، فوقعت الكتب على رأسينا،وهكذا جوزيت على نيتى الطيبة ، بهذه النبوءة السيئة . . مع أننى لم اشتر تلك الصحف والكتب لكى اقرأها جميعها ، ولكن لكى أحول دون تأثير بعضها الضار على صحة المواطنين العرب . وتأثير الآخر ـ الضار ايضاً ـ على استقرار الحاكمين العرب . وهذا سر اذيعه لأول مرة ، حتى تتأكد دائرة البص القومية فى الجامعة العربية ، اننى صاحب أفكار ايجابية

وبنّاءة . . فإذا لم يكن هذا كافياً لاثبات ايجابيتى . . فإننى اقترح أيضاً أن يصدر وزراء الصحة العرب ، قانوناً يفرض على كل ناشر عربى ، أن يكتب على مطبوعاته عبارة : القراءة ضارة جداً بالصحة . . وهى مسؤولية كل قارىء . . على أن تُعفى المطبوعات الحكومية من نشر هذا التحذير ، بحكم أنها تصدر اساساً لكى تستخدم فى اغراض صحية !

ومنذ خمسة عشر عاماً ، كنت استطيع ببعض المجهود ، أن اتابع ما ينشر فى اقطار الأمة العربية من كتب وصحف ودوريات ، وان اختار منها ما أريد قراءته ، وما اكتفى بالقاء نظرة عابرة عليه ، وما يكفينى أن اقرأ عنوانه واسم مؤلفه ، لكى القيه ـ اعنى مؤلفه ـ فى سلة المهملات ، أما الآن ، فقد ازدحمت سلة مهملاتى بعشرات من الكتب والمؤلفين ، لا ذنب لهم ، ولا مسؤولية تستدعى وجودهم فى هذا المكان غير الملائم ، لأن الذنب هو ذنب الأمة ، والمسؤولية تقع على عاتق هؤلاء الذين توهموا أن من أصول الحداثة ، ومن علامات العصرية أن تستورد الأمة افخم المطابع ، وأن تبحث لها بعد ذلك عن اوراق تطبعها ، وعن كلام تسود به تلك الأوراق ، وعن مساكين يؤلفونه ، وعن بؤساء يقرأونه ، أما النتيجة فكانت رواجاً هائلاً فى استهلاك سلال المهملات ، وتقدماً تكنولوجياً مضطرداً فى انتاجها . . وهكذا انتقلتُ من الاهتمام بالبحث عن الجديد من المطبوعات ، الى متابعة التطور التكنولوجى السريع فى انتاج سلال المهملات . وقد أسعدنى حقاً ، اننى عثرت أخيراً على نوع حديث منها ، مزود بفتحات تهوية قرب القاع ، وبجوار الحافة ، وبذلك اتحت لأصدقائى المؤلفين المقيمين بها، اقامة مريحة ، وتهوية صحية ، فكفوا عن التزاحم على البقاء قرب السطح . والأهم من هذا اننى احتطت لنفسى ، فوفرت لها ظروف اقامة طيبة . إذ اكتشفت اننى فى زحمة ما اتلقاه من كتب

ومطبوعات ، كنت قد القيتنى فى سلة المهمـلات ، وهو أمـر لا استبعد أن كثيرين يفعلونه !

أما الذى يُشَيِّب الغـراب ويُهَشْتِك الفيـل حقاً ، فهـو ان هذا الـزحام الخانق من المطبوعات ، يصدر فى أمة ، مـا تزال عـاجزة ـ أو عـازفة ـ عن القضاء على الأمية الألفبائية ، التى تصل طبقاً لاحصاءات الدائرة الثقافية فى الجامعة العربية إلى ٨٠٪. ولا بد أن لسانِ حال الأمة العربية الذى تخرجه لنا نحن الكتاب والصحفيين ، وهى تقوم بمسح زجاج النوافذ بما نكتب ، يقول ما قاله المعلم « دبشة » . . حين قيل له يوماً : انت مـا تعرفش مـين ده ؟ دا ابن توفيق الحكيم !

والأفضل ان نبدأ الحكاية من البداية ، فقد كان المعلم « دبشة » جزاراً ـ أى بـائع لحم ـ يسكن هـو واسرتـه فى منزل مـواجه لشقـة كان المـرحوم اسماعيل الحكيم ـ الابن الوحيد للكاتب الكبير توفيق الحكيم ـ يستأجـرها لكى يقوم هو واعضاء فرقته الموسيقية « البلاك كوتس » بالتدريب فيها على ما يعزفونه من انغام فى الملاهى الليلية . ولأن التجارب كانت تستمر لوقت متأخر من الليـل ، ولأن الفرقـة كانت تستخـدم آلات نحاسيـة ضخمة ، وموسيقى كهربائية عالية الجرس ، فإن المعلم « دبشـة » سرعـان ما ضـاق ذرعاً بما يتسلل إلى منزله من ضجيج ، يحول بينه وبين متابعة المسلسـلات ويقطع حبل المناقشات الممتدة ، التى كان يجريها مع ضيوفه حول التصاعد المستمر فى سوق « العجول » !

وهكذا تتالت محاولات « المعلم دبشة » لاقنـاع اسماعيـل الحكيم . . بأن يخفض صوت الراديو ـ الـذى تبادر إلى ذهنـه أنه السبب الـوحيد لهـذا

الصحيح - وحين لم يهتم الحكيم الصغير بالأمر ، تتالت شكاوى دبشة إلى قسم الشرطة ، الذى أهمل الموضوع . .

وإذ فشلت الحلول السلمية ، وعجزت القنوات الشرعية عن حل المشكلة لم يجد المعلم دبشة مفراً من أن يواجه الأمر بنفسه ، فهجم مع فرقة من عجوله - أى ممن يجتمعون معه للمناقشة فى مسائل العجول - على شقة اسماعيل الحكيم ، لكى يحطم ذلك الراديو المزعج ، الذى يعكر صفوه ، وكانت مشادة ، ارتفعت فيها الأصوات ، وتجمع من أجلها السابلة ، واحتشد بسببها عدد من الجيران ، لكى يفصلوا بين المتشاحنين . . أراد واحد منهم ، اشك فى أنه ممن القيهم عادة فى سلة مهملاتى ، أن يخفف من غضب المعلم دبشة ، وان يعيده إلى صوابه ، فقال له وهو يضغط على قنطرة نظارته الطبية ويتحدث بأهمية مبالغ فيها ، ويشير بسبابته الى المرحوم اسماعيل الحكيم :

- أنت اتجننت يا معلم . . أنت عارف ده مين ؟!

وبَحْلَق المعلم فى وجه اسماعيل الحكيم . . ومع أنه لم يكتشف فيه خطورة ما ، إلاَّ أنه قال بصوت هادىء على سبيل الاحتياط :

- ح يكون مين يعنى ؟!

فقال الواحد بخطورة :

- دا اسماعيل ابن الأستاذ توفيق الحكيم !

وبهدوء أكثر قال المعلم وهو يلهث من أثر المشادة :

- ويطلع إيه الحكيم ده كمان . . مفتش تموين ؟ !

فابتسم صاحب المنظار ، وأعاد الضغط على قنطرة نظارته ، وقال باستخفاف بالمعلم « وعجوله » :

ـ متعرفش توفيق الحكيم . . اللى بيكتب فى الأهرام .

ساعتها فقط ، استرد المعلم انفاسه ، وواصل الهجوم على اسماعيل الحكيم صائحاً :

ـ طظ يا سيدى . . ما بنعرفش نقرأ !

ولأن المعلم دبشة ، هو لسان حال ٨٠٪ من المواطنين العرب ، الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، فلا بد أن هذه الكمية الوافرة من الكتب والصحف ، التى تصدر كل صباح فى انحاء الأمة العربية تصدر لسبب آخر غير أن يقرأها الناس ، ولا بد أن لها فائدة أخرى ، اكتشفها المعلم دبشة نفسه ، حين انحنى عليه واحد من « العجول » التى كانت تحيط به ، وهمس فى اذنه قائلاً :

ـ اسكت يا معلم . . احسن الأهرام تزعل . . وتمنع عنا المرجوع . . نلف اللحمة ف ايه ؟

وهكذا اقتنع المعلم « دبشة » اخيراً أن لتوفيق الحكيم فائدة ، وأصبح علينا نحن الكتاب والمؤلفين ، أن نحدد مقاماتنا طبقاً لمصائرنا ، وهى تتوزع عادة بين سلال المهملات ، ومسح الزجاج ولف اللحوم ، أما المطبوعات الرسمية ، فهى وحدها التى تصدر خصيصاً من اجل اغراض صحية ! . ومنذ سنوات شكا لى صديقى الكاتب اليمينى المعروف « محمد الحيوان » ـ نائب رئيس تحرير جريدة الجمهورية القاهرية ـ إن كاتباً يسارياً معروفاً من أصدقائى ، يضطهده ، ويرسل له نسخة من أحد كتبه يومياً ، ولم أصدق الواقعة ، فسألته عن التفاصيل ، فقال لى أنه يدخل كل صباح إلى مكتبه ، فيجد نسخة من الكتاب على سطحه ، فيلقى عليه نظرة عابرة ، ويلقى به الى سلة المهملات ، ثم يعود فى الصباح ، فيكون أول شىء يقع عليه بصره ، هو الكتاب ذاته ، فيعود ويلقى به إلى

سلة المهملات ، ولأن « الحيوان » ـ على العكس كثير من الكتاب اليمنيين ـ لا يعتبر يمنيته عاهة ولا يخجل منها ، ولا يحاول ـ كما كتبت مرة عنه ـ أن يلبس طاقية ثورة يوليو ، ولا قميص عبد الناصر ، فقد اهتممت بالأمر ، وتابعت تفاصيله ، وشاركته فى رسم خطة متقنة انتهت بحل اللغز ، واكتشاف أن المجرم الأثيم ، هو ساعى مكتبه ، الذى تعود أن ينظف المكتب بعد انصراف « الأستاذ الحيوان » فيجد فى سلة المهملات كتاباً جديداً ، فيبادر إلى ذهنه ، أنه قد سقط فى السلة سهواً ، فيضعه فى مكان بارز على سطح المكتب . . وحين شاركت صديقى الأستاذ الحيوان فى تعنيف الساعى . . صاح فينا بعصبية :

ـ يعنى غلطتى أننى افتكرت الأستاذ الحيوان بيقرا ؟!

ومنذ اكثر من عشر سنوات وفى ندوة عقدت ببيروت ، وحضرها جمع غفير من الكتاب والأدباء والمؤلفين ، صرخ يوسف ادريس معلناً أنه يئس من الكتابة ، وأنه سيطلقها بالثلاثة ، شافعى ومالكى وأبو حنيفة ، بعد أن اكتشف أن الأمية الألفبائية فى أقطار الأمة تزيد عن ٨٠٪ ، وأن اعظم كاتب عربى لا يطبع من أعظم كتبه فى المرة الواحدة اكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف نسخة ، وهى نسبة لم تزد كثيراً . رغم أن العرب قد زادوا من ٨٠ مليوناً إلى ١٦٠ مليوناً ، ورغم أن عدد المطابع قد تضاعف عشر مرات ، وتضاعف عدد البصاصين اكثر من مليون مرة ، ومع أن عدد الجامعات العربية قد تضاعف عشر مرات ، ومع أننا دخلنا عصر الكمبيوتر ، إلاَّ أن ضباط الجوازات قد تضاعفوا مائة مرة ، واصبح من بين مهامهم القومية ، أن يحظروا دخول الكتب ويتغاضوا عن الويسكى ، وهذا دليل على سعيهم الدائب من اجل اراحة العقول العربية من تعاسة القراءة ، وحماية الأمة من المصير المفجع الذى انتهى إليه صديقنا المرحوم « الجاحظ » .

ومع أن الأمة قد شهدت ثورات، وثورات ضد الثورات ، وتغير كل شيء فيها ، إلاَّ أن نسبة الأميـة ظلت ثابتـة ، وهو نمـوذج فذ للثبـات على المبـدأ ، لا يضاهيـه ، إلاَّ ذلك الثبـات على عتبـات البيت الأبيض ، ربما لنفس السبب ، فالقراءة ـ كما ثبت علمياً ـ تضعف البصر ، وتشوه المظهر ، بل ان هذا الرجل المسكين المسمى بالجاحظ ، قد جحظت عيناه من فـرط الانهماك فى القراءة . . ولذلك فإن ثبات نسبة الأمية، هو عامل الاستقرار الـرئيسى فى دول المنطقـة ، ولولاه ، لكنـا جميعـاً نحن العـرب ، نسـير فى الطرقات ، وعيوننا جاحظة إلى الأمام . . فماذا يفعل البصاصون إذن ، إذا اصبحنا جميعاً على هذه الحالة القومية غير الجميلة ؟!

(*) « الوطن » الكويتية فى ١٣/٤/١٩٨٧ .

الحالة سابقاً ..

لا أدرى هل هو من حسن الحظ أم من سوئه ، أننى لم أعرف فى حياتى - حتى الآن - مسؤولاً أو صاحب سلطة ، إلاَّ بعد أن أصبح اسمه المهيب ، ومنصبه الخطير ، مسبوقاً بصفة « سابق » اعنى بعد أن أصبح مسؤولاً . . . « مش مسؤولا » .

ولا بد أن من أسباب ذلك ، إعجابى الشديد بعبارة « مكسيم جوركى » الشهيرة « جئت إلى هذه الدنيا لكى اعترض » . .

ولما كان هؤلاء المسؤولون - حال كونهم يحملون هذه الصفة - هم موضع هذا الاعتراض ، فإن مناسبات التلاقى السعيدة لم تتهيأ . . . وظروف التعارف الوطيد لم تسنح . مع اننى ظللت ببلاهة شديدة ، اتخيل « ان اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » ، واتوهم أن هؤلاء المسؤولين - حال كونهم كذلك - يهتمون بالاعتراض ، ويسعدون بالنقد ، ويستفيدون من أفكارى الحمقاء !

واكثر الخسائر التى منيت بها نتيجة لهذا الموقف « الجوركوى »

المؤسف، هـو انني حرمت من أن أعـرف عن قرب ، هـذا النمط البشرى المسمى بـالمسؤول أو صاحب السلطة ، وهـو فى أوج عـظمتـه ، وفى قمـة تألقه ، تتلألأ حوله اضواء الكاميرات ، وتتزاحم عليه مسجلات الصحف والاذاعات ، وتتضارب المواعيد فى مكتب سكرتاريته ، وهى خسارة بدت فداحتها مؤلمة ، حين عرفت هذا النمط ذات نفسه ، وقد فقد ذلك جميعه ، فأصبح مسؤولاً سابقاً غلباناً . . لا تـظهر صـورته فى صحيفـة ، ولا يدق جرس الهاتف فى منزله ، أما الذى يبعث عادة على ضحكى فهو أن المسؤول من هؤلاء ما إن يصبح فى « الحالة سابقاً » حتى يتحول فجأة إلى « معترض » ويتخذ هذا الموقف « الجوركوى » المؤسف ، وساعتها تتهيأ الظروف لأمثالى لكى يعرفوه ، ويلتقوا به ، ويتناقشوا معه ، وهو ما يحدث عادة فى سجن أو معتقل ، أو فى حفل نميمة سياسية ، أو على شط بحر الهوا الذى ترسو عليه دائماً ، مراكب المسؤولين حين يصبحون فى الحالة « سابقاً » !

« والحـالة سـابقاً » هى واحـدة من حالات « الكـرب الشديـد » ومن علاماتها الظاهرة ، كثرة الاحالة على الماضى واستدعاء احداثه مع كل حدث جديد على سبيل المقارنة ثم المفاضلة ثم التحسر على ما فات . وذات مـرة قال لى واحد من هؤلاء « السادة سابقاً» فى لحظة صدق نادرة، أنه لا شيء الذ فى هذه الدنيا من « السلطة » لا الخمر ولا النساء ولا الثروة ، ولا القمار ، ومع انني توقفت برهة أمام مجتمع اللذات المحرمة الذى اختاره للمقارنة ، إلّا أن حالته استدعت على الفور ذلك المشهد الفولكلورى الذى لا بد وانك شاهدته فى أفلام ومسرحيات كثيرة ، مشهد التليفون الأميرى وهو يخرج من دار العمدة ـ المختار ـ المعزول إلى دار الخلف الصالح، يحمله شيخ الخفراء فوق كفيه باحترام وعظمة ، كما يليق بالممثل الشرعى للحكومة وبتقـدم به نحوها وخلفه نساء دار العمودية السابقة تولولن بالصوت الحيـانى . . بينما

نساء دار العمودية الجديدة ، تستقبلنه « هذا التلفون المحظوظ » بالزغاريد « الملعلعة » باعتباره رمز السلطة ، ورحيله هو انتقال للحالة سابقاً ، وهى اشبه بالانتقال من الحياة إلى الموت ، لذلك تختلط ـ فى موكبه ـ أصوات الندابات بصاجات الراقصات !

وإذ تذكرت الوضع السلطوى المميز الذى كان يشغله صديقى ذاك «السابقا» ، دهشت كيف استطاع شيخ الخفراء أن يحمل على كفيه عشرين تلفوناً وثلاثة تلكسات وقطعة من القمر الصناعى ، وجهاز البص القروى ، وفرع جهاز البصبصة القطرى ، وسلك الاتصال بالبصباص القومى وهى بعض الرموز الحكومية القليلة التى كان يحوزها قبل أن يصبح سابقاً مسكيناً ، يتوجع على ايام العز التى ولت امام صعلوك مثلى ، كانت نفخة واحدة منه فى الزمن الذى ولى كفيله بأن يتسرب مع الهواء الفاسد الذى يشفطه مكيف الهواء فى المرحوم مكتبه !

والظاهر أن المرحوم مكتبه ، والمرحوم تلكسه والمأسوف على شبابهم تليفوناته على عكس ما نتخيل نحن البشر العاديين اشياء مهمة ، تزداد اهميتها حين تصبح « الحالة سابقاً » ؛ آنذاك تأخذ دلالات وثنية حتى لو لم يهتم لها صاحبها قبل أن ينتقل إلى تلك الحالة المؤسفة والمضحكة ، وهذا ما ترصده أمثال شعبية عربية كثيرة تتخذ كلها من فترة الحكم التركى موضوعاً لتشخيص الحالة سابقاً . ومن أشهر تلك الأمثال قصة ذلك السَّنْجق التركى الذى عزلوه وحرموه من لذة الأمر والنهى ، والتحكم فى خلق الله فباع ما تبقى من علامات السَّنجقة واشترى عدداً من القلل الفخارية وملأها بالماء ووضعها على منضدة بميدان عام منشئاً بذلك سبيلاً عاماً يرتوى منه العطاشى من السابلة ، فإذا ما اقترب منه أحدهم ، أو جماعة منهم ، اتخذ على الفور

هيئة المنظم ، المعروف فى الفكر الاقتصادى الرأسمالى وأخذ يصرخ فى هذا : « سيب القلة دى » . . وفى الآخر : اشرب من القلة اللى على اليمين ، ولا شك أن هذا الانتقال من رمز التلكسات الانترناسيونالى إلى عهد القلل القناوى كاف لاثبات أن الحالة سابقاً هى من حالات الكرب الشديد .

وقد تطول هذه الحالة بمناورة سياسية بارعة ، كان من ابرع ما شهدته منها، واقعةالادخار السياسى ، فقد حدث فى أول انتخابات عامة اجريت فى مصر ـ بعد اعتماد الاتحاد الاشتراكى كحزب وحيد فيها ـ أن استشعر المسؤولون الحرج من ترك اعضاء الاتحاد يتنافسون فى الانتخابات ، فوضعوا ترتيباً تقدم بمقتضاه الراغبون فى الترشيح إلى قيادته برغباتهم ، فاختارت قائمة منهم ، وألزمت الباقين بألا يتقدموا للترشيح ، وبهذا تخلصت القيادة من حرج أن ينافس الحزب نفسه ، لتواجه بحرج آخر ، إذ ما هو التفسير الذى يمكن أن تقدمه للرأى العام، ولهؤلاء الذين لم تقبل الطلبات التى قدموها لترشيح أنفسهم ، تبريراً لرفضها ، والمفروض أن الكل أعضاء فى حزب واحد ، وأنهم على قدم المساواة فى الاخلاص والانتماء . . . آنذاك استشار مسؤول رسمى تلكسه ، وتخلص من هذا المطب ، بأن أعلن ان الاتحاد ، لم يرشح هؤلاء انتقاصاً من قدرهم ،أو طعناً فى اخلاصهم ، فالمقامات محفوظة ، والاخلاص وافر وفائض عن الحاجة ، ولكن اللجنة التى فاضلت واختارت ، قررت أن تقبل بعض الطلبات ، وأن تدخر بعض الأشخاص ، لأدوار اخرى قادمة إن شاء الله ، قد تكون الوزارة ، وقد تكون الادارة ، وبهذا التبرير الفكه ، صمت الذين لم يصبهم الدور ، ورضوا ، أملاً فى أن يخرجوا يوماً من الظل إلى النور ، والعجيب أن بعضهم ما زال فى دفاتر الادخار حتى اليوم !

وفى مرحلة الادخار هذه ، لا يكف صاحب الحالة سابقاً عن ممارسة بعض المناورات والألاعيب ، لعله ينتقل من حالة الممنوع من الصرف ، إلى حالة الصرف الفورى . . . ومن بين هذه الألاعيب والمناورات ، إرسال برقيات التأييد ، وممارسة الحق الانتخابى ، والبحث عن صحفى يريد انتزاع علاوة لا يستحقها باجراء أحاديث لا معنى لها مع شخص مقيد فى دفتر التوفير السلطوى . . . المهم أن تظل الأضواء مركزة على اسمه ، حتى يتوفى ذلك المصير الأسود ، فينتقل من دفتر التوفير إلى دفتر الأموات . . . وهو ممنوع من الصرف!

وقد عرفت مسؤولاً سابقاً ظل مقيداً فى دفتر التوفير الحكومى أكثر من عشر سنوات ، وعندما لفت نظره يوماً إلى ترهل جسده وتضاعف وزنه قال لى بأسى : أنا مدخر منذ عشر سنوات ، فأحسب الفائدة بالربح البسيط وليس المركب وستجد أننى اقوم بريجيم قاس ، ولولا ذلك لكنت قد انفجرت ، أما سائقه فقد شكا له ذات مرة ، من أنه يجبره على ممارسة أنشطة ليست من مهام منصبه ، من بينها أنه ما يكاد يصل به إلى أية دائرة رسمية حتى يكون عليه أن يترك مكانه كقائد للسيارة لينزل مهرولاً وعلى وجهه علامات الأهمية فيهمس بخطورة فى وجه حارس الدائرة ، وهو غالباً جندى شبه امى : سيادة الوزير فلان الفلانى ، فيرتبك الحارس من المفاجأة ولا يجد الوقت الكافى لكى يستعرض فى ذهنه اسماء الوزراء السابقين والحاليين ويكتفى برفع كفه إلى جبهته ودق الأرض بقدمه ، ويترك السيارة تمر . . بينما تنفرج شفتا صديقى الحالة سابقاً ، ويتذكر أيام المجد التى ولت !

ومن الخطأ البالغ أن يتصور أحد أن التكيف مع « الحالة سابقاً » يتم

بين يوم وليلة ، وان المسؤول من هؤلاء ، ينتقل من حالة المسؤول إلى حالة المش مسؤول دون مقاومة ، أو اعتراض ، إذ الحقيقة أن الاستسلام التام للحالة يحدث تدريجياً ، ويتم خطوة بعد أخرى ، فالأمل فى استئناف الحكم الصادر بتحويل الانسان من تلكس إلى قلة . لا يغيض ، إلا بعد مرور شهور وسنين ، والحلم بأن يقطع شيخ الخفراء الطريق فى الاتجاه المضاد لا يتوقف ، والأمل فى أن تلعلع الزغاريد عندنا ، وتتعالى الصرخات عندهم لا ينقطع . . . وهذا يتطلب شيئاً من الحكمة ، وقليلاً من الصمت ، يعقب عادة ذلك الموكب الهاتفى التلكساوى ، الذى يختلط فيه هز الخصور بلطم الخدود ، ويسبق بكثير تلك الحالة القُللية القناوية ، وتلك هى المرحلة التى يكتفى فيها المسؤول السابق ، بأن يقابل امثالنا من المرضى المزمنين بالحالة « الجوركوية » بابتسامة لا معنى لها ، فلا هى تأنيب ، كما يحدث عادة فى اللقاءات السابقة على الحالة سابقاً ، ولا هى ترحيب ، كما سوف يحدث حين تنقطع حبال الأمل ويتضح أن التلكس قد ضاع إلى الأبد !

وحين تفشل كل المناورات ـ ومن بينها اطلاق الإشاعات قرب كل تعديل وزارى أو سياسى عن عودة مظفرة قريبة وخروج من دفتر التوفير ـ لا تجد الحالة سابقاً ، أمامها مفراً من أن تفعل ذلك الذى فعله بطل قصة « طبلية من السماء » ليوسف ادريس . . وهو قروى فقير جائع ، لا يهتم به أحد فى القرية يتعامل الجميع معه وكان فقره وجوعه ظاهرة طبيعية ومنطقية ، بل وتدعو للفكاهة ، فهو فى رأيهم رجل طيب مبارك . . لكنهم ليسوا مسؤولين عنه .

وذات يوم فقد الرجل صبره ، وأزعجه تبلد هؤلاء الأثرياء الضاحكين

اللاهين ، الذين يذهبون إلى الجامع فيصلون وفى رمضان يصومون ويقومون ، دون أن يعنيهم جوعه فى شيء ، وهكذا اختار أن يبتزهم بطريقته فصعد إلى مئذنة الجامع ، وهددهم بأنه سيعلن كفره حالاً بالاً ، وسيتطاول على مقام الذات الإلهية ، إذا لم يطعموه ، وأن مسؤولية كفره والحاده ستقع على عاتقهم ، وأن الله عزَّ وجلَّ سيحاسبهم ولن يحاسبه ، لأنه يكاد يموت جوعاً بينما يكادون يموتون تخمة ، وفى ثوان كانت القرية كلها قد خرجت عن بلادتها . . وتدفقت الخيرات تحت المئذنة ، خبز ولحوم وخضروات وفواكه . . وكل ما تشتهيه الأنفس . .

والجميع يرجونه ويتوسلون إليه ، أن يؤجل اعلان كُفْره وأن يتكرم ويتنازل ويترك المئذنة لكى يشرفهم بتناول الطعام معهم

وقد كان !

وهكذا يأتى اليوم الذى تعلن فيه « الحالة سابقاً » ضيقها بالبقاء المستمر فى بنك المسؤولية فرع الادخار الطويل الأمد ، فتبدأ بمغازلة المعارضين والحديث مع الرافضين واستعارة اعمال مكسيم جوركى من المكتبات العمومية وتنتقل من « التلْسين » فى المجالس الخاصة إلى « التلسين » في المجالس العامة ، ثم تستخدمنا نحن الصحافيين لكى تطالب بطبلية حكومية ، فتعلن معارضتها لكامب ديفيد ولاتفاقيات الصلح المنفرد ، وتدين الترتيبات الأمنية فى سيناء ، وتحلف برأس المرحوم الوالد ، أن المشروع القومى هو الذى سينتصر على مؤامرات التجزئة وا لتفتيت ، وان يوم الجماهير الشعبية قادم لا محالة ومهما كره الكارهون .

والذى يحدث عادة أن مسؤولاً ماكراً يستشير تِلِكْسه فيكتشف أن الحالة سابقاً قد ضاقت بالبقاء الطويل فى دفتر التوفير ، وأنها لا تريد الانتقال من

التوفير الـدنيوى إلى التـوفير الأخـروى ، قبل الاستمتـاع بفترة اخـرى من الجلوس على ذلك الكرسى المريح ـ فيما يبدو ـ جداً كرسى السلطة. وان كل أملها فى الحياة هو ان يتكرم السيد شيخ الخفراء بالعودة من حيث أتى ، وأن تتبادل مصادر النواح والزغاريد اماكنها وان الاضـرار التى تترتب عـلى عدم الاستجابة لهذه الرغبة المشروعة جداً ، وان كـان يمكن تحملها إلاّ أنـه من الأفضل تجنبها.وهكذا تبدأ الاتصالات بالحالة سابقاً فى مـوقفها ذاك بـأعلى المئذنة ، وعيب يا « حالة » وما يصحش. . دا احنا دافنينه سوا . . أنت مش كنت معانا لما وقعنا اتفاقية سيناء الثانية سنة ١٩٧٥ . . ايه بس اللى جرى يا « حالة » ؟! .

وبعد قليل من الوقت تنزل الحالة سابقاً ، من فـوق المئذنـة . . وتبدأ المفاوضات .

وفجـأة تختفى كتب مكسيم جـوركى من بيـوتهم ، وحتى بـطاقـات الاستعارة التى حرروها لدور الكتب العمومية ، وتتضمن اسماء هذه الكتب تختفى هى الأخرى بقدرة قادر ، وتعود ابتسامة التأنيب لتحتل وجوههم إذا ما قابلوا امثالى ، من الجوركويين العرب . . ويكفون فجأة عن انتقاد كامب ديفيـد ، لأنها اصبحت واقعاً ينبغى التعـامـل معـه بـذكـاء اكـثر ، وليس بديماجوجية جوركوية . . . لأن المهلبية الذ .

وذات صبـاح تنشر الصحف اسماءهم وصـورهم . . وهم يتقـدمـون موكب شيخ الخفراء ، الذى يحمل بين كفيه بوقار واحترام حضرة صاحب السعادة تلكس جناب العمدة !

وبذلك تنتهى الحالة سابقاً !

(*) الأهالى ٢٢ ابريل ١٩٨٧ .

وداع رسمى لرجل مصاب بداء البوح

يلفنى عادة شعور غامض ، كلما شممت تلك الرائحة القوية النفاذة التى تستقبلنى حين أدلف إلى ذلك الممر الطويل فى ابهاء أى مستشفى ، فلا أعرف إن كانت تجذبنى أم تطردنى . . فلا أنا راغب فى التقدم ، ولا أنا قادر على التراجع . أمر على غرف مغلقة على موجوعين ومعذبين ومتألمين ومتأرجحين بين اليأس والرجاء وبين الرغبة فى الخلاص والشوق إلى الفناء . . اتذكر تلك الليلة التى جلست فيها اتلقى العزاء فى ابي ، فى سرادق اقيم على ارض « الجرن » فى ظاهر قريتنا ، والليلة صيف ، وزحام المعزين قد خف فلم يبق إلاّ الذين أبوا أن يتركونا ننفرد بأحزاننا . .

وحين تنحنح الشيخ إبراهيم أبو حسين ـ أشهر قارئى القرآن فى بلدتنا ـ استعداداً لقراءة ربع القرآن الكريم . . قال واحد كان يجلس بجوارى :

ـ خاصمك النبى . . إن لم تقرأ سورة « الشعراء » «!» .

ويبتسم الشيخ ابراهيم ابتسامة فيها من العتاب قدر ما فيها من السرور. ويصلى على حضرة النبى ويهز رأسه معلناً استجابته للطلب، ثم يتربع فى جلسته ، وينساب صوته يستعيذ ويبسمل . وأحاول أن استنتج السبب الذى دفع جارى لطلب هذه السورة على وجه التحديد ، فلا تسعفنى الذاكرة. واستخبر النجوم التى كانت تطل علينا ونحن جلوس فى أرض الجرن : فيها يدرسون القمح ، ويقيمون المآتم . . ويحتفلون بطهور الأولاد وبزواج البنات ، ويستمعون إلى خطب المرشحين فى الانتخابات ، وفيها طاردت الزنابير ، وأنا طفل ، وفرطت كيزان الذرة ، وشاهدت دراس السمسم فما اجدرها بأن تسمى « ساحة الدنيا ». أما الآن ، فلا النجوم أجابتنى ولا أحد ممن حولى ، فقد صمت الجمع تماماً : لا آهة استحسان ولا طلب اعادة ، ولا « يا سلام يا سيدنا الشيخ الله يفتح عليك » ولا صوت نفس يتردد . . حتى الضفادع والجنادب التى كانت تصر فى بداية الليل صمتت هى الأخرى، والقطة التى تسللت بين اقدامنا ونامت تحت مقعدى ، تدير عينيها بين الوجوه كأنها ترى عجباً وبدا كأن كل واحد من هذا الجمع الشاخص إلى الشيخ إبراهيم قد رحل إلى عالم غير العالم ، وإلى دنيا غير الدنيا . . كأنه ـ وحده أو مع الآخرين ـ قد اقتحم نفسه . سبح فى شرايين قلبه . نظر فى انسان عينه . لحظتها بالتحديد كان « الشيخ إبراهيم » يقرأ بالسبع قوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ **الذي خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ ثم يتوقف عند الآية الأخيرة ليقرأها بكل القراءات . بصوت مشحون تتصاعد طبقاته وتخفت وتختنق وتمتد وتتوسل وتقصر ، ينساب فى ظلام الليل الصامت الذى يلفنا ، ويعود إلينا

رباعياً : صوت الشيخ وصوت مكبر الصوت . . وصوت الصدى . . ودقات القلب التى لا أدرى كيف تأتّى لها أن تكيف إيقاعها مع إيقاع الصوت !.

وحين أُتيح لى مع أول خيوط الفجر أن استوعب ما حدث ، أدركت ـ ربما لأول مرة ـ لماذا يتوحد الناس مع ملحمة أيوب المصرى،ذلك الجميل القوى النقى . . ولماذا يتعاطفون مع أوجاعه التى استمرت سبع سنوات ، تغيرت فى أولاها حالته وجفاه فى آخرها الكل حتى امه وأبيه ، فحملته « ناعسة » فى قفة من الخوص المجدول ، وهاجرت به.وتذكرت تلك المشاعر الغامضة التى تنوشنى وأنا استقبل رائحة المطهرات التى تنتشر من ابهاء المستشفيات ، والح على سؤال مفاجىء :

ـ لماذا يسمى الناس فى قريتنا المستشفى « الأشلة » ؟ . . هل هى كلمة تركية . . أم فارسية ؟ . . وما هى ترجمتها الدقيقة ؟ .

وبعد بحث طويل فى المراجع والقواميس وحوار مع المتخصصين والمعمرين عرفت أن الكلمة عربية وأن أصلها هو « الاشلاء ».وصدمنى الاسم . وأدركت أن المستشفى اقترنت فى اذهان الناس بالموت فى الغربة . يدخلونها على أقدامهم ويعودون منها اشلاء أى اعضاء ميتة . لا يودعون الحجرات التى عاشوا فيها نصف اعمارهم ، ولا يرون بأعينهم ـ قبل أن يسبلها ملاك الموت ـ اشياءهم التى احبوها والفوها ، ولا يتزودون بنظرة من الناس الذين امتزجت دموعه بدموعهم . وكان الاسم كتلك الرحلة العجيبة التى قمت بها فى شراييني وأنا اسمع الشيخ إبراهيم أبو حسين يتلو بكل القراءات تلك الآية من سورة الشعراء ، كذلك الاحساس الذى ينوشنى كلما استمعت إلى أيوب المصرى تعكس

جميعها رعباً من العجز . . ورفضاً للضعف ، واحتجاجاً على نقص كمال الانسان . . ومقاومة للفناء !.

أما الذى حدث فهو أننى كنت جالساً اقرأ والليل قد جاوز منتصفه ، حين دق جرس التلفون ليقول قائل :

اتصلوا بى الآن من موسكو عبد الرحمن الخميسى انتقل الى المستشفى ودخل غرفة الانعاش .

مهوناً على نفسى وعليه . . قلت برنة تمن :

ـ قديمة . . دخلها فى العام الماضى وخرج منها . . « القديس » كالقطط بسبعة أرواح !.

كمن يبدأ رحلة داخل شرايينه قال :

ـ أرجو ذلك . . لكن الأطباء فقدوا الأمل !.

واصلنا الحديث . . لكن كلانا كان قد بدأ رحلته فى شرايينه.طرت إلى الجرن ومأتم أبى وتصاعد صوت الشيخ « إبراهيم أبو حسين » من مكان ما . ولم أعرف متى انتهت المكالمة.وفكرت فى ان اسأل عن واحد يترجم لى كلمة « اشلة » إلى اللغة الروسية . وان احقق الظروف التى اطلق فيها لقب « القديس » على « عبد الرحمن الخميسى » .

الآن تستحق آخر لحظة رأيته فيها قبل عامين الا تنسى : وجدته فجأة يقف خلفى وأنا اسلم مفتاح غرفتى لموظف الاستقبال فى فندق باب البحر بطرابلس الغرب قال :

ـ ياخاين اتمشى دون أن تودعنى

احتضنت قامته العملاقة وتذكرت احضان أبى ، وضع كفه على منكبى وتفرسنى لحظات قلت:

ـ انشوفك فى مصر باذن الله يا قديس ، اجابنى : انت بتلبس قمصان نمره كام ؟

اربكنى السؤال خاصة وأنا لا أعرف له جواباً ، بنظرة سريعة اجاب بنفسه على سؤاله ، وأضاف :

ـ ح ابعت لك قمصان من موسكو .

ولم أدهش كثيراً حين وصلتنى القمصان فعلاً مع أول صديق يعود من هناك ، فهذا هو القديس ،حنون بشكل لا يوصف،لأنه حنان شفاف لا يُرى . . يهتم بتفاصيل الحياة الصغيرة شأن كل فنان عظيم ، مهتم بالآخرين ، ككل عاشق مندفع متوهج العواطف ، لا يحسب لدقات قلبه مسار خطواتها لأنه لو فعل لتوقف القلب عن الخفقان ، ولأنه عاشق من النوع الذى لا يرتوى.فقد كان دائماً تواقاً للتواصل مع الآخرين وكان موهوباً فى مصادقة كل انماط البشر : العظماء والصعاليك . والصحفين والباعة السرَّيحة ، ورؤساء الدول وبوابى العمارات . والوزراء وخفراء الدرك.لذلك ازدحمت حياته العريضة بآلاف من البشر عرفهم وهو يعمل بمهن كثيرةوغريبة :قاطع تذاكر فى حافلة عمومية ، وبلياتشو فى سيرك . . وممثل فى فرقة جوالة ومذيع وصحفى وشاعر وممثل ومخرج مسرحى وصاحب فرقة مسرحية ، ومؤلف موسيقى ومنتج وممثل ومؤلف ومخرج سينمائى وناشر كتب . عشق عشرات النساء ، وتزوج مرات لا تحصى وانجب أولاداً كثيرين . وكنا حين نلقاه فى سهرة تضم وجوهاً مليحة نهتف : ضعنا . . لا أمل لنا الليلة لأن القديس هنا ـ وكان يكسب آلاف الجنيهات فى يوم ويضيعها فى ساعات ثم يعيش اسابيع وليس فى جيبه أو فى بيته مليم واحد ـ فلا يحزن ولا ييتئس ولا يهتم . وكان يقرض كثيراً ويقترض كثيراً فلا يرد ما يقترضه ، ولا يطالب أحداً برد ما اقرضه إياه ،

وذات سهرة اصر على أن يصطحبنى وعدداً من الساهرين فى التاكسى ليواصل الحديث . ومع أن منزله كان أقرب المنازل، إلاّ أنه أصر على أن يُوصِّل الجميع إلى حيث يقصدون من شمال المدينة إلى جنوبها . . ومن شرقها إلى غربها .

وكان قد عثر فى السهرة على نموذج بشرى من النوع الذى يصلح هدفاً لسخريته ذات الطابع الخاص ، ولا ادرى كيف اكتشف فجأة أن بيننا نحن الساهرين، الذين نريد أن ننطلق وأن نتحرر من الحرص والتزمت والملاحقة،وأن نعبر عن أنفسنا ونستمتع بدفء الصداقة وأمان البوح ، وحلاوة التعبير عن الذات،اكتشف واحداً يستجوبنا بشكل خفى، ويستدرجنا بطريقة ماكرة ، وكانت محاولات الرجل لا تخلو من فجاجة ، وقناعه لا يخلو من سذاجة ، وفجأة انطلق « الخميسى » مقهقهاً وأشار إليه قائلاً :

ـ الظاهر سيادتك « شديد المخابرات » !

وهكذا قطع بنا الخميسى شوارع المدينة حتى مطلع الفجر ، يضحك من الرجل « شديد المخابرات » الذى افسد سهرتنا . . وحين توقف التاكسى أمام منزله أخيراً ايقظ البواب ، واقترض منه أجرة التاكسى واكرامية وفيرة للسائق لأنه ابن بلد وفنان !

وكان يتسامح مع كل الخطايا الصغيرة ، ويراها بعض بشرية الانسان ، ويتفهم بأفق رحب ، معنى أن يُكْرَه الانسان بالحاجة أو بالضغط على فعل ما لا يريد.لكنه كان قاسياً وغضوباً مع الخطايا الحقيقية : الخيانة والغدر والتجبر وامتهان الآخرين واستضعافهم ، وكان قد عرف الرئيس السودانى الأسبق « جعفر النميرى » بعد انقلاب ٢٥

مايو ١٩٦٩ وصادقه حتى أن النميرى لم يكن يزور القاهرة آنذاك رسمياً إلاً واتصل به وسهر معه بشقته بشارع عدلى حتى الفجر ، وأهداه صورة رسمية كبيرة له ، وكتب عليها اهـداء بخط يده ، واحتلت الصـورة فى اطار جميل صدر غرفة الاستقبال بمنزل الخميسى .

وفى اليوم الذى سمع فيه « الخميسى » بخبر اعدام « النميرى » لكل من صديقيه « الشفيع أحمد الشيخ » و « عبد الخالق محجوب » كان حزيناً بدرجة لا توصف وقد ظـل جالسـاً أمام صـورة النميرى ، التى تتجـاوز مساحتها المتر طولاً وعرضاً دون أن ينظر إليها . . ثم قام فجأة وانتزعها من الحائط وانطلق بها إلى الشرفة ، وقبل أن يتنبه أحد إلى ما سوف يفعله كان قد القاها من الدور الرابع إلى عرض شارع «عدلى» ـ وهو واحد من أهم شوارع القاهرة ـ فيتطاير زجاجها شظايا من حسن الحظ أنها لم تصب أحداً بينما واصلت السيارات طريقها تدوس على صورة الرجل الذى كان آنذاك يوصف رسمياً بأنه رئيس مجلس الثورة السودانى . . وعلى الاهداء الذى كتبه بخط يده إلى صديقه عبد الرحمن الخميسى !

وبعد أسابيع من انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ الذى انفرد بعده السادات بـالسلطة فى مصر ، اتصل بى تليفـونياً ، وسـألنى عما إذا كـانت لدى فى مكتبتى كتب تتحدث عن التعذيب فى السجون والمعتقلات فى مصر أو فى غيرها ، وطلب إلىّ أن أحضرها معى ، ولما عرضت عليه أن ارسلها له ، اكد بأنه يريدنا نحن الاثنين : أنا والكتب . وبعد مناقشـة سريعـة عن الكتب ومـا تحويـه ، وعما كـان يجرى فى مصر أيـامهـا ، صـارحنى بـأن صديقين عزيزين عليه ، هما الأستاذان « موسى صبرى » و « عبد الرحمن الشرقاوى » قد عرضا عليه ، أن يشارك فى الحملة التى كانا يشنانها آنذاك

على ما كان يسمى مجموعة مراكز القوى . وسألنى بتلقائية :
ـ تفتكر اكتب ؟!

وهزنى أن رجلاً فى مقامه وعمره ومكانته ، يمكن أن يستشير مثلى . وترددت لحظة . كان الخميسى ايامها مفلساً ، وكان قد ترك عمله فى جريدة الجمهورية قبل سنوات ، ونقل إلى وظيفة شكلية هى مدير مكتب الصحافة بوزارة التموين . ولم يكن بشكل ما من المقبولين من المجموعة التى جاء الشرقاوى وموسى صبرى يقنعانه بالانضمام إليهما فى الهجوم عليها . .

ومع أنه لم يكن آنذاك ممن يخوضون فى شؤون السياسة بشكل مباشر ، إلّا أنه كان قد رفض عرضاً بأن ينضم إلى « التنظيم الطليعى » وكان مركز السلطة والمكانة آنذاك ـ تكثفت الضغوط عليه ، وانتهت بلقاء مع السيد « شعراوى جمعة » ـ وكان أميناً عاماً للتنظيم ونائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ـ فدار بينهما هذا الحوار :

ـ عازينك معانا فى التنظيم يا استاذ عبد الرحمن ! ـ وانا كمان يا سيادة النائب . . بس أنا ما انفعش !

ـ ليه ؟

ـ أصل أنا ـ بعيد عنك ـ مصاب بداء « البوح » يعنى ما اعرفش اخبى حاجة ـ وده تنظيم سرى . . يعنى لو حضرت معاك اجتماع ، ح اخرج احكى كل اللى حصل . . وتحبسنى بتهمة انى حولت التنظيم من سرى لعلنى !

وضحك شعراوى جمعة . . وقبل اعتذار « الخميسى » . أما فى ذلك اليوم ، وبعد أن استعرضنا سوياً الأخطاء التى كانت ، والمجهود الذى سيكون ، وتذاكرنا سنوات السجون والمعتقلات

والتعذيب ، قلت رداً على سؤاله :

ـ قد يكون هذا كله صحيحاً يا استاذ عبد الرحمن . . ولكنها كلمة حق يراد بها باطل !!

فتنهد براحة شديدة وقال :

ـ أنا رأيى كده !

وحين تركته لم يحاول أن يسترد الكتب التى كان قد طلبها لكى يشارك بها فى الحملة . . ولم يكتب حرفاً واحداً !

وهكذا وجد الخميسي نفسه ذات يوم من بداية حكم السادات ، يغادر مصر ، ليظل بعيداً عن مواطن غنائه ، ومصادر الهامه ، وقوافى شعره ، ونماذج قصصه ، وابطال مسرحياته وأفلامه ، وحين عاد جثة فى صندوق ، تزاحم كثيرون فى جنازته ، لا تعرف من الذى يعزى ومن الذى يتلقى العزاء ، فكل الذى يأتى ليعزى ، ينضم إلى موكب اسرته التى وقفت لتلقى العزاء . والنعش يخرج من جامع عمر مكرم فى رحلة الوداع التى لا رجوع بعدها ، هناك تحت الصفصافة التى تطل على النيل ، حيث أوصي بأن يدفن . . فرّت دمعة من عينى الضنينة بالبكاء ، فى زمن يحتاج نهراً من الدموع لنبكى ما يجرى فيه بالوجيعة اللائقة . . واذهلتنى اجراءات الأمن التى احاطت بالجنازة . وظننتها اهتماماً رسمياً بتوديع الرجل الذى غنى للوطن شعراً ونثراً وتمثيلاً وموسيقى وضحكاً ، كما يليق به . . ثم اكتشفت بعد قليل أن أجهزة الأمن السياسى ربطت بين زحام الجنازة، وبين ما جرى يوم انتخابات ٦ ابريل ١٩٨٧ ، وَخشِيَتْ أن تتحول إلى مظاهرة احتجاج ، فحشدت حشودها . . وحين شَاهدتُ واحداً منهم اعرفه ، يدير المعركة عبر جهاز لاسلكى اقتربتُ من النعش . . همست مشيراً بذقنى :

ـ يا قديس . . الحكومة باعتة لك واحد شـديد المخـابرات عشـان يشيعك للآخرة !

انفرجت شفتى ، ضحك عبد الرحمن الخميسى فى نعشه من قلبى احسست بطعم ملوحة دموعى !

(*) « الوطن » فى ٤ مايو ١٩٨٧ .

عفاريت كامب ديفيد

ليس من الصعب ـ فيما أظن ـ تجسيد تلك الحالة التراجيكوميدية التى انتهت باطلاق ذلك التشبيه الشعبى البليغ ، الذى يصف انساناً ما ، بأنه « من النوع الذى يجد فى كل خرابة عفريتاً » . . إذ لا بد أن يشير إلى انسان منحوس ، سيىء البخت . ظل يلف على أقدامه طوال النهار ـ والليل ، فى البرد أو فى الشرد ، يبحث عن مكان يأويه من عناء التجوال ، فيستريح ، ويغسل تعبه بالماء الساخن ، أو بالماء البارد ، ويُسْلِم رأسه لوسادة من ريش النعام ، وجسده لحشية تعوم على بحيرة من الزئبق ، كما كان المرحوم « خمارويه » يفعل !

ولكنه ـ لسوء البخت ـ لم يجد جناحاً فى فندق خمسة نجوم ، فتواضع ، وبدأ البحث عن « سويت » فى فندق بلا نجوم ، ثم رضى بسرير فى غرفة مشتركة بلوكاندة « الكوكب الزينبى » لكن اللوكاندة لم ترض ، لأنها كاملة العدد ، وتنازل خطوة بعد أخرى عن أحلامه ، حلماً بعد آخر ، فلم يعد يطمح للاغتسال بالماء بارداً كان أو ساخناً ، ولم

يعد يحلم بريش النعام ، أو زئبق خمارويه ، وقبل أن ينهار من التعب ، عثر على تلك الخرابة المليئة بالهوام والحشرات وبالعنكبوت ومخلفات الحروب ، فدلف إليها ، وهو يهتف بصيحة « على بابا » الشهيرة ، حين دلف إلى المغارة قائلاً « احمدك يا رب».ولم يكن قد بقى من أحلامه العظمى ، إلاَّ أن يفك حصرته . . لكنه ما كاد يضع ذيل جلبابه بين اسنانه ، ويهم بارتكاب ذلك الحلم الانسانى المشروع ، حتى طلع له العفريت بين الظلام وفى خيوط العنكبوت ، فانطلق يعدو على هذه الصورة التى لا داعى لتجسيدها أكثر من ذلك، حتى لا نقع تحت طائلة قوانين النشر .

وفى الغالب فإن هذا الانسان السيىء الحظ هو أحد « الكامب ديفيديين العرب » الذين اختاروا ـ فى مثل هذه الأيام من عشر سنوات ـ أن يلجأوا إلى خرابة « كامب ديفيد » ليستريحوا من عناء الصراع العربى الاسرائيلى ومن صداع المطالبة بدولة فلسطين الديمقراطية العلمانية المتعددة الأديان ، ومن اجل انشاء دولة فلسطينية على أى أرض يتم تحريرها ، وأن يريحوا انفسهم من الحرب والضرب والكر والفر ، ليتفرغوا للإستمتاع بضربنا ، باعتبار أن جحا أولى بلحم ثوره ، فيستعيدوا تلك الأيام الجميلة التى كان فيها الأخ المرحوم « خمارويه » ينام على حشية من ريش النعام فوق بحيرة من الزئبق ، بسبب آلام الخفقان فى مفاصله ، بينما نرقص نحن الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة ، ونردد خلف قائد « كورسنا » المطرب العربى الشهير « جيمى كارتر » والأخ « ريغان » ـ نصره الله فى حرب النجوم ـ نشيد السلام الدائم والشامل الذى يقول مطلعه : يا الحنة . . يا الحنة . . يا قطر الندى . . شباك حبيبى يا عينى . . . جلاب الهوى !

ولقد قيل لنا نحن العرب ـ أيامها ـ أن شباك كامب ديفيد سوف يجلب لنا السلام والرخاء والديمقراطية، وبذلك نستطيع أن نأكل التفاح الاميركانى بنصف الثمن ، ويتاح لنا ـ إذا ما خفقت مفاصلنا بالألم ـ أن ننام على الزئبق ، خاصة وأن نفقات الحرب ستنخفض إلى النصف ، وكذلك نفقات « الضرب » إذ سيتم اغلاق المعتقلات وتحويل السجون إلى أحزاب:فيصبح لدينا « حزب ابو زعبل الديمقراطى » و « حزب القلعة التقدمى » و « حزب طره اليسارى الوطنى ».لكن عفريتاً ابن جِنية لخبط كل هذا الغزل ، فإذا بشباك كامب ديفيد لا يجلب الهوى بل العواصف ، وخذ عندك : حرب اهلية فى لبنان ، وأخرى ـ أهلية أيضاً ـ فى السودان ، . .وحرب جنونية فى الخليج ، ومشاكل حدود بين الجزائر والمغرب وحشود حدود بين مصر وليبيا . . وهكذا استمرت الحرب ، ولكن فى الميدان الخطأ ، وتحقق السلام ولكن فى الميدان الخطأ أيضاً ، وهو أمر لا يمكن أن يكون سببه إلاّ العفاريت !

واذكر انى مثلت ـ ضمن ١٧٦ من الكتاب والصحفيين والمحامين والقيادات العمالية والطلابية ، أمام محكمة أمن الدولة العليا ، لنحاكم بتهمة التحريض على انتفاضة الطعام الشهيرة فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، وكان قد مضى على الواقعة أكثر من عامين ، زار خلالها السادات القدس المحتلة ، ووقع اتفاقيات كامب ديفيد ، ومعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية ، وارتفع العلم الاسرائيلى فوق سارية على فندق مينا هاوس ، وهكذا تغيرت الدنيا ، لكن أوراق القضية وأسانيد الاتهام لم تكن ـ بالطبع ـ قد تغيرت ، وكان معظمها مقالات ومنشورات وخطباً ونصوص محاضرات فى الجامعة ، وصحف حائطية ، يعود بعضها إلى عام ١٩٧٥ وما تلاه . .

ووقف المتحدث باسم الادعـاء ، ليطالب بتـوقيع اقصى العقـوبة ، وهى الأشغال الشاقة المؤبدة ، على هذه الطغمة الفاسدة - التى هى نحن بلا فخر - التى كانت تخطط منذ أمد بعيد ، لزلـزلة الاستقرار وتسعى للتشكيك و «البلبلة» وتتهم قيادة السادات الوطنية - بأنها بتوقيع اتفاقية سيناء الثانية فى عام ١٩٧٥ - قد انهت حالة الحرب مع « العدو » الاسرائيلى ، وأنها تسعى للصلح مع « العدو » ، وتبيـع قضية الشعب الفلسـطينى ، وختم ممثـل الادعاء خـطبته الحمـاسية قـائلاً « كبـرت كلمـة تخـرج من أفواههم . . أن يقولون إلاّ كذباً »! .

وقبل أن يستطرد قال له القاضى :

- فوّت الحتة دى . . احسن يتهمـوك بالبلبلة ! .

وفى بـدايـة عـام ١٩٨١ ، شـاء حـظى الـتـعس ، أن أُنـقـل أنـا وصـديـقى حـلمى شـعـراوى - خـبـير الـشؤون الافـريـقيـة - من زنـزانـة كنـا نشغلها ، إلى أخـرى ليشـاركنـا فيها سجـين آخر ، لنُخـلى مـكـانـنـا لـوارد جـديـد ، كـانـوا قـد جـاءوا بـه فى تـلك الليلة . . وما كدنا نستقر ، ونرتب حاجياتنا فى المأوى الجديد ، ونبدأ بالسمر ، حتى فوجئنا مفـاجأة لم تكن عـلى البال ، فقـد اندفـع مضيفنا يروى لنا قصتـه ، فإذا بـه مدرس تـافه ، يعمـل فى غزة ، ويتـردد على القاهرة لزيارة اسرة زوجته ، بتصـريحات كـان يحصل عليهـا من مكتب الحـاكم العسكرى الاسـرائيلى للقـطاع ، واستطاع أحـد ضباط المكتب بمجهود قليل ، أن يجنده للتجسس لحساب اسـرائيل ، ويبـدو أنه أدرك تفاهته ، فلم يعطه أكثر من ٣٠٠ جنيه ، مقابل ما كان يعود بـه فى كل سفـرة من أخبار عسكـريـة واقتصـاديـة وسيـاسيـة ، وانكشف أمـره ، واستطاعت المخابرات المصرية أن توهمـه بأنها ستجنـده لحسابها ، فقبل

بطيب خاطر ، واعترف بكل الوقائع ، ثم فوجىء بهم ينقلونه ذات صباح إلى مكان اكتشف أنه محكمة ، ليسمع الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . . وفي تلك الليلة كان قد مضى عليه في السجن اكثر من أربعة أعوام ، وكان ثائراً وهو يعلن أنه سيطالب بتعويض عن سنوات سجنه ، وبفصل ضابط المخابرات الذى خدعه ، وانه ـ بعد أن وقّعت مصر اتفاقية السلام مع اسرائيل ـ لن يقبل بأقل من منصب سفير ، وسوف يطالب الحاكم العسكرى الاسرائيلى لقطاع غزة ، بأن يعينه سفيراً لاسرائيل فى مصر حتى ينتقم من خصومه ! .

ولم احتمل استمرار المناقشة ، فبلعت حبتين منومتين ، وأدرت ظهرى له ، حتى لا ارتكب جريمة قتل فى زنزانة مغلقة ، أما حلمى شعراوى فقد واصل الاستماع إليه بصبر اغاظنى ، وقبل أن يسرقنى النوم سمعته يتساءل عن سبب اعتقالنا ، وحلمى يقول له ببساطة :

ـ احنا كمان « خونة » . . كنا بنوزع منشورات ضد الجناح الاسرائيلى فى معرض الكتاب ! .

ساعتها مد الجاسوس الاسرائيلى يده إلى كوب الماء ليبلع أربعة حبوب منومة ! .

أما فى الصباح ، فما كاد باب الزنزانة يُفتح حتى انطلقت اجرى هارباً من عفريت كامب ديفيد الذى أسْكَنته الحكومة معى ومع حلمى شعراوى فى زنزانة واحدة ، وفى دورة المياه التقيت بواحد من الوارد الجديد ، الذى اخلينا له زنزانتنا بالأمس ، وسألته هامساً عن سبب اعتقاله وزملائه . . فقال :

ـ النيابة وجهت لنا تهمة التخابر مع منظمة التحرير الفلسطينية ! .

وهكذا قلبت عفاريت كامب ديفيد كل المعانى ، واربكت كل

المصطلحات، والغت كل القواميس، وكذّبت كل مراجع التاريخ ، ومزّقت كل الخرائط القديمة وتداخلت فى ظل سيطرتها العفاريتية كل القيم ، فلم تعد الوطنية وطنية، ولم تعد الخيانة كذلك. واشتبكت حروف كلمات الحرب والسلام والديمقراطية والديكتاتورية والعروبية والشعوبية لتنتج مزيجاً من الصراخ غير المفهوم ، ومن الرصاص الذى لا تعرف من يطلقه على من ولماذا ، واحتار ضباط السجون فى تصنيف المسجونين السياسيين ، ومثلى الأدعاء فى توجيه الاتهامات ، وأصبح الأخوة الفلسطينيون اعداء تغلق مكاتبهم عند كل خلاف ، والأعداء الاسرائيليون أخوة تظل سفاراتهم مفتوحة رغم العدوان على لبنان وعلى بغداد وعلى تونس وعلى طرابلس الغرب وطرابلس الشرق ، وطرابلس التى لا هى غرب ولا هى شرق ، فلا هى اراحت الذين وقعوها ، ولا هى تراجعت أمام الذين عارضوها. وبعد عشر سنوات من زيارة القدس ما زلنا « محلك سر » وكل الذى حدث أننا كنا طوال السنوات العشر التى سبقت كامب ديفيد مشغولين بمناظرة لفظية تافهة حول القرار ٢٤٢ الشهير ، وهل نص على الانسحاب الاسرائيلى من « أراض » احتلت فى عدوان ١٩٦٧ ، أم على الانسحاب من « الأراضى » التى احتلت فى ذلك العدوان ، ودخلنا فى مناظرات ومفاوضات حول حرف التعريف ذاك ، استمرت عشر سنوات كاملة ، أما خلال السنوات العشر التالية لزيارة القدس وتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد، فقد شغلنا ببحث لغوى آخر حول الجانب الفلسطينى ، من تلك الاتفاقيات: هل نص على الحكم الذاتى الكامل أم على « الإدارة الذاتية » للسكان وليس للأرض وهذه كلها موضوعات عفاريتية سببها سوء البخت الذى يلاحقنا فى كل مكان .

أما وذلك هو ما حدث وما سيحدث، فنحن العرب جميعاً ـ كامب ديفيديين وغير كامب ديفيديين ـ مدينون لامام اليمن الراحل أحمد ، لأنه أول من اكتشف أن سبب المشكلة كلها هو العفاريت . . ففى أول مؤتمر ينعقد فى لندن لمناقشة مشكلة فلسطين عام ١٩٣٨ ـ وقبل أن تتحول المشكلة إلى أزمة فى الشرق الأوسط ـ وحضرته ثلاثة وفود عربية تمثل الدول العربية التى كانت ـ آنذاك ـ مستقلة وهى مصر والسعودية واليمن وافتتحه المستر ايدن ـ وزير الخارجية البريطانية ايامها ـ وقف المرحوم سيف الإسلام أحمد بن يحيى حميد الدين ـ وكان ما يزال ولياً للعهد ليعقب على كلمة المستر « ايدن » دون أن يدعوه أحد فقال :

ـ أيها السادة أن الخلاف القائم بين الانجليز والعرب واليهود سببه العفاريت !

وارتبك المرحوم الدكتور أحمد فريد رفاعى وكان أميناً عاماً للوفد اليمنى وحمد الله على أن المستر ايدن لا يعرف العربية ، وأن الصحفيين الحاضرين لا يعرفونها ووقف ليترجم كلام سيف الإسلام قائلاً بالانجليزية . أيها السادة . . إن حسن النية كفيل بإزالة سوء التفاهم بين الانجليز والعرب حول حقوق الفلسطينيين فى بلادهم .

وواصل سيف الإسلام كلامه قال :

ـ إن العفاريت أَلْقَتْ علىّ الطوب مرة . . فرددت فى سرى قل هو الله أحد . . الله الصمد . . فجرت العفاريت وجريت فى إثرها وأنا أقول : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . حتى اختفت !

وهنا ترجم فريد رفاعى قائلاً :

ـ انه مهما يكن من اختلاف وجهات النظر فإن على كل طرف أن

يضـع فى اعتباره وجهـة نظر الـطرف الآخر لتلتقى النـظرتان عنـد حـل مشترك .

واستعد سيف الإسلام لكى يستأنف كلامه، فاستغاث فريـد رفاعى برئيس الوفد المصرى ، المرحوم على ماهر باشا ، الذى ربت عـلى كتف سيف الإسلام ورجاه أن يجلس ، فانسحب من المؤتمر غـاضباً ، وسـأل الصحفيون الانجليز فريد رفاعى عن سبب انسحاب الأمير . . فقال :

ـ إن سمـوه يـرفض أن يسـاوم عـلى حقـوق العـرب . .

وظهرت الصحف الانجليزية فى الصباح وعلى صدرها هذا العنوان : أمير اليمن لا يقبل التفاوض على حقوق العرب فى فلسطين !

ولا بد أنك ستكتشف يا عزيزى القارىء أن قاموس « فريد رفاعى » المبتكر فى ترجمة التصريحات الكامب ديفيدية ، وغير الكامب ديفيـدية ، هو الوحيد الذى يفسر لك تلك الحالـة العفاريتيـة التى تلقاك حـين تجد كامب ديفيدياً عربياً قد انطلق يجرى من الخرابة، وقد وضع ذيله فى أسنانه بعـد أن طلع لـه العفـريت . . قبـل أن يفــك حَصْرَتــه . . فـكّ الله حصرتنا . . وأراحنا من كل العفاريت بحق هذا الشهر الكريم .

(*) الوطن فى ١١ مايو ١٩٨٧ .

فى انتظار البلاغ رقم واحد

بـدأ العد التنـازلى لانتهاء شهـر رمضـان . واستعـدت « شيـاطـين المشاكل العربية » ـ التى ظلت حبيسة على امتـداد ايام الشهـر الفضيل ـ للخروج من قماقمها ، لتعود قوية وفتية ، فتبرطع على امتـداد الساحـة العربية ، من الخليج الذى لم يعد ـ والحمد لله ـ ثائراً ، إلى المحيط الذى انتقل إلى رحمة الله ، فأصبح ميتاً . . فهذه المشاكل الشيطانية لا تصـوم رمضان ـ كما يصومه العـرب المسلمون ـ وهى تقضى الشهـر الفضيل فى قماقمها ، تأكل وتشرب ، وتتمرن على الكراتيـه ، بينما يقضيـه العرب صائمين ، ليس عن الأكل والشرب وارتكاب المحرمات فقط ـ كما يقضى صحيح الدين ـ ولكن أيضاً عن العمل والتفكير وتعاطى المشـاكل . . . وهكذا يتحول النهار العربى فى رمضان من يوم للعمـل ، إلى يوم للنـوم والتثاؤب ، ومقاومة الرغبة فى اشعال اللفـائف ، بينما يتحـول الليل إلى مساحة زمنية للأكل والشرب ، وتناول المهضِّمات وأدوية الحموضة ، ثم تعـاطى الفـوازيـر والمسلسـلات ، حتى يتبـين الخيط الأبيض من الخيط

الأسود ، فتعود « ريمة العربية » إلى عادتها القديمة الرمضانية وتستأنف التثاؤب !! .

ولا شك أن شياطين المشاكل العربية ستزداد « برطعة » وانطلاقاً فى أعقاب عيد الفطر . الذى يقبل مع بداية فصل الصيف ، وقد تعود العرب أن يتعاملوا مع الصيف بذات الطريقة الرمضانية ، فيصومون فيه عن العمل ، وإن لم يصوموا عن سواه من الكبائر والصغائر التى يحرم ارتكابها فى رمضان، والسبب فى هذا هو مناخهم الشديد الحرارة الزائد الرطوبة ، الذى يعرق فيه الانسان بلا عمل ، عرقاً غزيراً ، تنزلق معه الأفكار والمشاكل لتوضع فى أحد أدراج المكتب ، ريثما يخطف هذا المسؤول الكبير أو الصغير ، طائرته إلى جزيرة فى أسبانيا ، أو شاطىء فى فرنسا ، حيث المشاكل جميلة وصغيرة وترتدى البيكينى أو لا ترتدى شيئاً على الإطلاق ! .

أما وقد أصبح « مسلسل » التقاليد العربية فى رمضان ـ الذى هو شهر الصوم ـ وفى الصيف ـ الذى هو فصل التعويض عن الصوم ـ ثابتاً ومتكرراً ـ فقد أصبح منطقياً أن تبنى مراكز التخطيط الاستراتيجى الكونية والقومية ، خططها على أساسه ، لذلك لم تكن صدفة أن الضباط الأحرار فى مصر ، قد اختاروا يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ليضربوا ضربتهم ، بينما كانت الدولة قد خطفت رجلها إلى شواطىء الاسكندرية لتواصل الصوم عن العمل ، ولترتاح من التفكير فى المشاكل ، فكانت النتيجة أن ارتاحت إلى الأبد ، لأن المشاكل والأزمات لا تعرف الراحة ، ولا تكف عن التدريب على « الكراتيه » ، وهو ما ينتهى غالباً بصدور « البلاغ رقم واحد » ، الذى ندر فى التاريخ العربى المعاصر ، أن صدر فى غير الصيف ، بل ان الذين يصدرونه ، سرعان ما

ينسون سبب وتوقيت اصدارهم له ، فيتركون مسلسل المشاكل والأزمات فى أحد ادراج مكاتبهم ذات صيف ، ويخطفون ارجلهم إلى أقرب ، أو أبعد ، مصيف ، وهناك يدهمهم عادة ، بلاغ آخر رقمه واحد أيضاً ، يجعل أيامهم كلها رمضان ، وفصولهم كلها صيفاً ، ويحقق لهم - وليس لنا - الراحة الأبدية !.

ومسلسل « البلاغ رقم واحد » هو أحد فوازير الأمة العربية التى ظلت دون حل ، فالذين يصدرون هذا البلاغ ، سرعان ما ينسون الحيثيات التى دفعتهم لإصداره وما يكادون يجلسون على تلك المقاعد المريحة المخصصة لإصدار الأوامر والنواهى ، ويمسكون ذلك القلم الذى سماه الرئيس الراحل أنور السادات ، « قلم الامضاء » حتى ينشغلوا بتثبيت قوائم المقعد فى الأرض ، وبربط « قلم الامضاء » بسلسلة حتى لا يخطفها أحد،فيحول دون ادائهم لدورهم التاريخى فى انقاذ الأمة مما تعانيه وينشغلون بذلك ، فإذا ما دخل الحاجب معلناً أن مواطناً اسمه « ما تعانيه الأمة » يطلب المقابلة امروا بطرده إلى الطريق العام .

والذى يحدث غالباً أن الواحد من هؤلاء ما يكاد ينتهى من تثبيت الكرسى والقلم حتى يكون قد نسى الحيثيات التى وردت فى بلاغه رقم واحد إلى أن يذكره بها بلاغ آخر رقمه واحد أيضاً !

والاحتمال الأرجح أن هذا المسلسل هو الذى أوحى لخبير إعلامى ذكى أن يغير شهر رمضان من شهر للعبادة واداء فريضة، هى أحد أركان العقيدة، إلى شهر للفوازير والمسلسلات إذ لا بد من شىء يشغل المواطن الذى اسمه « ما تعانيه الأمة » والذى صدر الأمر للحاجب بطرده إلى الطريق العام ، إلى حين الانتهاء من عرض مسلسل تثبيت قوائم الكرسى وربط قلم الامضاء ، ولأن هذا المسلسل لم يتم فصولاً بعد ، فقد ظلت

المسلسلات والفوازير تتضخم وتتراكم حتى اصبح من المنطقى أن نقول أننا أمة عربية واحدة ، ذات فوازير خالدة ، وما حدث هو أننا بدأنا فى
وما حدث هو أننا بدأنا - فى الخمسينات - بفزورة إذاعية واحدة ومسلسل اذاعى واحد ، وانتهينا - بعد ثلاثة عقودة - إلى تلك الوفرة الفيضانية فى انتاج الفوازير والمسلسلات. بحيث نـدر أن تدير المؤشر على محطة اذاعة أو قناة تلفزيون عربية - فى أى وقت من الليل أو النهار - دون أن تجد فزورة أو مسلسلاً. ولو اعتمدنا التطور فى عدد الفوازير والمسلسلات كمؤشر احصائى لنمو قدراتنا الانتاجية لكان معنى ذلك أن نسبة النمو فى الأقطار العربية قد تفوقت على مثيلتها فى كل من واشنطن وموسكو وطوكيو مجتمعة .

وقد انفردت مصر لسنوات طويلة بانتاج وتصدير الفوازير والمسلسلات إلى كل تلفزيونات الأمة العربية ، ثم اكتفت بعد الفوائض النفطية - بتصدير الممثلين والفنيين والمؤلفين ، واستيراد المسلسلات جاهزة وعرضها . . وفى هذا العام ، شهد « رمضان » ظاهرة جديدة فقد انتجت شركة اردنية فوازير تنافس فوازير « شريهان » وتقوم ببطولتها « شيرين ».ومع أن نصف محطات التلفزيون العربية قد اشترت فوازير « شريهان » ونصفها الآخر فضل أن يجدد فيعرض فوازير « شيرين » فليس معنى هذا أن الأمة والعياذ بالله قد انقسمت فوازيرياً إلى « شيريهانيين » متشددين ورافضين ومعارضين ، و « شيرينيين » معتدلين وعاقلين ، وسلاميين ، ولكن معناه أن التطور الانمائي العربى يسير قدماً إلى الأمام ، وأن الحالة مستقرة ، والديمقراطية متوفرة ، والتعدد الحزبى حقيقة ثابتة ، ومعناه أن قلم الامضاء مسلسل بسلسلة طولها شهر وعرضها دهر ، وقد حاول بعض « الخبثاء » و « العملاء » الذين يكرهون

لهذه الأمة أن تتوحد ، استدراج الأمين العام للجامعة العربية ليدلى بتصريح يعمق هوة الخلافات بين « الشيريهانيين العرب » و « الشيرينيين العرب » فسأله فى مؤتمر صحفى عالمى ـ عقد بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة عن أى الفزورتين يشاهد ، لكن الأخ الشاذلى القليبى كان ذكياً وحصيفاً ، فأجاب بدبلوماسية مشيراً إلى محطة القمر الصناعى العربى المنصوبة فوق مكتبه ، وإلى جهاز الفيديو . . وقال :

ـ إن المادة ٧٨ من بروتوكول الجامعة العربية الموقع بالاسكندرية فى اكتوبر ١٩٤٤ ، والتى تحدد اختصاصات الأمين العام ، تفرض علىّ أن أشاهد فوازير « شريهان » بعد الافطار ، وفوازير « شيرين » بعد السحور !

ونفى الأمين العام أن تكون هذه الثنائية الفوازيرية دليلاً على الانقسام بين دول الجامعة العربية ، أو مؤشراً لخلاف فى الرأى حول المؤتمر الدولى ووحدة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية ، وأضاف : إن كل ما حدث هو مجرد تنوع صحى فى إطار الوحدة العربية ، بدليل أن اسمَىْ كل من « شريهان » و « شيرين » يتفقان فى أكثر من نصف الحروف ، وهذا يعنى أن الأمة والحمد لله ، لم تفرط فى وحدتها الفوازيرية !

وهكذا حلّ « الشاذلى القليبى » فزورة هذه الثنائية الفوازيرية ـ التى استجدت فى رمضان هذا العام ـ دون مجهود ، ، شأنها شأن كل فوازير « شريهان » و « شيرين »، التى يحلها المتفزرون العرب عادة بعد أول مشهد يتلو العناوين. وهو ما يؤكد أن الهدف من هذه الفوازير ليس تنمية ذكاء المتفرج ، أو اكتشاف حجم معلوماته العامة ، أو الاضافة إليها ، أو زيادة معارف العرب عن العرب ، بل تنمية غبائه وزيادة بلادته ،

وتعويضه عن صيام عينيه عن النظر إلى النساء فى نهار رمضان ، بحشد من النساء ، تطللن عليه فجأة بعد الافطار ، ترقصن وتقفزن وتغيرن فى كل ثانية فستاناً ، وفى كل لقطة طقماً ، الأمر الذى ينبغى أن نشكر بسببه وزراء الاعلام العرب ، على هذا الكرم الحاتمى ، والتعويض السخى . عن يوم واحد من الزهد فى متع الحياة ، ويا حبذا لو قدمنا هذه الفساتين - أقصد هذه الفوازير - إلى مجلس الأمن ، ليكون هذا السخاء فى « التعويض » نصب عينيه وهو يعيد تفسير المادة الثالثة من القرار ٢٤٢ التى تنص على تعويض اللاجئين الفلسطينيين عن ممتلكاتهم التى فقدوها ، ومن بينها « الوطن الفلسطينى » !

والغريب آن هذه السهولة الشديدة فى حل الفوازير تغرى عادة بالخطأ فى حلها ، إذ لا يتصور المواطن المسمى « معاناة الأمة » - الذى القاه الحاجب فى الطريق العام وخلفه تلفزيون ٢٣ بوصة وفيديو ثلاث أنظمة واحد رافض والآخر قابل والثالث محايد - أن كل هذا الضجيج الفوازيرى من النصوص والرقصات والجوائز قد أقيم ليقدم له فزورة محلولة سلفاً ، ومن أول مشهد ، لذلك يجهد عقله ، بحثاً عن حل آخر ، غير ذلك الحل الحقيقى والسهل الذى يشاهده أمامه ، كذلك الشاب الغرير الذى أرادت فتاة لعوب اسمها « نجفة » أن تلفت نظره إلى انها تريده ، ولما اعيتها الحيل ، انباته أن صديقة لها كلفتها أن تنقل إليه رغبتها فى لقائه ، لأنها تهواه ، فلما سألها عنها بارتباك ودهشة ، وصفت له نفسها . من قِمَّة الرأس إلى اخمص القدمين ، لكنه لبلادته لم يفهم ، فزودته بالحرف الأول . . من اسمها ، ثم الثانى . . ثم الثالث . . فقال : قصدك « نجف » ، فتنهدت براحة ، وطلبت منه أن يضيف « هاء » إلى الاسم فقال كارشميدس : تبقى « هنجف » !

وربما لهذا السبب فإن احداً حتى الآن ، لم يتوصل إلى حل أى فزوره من فوازير الأمة ، أو انهاء أى مسلسل من مسلسلاتها ، لا فزورة تلك « النكبة » التى تحولت إلى « نكسة » ثم انتقلت إلى حالة « اللانكسة » و « اللانكبة » ، ولا مسلسل الحروب الأهلية والفتن الطائفية ، الذى ما زال معروضاً بنجاح ساحق فى كل محطات التليفزيون العربية ، على امتداد عقود وعهود ، لا تتفق فى شىء ، إلاّ فى اصرارها على سلسلتنا وتفزيرنا نحن المواطن المسمى « معاناة الأمة » فما يكاد الواحد منا ـ نحن العرب ـ يعود من عمله منهكاً ، حتى يرتمى على مقعد مريح ، أمام الشاشة الصغيرة ، ليسلم عينيه وعقله ، لمجموعة من القتلة الذين احترفوا تأليف وتمثيل وانتاج تلك المسلسلات ، التى تتالى مسلسلاً بعد مسلسل وفزورة بعد فزوره ، وحلقة بعد حلقة ، وحين تنتهى وجبة اليوم ، وهى تتكون عادة من ست حلقات لستة مسلسلات مختلفة ، يكون ـ ككل المسلسلين العرب ـ قد غفا على مقعده ، ليعود فى الليلة التالية فيفعل الشىء نفسه ، ومع أن الواحد منا يشرد عادة ، وهو يشاهدها ، وقد يتمرد أو ينشغل فلا يشاهد بعض حلقاتها ، إلاّ أنه حين يعود إليها صاغراً ، يكتشف أن الأحداث لم تتحرك قيد انملة ، وأن البطل ما يزال يخطب فى المتفرجين خطبة مبتذلة ، آنذاك تصبح مشكلتنا نحن المتفرجين الضحايا، هى فض الاشتباك بين الأبطال ، وتسكين كل بطل فى مسلسله ، فالمسلسلات كثيرة ، ومتشابهة ، ولذلك تختلط الحلقات ، ويعجز العقل عن التنسيق بينها ، ويضطر للاستعانة بخبير اجنبى لتنظيم المرور بينها، فإذا بالأمور تزداد ارتباكاً واختلاطاً، فالأحداث التى تمر بطيئة كالسلحفاة عادة ، تنقلب فجأة دون مبرر معقول . واذكر أننى اتصلت يوماً بصديق من مؤلفى تلك المسلسلات ، وبعد التحية

والسلام ولعن والديه ـ على سبيل الإعجاب ـ قلت له :

ـ سافرت يوماً واحداً وعدت لأجد « آثار الحكيم » فى مسلسلك التافه تحب « فاروق الفيشاوى » مع أنها كانت أول أمس تحب « محمود عبد العزيز » . . فما هو المبرر ؟!

فإذا به يرد إلى التحية بأفضل منها ، ويلعن شجرة عائلتى من جدى الأكبر الى حفيدى الذى لم يولد بعد ، لأنه نسى الموضوع ، ولأننى أول انسان يسأله عن مبرر لسلوك أبطاله ، إذ لا يوجد أى مبرر فى رأيه لكى يكون لسلوكهم مبرر ، وصرخ فى قائلاً :

ـ تقدر تقول لى مبرر واحد أن نصدق أن بيريز وشامير جادان حقاً فى تلك المشاجرة التى يفتعلانها حول المؤتمر الدولى ؟ !

وأذهلنى السؤال الذى لم أكن قد توقعته ، بينما كان صديقى المؤلف ، يصرخ فى أحد أطفاله ، طالباً منه أن يكف عن العبث بقلم الامضاء . . فسألته :

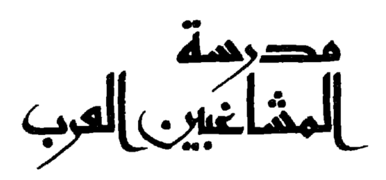
ـ هو أنت عندك قلم امضاء ؟

فقال بنفاد صبر :

ـ طبعاً . . تفتكر العقود اللى بامضيها لتأليف المسلسلات بامضيها بايه !

وجرجرت قدمى لأعود إلى مكانى أمام شاشة التليفزيون . . فى انتظار البلاغ رقم واحد !

(*) الوطن ١٨ مايو ١٩٨٧



من سوء الحظ أن الجانب الفكه فى ذلك الحادث المؤسف الذى وقع فى لجان امتحان الشهادة الإعدادية ، بمدينة مصرية صغيرة جداً اسمها « الحسينية » ، لم يلق الاهتمام الواجب مع أنه الجانب الذى يرشح اسم هذه المدينة غير الشهيرة ، لكى يدخل تاريخ « التربية » و « التعليم » من أوسع الأبواب ، فيصبح لدينا ـ نحن العرب ـ جامعة أشهر من « اكسفورد يونيفرستى » ومن « الاميركان كوليج » ، ويصحّ ـ آنذاك ـ أن نستغل شهرتها ، فنصدر كل شهادات الجامعات العربية ـ بما فيها الجامعة المكفولة برعاية اخينا فى العروبة السيد الشاذلى القليبى ـ عنها ، ويحق لنا أن نفخر بأننا من خريجى « الهوسينيا سكول » على سن ورمح !

فقد حدث فى اليوم الأول لامتحان الشهادة الإعدادية ، وكان مخصصاً للرياضيات ، أن تلاميذ الإعدادى بهذه القرية العربية الباسلة ، خرجوا من منازلهم فى الصباح الباكر فى الطريق إلى لجان الامتحان ، وبإحدى ايديهم المساطر والأقلام والنشّافات والمحّايات ، بينما اليد

الأخرى تقود السيد الوالد من يده ، لتدله على طريق ، حال كونه قد دفن رأسه بين دفتي كتاب الرياضيات . . وانغمس تماماً فى مراجعة ما بـه . . حتى يكاد كرشه يصطدم بكرش غيره من الآباء ، وهم جميعاً - مثله - يسيرون على هذه الحالة « الأبوية » النادرة المثال ، يقودهم - وينظم المرور بينهم - فريق من النسانيس الصغار ، لا يزيد عمر الغلام منهم عن ١٥ سنة !

ومع أن واحداً من هؤلاء الآباء قد خرج عن هذه الحالة الجماعية فى مكان ما من المدينة ، فرفع رأسه ، وأشارت اصابعه بعلامة النصر «٧»، فتلقفها آخر - يقف على الناصية المقابلة - ورد عليها بالطريق نفسها ، إلاّ أن ذلك - على غير العادة - لم يثر فضول رجال البصّ ، أو يدفعهم للشك فى المسألة ، إذ الواقع أن السيد مدير الأمن والأمان - ومعاونيه - كانوا جميعاً على تلك « الحالة الأبوية » التى تعطل البص !

وأمام اللجان انفض الاشتباك بين الطرفين ، فتكوم الآباء فى المقاهى المواجهة ، يواصلون الاستذكار . وصلصل الجرس ليسمعه كل أطراف العملية التربوية : التلاميذ والآباء والمدرسون . . ولكن فى مكانين مختلفين ، على عكس المناسبات التى يدعو إليها « مجلس الآباء والمعلمين » وهو مجلس ابتدعه مفكر تربوى عربى يقف الآن فى الجانب المؤسف من هذه الحادثة ، وهو لا يهمنا ، إذ للأسف لم يعد لدينا مزيد من الأسف !

المهم أن الجرس ما كان يصلصل ، وأوراق الأسئلة ما كادت توزع ، حتى انطلق صفير غامض متصل ، تكورت على أثره إحدى هذه الأوراق ، فطارت فى قذفة محكمة ، تخترق نافذة الغرفة فتعبر الشارع ،

فيتلقفها « كابتن » فريق الآباء الذى يسارع بقذفها إلى « سنتر فرويد » الفريق ، فلا تستقر بين كفيه سوى ثوان ، تقع بعدها فى يد قائد مجموعة الآباء للحلول الفورية ، وبمجرد انتهائها من اجابة السؤال الأول ، تبدأ « اذاعة الآباء » إرسالها ، فيذيع أحدهم بصوته الجهورى ، ومن خلال مكبر صوت عتيق ، الاجابة ، فيتلوها ببطء ، ويترك مسافة زمنية بين الحسمة والأخرى ، والخطوة والتى تليها ، وإجابة السؤال الأول ، وإجابة السؤال الثانى ، ويزود الممتحنين بكل الارشادات ، من ترك « بياضة » فى أول السطر ، إلى وضع نقطة فى نهاية الاجابة على كل اسئلة الامتحان ، وبهذا تصل إذاعة الآباء التربوية إلى ختام ارسالها ، فينشدون جماعة نشيد « امجاد يا عرب . . امجاد » !.

وقد حدث فى بعض لجان المدينة أن شرذمة من المدرسين ، يمثلون اقلية معارضة رافضة تافهة ، تتلقى غالباً توجيهات من « دولة أجنبية معادية » حاولت أن تُعَكِّر صفو الأمن والاستقرار ، فأسرعت ـ بمجرد افتتاح الارسال الإذاعى ـ تجمع أوراق الإجابة لتحول بين النسانيس الصغار وبين تدوين الاجابات النموذجية التى تذيعها عليهم اذاعة الحسينية ، فلم تمر محاولتها الشائنة تلك ، دون مقاومة ، إذ تظاهر الطلاب الصغار وانطلقت أصواتهم الحديثة الخشونة ، تهتف بقوة « بالروح . . بالدم . . حنكمل المشوار » ، وغيرت إذاعة الحسينية برامجها فوراً ، فكفت عن اذاعة الأجوبة لتذيع الأناشيد الحماسية بينما أسرع فريق الأمن التربوى المكون من الآباء ، ليقتحم لجنة الامتحان ، ويلتحم بالقوات المعادية ، وهو ينشد « ولادى . . ولادى . . فداكو دمى . . وهبت حياتى فدا فاسلموا » وبذلك تجمعت اركان الأسرة التربوية فى مكان واحد ، هو فناء المدرسة ، وأسفر هذا اللقاء السعيد ،

عن تحطيم المناظير الطبية للقوات المعادية ، وبطح بقية المدرسين الرافضين ، وحبس ثلاثة منهم فى دورة المياه ، ومعاقبة واحد بعقوبة « لا خبز . . ولا ادام . . بقية العام » . . بينما نقلت اذاعة الآباء ، إرسالها من المقهى إلى فناء المدرسة ، لتواصل الدور التربوى والتثقيفى الذى تؤديه مثيلاتها من الاذاعات العربية بعيداً عن تشويش الاذاعات المعادية ! .

ولأن الفضيلة الوحيدة لحرية الصحافة فى أمتنا العربية الواحدة ، هى أنها تتيح للمواطن منا فرصة التسلى بقراءة مثل هذه الحوادث الطريفة ، فإن الحادث ما كاد ينشر حتى تبين أن « الحسينية » ، وإن كانت أشجع فإنها ليست أكثر ذكاءً ، وثبت أن تكنولوجيا الغش قد تقدمت وتطورت خلال السنوات الأخيرة بشكل يفوق تكنولوجيا الفوازير والمسلسلات ، ففى بلاد أخرى كانت ورقة الأسئلة تطير من النافذة ، وبعد ربع ساعة على الأكثر ـ تدخل اللجنة مستنسخات من الاجابة النموذجية يتسلمها المراقبون ، فيوزعونها على التلاميذ بينما دفع الحرص على احترام الوقت ـ كقيمة خلقية رفيعة ـ بعض المراقبين ، إلى نسخ ورقة الإجابة النموذجية ، على السبورة ، بخط جميل واضح ، يحقق مبدأ تكافؤ الفرص فى الغش بين الجميع ، باعتباره أحد مبادىء الاشتراكية النابعة من بيئتنا والمعبرة عن أخلاق القرية ، وغير المستورة والعياذ بالله .

وقد رأى أحد رؤساء اللجان أن من واجبه أن يجمع بين الخيرين ، وأن يحقق هدفين ، أحدهما العدل الاشتراكى العربى ، الذى يقضى بمساواة الذين يذاكرون بالذين يغشون باعتبار الجميع أولاد تسعة ، والثانى العدل الرأسمالى الذى يتطلب زيادة الاستثمارات باعتبار أن

تسعة أعشار الربح فى التجارة . . وهكذا فتح مظاريف الأسئلة ـ التى وصلته بحكم منصبه ـ قبل أسبوع من الامتحان ، ثم اعلن عن تنظيم برنامج للمراجعة العامة بأحد مسارح المدينة ، نظير عشرة جنيهات لحصة واحدة فى كل مادة من مواد الامتحان . . وهكذا فاق الإقبال على مسرحه ، الإقبال المنقطع النظير على المسرحية الشهيرة « مدرسة المشاغبين » ولم يدهش هؤلاء الطلاب المجتهدون حين صادفتهم الأسئلة التى راجعها معهم هذا المربى الفاضل ، الرأسماراكى « الذى يجمع بين فضائل الرأسمالية ومزايا الاشتراكية » فى أوراق الامتحان ، فأجابوا عنها بسرعة فلكية ، وكان اسهلها مسألة حسابية تقول :

ـ مرب فاضل ألّف مسرحية تربوية هادفة ، شاهدها ثلاثة آلاف طالب لمدة سبع ليال متواصلة ، دفع كل منهم عشرة جنيهات فى المرة الواحدة . . فما مكسبه . . أو خسارته . . بسعر الصرف الجديد للدولار فى مجمع البنوك التجارية ؟

والواقع أن أتعس الناس بما حدث كان وزير التربية والتعليم الذى ظهر على شاشة التلفزيون ليعلن أن تكنولوجيا الغش قد تطورت فى السنوات العشر الأخيرة ، بطريقة اصبحت الوسائل التى تتبعها أجهزة المقاومة فى التصدى لها ، أعجز من أن تحقق أهدافها ، وأضاف : أنه دهش حين اكتشف أن المطابع المتطورة التى تم استيرادها أخيراً ، تقوم بطبع كتب صغيرة الحجم ، مقاس صفحتها ٣ سم × ٣ سم ، بدعوى انها كتب للمراجعة فى حين انها اعدت خصيصاً لتسهيل الغش ، بالطريقة المعروفة بطريقة البرشام . . وفجأة تحولت تعاسة الوزير إلى غضب بالغ ، فأعلن أن كل شىء قد تساوى بكل شىء : الذين يذاكرون

طوال العام ، والذين لا يفتحون كتاباً طوال حياتهم التعليمية ، والمتخرجون من السوربون ، والذين انهوا دراستهم فى كتاب « الشيخ نِكْلَة » وأنه فوجىء بأن الأول على الشهادة الإبتدائية فى إحدى المناطق التعليمية قد حصل على المجموع الكلى للدرجات فى كل المواد ، ولما كان ذلك أمراً غير منطقى ، فقد قرر أن يعيد تصحيح أوراق إجابته تحت إشرافه شخصياً !

وكما يحدث عادة فى مثل هذه الظواهر الفكرية ، فقد اعتلى اساتذة التربية والتعليم ، وخبراء السياسة وعلماء الاجتماع ، منصة الصحف ، وميكرفونات الإذاعة ، وكاميرات التلفزيون ، وانهالوا صراخاً وعويلاً وبكاءً ، وهجوماً على الآباء والأمهات ، الذين لا يحسنون تربية ابنائهم ، ويريدون منحهم شهادات بلا دراسة ، والقاباً علمية دون تعليم ، حتى لو أدى هذا إلى خروجهم عن الوقار الذى يليق بالآباء ، وحتى لو فقدوا نظرة الاحترام التى لا يمكن أن يحتفظ بها الابن لأبيه ، وهو يراه ـ بكرشه المتضخم ومنظاره السميك ـ يسهر معه فى إعداد « برشام الغش » ، ويقف خارج سور اللجنة ، لكى يهمس له بصوت مرتعش بإجابات الأسئلة ، فتنعكس الآية ، ويخرج النسناس الصغير من اللجنة ، فيقول للسيد الوالد المحترم :

ـ برافو دادى . . جاوبت كويس قوى فى الامتحان . . حنجح . .

وفى مواجهة هذا الهجوم التربوى الكاسح على الآباء ، اضطروا للدفاع عن أنفسهم ، فذكروا أن المدرسين يغيبون نصف العام ، ويتعمدون عدم تدريس المنهج ليجبروا الطلاب على الحصول على دروس خصوصية منهم ، وان المعلم لم يعد رسولاً ـ كما قال المرحوم شوقى بك ـ

ولكنه أصبح مستثمراً ، كما أصبح الشعر معـادلات كيماويـة ، والنقد الأدبي معادلات رياضية ، وهكذا انفرط عقد الأسرة التربوية ، وأصبح حل « مجلس الآباء والمعلمين » ، أمراً واجباً وجوباً قطعيـاً ، حتى تصدر القوانين الجديدة لتنظيم الاستثمار فيعاد تشكيله باسم جديد هو « مجلس الآباء المستثمرين » .

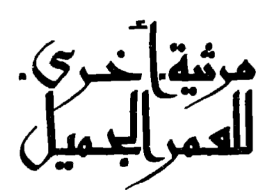
وفى هذا السياق ، اقترح خبير اقتصـادى ، تخرج من « الهـوسانيـة سكـول » . أن تنظر الحكـومة العمليـة، وأن تستجيب للرغبة الشعبيـة العـارمة ، بـإباحـة الغش ، حتى لا يؤدى التصـدى لهـا إلى اهتـزاز فى الاستقرار ، وطالما أن هناك من يفكرون فى عرض قناة السويس للبيع فى البورصات الدولية ، وهو ما يغـل مائـة مليار دولار ، ومن يفكـرون فى تأجير قواعد عسكرية اجنبيـة للولايات المتحـدة الاميركيـة مقابـل حفنة مليـارات أخرى ، فليس هنـاك ما يحـول دون بيع الامتحـانات العـامة بالدولار أيضـاً ، بل إن هـذه العملية يمكن أن تغـل أرباحـاً اكثر ، إذا درسنا باهتمام وسائل ترشيد الانفاق ، وأخذنا بنصـائح صنـدوق النقد الـدولى . بتقليل الاستهلاك والقضاء عـلى الإسراف ، إذ لا مبـرر لهذه المغالاة القبيحة فى عقد اللجان وإضاعتها ، وصـرف مكافـآت لواضعى الأسئلة ، وواضعى الأجوبة ، فضلاً عن ثمن الأوراق والأقلام والأحبار واستهلاك الكهرباء والمقاعد ، فضلاً عن الوقت الثمين الذى يضيع على الآباء ، على حساب الانتاج القومى ، وخاصـة فى مجال البص ، الـذى يضـطر رجـالـه ، إلى تـرك اعمـالهم القـوميـة الجليلة فى الحفـاظ عــلى الاستقرار ، لمصاحبة ابنائهم طـوال أيام الإمتحان ، والمشاركـة فى هذا الـزحف الأبوى التقـدمى دفـاعـاً عن المستقبـل ، وهـذه كلهـا انشـطة

خاسرة ، لا مبرر لها ، لا بد أن دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروع ، ستوصى بالاستغناء عنها ، فيتم بيع الشهادات العامة مباشرة بالدولار الاميركى أو بالين اليابانى ، دون أسئلة أو إجابات أو وجع دماغ .

ولا بد أن هذا المشروع القومى الجليل ، سوف يفوز بتأييد عربى واسع ، وسوف يوفر علينا سماع تلك الإجابة المفحمة التى رد بها على أحد طلبة « الهوسانية سكول » حين سألته لماذا لا يذاكر ، بدلاً من الغش . . فقال :

ـ إذا كان الكتاب بيقول أن كامب ديفيد سلام عادل يبقى ده اللى مش غش ! .

(*) « الوطن » الكويتية ـ أول يونيو ١٩٨٧ .



لو كنت أعلم ـ ذلك الصباح ـ أن الليل سيأتى بما به قد جاء ، فلعلى كنت أغلقت جفونى ونمت إلى الأبد ، فوفرت على القلب آلاماً لا تطاق . . لكننى ـ والظلمة ما تزال تقاوم أضواء الفجر ـ استيقظت عطشاناً ، شربت كوب ماء . عبرت بنظرة سريعة على عناوين الصحف . . بدت أكثر هدوءاً مما كانت عليه فى الأيام العشرين السابقة . .

فى زاوية من الصفحة اليسرى وجدت الخبر الذى كنت أبحث عنه ، قال العنوان « عبد الناصر يوفد نائبه زكريا محيى الدين إلى واشنطن اليوم برسالة للرئيس الاميركى جونسون » . .

القيت الصحف بجوارى على السرير ، فاستقرت بجوار رأس قطتى التى كانت تتابعنى بعينين ناعستين ، قلت لها برنة انتصار :

ـ انتهت الأزمة فيما يبدو يا بوسى . . وازيلت آثار عدوان ١٩٥٦ .

ولم أكن قـد استأنفت نـومى تماماً ، حين سمعت صـوت احتكـاك اظافرها بالأوراق . . وإذن فقـد فعلت ذلك الـذى كنت أضربهـا بسببه دائماً : مزقت أوراق الصحف بأظافرها . . تطايرت الزاوية اليسـرى من صحف اليوم ـ التى لم أقرأها بعد . . نظرت إلى بخوف وتحفز فى انتظار ما سوف افعله .

لكننى ـ ذلـك الصباح ـ كنت عـلى غير العـادة فرحـاً « ربما ليكـون للحزن بعد ذلك طعم حريف » ولعلها دهشت ، حين اكتفيت بقرصها فى اذنها وأنا أقول :

ـ مشكلتك يا بوسى أنك غير مثقفة . . لذلك لا تعـرفين شيئـاً عن قوانين أمن الدولة والـطوارىء . . والفصل الخـاص بإهـانة ذات رئيس الجمهورية والازدراء بإحدى هيئات الحكم . . وإهانـة ذات رئيس دولة اجنبية . . بالفعل أو القول أو الإشـارة . . وبالـذات أو بالـواسطة . . وهذه الحماقة التى فعلتها الآن . . عقوبتها اربع سنوات سجن !

ماءت غير مصدقة . . ونظرت إلى باحتقار بالغ . . كومت الصحف تحت رأسى ، لأمنعها من ارتكاب مزيد من المخالفات القانونية . . . فيما بعـد ذلك بسنـوات ، نـدمت لأننى لم احتفظ بصفحـة الـوفيـات . . فى الصحف الصادرة يوم الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ ، باعتبارها وثيقة تاريخية ، تضم أسماء العرب السعداء الذين ماتوا قبل أن تشرق شمسه .

أما فى التاسعـة والنصف صباحـاً وكنت أحلق ذقنى ، واثقف قطتى بنصوص من قانون العقوبات ، وشذرات من قانون أمن الدولة ، فقـد سمعت ازيز طائرات ، وأصوات انفجارات ، فانطلقت ـ وهى خلفى ـ إلى الشرفة ، لكننا ـ على مـدى البصر ـ لم نر شيئـاً وانشغلت عنى القطة

بتأمل العصافير التى اخافتها أصوات الانفجارات فزحمت الأفق تجرى فى غير اتجاه . . قلت :

ـ يبدو أننا يا قطتى سنقضى الصيف على شاطىء البحر بيافا . . نزور قبر الشيخ عز الدين القسام . . نقرأ الفاتحة على روحه . . فوحدى ربك . . وادعى للمقاتلين بالنصر !

كان المعنى المباشر لبدء الحرب ، هو الغاء موعدى مع الرائد ـ اللواء الآن ـ فتحى قته . . وكان قد حدد صباح اليوم ، ليكون موعداً أخيراً ، يسلمنى فيه بطاقة هويتى التى أخذها من جيبى عندما اعتقلت فى ٤ اكتوبر ١٩٦٦ ومع أن عشرة اسابيع كانت قد انقضت على الافراج عنى ، إلاَّ أن الرائد « قته » لم يكن قد افرج عن « الهوية » بعد ، أما وقد بدأت الحرب فمن يهتم ـ فى زحامها ، ـ ببطاقة هويتى ، وفى آخر لقاء لى معه ، قال لى بنفاد صبر ورنة سخرية : لماذا تهتم ببطاقتك إلى هذا الحد . . وأنت وزملائك شخصيات عالمية ، لستم فى حاجة إلى تعريف .

وعندما شرعت عينى مستطلعاً ما يقصده بسخريته . قال : الم يتوسط « جان بول سارتر » لدى الرئيس « عبد الناصر » للإفراج عنكم ؟ . . ما حاجتك إذن لبطاقة هوية ؟!

وربما دهش الناس ، لو أنهم شاهدونى فى صباح يوم آخر ، وأنا أحمل قطتى فى ذلك الصندوق الخشبى ذى القضبان المتشابكة من السلك الرفيع ، الذى كان مخصصاً اصلاً لحبس العصافير ، وانتقل بها للإقامة مع بعض اقاربى ، وهى تتحرك بعنف داخل زنزانتها المحمولة بين يدى . . وتموء بصوت عال كلما سمعت طلقة مدفع ، لكن احداً لم يتنبه لذلك سواى ، فأجهزة الراديو فى كل المقاهى والبيوت تصرخ بالأناشيد

والبيانات العسكرية ، وكل الآذان تسمع المدافع المضادة للطائرات ، لكنني وحدى كنت اسمع مواء قطتى ، وأحاول أن أطمئنها كى تكف عن ذلك الضجيج الذى تحدثه ، ونزف عرقى بغزارة ، وأنا أقول لها هامساً :

ـ لقد بدأت المعركة يا « بوسى » . . وأنت الآن تشوشين عليها بهذا المواء اللعين . . وليس معى بطاقة هوية . . فمن يضمن لك ألا يعتقلونا ويتهمونا بالتجسس لحساب الأعداء . . وكيف اثبت أننى مواطن صالح ، وقد خرجت من المعتقل قبل عشرة اسابيع بوساطة رجل يؤيد الآن الطرف الآخر فى الحرب .

فى تلك اللحظة صمتت القطة ، واستكانت فى محبسها ، فأتاحت لى فرصة اتأمل فيها ما حولى ، وكان صاحب مقهى فى « باب اللوق » ، قد أخرج السبورة التى يسجل عليها طلبات زبائنه ، ووضعها على مقعد فى مدخل المقهى ، وكتب عليها بالطباشير عدد الطائرات التى اسقطناها . . وكان بيان عسكرى قد اذيع فى تلك اللحظة بصوت « أحمد سعيد » يعلن بنبرات خطابية ، البيان رقم «٣» ومسح صاحب المقهى الرقم السابق ، وسجل آخر رقم فى بورصة اسقاط الطائرات الاسرائيلية ، وكان بالمصادفة ٦٧ طائرة .

هلل المارة فى الطريق ، وفرحت تقطيبة فى قلبى ، ونظرت إلى قطتى فوجدتها تقرأ السبورة فى عجب همست لها :

ـ سأعانى كثيراً من جهلك بقوانين أمن الدولة . . فهذه النظرة الشكاكة عقوبتها الإعدام رمياً بالرصاص ، واذكرك للمرة الأخيرة بأننى لا أحمل بطاقة . . أما وقد تم القضاء على سلاح الطيران الاسرائيلى

خلال ساعتين من بدء الحرب ، فإن قضاء الصيف على شاطىء يافا . . اصبح مضموناً . . والمشكلة الآن أن الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ستتزاحم لكى تقضى الصيف على شواطىء فلسطين ، فكيف لنا بنفقات السفر إلى « أرض المعاد » ونحن مفصولون من العمل يا«بوسى» ولا نحمل حتى بطاقة هوية ؟!

كان أحمد سعيد قد انهى بيانه . . وغنى الراديو « أمجاد يا عرب أمجاد » .

ربما قبل ذلك بأسبوع أو أكثر ، وفى ذروة الأزمة مررت على « الأهرام » اسأل عن آخر الأخبار ، وفى حجرة واسعة عالية الأسقف من حجرات مبناه القديم ، بباب اللوق ، كانت تضم عدداً من محررى الشؤون الخارجية والعربية بها . . وجدت سامى منصور ومكرم محمد أحمد وحسن فؤاد . . وكانوا يتابعون فيض الأنباء التى تحملها أجهزة التيكرز فيذيعونها على الفور . . وأنا اسمعهم صامتاً ودون تعليق . . وازاح « مكرم » بعضاً من البرقيات التى كان يقرأها . . وقال :

ـ ما رأيك ؟

هززت رأسى شأن من لا رأى له . اردف :

ـ الشيء المؤكد أن ما يجرى الآن ليس مصادفة . . تذكر أن عبد الناصر يكرر دائماً أنه الذى سيختار موعد المعركة ومكانها . . وما يجرى الآن يؤكد أن الأوان قد آن . . ويبدو أننا مقبلون على فصل جديد من التاريخ العربى . . فما رأيك ؟!

مع أن صوتى هو الذى تكلم . . فقد دهشت حين سمعتنى أقول له :

ـ لا تنس أن فى امتنا رصيداً من الخيانة لا ينفد . .

ومـا ان سمعتَ كلماتى . . حتى نـدمت عليهـا . . لكنـه من حسن الحظ أن أحداً لم يسمعها . . إذ خطف أحدهم برقية جاء بها التيكرز . . وبدأ يقرأها !

استقرت القطة اخيراً فى شقة أمى . . اطلقتها من محبسها فاختفت تحت مقعـد كبير لتـطمئن إلى اننى لن اصادر حـريتها مجـدداً . . وجدت أخى الكبير ما يزال يغط فى نومه . . ايقظته . . قلت له :

ـ اشتعلت الحرب وأنت نائم .

لم يعلق . . تذكرت أننى عرفت فلسطين واسرائيل لأول مرة منه . . ففى اليوم الذى ظهرت فيه نتيجة الثانوية العامة تعلن نجاحه أعلن أبى قراره بالحاقه بالكلية الحربية ، كان الزمن ـ بعد ثلاث سنـوات من ثورة يوليو ١٩٥٢ ، قد تغير ، واصبح الزى العكسرى رمزاً ، للسيادة وللقوة وللمجد المنتظر ،وكأن أبى شغوفاً بأن يعيد مجد الأسرة وأن يرى ابناً من ابنائه من أصحاب السلطان والجاه ، لذلك اختـار له الكليـة الحربيـة ، وقاد معركة مظفرة ، ليضمن تحقيق هدفه . . فبحث عن كل صديق مهما جفا ـ وكل قريب . . مهـما تناءى ، يستـطيع أن يـوصى بأخى . ليضمن أن يفوز بمقعد ضمن المئات الذين تختارهم الكلية لـلالتحاق بهـا من آلاف المتقدمين . . وكان نصيبى من تلك المعركة ، اننى دخلت لأول مرة مبنى الجامعة العربية ، القديم فى شارع البستـان ـ وقد تحـول الآن إلى جراج متعدد الطبقات كتعبير عن الجانب الهزلى من التاريخ ـ وخرجت منها وفى يدى مجموعـة من الكتب عن فلسطين واسـرائيل . . كـان مفروضـاً أن يقرأها أخى لكى يستطيع عبـور امتحان « القـومية العـربية » وهـو أحد امتحـانات القبـول فى الكلية الحـربية ، والغـريب أنه قبـل رغم أنـه لم

يقرأها . . بل كنت أنا الذى قرأتها . . فى واحد من هذه الكتب الزخرفية الأسلوب قرأت أن اسرائيل « بغاث فى ارضنا يستنسر » واعجبتنى العبارة فحفظتها ، واعجبنى الكتاب ـ رغم تفاهته ـ ربما لأنه كان أول كتاب كامل اقرأه فى الموضوع ، لذلك لم أنس اسمه ابداً . . وكان عنوانه « اسرائيل العدو المشترك » .

ولكن الذى حدث أن أخى ، رحمه الله ، بدأ بعد شهور يضيق بالكلية الحربية . . وفى نهاية العام الأول ، رسب فى كل المواد ، وذات يوم من أيام الصيف ، وجدته فى الصباح راقداً إلى جوارى فى مضيفتنا بالقرية . . وبعد قليل ، أدركت من ملابسه المدنية ، أنه فصل نهائياً من الكلية ، وخاف أن يواجه أبى بما حدث ، فسلم زيه العسكرى ، واقترض ملابس مدنية من أحد معارفه وهرب إلى القرية ودخلها والناس نيام ، وآثر الا يوقظنى لكى يؤجل المواجهة !

فى تلك اللحظة . . كان جالساً ينظر إلى السماء التى كانت قد خلت العصافير . . وكانت المدافع المضادة للطائرات ما تزال تنطلق بغزارة . . وكانت قطتى قد أمنت من المطاردة ، فخرجت متسللة تنظر إلينا . . وكان الراديو يصيح « أمجاد يا عرب أمجاد » . . وكان أحمد سعيد قد قضى على نصف سلاح الطيران الاسرائيلى .

لم أكن اعلم حين غادرت منزل أمى عند الظهر أن الحرب قد انتهت ، وإلا ما ناوشتنى تلك الرغبة الحمقاء فى أن أترك أخى وقطتى لأخوض فى زحام الناس : اقرأ انباء الحرب على وجوههم ، وأمارس هواية التقاط تعليقاتهم الساذجة على ما يجرى ، وانعش روحى بحماسهم

المتدفق كمياه النبع الصافى .

فى الطريق ، كان كـل شيء يزعق : النـاس ، وأجهزة الـراديو . . وطلقات المدافع المضادة للطائرات ، ودقات قلبى المطمور فى هم خفى لا أدرى مصـدره أو سببه . . ولا بـد أن هناك شيئـاً استـطيـع أن أفعله ، فالوطن ـ بـل الأمة كلهـا ـ فى حرب مـع العدو ، ولن يسـألنى أحد عن « بطاقة الهوية » إذا ما اتخذت مكاناً فى صف المحاربين ، وباستطاعتى أن اصطحب قطتى معى ، تشهد اننى ـ رغم بطاقة الهويـة التى صادروهـا ـ عربى . . ذلك مـا يشهد بـه ـ أيضاً ـ لـون عيونى . . وتشهـد به دقـات قلبى ، وما أحفظه من الشعر ، ومن عشقته من النساء .

أما شاهد العدل الذى لا مطعن على شهادته ، فهو الـرائد ـ اللواء الآن ـ عاصـم الوكيل الذى عـذبنى فى معتقل القلعـة قبل شهـور ، ففى استـراحة قصيـرة ، بين وجبتـين من وجبات التعـذيب ، ارسل اثنـاءها يبحث عن خيزرانة بديلة لتلك التى تحطمت فوق قدمى المغللتين بأساور حديدية ، قلت له :

ـ كيف يكون شعورك . . إذا اكتشفت بعد كل هـذا التعذيب اننى برىء ؟!

بهـدوء تـام ، وكـأنه قـد أجاب عـلى هـذا السؤال ألف مـرة من قبل . . قال :

ـ ولا حاجة . . تعـذيب الف برىء ابن كلب زيـك . . أفضل من ترك متآمر واحد حر . . ده أمن دولة يا حمار !

انسحبت من الحوار ، بينما كان يمد ذراعـه مستحثاً المخبـر ، الذى كان قد ظهر يحمل الخيزرانة الجديدة ، وهو يقول :

ـ على فكرة . . لو كان عبد الناصر فشل ليلة ٢٣ يوليـو . . كان ح يشرف في الزنزانة دى . . وكنت ح اضربه بالكرباج . .

لا أمل في أن أجد « عبد الرحمن الابنودى » في بيته القريب الآن ، لا بد أنه في مبنى الاذاعة يؤلف تلك الأناشيد والأغنيات التي يذيع الراديو جديداً منها كل ساعة ، يضاف إلى ذلك الذى ألفه منذ بداية الأزمة قبل عشرين يوماً . . ستدخل هذه الأغنيات الجميلة التاريخ . . ستحفظهـا الأجيال القادمة ، كما يحفظون « المارسلييز » و « بلادى . . بلادى » وكما يحفظون « الله اكبر . . فوق كيد المعتدى » وأغاني حرب ١٩٥٦ التي الفها صلاح جاهـين وخطبـة عبد النـاصر القصيرة التي القـاها من فـوق منبر الأزهر في اليوم الثالث من الحرب ، وسيفخر جيلنا بأنه لم يغادر الدنيا إلاّ بعد أن أنهى النكبة ، أما ذلك الضجيج الذى اسمعه ، فهو دليل على أن قلقى لتباطؤ معدل اصدار البيانات العسكريـة لا مبرر لـه . وعلى بـاب المقهى حيث احتشد السابلة . . دون أن يذكرهـم أحـد بأن « المشـروب اجبارى » لم يعن أحد بالاجابة عن سؤالى .

فقـد أعاد مـذيع التلفـزيـون ـ بعـد فـاصـل قصير من المـارشـات العسكرية ، تلاوة البيان ، حررت القوات الأردنية « جبل المكبـر » عاد النـاس يهللون ، رقص صـاحب المقهى . . قبلنى جـارى دون معـرفـة سابقة ، مع أن أحداً فينا لم يكن يعرف تحديداً أين يقع هذا الجبل ولا ما هى أهميته ، لكن كل شىء يبدو على ما يرام . . سترتفع اعـلامنا الليلة فوق تل أبيب .

فكرت في أن أخاطب قطتى في التلفون ، أخطرها بـالنبأ السعيـد ، لكننى خشيت أن تسألنى عن موقع جبل المكبر ، فتكتشف جهلى ، وقـد

تمـوء بتعليق من تعليقاتهـا الحمقـاء التى تصـدر عن « جهـل عصـامى » بقوانين أمن الدولة ، ومتطلباتها ، ومن بينها توصيل رقم تلفون بأجهزة التصنت ، فماذا يحدث لو ظن حضرة صاحب الفخامة مسؤول التصنت المبجـل ، أن مواءهـا السخيفـ ، هو رسـالة بـالشفرة وكيف اثبت أننى مـواطن ، وأنا لا أملك بـطاقة هـويـة ؟ . . وهـل تصلح آثـار الضـرب بالخيزران على اضلعى كوثيقة اثبت بهـا أننى عربى ؟! ألا يكفى جهلى « العظيم » بأن سفن « اسـرائيل المـزعومـة » كانت تمـر طوال السنـوات العشر السابقة ، فى خليج العقبة دليلاً على اننى مواطن عربى صالح ؟

كانت أم كلثوم قد ظهرت على شاشة التلفزيون ، تغنى نشيداً كتبه صـلاح جاهـين ، يقول مـطلعه : « راجعـين بقوة السـلاح . . راجعين نحرر الحمى . . راجعين كـما رجع الصبـاح . . من بعد ليلة مـظلمة » وكان واضحاً أن النشيد قد ألف ولحن وغنى عـلى عجل ، بـدليل أنها لم تتمكن من حفظ كلماته ، فبعد كل بيت تغنيه ، وأثناء عزف اللازمات الموسيقية بينه وبين الـذى يليه ، كـانت تتراجـع إلى الخلف لتقترب من عازف القانون الشهير فى فرقتها ـ المرحوم محمد عبده صالح ـ الذى كان يضع كلمات النشيد على حامل أمامه ، وكأنها نوتة موسيقية ، فيهمس لها بالبيت الذى يليه .

وأدهشنى ما أرى . . وحين عدت من جولتى فى بـداية الليلة رويت القصة لقطتى . . وقلت معلقاً :

ـ منذ عشرين عاماً يا « بـوسى » وهو تـاريخ النكبـة ونحن نستعد للرجوع كما يرجع الصباح من بعد ليلة مـظلمة . . فكيف لم تتـدرب أم كلثوم على حفظ النشيد طوال هذه السنوات . . وكيف تحتـاج إلى ملقن

ونحن على أبواب « تل أبيب » .

تثاءبت القطة ، ونظرت إلىّ نظرة تذكرت أننى رأيتها قبل ذلك فى عيون « عاصم الوكيل » حين جاءت الخيزرانة الجديدة فارتعدت خوفاً ، ماذا لو أنها نطقت يوماً ، أو لو أنه استنطقها بالسياط ، فباحت بكل اسرارى ، التى لا أبوح بها لأحد سواها ، لذلك لزم الاستدراك ـ فلست ـ وعينيك يا قطتى ـ شاكاً أو مشككاً . . لكننى فقط أفكر بصوت عال . . أنا ككل المحبين والعشاق ، ابحث عن المحبوب فى كماله واكتماله ، قوياً . . فتياً . . عفياً . . يتضوع حسناً . ويتلألأ جمالاً . . أنا أنزهه عن الخطأ . . وأبرئه من العيب . . أنا فى الواقع ، كما قال عاصم الوكيل ـ مجرد « برىء ابن كلب » يخشى على أحلامه أن تضيع ، وها أنذا اعترف لك يا قطتى ، إننى كنت حماراً ، لأننى لم أدرك أن أمن الدولة يتطلب تعذيبى . . وقد يتطلب تعذيبك أنت أيضاً ، ولا ينبغى لنا أن نشكو أو نتبرم . . فهذه الدولة التى عذبنا من أجل أمنها ونحن ابرياء كندى الفجر وابتسامة الطفل وأول خفقات القلب ، هى التى يقتحم جيشها المستحيل الآن ، لنعود كما يعود الصباح من بعد ليلة مظلمة . . طولها تسعة عشر عاماً ميلادياً ، إلى « أرض المعاد » : نأكل بر تقال يافا . . وتتنزه على شواطىء حيفا . . ونزور قبر الشيخ عز الدين القسام ، فنقرأ الفاتحة . . فما ابخسه من ثمن دفعناه لذلك الفرح الآتى . .

تلعلع الزغاريد الآن فى مخيمات اللاجئين يا قطتى ، تفرح بنات ولدن فى الغربة . . ويطمئن شيوخ أنهم لن يموتوا بعيداً عن ارض فلسطين . . وهذا الرجل الشامخ القوى الذى جاء من قرية بعيدة فى

صعيد مصر . حيث الشقاء والعناء والكبرياء وقوة التحمل ، ليكون كبرياءنا . . ويكون تحدينا . . ويكون صانع الأحلام المستحيلة . . ويوم خطب من شرفة ميدان المنشية « باسم الأمة . . تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية . . شركة مساهمة مصرية » فاشتعل الحماس حتى كاد القلب يتوقف عن الخفقان . . ويوم خطب على منبر الأزهر وأنا أستقبل سنوات المراهقة بصوت مشروخ فيه بحة من إصابة برد « سنقاتل . . سنقاتل . . » ويوم قال « لقد قامت دولة كبرى فى هذه المنطقة من العالم . . ليست عادية عليه ولا مستعدية . . دولة تصون ولا تبدد . . تبنى ولا تهدد . . » وكم كانت ساخنة تلك الدمعة التى ذرفها القلب ، وهو يختم خطابه قائلاً : « وستبقى الجمهورية العربية المتحدة . . رافعة اعلامها مرددة نشيدها . . اعان الله سورية الحبيبة على أمورها . . ووفق شعبها » . . أما حين اعلن أن الفقر لن يظل ارثاً والغنى لن يظل ارثاً ، فقد انهارت كل التحفظات وفى مقهى « ايزافيتش » بميدان التحرير ، حيث كنا نجتمع لنقرأ الكتب ونحب البنات وندردش فى القومية العربية ، ونكتب قصصاً لا يقرأها سوانا ، فكرنا فى أن نرسل له برقية نصها «رابطة ابناء المصابين بالبلهارسيا والانكلستوما منذ الجد السابع يؤيدون قراراتكم يا أعدل الناس » .

هذه ليلة للاعتراف يا قطتى . . وليلة للتكفير عن الخطايا القديمة ، حتى لو كانت صغيرة . . صحيح انى استريب فيك كما استريب فى قبلات حبيبتى . . وفى مودة أصدقائى ولا أضمن أن يستنطقك سوط عاصم الوكيل ، فتنسبين إلىّ ما لم أقله . . لكنى مخلص فيما أقوله الآن ، وأنا أسمع تلك الأناشيد التى تهز القلب ، وتضىء ظلام المدينة التى نفذت قيود الاضاءة بكل دقة . . وكلما بدا بصيص من ضوء من خصاص

نافذة صاحت أصوات من كل مكان : اطفى النور يا حمار . .وقد سكتت منذ العصر أصوات طلقات المدافع المضادة للطائرات . . ومعنى هذا أن الطائرات المغيرة قد طوردت وتساقطت . . ولماذا كفت البيانات العسكرية عن الصدور . . لا بد أنهم يعدون البيان النهائى بالوصول إلى تل أبيب . . وهذه النجوم التى تتناثر فى السماء المظلمة فوقى ، هل يراها المحاربون كما أراها الان ؟ . . وهل يراها اللاجئون الفلسطينيون فى المخيمات ؟ هل حزموا حقائبهم وجمعوا اثاثهم واستعدوا للرجوع كما يرجع الصباح من بعد ليلة مظلمة .

فيما بعد ذلك بسنوات ، عثرت على وصف لحالتى فى تلك الليلة البعيدة . . كتبه أحمد عبد المعطى حجازى فى المرثية الأولى للعمر الجميل .

كنت أحلم حينئذٍ . .
كنت فى قلعة من قلاع المدينة ملقى سجينا
كنت أكتب مظلمة .
وأراقب موكبك الذهبى
فتأخذنى نشوة . . وامزق مظلمتى
. . ثم اكتب فيك قصيدة . .
آه يا سيدى !
كم عطشنا إلى زمن ياخذ القلب
قلنا لك اصنع كما تشتهى
وأعد للمدينة لؤلؤة العدل
لؤلؤة المستحيل الفريدة
صاح بى صائح لا تبايع !

دق جرس التلفون . . عكر الظلام . . برقت عيون قطتي ، وقفت متحفزة . . قال صوت امرأة مجهولة :

ـ مبروك . . إذاعة اسرائيل تقول إن جيشهم قد حطم جميع المطارات العربية خلال الساعات الثلاث الأولى من بدء الحرب .

صرخت :

ـ إخرسي يا بنت الكلب !

واطبق الظلام .

فى اليوم الرابع من الحرب عثرت على « عبد الرحمن الأبنودى » فى منزله.فتح لى الباب وتركني ادخل ، ثم عاد ليستأنف نومه معتذراً بأنه لم ينم منذ ليلتين . وكانت أغانيه وأناشيده التى تدعو للحرب والضرب والقتال قد اختفت فجأة من الاذاعة . . فى الليلة السابقة . . كذلك اختفت النبرات الحماسية والخطابية فى صوت « أحمد سعيد » ثم اختفى هو نفسه ! .

وقبل أن أنام ، أذيع بيان قصير ، يعلن أن مصر قد قبلت بوقف اطلاق النار ، بناء على وعد فرنسي سوفياتى باعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ٤ يونيو ١٩٦٧ . . ودون تفكير أدرت مؤشر الراديو إلى اذاعة دمشق ، فإذا بالبيانات الحربية ، والمارشات العسكرية تتوالى فى الصدور ، يذيعها صوت جهورى مبحوح بالحماس للقتال ، فحمدت الله على انى عثرت على « أحمد سعيد » فى دمشق . . فلما عدت بمؤشر الراديو إلى القاهرة ، أدركت أن الخط الإعلامى قد تغير حين لم أجد أغانى الأبنودى وكمال الطويل وعبد الحليم حافظ . . وانساب صوت « المرحوم محمد فوزى » . يغنى اغنية وصفية شجية يقول مطلعها :

« وطني . . وصباى . . وأحلامى » . . استسلمت لها ، كما لو كنت استمع إلى جنائزية تودع ميتاً ! .

أدركت لحظتها ، إننى طوال الأزمة ، لم أفكر لحظة فى أن استمع إلى إذاعة العدو ، ولو لمجرد التأكد من صحة النبأ الذى بثته فى التليفون . تلك المرأة الشامتة المجهولة . . بأن كل شيء قد انتهى فهل كنت أخشى أن تنهار أحلامى قبل الأوان ؟ . . أم كنت أنفذ ـ بدقة ـ الوصايا العشر للأمن : التزم بقيود الإضاءة . . لا تروح الاشاعات . ولا تسمع اذاعات الأعداء ؟ ! فهل عرفوا هذا ودونوه ؟ . . أم أنهم لا يدونون فى تقاريرهم سوى الخطايا ؟ وهل يحق لى بعد هذا الالتزام الصارم بتعاليم الأمن . . أن استرد بطاقة هويتى التى صادروها . . بعد أن ضاع حلم قضاء الصيف على شطوط حيفا . . وذوى الأمل فى أن نقرأ الفاتحة على قبر الشيخ عز الدين القسام ؟ .

فى تلك اللحظة ، وقبل أن يسرقنى النوم ، كان « محمد فوزى » قد انهى انشودته الوصفية ، وكانت أم كلثوم قد بدأت تنشد قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » وحين سمعتها تقول : « أنا أن قدر الإله مماتى ـ لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى » ، فكرت قليلاً فى الاحتمال « تناولت مهدئاً . . ونمت نوماً غير هادىء » !

فى المقهى كان هناك ـ وعلى غير العادة فى هذا الوقت المبكر من الصباح ـ حشد من الأصدقاء يفركون عيونهم من آثار سهاد طويل ، وكانت ملامح الكارثة على وجوههم تشى بأنهم لم ينفذوا تعليمات الأمن كما فعلت ، فاستمعوا إلى إذاعات الأعداء ، وفقدت اذنى حذرها ،

فاستمعت إلى « الاشاعات » التى نقلوها عنها ، وأصابنى صمم مؤقت ، لا أدرى هل حدث بسبب حرص أذنى على تنفيذ تعليمات الأمن . . أم أن سببه كان بشاعة ما أسمع . .

وبدت لى حركة الناس الصامتة فى الميدان امامنا غريبة . . مركبات تسير ، وسيارات تعدو . . وأيد تشوح . . وأخرى تلوح . . وأفواه مفتوحة ، وشفاه متحركة . . لكن أحداً لا يقول شيئاً . . وفتحت الصحيفة أمامى لاقرأ الإعلان الرسمى عن وجود شواهد بتواطؤ أميركى وبريطانى مع اسرائيل ، وقلت شيئاً على أن صمودنا أمام ثلاثة جيوش ، بينها جيشان لدولتين عظميين ، ولمدة أربعة أيام كاملة ، شىء إيجابى يستحق الإعجاب ، وهزيمة مشرفة ، يمكن احتمالها دون احساس بالعار . . فلم ترد على سوى نظرات عيونهم ، وأدركت أن تعليمات الأمن قد احالتنى فى نظر الآخرين إلى أبله . .

فى تلك اللحظة ، قطع الراديو إرساله ليعلن أن قواتنا المسلحة ، قد عبرت إلى الضفة الغربية لقناة السويس ، فلفنا صمت عميق ، قطعه صوت يقول : لا يمكن أن نجلس هكذا على المقهى ، وقد أصبحوا على مبعدة مائة كيلو من المكان الذى نجلس فيه ؟! . وتتالت الاقتراحات : نتطوع فى المقاومة الشعبية ؟ ولكن قائدها زكريا محيى الدين كان على وشك السفر إلى واشنطن للتفاوض مع الرئيس جونسون لولا أنه أدرك العدوان . كم واحداً فيكم يعرف كيف يستخدم السلاح ؟ سلاحى ماركة شيفرز يكتب ثلاثين كلمة فى الدقيقة . أما أنا فأعرف كيف استخدم صواريخ باركر ٢١ المضادة للبلادة . أذكركم بأن القوانين المعمول بها تعاقب على حيازة السلاح أو التدريب عليه أو استخدامه

بعقوبة تصل إلى الاعدام . ولكن هذا قاصر على استخدام السلاح فى التآمر على نظامنا الثورى لحساب قوى رجعية . أو حتى لحساب قوى ثورية . المشكلة الآن اننى لا أحمل أية بطاقة تثبت هويتى فهل يستطيع مواطن لا يملك بطاقة هوية أن يشارك فى الدفاع عن الوطن .

غادرنا المقهى إلى حيث لا هدف . عبرنا شارع سليمان . اليوم هو الجمعة والمارة فى الشوارع قليلون والصمت مطبق . والهم زاعق . فى ممر فسيح بين بنايتين عثرنا بأول زحام بشرى نجده بعد اليوم الأول للحرب . كانوا قد افترشوا صحفاً وحصراً وبدأوا فى طقوس صلاة الجمعة . . همس واحد منا : تعالوا نصلى . . وبعد الصلاة نخطب فى المصلين ونقود مظاهرة وبماذا تقترح أن تطالب به هذه المظاهرة ؟ قال : استمرار الحرب ؟ لم استرح إلى الاقتراح ، قلت : الأفضل أن نتوجه إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى القريب . . نسألهم عما حدث . . ونستشيرهم فيما يجب عمله . . أليس هو الحزب الذى يضم تحالف قوى الشعب العاملة . . السنا من هذه القوى العاملة . قال : ولكنك أنت بالذات من قوى الشعب غير العاملة ، لأنك فصلت من عملك بقرار جمهورى . أفحمتنى حجته . لكن اقدامنا مع ذلك قادتنا إلى المبنى القريب . وهناك اكتشفت حلاً لحالة اللاهوية التى اصبحت فيها . . إذ سمح لى موظف الأمن بالصعود إلى المبنى ، بعد أن أقر اصدقائى ، أننى فى كفالتهم واعترفوا بأنهم يعرفوننى .

انتظرنا نصف ساعة حتى انهى مسؤول ما ، اجتماعاً كان يعقده ، واستقبلنا أخيراً ليسألنا : من أنتم ؟ وماذا تريدون قلنا : نحن تحالف قوى الشعب العاملة . نريد أن نذهب إلى الضفة الغربية إلى القناة . .

وقـد يكون الأفضـل أن نذهب إلى الضفـة الشرقيـة . . لا بد أن لـدى الاتحاد الاشتراكى ترتيباً ما للمقاومة.فى هدوء ادهشنا ، اندفع فى حديث طويل ، مؤكداً أن هناك بالقطع ترتيبات ، عديدة لهذا الذى نسأل عنه ، ولكن المهم أن نعرف هدف العدوان الرئيسى ، وأن نتصـدى الآن له ، وبعدها ستتوالى الخطوات ، وأضاف : إن هدف العـدوان كان إسقـاط القيادة الثورية للجمهورية العربيـة المتحدة ، هكـذا كان الاسم أيـامها ـ والتصدى المباشر له ، هو أن نتمسك بها . . وسوف تأتى ـ فيما يلى ذلك من أيام ـ ظروف سوف تتيح لنا أن نسترد أرضنـا ، ونستعيد حقنـا . . تماماً كما حدث فى عدوان ١٩٥٦ عندما انتهزنا فرصة التدخل السوفياتى فى المجـر ، ونجحنا فى تحـويل الهـزيمة العسكـريـة إلى نصر سيـاسى . . انسحبت من المناقشة مكتفياً بتأييد اسئلة أصدقائى الذين كانوا يتحدثون فى حماية ما يحملونه فى جيوبهم من بطاقات هويـة . . خشيت أن اقتحم المناقشة ، فيسألنى الرجل عن بطاقتى ، ويكتشف أنها صودرت ، فيلغى كفالتى ، وحين قال .

ـ عـلى أى الأحوال سيلقى الـرئيس عبد النـاصر بيانـاً مساء اليـوم فاستمعوا إليه . . وبعدها مروا علىّ لنبحث فى طلبكم ! .

ودعت أصدقائى . . وسرت قليلاً فى الطريق إلى منزلى . . لكننى لم أواصل السير . خشيت أن تسـألنى قطتى عن وعـدى بأن نقضى الصيف عـلى شواطىء حيفـا . . فانعـطفت إلى الشـارع الـذى يقـع فيـه منـزل عبد الرحمن الأبنودى . . وها قد مرت ساعاتان وهو نائم توافد اثناءهما الأصدقاء على البيت . . مع أن كلاً منهم كان قد غادرنى إلى منـزله . . جلسنا صامتـين ندخن . . ونحتسى القهـوة . . وحين استيقظ أخيـراً ، كان مجهداً ، وهو يروى قصة الأيام الثلاثة التى قضاها هـو وعبد الحليم

حافظ وكمال الطويل فى أحد استديوهات الاذاعة ، يؤلفون الأناشيد ويلحنونها لتغنى على الهواء مباشرة بعد أن يقدمها أحمد سعيد بخطبة عصماء .

وفجأة . . ودون سابق إنذار ، اندفع الابنودى يضحك ، واندفعنا خلفه نضحك ، وارتفعت قهقهاتنا وسط حطام الآمال التى كنا نجلس فيها . . فطبقاً لرواية الابنودى فقد كان أحمد سعيد فى تلك الأيام ، مركز اتصالات تلفونية شتى ، من جهات متعددة ، ومتناقضة الأوامر : المخابرات الحربية . . والشؤون المعنوية . . والقائد العام للقوات المسلحة . ووزير الإعلام . . وفى كل لحظة . . ومن كل جهة ، كانت الأوامر المتناقضة تأتى : أذع البيان رقم ٦ . . أوقف اذاعة البيان رقم ٦ . . عل النبرة . . هدىء النبرة . . هاجم اميركا وبريطانيا . . لا تذع البيانات السورية . . وهكذا . . وبسبب تناقض البيانات . . فقد كان أحمد سعيد يرتبك فينفذها خطأ . . فيعلو بالنبرة مع أن المطلوب تهدئتها . . أما أعجب ما كان فى مكتبه فى تلك الأيام فقد كان ممرضاً مهمته أن يحقنه فى العضل ، بحقنة يداوى بها بعض أمراضه ، حتى يتحمل ـ رغم المرض ـ المجهود الضخم الذى كان يبذله فى الصراخ والزعيق مستنفراً المقاتلين كى يحثوا السير فى الطريق إلى تل أبيب . . صارخاً بين كل بيان وآخر :

ـ اضرب يا أخى . . اضرب !

وما ان يترك الميكرفون وقد كاد يشتعل من سخونة كلماته ، حتى يسارع إلى الممرض الذى يقف فى ركن الاستديو مستعداً بالحقنة والمحقن ، فيشلح ثيابه لكى يضرب الحقنة فى عضله ، ويسارع ثانية إلى الميكرفون داعياً إلى مزيد من ضرب النار . . وليس ضرب الحقن !

في اللحظة التي انتهى فيها عبد الناصر من اذاعة بيان التنحى ، انطلقت أصوات المدافع المضادة للدبابات . . فملأت سماء المدينة . . وتعاونت مع المغزى العام للبيان فى اقناع الناس بأن كل شيء قد ضاع أما أنا فقد استسلمت تماماً لمشهد طلقات المدافع التى كانت تنثر شظاياها فى مسطح السماء امامى ، ورفضت كل محاولة لاقناعى بترك الشرفة حتى لا تصيبنى شظية طائشة . .

وأدهشني أن كثيرين فى الشارع تحت بصرى كانوا يفعلون ما أفعل . . وأن أحداً لم يفكر فى أن يستتر بمدخل بناية . . أو بحاجز من تلك الحواجز التى كانت قد ملأت الشوارع خلال الأسابيع الثلاثة الماضية . . قفزت قطتى على مقعد بالشرفة وأخذت تقلدنى . . وتنظر إلى ما أنظر إليه . . قلت :

ـ أنا آسف بوسى . . حدث تغيير طفيف فى برامج الصيف لهذا العام . . لن نذهب إلى حيفا . . فقد وصل الاسرائيليون إلى قناة السويس . . وسوف يصيفون على شاطئها . . فهل تعرفين وسيلة اعتذر بها لصديقى المرحوم عز الدين القسام ، لأننى لن أستطيع أن أقرأ الفاتحة على روحه .

نظرت إلى باحتقار . . وغادرت الشرفة . . بينما كان الحشد الذى اجتمع في الشارع ، قد كف فجأة عن النظر إلى السماء . . وارتفع صوته ينشد شيئاً سرعان ما تبينته . . كان نشيد الابنودى الذى وضع فيما بعد فى الأرشيف :

ـ ولا يهمك يا ريس . . م الاميركان يا ريس . . دا الصبر قاد حرايق . . جوة صدور الخلايق . . ما يصنع الحقائق إلاّ عبور المحال .

كان وقت طويل قد مضى منذ غير التلفزيون برامجه فجأة ، ودون تمهيد أو تفسير ليذيع آيات من القرآن الكريم . . وفى البداية ظننته أحد طقوس الاحتفال بليلة الاسراء والمعراج ، أما حين توالت السور والآيات دون أن يظهر مذيع الربط ، فقد تبادلت النظرات مع جارى ، وكان ضابط المعتقل ، سألته : أيه الحكاية ؟ فهز رأسه ورفع كتفيه عاجزاً عن الاجابة . . ثم أرسل أحد معاونيه إلى مبنى ادارة المعتقل القريب ، ليعود بعد قليل فيعلن أن كل محطات الاذاعة تذيع هى الأخرى آيات من القرآن .

غادرت مقعدى فى ملعب كرة السلة ، تلفعت بالغطاء الصوفى الذى كان يقينى لذعات برد الصحراء فى تلك الليلة من أواخر سبتمبر ١٩٧٠ . . وحثثت الخطو إلى الزنزانة : كان الزملاء فى حالة هدوء غير عادية واحد يقرأ ، وآخر يرفو ملابسه ، وثالث يدون حسابات معيشتنا المشتركة ، واثنان يشتركان فى تدخين سيجارة ، وواحد يغسل أوانى الطعام ، وواحد يصنع اطاراً بدائياً لصورة ابنته التى يعلقها إلى جوار الحشية التى ينام عليها .

لم يعلق أحدهم - بالاهتمام الواجب - على خبر التغيير المفاجىء لبرامج الاذاعة والتلفزيون وبدا كأن ملل السجن ورتابة أيامه قد افقدتهم أى أمل فى أن يحدث شىء مثير ، يغير ما كان يجرى . . جلست أتابع بعيونى ما يفعلون . . واذنى تتابع الأصوات الصادرة عن التلفزيون تسرى فى ظلام الليل وسكونه ، فى انتظار تفسير لما يجرى !

هل يأتى الصباح بيوم جديد ، يختلف عن ذلك اليوم الواحد الممتد بلا انتهاء الذى نعيشه منذ ثلاث سنوات ؟ . . فى البداية كنت احصى

زمن السجن بالساعة ، ثم أصبحت أعد ايامه باليوم ، وفى الشهر الثالث غيرت وحدة القياس إلى الأسبوع ، ثم الشهر ، فالعام . . ولم يبق إلاَّ اتخاذ « السنة الضوئية » وحدة لقياس العمر الذى يتسرب هنا ، بين جدران السجن ورمال الصحراء . . فما اشهى المودات التى كان يمكن أن أستمتع بدفنها . . ولولا أن الذى خسرناه لم يترك فى القلب مزيداً من الفواجع لتوقف عن الخفقان . . وفى صحراء كهذه الصحراء اصطادت طائرات العدو فى أيام الحرب الخمسة آلافاً من الجنود والضباط ، حيث لم يعرف أحد لهم قبراً ، ولم يقرأ أحد عليهم فاتحة . . ويوم تتالت الأخبار تزعق بما جرى . . وتتحدث عن طائرات العدو التى ظلت تطاردهم واحداً بعد الآخر فى مسارب الصحراء ، وهم يعدون بلا غطاء جوى ، ولا قيادة واطنان الأسلحة تنغرس فى الرمال . . اعدت . . بذهول ـ قراءة ما جرى منذ بداية الأزمة ، وخمشت بأظافرى جرحاً كان لم يزل فى القلب طرياً .

وذات صباح قرأت فى جريدتى أقوال متهم فى قضية محاكمة « مجموعة للمشير عبد الحكيم عامر » بتهمة محاولة الاستيلاء على القيادة العامة للقوات المسلحة ، فإذا به يقدم نفسه للمحكمة قائلاً : أنا الرائد فلان الفلانى مسؤول شؤون الأولاد بمنزل المشير ، وحدثنى صديقى عن قرار صدر أخيراً بتغيير الرتب العسكرية المصرية من « فريق » و « فريق أول » إلى « فكيك » و « فكيك أول » وأذاع ابن بلد لقيته فى أحد مقاهى الحسين ، سراً من أسرار الحرب ، فقال أن الرادار الاسرائيلى التقط فى اليوم الثالث للحرب اشارات غريبة ، شككته فى أن مصر تستعد لضربة عسكرية مضادة وكبيرة قد تقلب موازين الحرب ، فاستعان بالباخرة

الأميركية ليبرتى ـ التى كانت ترسو فى البحر المتوسط وتلتقط الاشارات اللاسلكية فى مسرح العمليات ـ لكنها فشلت فى تحديد نوع الطائرات التى تشير إليها شاشات الرادار ـ فاستدعت قيادة الجيش الاسرائيلى « كونتصلتو » من الخبراء العسكريين ظل يتابع الاشارات لمدة ساعتين ، ويجرى فحوصاً ويقارن ويعود إلى آخر المراجع العسكرية ، قبل أن يعلن رئيسه وهو يتنهد براحة :

ـ هذه الاشارات ليست اصوات طائرات . . ولكنها كركرة الجوزة التى يدخن فيها المشير عبد الحكيم عامر ومعاونوه الحشيش ، وهم يدخون الآن حشيشاً ماركة « انتصرنا » !

تتالت النكت بواقع ستين نكتة فى الدقيقة . . اتبع المصريون فى ظلام الهزيمة ـ اسلوبهم التاريخى الذى لم ـ ولن يتغير ـ ضحكوا وهم ينزفون حتى لا يموتوا كمداً . . واضطر عبد الناصر فى أول خطاب عام يلقيه بعد النكسة فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧ أن يناشدهم الكف عن التنكيت حتى لا يجرحوا من لا ذنب لهم ممن قتلوا فى الصحراء دون سبب ، وحتى لا يضعفوا معنويات الذين يقاتلون والغريب ، أن المصريين استجابوا لمناشدته فاختفت نكت الهزيمة ، كما اختفت أناشيد أيام الحرب ، وانتقل الاثنان إلى الأرشيف .

وكنت قد فقدت الأمل فى أن استعيد هويتى التى صادرها الرائد . . . « فتحى قته » فآلاف من القتلى اكلت جوارح الصحراء جثثهم دون أن تسألهم عن هوية . . ولا أمل فى أن أعود إلى عملى أو إلى أى عمل آخر ، ذوى كل احتمال أن أعود فانضم إلى تحالف قوى الشعب العاملة لأن أحداً لا يجد وقتاً للنظر فى مشكلتى البسيطة ـ وسط هول المأساة . .

اختفت صورة عبد الناصر الرسمية التى كانت ـ طوال السنوات السابقة ـ تحتل صدر جميع المكاتب الحكومية ، وكانت صورة جانبية ـ بروفيل ـ قاسية الملامح ، يحتل أنفه القوى معظم مساحتها ، لتحل محلها صورة منكسرة النظرات يختلط الشيب بفوديه ، وتبدو التجاعيد تحت عينيه .

فيما بعد وجدت صياغة اجمل لمشاعرى حين رأيت الصورة الجديدة ، فى المرثية الأولى للعمر الجميل ، التى كتبها الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ولعلى قد خاطبته ـ عبد الناصر ـ أيامها بنفس المعانى :

من ترى يحمل الآن عبء الهزيمة فينا
المغنى الذى طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه .
أم هو الملك المدعى أن حلم المغنى تجسد فيه . .
هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبى المنتظر .
أم خدعت بأغنيتى . .
وانتظرت الذى وعدتك به ، ثم لم تنتصر
أم خدعنا معاً بسراب الزمان الجميل !

وهؤلاء البشر حولى انماط غريبة من الناس فى الزمن الغريب ، أما أعجبهم على الإطلاق ، فهو بائع صحف شاب من أولاد البلد ، كان يلف طوال النهار فى فناء المعتقل وبين طرقاته وزنازينه ، يقضى لهذا بعض شأنه ويساعد آخر فى غسل ملابسه ، أو رفوها ويكتب اسم حبيبته طماطم على كل حائط بقطع من الكربون المتخلف عن حرق الأخشاب حتى على باب غرفة قائد المعتقل ، ويروى لكل من يسأله سبب اعتقاله الغريب ، ففى الأيام الأولى التى تلت اعلان الهزيمة ، سار فى الطرقات يبيع الصحف منادياً :

ـ الأهرام . . الأخبار . . اقرأ يا جدع أخبار جيشك اللى جرى . .

وظل يفعل ذلك رغم الانذارات التى وجهتها له سلطات الشرطة المحلية . . فاعتقلوه ليظل يهتف : حاسبنى ليه ولاد الـ« . . . » يا طماطم . . مع انى ما جريتش.وكان على فقره ومرحه ، شديد الاعتزاز بكرامته ، وذات صباح عامله أحد المعتقلين الأثرياء بخشونة،، وصفعه على وجهه ، وعند الظهر ترصد له فى إحدى نواصى الفناء ، ثم هاجمه بإحدى سكاكين المطبخ وطعنه طعنة غير قاتلة ، واندفع يجرى فى انحاء الفناء وهو يهتف : الله أكبر على دم الضحايا . . الله أكبر على دم الضحايا . . وبعد عشرة أيام جاءوا فأخرجوه من زنزانته الانفرادية وقادوه إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وهو يصرخ :

ـ أنا فى مستشفى المجانين ، يا طماطم . . نشوفكو هناك يا رجاله . .

أما الآن فلا جديد ، ولن يكون غداً يوم آخر . . بعد الشهور الستة الأولى قال عبد الناصر للأستاذ خالد محيى الدين ، الذى كان يتوسط لديه للإفراج عنى :

ـ ما تكلمنيش . . عن الجدع ده تانى . . مش ح يخرج من المعتقل إلاّ إذا أنا مت !

ليلتها تناولت حبتين منومتين ، ونمت حتى ظهر اليوم الثانى . . يبدو الرجل فى عنفوان قوته . . يعصانى قلبى أن تمنيت ـ أو تخيلت موته . . ولدينا فى برنامج الغد فصل من كتب « الثورة العرابية » الذى اشغل نفسى بتأليفه يحتاج إلى مراجعة ومن حسن الحظ أن النكسة أضافت إلى سكان المعتقل فريقاً مميزاً من المعتقلين ، هم اليهود ، وعرفت المنظمات الدولية طريقها إلى المعتقلات لتطمئن على حسن معاملتهم فتحسنت

المعاملة ، وكف التعذيب ، وأصبح من الممكن أن نقرأ وأن نكتب وأن نتفرج على التلفزيون ، مع ضابط المعتقل ، ولولا هؤلاء الشبان المجانين الذين احاطوا بالترام الذى كنت اجلس فى أحد مقاعده فى طريقى إلى بيتى ، فلربما كنت الآن حراً.كانوا يتظاهرون ضد الأحكام المخففة ، التى صدرت بحق المسؤولين عن نكسة الطيران فى الحرب وحين اوقفوا الترام الذى كنت استقله وأخذوا يهتفون فى وجه ركابه : يسقط كل مصرى جبان . . يسقط كل مصرى جبان . . اندفع الدم إلى وجهى ، وتملكنى الغضب ، شعرت بأنهم يوجهون هذه الاهانة لى ، فقدت حذرى . . وغادرت مقعدى لأنضم إليهم متظاهراً وبعد أسابيع كنت أعود إلى المعتقل ، الذى لم يكن قد مضى على مغادرتى له شهور .

فى تلك اللحظة ، كان صوت آيات القرآن الكريم ، قد توقف ، وسمعت صوتاً يخطب.غادرت الزنزانة اعدو . . إلى ملعب كرة السلة ، حين وصلت، كان أنور السادات يقول بصوت جهورى ، «رجل من أغلى الرجال وأعظم الرجال . . فقد انتقل إلى رحاب الله ، فى السادسة والربع من بعد ظهر اليوم الرئيس جمال عبد الناصر » !

بشكل ميكانيكى تماماً ، اندفعت اعدو مرة أخرى إلى الزنزانة ، كنت كما اكتشفت فيما بعد ـ أريد أن اجرى ، لأهرب من التفكير فى أى شيء ، وحين رميت نفسى لاهثاً على أول حشية بجوار باب الزنزانة ، معلناً الخبر للزملاء جمد كل شيء على حاله ، اليد التى كانت ترفو ، والكف التى كانت تمسك زهر النرد ، والسيجارة التى كانت تعبر الهواء بين الشريكين .

وتصاعد النشيج . .

اخفيت وجهى تحت غطائى . . وبكيت كطفل غادر حضن أمه .

فى اليوم الثانى . . كانت اجتماعاتنا قد أسفرت عن اتفاق على ارسال برقية تعزية فى جمال عبد الناصر ، إلى رئيس الجمهورية المؤقت أنور السادات وتناقشنا طويلاً فى النص ، وانتهينا إلى أنه لا بد وأن يتضمن ما يدل على أن التمسك بسياسته المعادية للامبريالية هو خير عزاء فيه . . وضعنا البرقية ، وحملتها بنفسى إلى قائد المعتقل ، طالباً ارسالها ، ودهشت حين أخذ يقرأها ببطء ، ويراجعنى فى الفاظها ، ويبدو متردداً فى ارسالها ، فما اكثر المرات التى ناقشنا فيها فى مناسبات عديدة ، طالباً أن نرسل برقيات تأييد لعبد الناصر وكنا نعتذر مؤكدين أننا لا نبدى آراء فى السياسة ونحن مقيدو الحرية . . وحين قال :

ـ ما بلاش . . حكاية التمسك بسياسته المعادية للامبريالية دى حد عارف اللى جاى مطرحه هيعمل إيه ؟!

تذكرت مقولة عاصم الوكيل . . لو عبد الناصر ما نجحش ليلة ٢٣ يوليو كان هيشرف فى الزنزانة دى . . وبصبر أخذت أناقشه ، فتعلل بأن لائحة السجون تمنع ارسال البرقيات الجماعية ، وطلب منا أن يرسل كل منا برقية باسمه ، وكان صبرى قد نفد . . فقلت له :

ـ إن الجميع يبكون الآن . . الصحف . . والاذاعة . . والسادات . . والبلد جميعها تبكى . . فمن سيتذكر وسط هذا الهول إنك خالفت لائحة السجون . . ولنفرض أن ذلك قد حدث . . وخصموا لك يوماً ، من مرتبك . . فإننى اتعهد بأن ادفعه لك من أماناتى المحفوظة فى خزينة السجن .

كف فجأة عن الحوار معى ، ثم طلب منى أن اترك البرقية وأعود إلى زنزانتى .

فى صباح اليوم الذى شيعت فيه جنازة عبد النـاصر هاجمت حملة من ضباط السجن زنزانتنا وفتشتها بدقة ، وصادرت كل ما كان بها من أوراق وممنـوعات ، وبعــد ساعـة عادت جميعهـا مـا عـدا كشكـول واحـد من مسودات كتابى عن « الثـورة العرابيـة » ومعها امـر رسمى بتوقيـع قائـد المعتقل يقضى بمعاقبتى بالحبس الانفرادى لمدةيومين ، لتأليفى ـ دون اذن رسمى ـ كتاباً عن « الثورة العرابية » .

وفى الزنزانـة الانفراديـة كانت اصـوات المشيعين المخنـوقة بـالبكاء تصلنى ، وأنا أنشد شيئاً كذلك الذى كتبه أحمد عبد المعطى حجازى فيما بعد :

هذه آخر الأرض
لم يبق إلاَّ الفراق
سأسوى هنا لك قبرا
واجعل شاهده مِزْقةً من لوائك
ثم أقول سلاما
زمن الغزوات مضى ، والرفاق
ذهبوا ،ورجعنا يتامى
هل سوى زهرتين اضمهما فوق قبرك
ثم أمزق عن قدمى الوثائق . .

(*) نشرت هذه اليوميات على أربع مقالات فى جريدة الوطن الكويتية الصادرة فى ٨ و ١٥ و ٢٢ و ٢٩ يونيو ١٩٨٧ فى ذكرى مرور ٢٠ عاماً على هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

الفهرس

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ الثورة العرابية : الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ ـ الطبعة الثانية دار المستقبل العربي ـ االقاهرة ١٩٨٢

٢ ـ حكايات من مصر الطبعة الأولى دار الوطن العربي بيروت ١٩٧٤

٣ ـ الإخوان المسلمون : مشكلة الماضي ومأساة المستقبل [دراسة نشرت كمقدمة للترجمة العربية لكتاب ريتشارد ميتشل « الاخوان المسلمون] ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة مدبولي : القاهرة ١٩٧٧ الطبعة الثانية ـ نشرت كفصل من كتاب « الكارثة التي تهددنا » ـ مكتبة مدبولي ١٩٨٧ .

٤ ـ البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة الطبعة الأولى دار بن خلدون بيروت ١٩٧٩ الطبعة الثانية مطبوعات الثقافة الوطنية القاهرة ١٩٨٠ .

٥ ـ مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا [رواية] الطبعة الأولى دار بن رشد بيروت ١٩٨٠ الطبعة الثانية [الكاملة] دار عيون الدار البيضاء ١٩٨٨

٦ ـ **فلسطين [الأرض والمقاومة]** [بالإشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداشي] الطبعة الأولى دار الفتى العربي بيروت ١٩٨١ الطبعة الثانية دار الفتى العربي القاهرة ١٩٨١

٧ ـ **محاكمة فؤاد سراج الدين باشا** (دراسة ووثائق) الطبعة الأولى مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٣ الطبعة الثانية مقدمة المؤلف لنصوص المحاكمة وقد صدرت مستقلة بعنوان « البورجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الحلبة » دار التنوير بيروت ١٩٨٢

٨ ـ **هوامش المقريزي (المجموعة الثانية من « حكايات من مصر »)** الطبعة الأولى دار القاهرة ١٩٨٣ .

٩ ـ **رجال مرج دابق (قصة الفتح العثماني لمصر والشام)** الطبعة الأولى دار الفتى العربي بيروت ١٩٨٣ .

١٠ ـ **مثقفون وعسكر (مراجعات وشهادات وتجارب عن حالة المثقفين في عهد عبد الناصر والسادات)** الطبعة الأولى مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٦ .

١١ ـ **الكارثة التي تهددنا** الطبعة الأولى مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٧ الطبعة الثانية دار عيون الدار البيضاء ١٩٨٨ .

١٢ ـ **تباريح جريح مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٨**

تحت الطبع

١ ـ أفيون وبنادق (ظاهرة العنف الجنائي والسياسي في مصر ـ نشرت مسلسلة بمجلة ٢٣ يوليو ـ لندن ١٩٧٩)

٢ ـ البرنسيسة والأفندي (قصة غرام الأميرة فتحية ورياض أفندي غالي) .

٣ ـ مأساة شكري مصطفى الحقيقية .

٤ ـ أسطورة فرج الله الحلو (وثائق التحقيق في قضية تعذيبه وقتله مع دراسة عن حملة عبد الناصر ضد الشيوعية) .

٥ ـ اغتيال مصطفى خميس (الصدام الأول بين البروليتاريا والعسكريتاريا) .

٦ ـ الصحافة المصرية في معركة الديمقراطية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤) .

٧ ـ خمسة وجوه لوعد باطل (قصة وعد بلفور ـ بالاشتراك مع جميل عطية إبراهيم)

٨ ـ بيان مشترك ضد الزمن (قصص قصيرة)

٩ ـ مذكرات عرابي باشا وأوراقه [تحقيق وتوثيق ـ ثلاث مجلدات] .

١٠ ـ عبد الرحمن الجبرتي : الانتجلنسيا المصرية في عصر القومية .

١١ ـ وثائق الحركة الشيوعية المصرية [المجلد الأول] .

١٢ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين [الجزء الثاني ـ بقية شهادات الشهود] .

١٣ ـ محاكمة فؤاد سراج الدين [الجز الثالث ـ مرافقة النيابة والدفاع] .

١٤ ـ حكايات من مصر ـ هوامش المقريزي : المجموعة الثانية .



"في هذه التباريح شيء من السياسة .. وبعض من الفكر ، ونماذج
من البشر .. وشظايا من الذكريات ، ونتف من القهقهات
وسكابات من الدموع والأوجاع ، معظمها مما يُضحك حتى تطرق
الدموع أبواب العين .. ويُبكي حتى يتذوق اللسان ملوحة الدمع ..
وقد يراها البعض سياسة خالصة ، وقد يعتبرها آخرون
أدباً خالصاً .. وقد لا ترضي هؤلاء ، ولا أولئك .. وهذا
حقهم الذي لا أنازعهم فيه ! . وفي هذه التباريح شيء
من المرارة ، وكثير من الغضب ، واحتجاج بمساحة العمر .. وحزن
بعمق الجراح الطرية التي مازالت تستعصي على الاندمال ، أعلق
مأساتنا جميعاً في رقبة الذين طاروا بأشواق جيلنا إلى ذرى الجبال ،
ثم ألقوا بنا بقسوة جلفة إلى جُبّ الهزيمة والانكسار .
لكنني - هذه التباريح - لا تسقط الضحكة ، من زمن الكوميديا
السوداء الذي نعيشه ، لذلك أهديتها لذكرى "ناجي
العلي" : ضحكتنا التي تشرق بالدموع .. ووجهنا الذي
لا يطيب"

صلاح عيسى ١٩٨٧

مكتبة مدبولي القاهرة